

لماذا الدين ضرورة حتمية؟

مصير الروح الإنسانية في عصر الإلحاد

تأليف البروفسور والناسك الروحي

د. هوستن سميث Huston Smith

أستاذ الفلسفة وعلم الأديان في عدة جامعات أمريكية

مؤلف كتاب «أديان العالم» الأكثر مبيعاً ورواجاً

تعريب وحواشي

سعد رستم

دار الجسور الثقافية





لماذا الدين ضرورة حتمية ؟

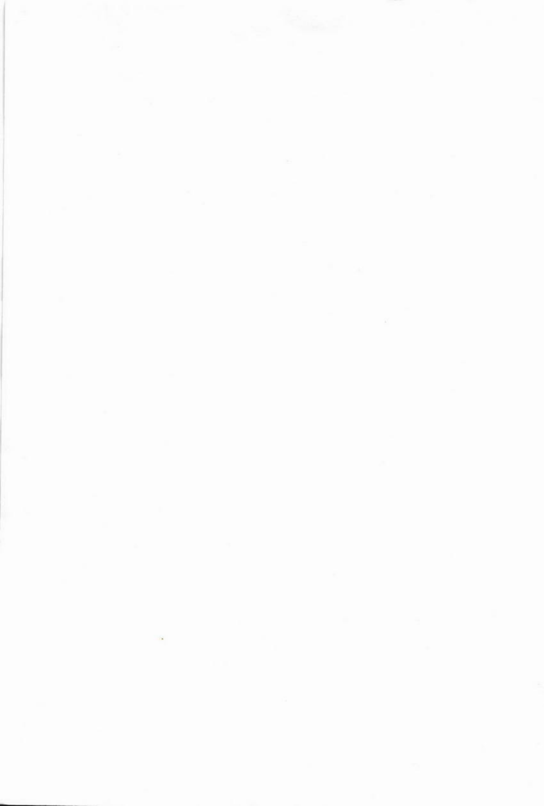
مصير الروح الإنسانية في عــصر الإلحاد

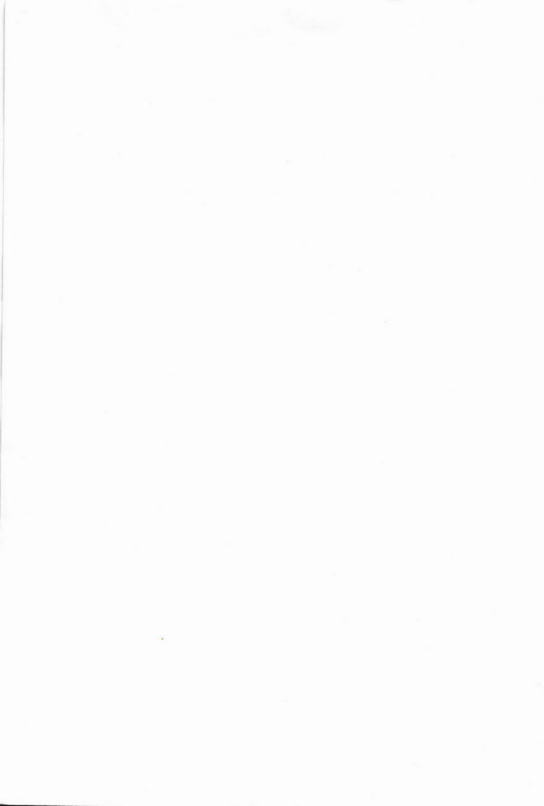
تأليف البروفيسور الأمريكي والناسك الصوفي

د. هوستن سميث

تعريب وحواشي وتعليقات

سعد رستم





مقدِّمة المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، سيدنا ونبينا وهادينا محمّد بن عبد الله الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه الميامين، وسائر الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم وسار على نهجهم إلى يوم الدين، وبعد، يقول سبحانه:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝ ﴾ فُصِّلَتْ/ ٥٢ – ٥٣.

منذ عصر النهضة وما تلاه من ازدهار كبير للعلوم التطبيقية، افتتن الكثيرون في الغرب بالانتصارات الهائلة للعلم وما أفرزته من تكنولوجيا ومنتجات قلبت وجه الحياة، فتصوّروا أن العلم سيكون بعد وقتٍ قريبٍ قادراً على أن يحلّ كلّ شيء، وأن لا حقائق خارج المختبر. لكن المتعمّقين في العلم كانت لهم دائماً وجهة نظر مختلفة، إذ عرفوا أن العلم يتحرك ضمن نطاقه الخاصّ المادي المحدود، في حين أن المعرفة نطاقها أوسع بكثير، فالعلم يصف لنا كيف تعمل الأشياء، ولكن ليس في مقدوره الإجابة عن العلّة الغائية من وجودها؟ ولماذا نحن هنا في هذا العالم؟ وما المراد من كل ذلك؟؟ كما أنه ليس في مقدوره تحديد القيم والمثل المعيارية والأخلاقية ولا يخبرنا بشيء عما وراء المحسوس، وهي أسئلة يرى مؤلف الكتاب أن أفضل من أجاب عنها هو الرؤيا التقليدية للعالَم كما هي في جوهر الأديان العالمية.

في هذا الكتاب يناقش البروفيسور الأمريكي الصوفي المشرب والدكتور في الفلسفة ((هوستن سميث)) ـ أستاذ الفلسفة وعلم الأديان في عدة جامعات أمريكية وصاحب كتاب ((أديان العالم)) The World's Religions الرائع والأكثر رواجاً[1] ـ الأزمة الروحية الحاضرة لإنسان عصر الحداثة وما بعدها، ويقدّم لنا دراسة نقديَّة فلسفيّة واجتماعيّة وعلم-نفسيَّة وتاريخيّة تشرح ملامح تلك الأزمة وما أنتجته من تصور مادي للعالم يقلص وجود الإنسان ويحرمه من كل أبعاده الروحية وما يتبع ذلك من اختناق روحي وفقدان للأمل وسيطرة للمادية والفردية والاستهلاكيّة والعُلمَويَّة والأنظمة القانونية المتنكّرة للقِيَم الدينيَّة

(١) بيع منه في أمريكا وأوروبا ما يربو على المليوني نسخة وقد ترجمتُهُ ونشرتُهُ قبل الكتاب الحالي.

والسياسات الحكومية المجرَّدة من المبادئ الأخلاقيَّة (خاصّة في وطنه الولايات المتحدة الأمريكية زعيمة الحضارة الغربيّة) مشبهاً ذلك "بنفق مظلم" حُبِسَ فيه إنسان الحداثة الفاقد للإيمان. ويتتبع المؤلف الأسس الفكرية والفلسفية التي يستند إليها هذا **المفهوم العلمي المادي للعالَم** فيفنِّدها تفنيداً علمياً غايةً في الموضوعية، ليقدِّم في النصف الثاني من الكتاب مؤيّدات **التصوُّر الديني للعالَم** من خلال عدة فصول يطرح فيها معلومات علميّة وفلسفيّة غاية في الروعة تدعم الإيمان بالله وبالروح وببقاء الوعي والحياة الشعورية بعد الموت، موضِحاً القاسم المشترك بين أديان العالم الكبرى في هذا الصدد، داعياً في مطلع الألفية الثالثة إلى مجتمع تُحترمُ فيه الروح الإنسانية وتُشجَّع لاستثمار إمكانياتها الرائعة كاملةً، وتلتقي فيه القوّتان الأقوى في التاريخ (الدِّين والعِلم) ليحلاّ خلافاتهما ويرسيا أصول التعاون والعلاقة المتبادلة بينهما، ويستمرُّ فيه الدِّين بلعب دوره الذي لا غنى للبشرية عنه، بوصفه المصدر الحيوي الزاخر للحكمة الإنسانية، والبوصلة الأخلاقية التي يجب أن تقود مسيرة حياتنا.

هذا وقد استشهد المؤلف في أثناء كلامه باقتباسات من كلام العديد من الشخصيات العلمية والأدبية والفلسفية، وأحال لكثير من التيارات الفكرية والفلسفية والدينية التي قد يكون بعضها مجهولاً لدى بعض القرّاء مما استدعى أن أعلّق حواشي مختصرة توضّح الشخصية المذكورة في المتن أو تشرح التيار الفكري أو الفلسفي المذكور، فحواشي الكتاب بأسرها للمترجم (كاتب هذه السطور) إذ لم يضع المؤلف في كتابه أيّة حاشية مطلقاً. ولمزيدٍ من الفائدة أضفت إلى آخر الكتاب ملحقاً كشّافاً بأهم المصطلحات الفلسفية والشخصيات والتيارات المذكورة فيه.

هذا ومما يجدر ذكره أيضاً أن المؤلف استطرد في بعض المواضع من كتابه بذكر أمور اجتماعية أو قصص شخصية لا علاقة لها مباشرةً بموضوع الكتاب ولا تهمّ القارئ العربي فآثرت حذفها طلباً للاختصار، وقد حاولت جهدي أن تكون ترجمتي بعيدة عن الحرفية سهلة المنال، **ولو أدى بي ذلك إلى التصرف وتغيير الأسلوب تماماً في بعض المواضع** - مع الاحتفاظ بالمعنى بكل دقة - **حرصاً على إيضاح أفكار المؤلف بلغة عربية سلسلة.**

هذا ما أردت ذكره في هذا المقام وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

سعد رستم

حلب: ١ / تموز /٢٠٠٥

مقدِّمة المؤلِّف

كنت سأضع هذه الصفحات في آخر الكتاب لولا أنني رأيت أن الابتداء بها هنا قد يزيد من فرصة إصغاء القارئ لكلامي.

أعتقد أنني أملك نافذةً أخرى على العالم، نافذةً تمكنني من رؤية أشياء لا يراها الآخرون. لقد ولدت في أسرة مفعمة بالعطف والحنان، كرَّس والديَّ فيها حياتهما لأسمى ما أمكنهما أن يرياه من هدف: أن يكونا مبشرين في الصين. كانت التضحيات متوقعة. كانوا على ميعاد معها في الصين التي كانت الأمراض تجتاحها في ذلك الزمن. لفظ ابنهما الأول أنفاسه بين ذراعيهما عشية عيد الميلاد (الكريسماس) الثاني من حياته.

قام والديَّ في الصين بأمرٍ رائعٍ. لم يكن هناك تعليمٌ للبنات في المدينة التي اختاراها للعيش، لذا كان أول ما فعلاه، إنشاءَ مدرسةٍ للبنات، أصبحت اليوم أهم مدرسةٍ ابتدائيةٍ مختلطةٍ في القرية.

أهم ما ورثتُهُ من والديَّ: الإيمان الذي جعل منِّي - في متوسّط أحوالي - إنساناً واثقاً. يمكن بيان سبب هذه الثقة ببساطة: إنَّ الإيمان يجعلنا نعلم أننا في أيدٍ خيِّرةٍ أمينة، واعترافاً منا بهذا الجميل علينا أن نتحملٍ أثقال بعضنا بعضاً.

لدى عودتي إلى أمريكا، لأجل الدراسة الجامعية، حملت ذلك الإيمان الراسخ معي، فصارت حياتي الباقية كلها، كفاحاً متواصلاً لأجل الحفاظ على ذلك الإيمان سليماً لم يُمَسّ في مواجهة رياح الحداثة والعصرنة التي كانت تهاجمه بعنف. لو كانت تلك الرياح تحمل في طياتها الحقيقة، لكنت انحنيت لها وأذعنت، لكنني لم أرَها كذلك، ولأجل هذا أردت أن أوضح هذا الأمر في هذا الكتاب.

ينبغي أن يُقْرَأ كل ما في هذا الكتاب على ضوء الفقرات التي سبقت. وأريد أن أستفيد من هذه المقدمة أيضاً لأقول كلمةً حول عنوان الكتاب. لم يأت هذا العنوان لذهني إلا بعد

أن انتهيت من تحرير الكتاب، ثم أخذت أقرؤه مباشرة من جديد.

بما أنني ألفت الكتاب في مطلع ألفية جديدة، رأيت أن يكون العنوان الرئيسي للكتاب: "**الروح الإنسانية في الألفية الثالثة**"، لكي أفسح أمام نفسي مجالاً ملائماً للكلام الذي أنوي قوله فيه. ومن جهة أخرى بما أنني أردت أن أثبت في هذا الكتاب أنه يجب على روح الإنسان أن تتخلص من الرؤية النفقية للحداثة إذا أرادت أن تتقدم بنحو أفضل مما فعلته فيما سبق؛ كان أنسب عنوان فرعي للكتاب: جملة "**نورٌ في آخر النفق**" مع ترك علامة الترقيم في آخرها مفتوحة بوضع علامة استفهام أو علامة سؤال.

نظرة سريعة على فهرس محتويات الكتاب تبين التزامي التام - أثناء تأليفه - بذينك العنوانين الرئيسي والفرعي. لكنني عندما قرأت الكتاب بعد الانتهاء من تأليفه، رأيت أن هناك فَرَضيَّةٌ ملحةٌ وشاملة تشكل أساس التأريخ الثقافي والنقد الاجتماعي الذي يعالجه الكتاب وتمتزج معه. هذه الفرضية هي **أهمية البعد الديني في الحياة الإنسانية سواء على صعيد الأفراد أو المجتمعات أو الحضارات.**

نادراً ما قمت في هذا الكتاب بالبرهنة على صحة تلك الفرضية. إنَّ ما قمت به في الواقع هو توضيحها وشرحها. إن نجاح هذا الكتاب هو بمقدار ما استطاع أن يبين لماذا الدين مهمٌّ في حياة الإنسان.

هوستن سميث
بيركلي / كاليفورنيا
حزيران (يونيو) ٢٠٠٠

تمهيد

تعود أسباب الأزمة التي يمر بها العالم وهو يدخل الألفية الجديدة إلى أمور أعمق من طرق تنظيم الحياة السياسية والاقتصادية . إن الشرق والغرب يعانيان - كلٌّ بطريقته - من أزمة واحدة مشتركة سببها الحالة الروحية للعالم الحديث ، فقد اتسمت هذه الحالة الروحية بفقدان اليقين الديني وفقدان الإيمان بالسمو والتعالي على الوجود المادي Transcendence بآفاقه الرحبة الواسعة . وطبيعة هذا الفقدان غريبة ، لكنها - في النهاية - منطقية ومتوقعة . مع تدشين عصر **النظرة العلميّة البحتة** ، وبدء إحساس البشر بأنهم أصبحوا يمتلكون أسمى المعاني في العالم ويعرفون مقاييس ومقادير كل شيء ، بدأت المعاني بالانحسار ، وأخذت مكانة الإنسانية تتضاءل . **لقد فقد العالم بعده الإنساني** وبدأنا نفقد السيطرة عليه .

إنَّ ابتداء الألفية الجديدة مناسبةٌ ملائمةٌ للبدء بتأملٍ عميقٍ في هذا الوضع . الحركات التي سبقت التحوُّل الألفيّ ظهرت و انحسرت في تلك الجولة ، وهي تستحق منا لحظة تأمل قبل أن نرميها على الرف في جولتنا الجديدة في الألف سنة القادمة ! وقد رأى عالم الإنسانيّات (الأنثروبولوجيّ)[1] «فكتور تورنر» Victor Turner أن هذه الحركات تمثل بالنسبة للثقافات ما تمثله «طقوس الانتقال»[2] Rites of Passage بالنسبة للأفراد . إنها

---

(١) الأنثروبولوجي أي المتخصص بال "الأنثروبولوجيا" Anthropology أي علم الإنسان : علم يبحث في أصل الجنس البشري وتطوره وأعراقه وعاداته ومعتقداته .

(٢) طقوس الانتقال من مرحلة إلى مرحلة جديدة في الحياة Rites of Passage ، مراسم تشكّل معلماً لتقدُّم شخص من دور أو مرحلة في حياته إلى دور أو مرحلة جديدة أو انتقاله من وضعية اجتماعية حالية إلى وضعية اجتماعية جديدة . استخدم هذا التعبير أول مرة عالم الإنسانيات البلجيكي ((آرنولد فان غينيب)) Arnold van Gennep ، والتحولات الأساسية في الحياة هي الولادة ، والبلوغ ، والزواج ، والموت . كلّ تحوُّلٍ يتم "تعليمه" (أي تحديده) بفترة انتقالية تتضمّن طقوساً معيّنةً : إزالة الفرد من منزلته السابقة ؛ تعليق الاتصال الاجتماعي الطبيعي ؛ وإعادة الدخول إلى المجتمع ضمن المنزلة المكتسبة حديثا . تزوّد هذه العلميَّة الانتقالية الآخرين أحياناً بفرصة لتعديل وضعهم ليتكيفوا مع الحدث الجديد ، كما يحدث على سبيل المثال ، عند موت أحد أحبَّة الإنسان . وتظهر طقوس الانتقال في كلّ المجتمعات البشرية وتتضمّن نوعاً من الرمزيّة في أغلب الأحيان ، وتعيد تأكيد قيم المجتمع الخاصة .

تشير إلى لحظات تغيير وانتقال، تدعو أفراداً وجماعات إلى الارتباط بجذورهم الثقافية لكي يُعِدُّوا أنفسهم لاتخاذ الخطوة القادمة - التي غالباً ما تكون مخيفة - نحو المستقبل.

إذا أردنا أن نفهم هذه النقطة جيداً، ينبغي أن لا نفسِّر العبارات البلاغية لتلك الحركات تفسيراً حرفياً. بائع الصندويش الذي يقف بين لافتات تعلن أن النهاية أصبحت وشيكة، إنما يخبرنا بشيء هام، حتى ولو لم تكن النهاية مثلما يعتقده. إنه يعترض على ثقافتنا السائدة. إنه يشير - ولو بلغة متلعثمة - إلى وجود حياة سماوية تقدم لنا بديلا عن الحياة الأرضيّة التي تعاني دائماً من خلل ونقص عميقين.

وقد مَنَحَني هذا طريقة تفكير حول الكتاب الذي كتبته، لأنه فعلاً كتابٌ ينظر إلى الوراء إلى جذور الأجداد على أمل أن يساعده ذلك في فهم التشويش والإرباك الذي يتسم به عصرنا الحالي. الحقيقة أنه منذ قرن أو أكثر، طُرِحَ وكُتِبَ كثيرٌ من النقد الثقافي متَّبعاً نفس هذا الأسلوب، مما يجعل لزاماً عليَّ أن أوضح للقارئ السبب الذي دعاني أن أضيف كتاباً آخر لهذه المكتبة؟ أي باختصار ما الجديد في كتابي هذا؟

بكلمة واحدة: الجديد فيه هو التبسيط. طبعا هذا التبسيط ينطوي على مخاطرة الوقوع في التبسيط المبالغ به، وهي مخاطرة تَنَبَّهْتُ إليها وعملت على اجتنابها في كل صفحة من صفحات الكتاب. وتبسيطي هذا نابعٌ من كون فلسفة الحياة كانت أمامي واضحة وبسيطة تتلخص فيما يلي:

أولاً: لا يمكن للوجود الدنيوي (الأرضي)، بسبب محدوديّته وتناهيه، أن يشبع قلب الإنسان بشكل كامل. هناك في فطرة الإنسان توقٌ وتطلُّعٌ نحو "**الأكثر**". ولا يمكن لعالم الممارسات الحياتية اليومية أن يشبع هذا التطلُّع. هذا التطلُّع إلى ما هو أبعد مما يتيحه العالم الدنيوي، يوحي، بقوّة، بوجود **شيء** تحاول الحياة أن تصل إليه، تماماً مثلما تشير أجنحة العصافير لحقيقة وجود الهواء. تنحني أزهار عباد الشمس نحو الضياء لأن الضياء موجود، ويبحث الناس عن الطعام لأن الطعام موجود. قد يجوع بعض الأفراد، ولكن أجسامهم لم تكن لتمرّ بإحساس الجوع لو لم يكن في الوجود طعام يلبي هذا الإحساس.

إن الحقيقة التي تهيِّج شوق الإنسان إليها وتشبع روحه وتملؤها هي : الله ، أيًّا كان اسمه الذي تسميه به . ولما كان عقل الإنسان لا يستطيع حتى خلال سنين ضوئية ! أن يدرك طبيعة الله ، فإننا نحسن صنعاً باتباعنا لاقتراح ((رينر ماريا ريلكه))[1] Rainer Maria Rilke أن نتفكر بالله بوصفه اتِّجاهاً أكثر من تفكيرنا به ككائن . هذا الاتجاه هو دائماً نحو أفضل ما يمكننا أن ندركه ، على النحو الذي يؤكده المبدأ اللاهوتي للإسناد الوصفي الذي ينصّ على أنه : عندما نستخدم أفكاراً أو أشياءً من عالمنا الدنيوي لنصف بها الله ، فإن أوّل خطوة هي إثبات ما هو إيجابي فيها للّه ، والخطوة الثانية نفي ما هو محدودٌ متناه في تلك الأوصاف عن الله ، والخطوة الثالثة هي الصعود بالمعاني الإيجابية لتلك الأوصاف إلى الدرجة الفائقة (أي إلى أعلى نقطة يمكن لتصورنا أن يبلغها) . بهذا التمييز التام والجذري بين الله والعالم تنتهي أشياء أخرى إلى مواضعها المناسبة كما سيبيّنه هذا الكتاب .

أُضيفُ إلى هذه النقطة المتافيزيقية ، التي أراها بديهية ، الحقيقة التاريخية التالية : قبل أن يأتي عصر العلم الحديث ، كان الناس يعيشون ضمن الرؤية الكونية التي تتطابق مع الخطوط العريضة التي أشرنا إليها . رؤية تعددت طرق التعبير عنها ، إلا أنها واحدة في الخط العام . وجاء العلم ليستبدل تلك الرؤية التقليدية ، بالرؤية العلمية للكون . آخر صحفي أجرى معي حواراً قدم لي ملاحظةً فحواها أنني أبدو دائماً وكأنني غاضب من العلم . صححت له ملاحظته فقلت : أنا غاضب من أنفسنا ـ نحن الغربيون الذين تخلينا عن التفكير الصافي النقي ، وسمحنا لأنفسنا بأن نصبح مهووسين بالأسس المادية للحياة لدرجة جعلتنا نمنح العلم شيكا على بياض . لا أتكلم هنا على المال ؛ أتكلم على شيك على بياض بشأن دعاوي العلم المتعلقة بالمعرفة والاعتقاد الصحيح . هنا يدخل في الصورة تأثير العلم البحت ، وإن كان لمعجزات التكنولوجيا الحديثة التأثير الأهم لدى جمهور الناس .

---

(١) ريلكه ، رينير ماريا Rilke, Rainer Maria (١٨٧٥-١٩٢٦) ، شاعر وروائي نمساوي ألماني ، اعتُبر أحد أعظم الشعراء الحديثين وأكثرهم تأثيراً بسبب أسلوبه الغنائي ، والدقيق ، وصوره الرمزية ، وتأملاته الروحية . اعتبر الموت تحولاً للحياة نحو حقيقة باطنية غيبية تشكل مع الحياة وحدة كليّة واحدة .

هذا هو سبب أزمتنا الروحية. وهي تضاف إلى أزمات أخرى نعاني منها ونحن ندخل الألفية الثالثة: أزمة البيئة، أزمة الانفجار السكاني، أزمة اتساع الفجوة بين الفقراء والأغنياء، لكنها ليست من اختصاص هذا الكتاب.

بقي الآن أن أبين مخطط سير الكتاب: يتألف الكتاب من جزأين وخاتمة، ويتضمّن كلُ جزء عدداً من الفصول، أما الفصل الأوّل: فيقدِّم تمهيداً تاريخياً أتتبع فيه المراحل التاريخية الثلاث التي أوصلتنا للمرحلة الحاضرة، ملقياً الضوء على الإنجازات والإخفاقات في كل عصر. والفصل الثاني: يصف الأبعاد الروحية للعالم الذي كان يعيش فيه الناس قبل أن تحوِّلَهم القراءةُ الخاطئةُ للعلم الحديث - وأؤكِّد ثانية أن المتهم هنا ليس هو العلمُ ذاتُهُ بل سوء الفهم أو التفسير الخاطئ له - إلى **النفق (المظلم)**، وهي العبارة التي استخدمتُها كاستعارة رئيسة في هذا الكتاب. (لن يفوت القارئ مشابهتها لكهف أفلاطون)[1]. وصف هذا النفق المظلم وجوانبه الأربعة يحتل الجزء الأول من الكتاب.

أما الجزء الثاني من الكتاب فينظر للمستقبل الذي رمزنا إليه **بالنور في آخر النفق**. حيث تلامس فصوله الأولى بعض التنبؤات، ثم تستقر على مهمَّتها الأساسية وهي وصف ميزات ومعالم الرؤية الدينية الواسعة الثابتة غير المتغيرة. والاستراتيجية المتَّبعة هي المعالجة

---

(١) أسطورة الكهف The myth of the Cave استعارة استخدمها أفلاطون - في كتابه ((الجمهورية)) The Republic - لتوضيح نظريته الخاصة للمعرفة. تصف الأسطورة أو الاستعارة التشبيهية أفراداً حُبِسوا في غياهب كهف مظلم عميق مما جعل رؤيتهم معاقة ومحدودة جداً إلى درجة أنهم لم يكونوا قادرين على رؤية أحدهم الآخر. وكان الشيء الوحيد المرئي بالنسبة لهم هو حائط الكهف الذي تظهر عليه ظلال نماذج أو تماثيل الحيوانات والأشياء التي كانت تمر أمام نار مشتعلة مضيئة. تمكَّن أحد المحبوسين من الإفلات والفرار من الكهف وخرج إلى ضياء النهار، حيث رأى لأول مرة في حياته - بفضل نور الشمس - العالم الحقيقي وعاد مسرعا إلى الكهف يحمل رسالة يؤكد فيها لرفقائه أن كل ما كانوا يرونه في الكهف لم يكن سوى ظلال ومظاهر وأن العالم الحقيقي ينتظرهم في الخارج إذا كانوا مستعدّين للكفاح لأجل التحرر من قيودهم. بالنسبة لأفلاطون ترمز بيئة الظلال في الكهف إلى عالم الظواهر المادي the physical world of appearances، في حين يرمز التخلّص من أسر الكهف والخروج إلى عالم النهار المضيء بنور الشمس، الانتقال نحو العالم الحقيقي، عالم الوجود الكامل والتام، عالم الأشكال التي تكوِّن الموضوع الصحيح للمعرفة.

الواضحة والمباشرة. وبما أن التوقعات تنطوي على شيء من المصادفة والمخاطرة، فإن النتائج التي تعطيها تُعَدُّ قليلة القيمة. ولعلَّ أفضل طريقة استعداد للمستقبل هي أن يكون في حوزتنا خريطة واضحة يمكنها أن توجهنا في الطريق الصحيح، أينما استقر بنا الحال في المستقبل.

الجزء الأول

نفق الحداثة (المظلم)

أقدِّم بين يدي الجزء الأول من هذا الكتاب ثلاثة اقتباسات. وهي اقتباسات أطول مما كنت أرغب به لكنني رأيت من المفيد أن أنقلها بتمامها. ذلك أنه مهما كان رأي القارئ حول الأمور الاختلافية في الفصول القادمة، فإنه بعد مطالعته لهذه الاقتباسات الثلاثة، لن يبقى لديه أي إمكانية للشك في صحة الأسس التي بنيت عليها كلامي فيها.

الاقتباس الأول من كلام زميل لي، أثناء تدريسي في جامعة "سيراكيوز" Syracuse، هو عالم الاجتماع "مانفرد ستانلي" Manfred Stanley الذي يقول:

((... ثمة اعتلالٌ روحيٌّ يرافق عملية تحديث وعصرنة العالم، إنه مرضٌ أصبحنا نطلق عليه اسم "الانسلاب" (أو الاغتراب عن الذات) Alienation ... تشخيص هذا الاغتراب، في مستواه الأساسيّ، يرتكز على ملاحظة أن التحديث والعصرنة يفرضان علينا عالَماً ـ رغم إضفاء صفة الحقيقة عليه لأنه يعتمد على العلم – لا نلاحظ فيه أيّة خصائص إنسانية: مثل الجمال والبشاعة، الحب والكراهية، الرغبة والإشباع، الخلاص والدينونة. لم يدَّعِ أحدٌ طبعاً أن هذه الأمور ليست جزءاً من الحقائق الوجودية للحياة الإنسانية. كل ما في الأمر أن الرؤية العلمية للكون تجعل من غير المشروع التكلم على مثل هذه الأمور على أنها "حقائق موضوعية" في العالم، بل تفرض علينا أن نعرِّف مثل هذه التقييمات أو التجارب العاطفية بأنها مجرد تصورات "ذاتية" Subjective (غير موضوعية) نابعة من داخل الإنسان.))

يلتقط الفيلسوف وعالم الاجتماع "إرنست غيللنر" Ernest Gellner الكلام من حيث توقف «ستانلي» Stanley ليُقرّ أنه ليس لدينا الحق أن نتصور أن العالم في حدٍّ ذاته، هو كما وصفه «ستانلي». كل ما في الأمر أننا مكرهون قسراً على تصوره على هذا النحو لأن اهتمامات العالم الحديث تملي علينا القناعة بأن المعرفة "الحقة" هي فقط تلك التي تتعمق في قوانين الطبيعة وتزيد من قدرتنا على السيطرة عليها والاستفادة منها. وبعبارات "غيللنر":

((يعود الفضل للفيلسوف "كانط"[١] في ملاحظة أن هذا الإلزام "النظري- مَعْرِفيّ" ينبع من أنفسنا لا من الأشياء. كما رأى الفيلسوف "ويبر"[٢] Weber أن الذي خضع لهذا الإلزام، تاريخياً، هو نمط خاص من التفكير العقلي، وليس العقل الإنساني بحد ذاته..... لقد تعودنا على المعرفة "العملية" بل أصبحنا مرتبطين بها، وبالتالي قيدنا أنفسنا بهذا النوع من التفسير العملي... "التصغيرية أو التخفيضية" Reductionism هي ببساطة النتيجة الطبيعية، التي لا يمكن اجتنابها، لتصور أن كل شيء في العالم هو في الحقيقة شيء آخر، وأن هذا الشيء الآخر لا شخصيّ (موضوعيّ) Impersonal بنحو فاترٍ وعديم الاهتمام)).

---

(١) كانط عمانوئيل Immanuel Kant (١٧٢٤ - ١٨٠٤): فيلسوف ألماني. يعتبر أحد أعظم الفلاسفة في جميع العصور، و أكثرهم تأثيراً في العصر الحديث. قال بأن العقل البشري عاجز عن إدراك حقائق (الأشياء في ذاتها)، وأن كل ما نستطيع أن نعرفه هو ظاهرات ليس غير، لكن الإنسان يمكنه أن يكون متيقنا عقلياً مما يختبره بنفسه. أشهر كتبه: (نقض العقل المحض) Kritik der reinen Vermunfi (عام ١٧٨١) و (نقد العقل العملي) Kritik der Practishen Vermunfi (عام ١٧٨٨).

(٢) ماكس ويبر Weber, Max (١٨٦٤ - ١٩٢٠) عالم اقتصاد ومؤرخ اجتماعي ألماني اشتهر بسبب مقاربته العلمية المنظّمة لتاريخ العالم وتطور الحضارة الغربية. دمج "ويبر" اهتمامه بالاقتصاد بعلم الاجتماع وعارض نظرية ((الحتمية الاقتصادية)) للماركسية (التي ترى أن العامل الاقتصادي هو العامل الوحيد في صياغة أحداث التاريخ)، قائلاً، من خلال دراساته التاريخية، أن العقائد الدينية والأخلاق ذات تأثير هام أيضاً في صياغة أحداث التاريخ، وفي أحد أفضل أعماله المعروفة، ((الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية)) *The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism* (١٩٠٤-١٩٠٥ وترجم للإنجليزية عام ١٩٣٠)، حاول أن يثبت بأنّ المبادئ الأخلاقية والأفكار الدينية البروتستانتية كان لها تأثيرات قوية على تطور الرأسمالية.

يقرّ "غيللنر" Gellner أن نظرية المعرفة هذه، التي فرضتها تلك الاهتمامات المادية علينا، تحمل في طياتها نتائج أخلاقية خطيرة:

((يعود الفضل للفيلسوف "كانط" أيضاً في ملاحظة الثمن الذي لا مفرّ من دفعه لهذا الشراء لما اعتبر المعرفة الحقيقية (كذا). إن حَصْر الإدراك الصحيح بالأمور العملية فقط يستتبع تأثيره الأخلاقي الضمني وهو تجريد الإنسان من صفاته الإنسانية... إن ثمن ما أطلق عليه "المعرفة الحقيقية" هو أن رؤيتنا وفهمنا للأشياء لم يعودا يضمنان لنا هويتنا وحريتنا ونظم حياتنا. بل على العكس حكم علينا بأن نعاني من التوتر الداخلي بين الإدراك والهوية.))

و تصل «حنّا أريندت» Hannah Arendt بهذه الأفكار إلى نتيجتها الميتافيزيقية الطبيعية فتقول:

((لقد انتهى عهد التمييز بين الحسي وما فوق الحسي، وانتهى كذلك المفهوم، الذي يعود في قدمه لبارمينيدس[1] والذي يرى أن ما لا يأتي تحت الحواس... هو أكثر حقيقة، وأكثر واقعية، وأكثر معنىً مما يظهر للحواس، وهو ليس فوق إدراك الحواس فحسب، بل يسمو على عالم الحواس ... لقد حذرنا القلّة الباقية من المدافعين عن الميتافيزيقيا (ما وراء الطبيعة) بأصوات يزداد ارتفاعها يوماً بعد يوم، من خطر "العدميّة" الذي سيستتبعه هذا الانحدار في التفكير الإنساني. إن الإنسان الحسي.... لا يستطيع أن يستمر في الحياة مع إنكاره لما فوق الحسي (دون أن يؤدي به ذلك إلى العدميّة).))

أما وقد أصبحت هذه الأفكار، الآن، واضحةً أمامنا، فأهلاً وسهلاً بك أيها القارئ العزيز في نفق الحداثة المظلم.

---

(١) بارمنيدس Parmenides : فيلسوف يوناني من إيليا في جنوب إيطاليا ولد حوالي عام ٥١٥ قبل الميلاد، و من أقواله إنكار التبدل و الصيرورة و القول بأن الوجود واحد أبدي ثابت ساكن لا يتجزأ و لا يتعدد . .الخ

الفصل ١

مَنْ على حَقّ في معرفة الحقيقة: التقليديون[١]؟ أم الحداثيون؟ أم ما بعد الحداثيين؟

إن البشر على اختلاف أزمنتهم و أمكنتهم لا بدّ أن يواجهوا ثلاث حاجات أساسيَّة لا يمكنهم اجتابها: الأولى مسألة البحث عن الطعام والمأوى في بيئتهم المحيطة (مسألة تطرحها الطبيعة)، والثانية مسألة كيفية التعامل مع بعضهم البعض (المسألة الاجتماعية)، والثالثة مسألة كيفية إقامة علاقة بينهم وبين النظام الكلي للأشياء (المسألة الدينية). إذا بدت لنا المسألة الثالثة أقل أهمية من المسألتين الأخريين، فعلينا أن نذكِّر أنفسنا أن أقدم ما اكتشفه علماء الآثار من نقوش الإنسان هي النقوش ذات المحتوى الديني.

المسائل الثلاث واضحةٌ، ولكنها تصبح مثيرةً عندما نرصفها على الخط الزمني للمراحل الأساسية الثلاث للتاريخ البشري:

(١) **المرحلة التقليدية** التي كان للدين فيها السيطرة الرئيسية على الوسط الثقافي والتي امتدت **من فجر البشرية إلى عصر ظهور العلم الحديث**،

(٢) **مرحلة الحداثة** التي تبدأ من نهاية المرحلة السابقة لتستمر **حتى النصف الأول من القرن العشرين**،

---

(١) يستخدم المؤلف في كل كتابه تعبير "**التقليدي**" كمرادف لكلمة "**ديني**"، باعتبار أن كل المجتمعات **التقليدية** كانت **دينية**، وقد أشار المؤلف نفسه إلى هذا المعنى في الصفحات التالية.

(٣) **مرحلة ما بعد الحداثة** و التي توقعها الفيلسوف الألماني نيتشه[١] Nietzsche، لكنها انتظرت حتى **النصف الثاني للقرن العشرين** لتبدأ انطلاقتها.

صبَّت كل مرحلة من هذه المراحل التاريخية الثلاث اهتمامها الأساسي وصرفت أكبر طاقاتها على حل إحدى تلك المشكلات الثلاث بنحو أكثر مما بذلته لحل المسألتين الأخريين، وأحرزت إنجازات ناجحة في ذلك.

للعصر الحديث الفضل بمنحنا **"رؤيتنا العلمية للطبيعة"** Scientific Worldview، وهي رؤية سيستمر صقلها وتشذيبها بلا ريب، إلا أن هذا العصر أرسى أسس الفهم العلمي للطبيعة وبالتالي فهو صاحب الاستحقاق والجدارة في هذا الكشف.

وعالج **العصر ما بعد الحديث** مسألة " **فقدان العدالة الاجتماعية**" بشكل أكثر تصميما وجدية مما فعله الناس في العصرَيْن السابقَين. هذا يبقي أنماط " **تصوُّر العالَم**" Worldviews (أو "**مفهوم العالَم**")، (أي علم ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا Metaphysics)، وهو غير علم الكونيات Cosmology الذي ينحصر اهتمامه بالكون المادي التجريبي فقط)، لأسلافنا الماضين، حيث لم يُنْجَزْ فيما بعد أفضل مما أنجزوه على هذا الصعيد.

التمييز الذي ذكرته آنفاً بين علم الكونيات وعلم ما وراء الطبيعة ذو أهمية خاصة لهذا الكتاب، لذا سأتوسع فيه قليلاً: **الكوزمولوجيا** Cosmology أي علم الكونيات: علم

---

(١) نيتشه فريدريتش Nietzsche, Friedrich (١٨٤٤ - ١٩٠٠): فيلسوف وشاعر ألماني، وعالم لغوي كلاسيكي. كان أحد المفكّرين الاستفزازيين الأكثر تأثيراً في القرن التاسع عشر. أنكر البعث والحساب ودعا إلى نبذ العبادة، وانتقد المسيحية والأنظمة الأخلاقية لسائر الفلاسفة معتبرا إياها ((أخلاق عبودية)) لأنها تأسر أفراد المجتمع وتقيدهم بقيود أخلاقية شاملة. وطرح فكرة ((موت الله)) التي قصد منها موت المبادئ الأخلاقية التقليدية لأنها لم تعد مفيدة لحياة الناس فهي أخلاق استعباد أوجدها الأفراد الضعفاء والمستاؤون الذين شجّعوا سلوكيات مثل الشفقة والرحمة ونحوها لتخدم مصالحهم، وطرح نيتشه كبديل لتلك الأخلاق مبادئه الأخلاقية التي تعتمد على ما اعتبره الدافع الرئيسي لدى الإنسان ألا وهو الرغبة بالقوة التي توصل للإنسان القوي أو السوبرمان. تأثرت النازية بآرائه تأثراً كبيراً. أشهر آثاره: كتابه المثير للجدل (هكذا تكلم زرادشت) (٤ أجزاء عام ١٨٩٢).

يبحث في أصل الكون المادي - أو عالم الطبيعة كما يفهمه العلم - وبنيته العامة وعناصره ونواميسه، وهو يدخل في نطاق العلم. أما **علم ما وراء الطبيعة** Metaphysics فإنه يتعامل مع الوجود ككل، أي مع كل ما هو موجود سواءٌ أكان مادياً أم غير ماديٍّ. (سأستخدم في هذا الكتاب مصطلحات: **تصوُّر العالم (أو مفهوم العالم)** Worldview **والصورة الكبيرة** Big Picture كبدائل عن مصطلح **ما وراء الطبيعة أو الميتافيزيقيات** Metaphysics). بالنسبة للنظرة الكونية التي ترى أن الطبيعة Nature هي كل ما يوجد حقيقة في هذا الوجود فحسب، يكون علم الميتافيزيقيا متطابق مع علم الكونيات Cosmology. وفي هذه الحالة يطلق على الميتافيزيقيا: «**المذهب الطبيعي**» Naturalism.

هذا هو الإطار أو الهيكل التاريخي الذي سيسير عليه هذا الكتاب، وهدف هذا الفصل أن يتتبع ويكتشف ويفهم هذا الهيكل التاريخي. وبما أنني أريد الابتداء من **الطبيعة** Nature، ثم **المجتمع** Society، لأصل إلى **الصورة الكلية الكبرى** Big Picture، رابطاً كل موضوع من هذه المواضيع الثلاثة بالعصر الذي عالجه بنحو أفضل، لذا غيَّرْتُ ترتيب التسلسل الزمني التاريخي لهذه العصور. فابتدأت أولاً بالعصر الحديث ثم انتقلت للعصر ما بعد الحديث، وتركت العصر التقليدي لنهاية المطاف.

الإنجاز الكوزمولوجي (علم الكوني) للعصر الحديث:

تخبطت أوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر في طريق جديد للمعرفة، هو الذي اصطلحنا على تسميته بالمنهج العلمي. يتمحور هذا المنهج حول التجربة المحسوسة، وقد أعطانا هذا المنهجُ: «**العلمَ الحديث**». وإذا كان علم الطبيعة (أي العلم الذي يرتكز على التأمل الدقيق للطبيعة وقوانينها) قديماً قدم الجبال والهضاب، أو على الأقل قدم الفن والدين، فإن الجديد الذي أضافته التجربة الحسية هو البرهان. لقد أصبح بالإمكان تمييز الفرضيات الصحيحة من الخاطئة، وهكذا ظهر، لبنة لبنة، صرحٌ ضخمٌ من الحقائق العلمية الثابتة. عادةً ما نسمي هذا الصرح بـ"**التصوُّر العلمي للعالم**" Scientific Worldview، وإن كان الأدق أن نسميه الكوزمولوجيا العلمية (أي علم الكون المادي)، وذلك بسبب

غموض كلمة "**العالم**". نعم يمكن أن يسمى الصرح العلمي "**مفهومَ العالم**" فقط عند الذين يفترضون أن العلم يستطيع من حيث المبدأ أن يشمل كل ما هو موجود فعلاً. لقد أصبح علم الكون المادي جزءاً من حياتنا اليومية ومن الهواء الذي نتنفّسه حتى لم تعد هناك ضرورة لوصفه، ولكن مع ذلك سأشرحه بفقرة تكون مرجعا لنا فيما نتكلم عنه. قبل حوالي خمسة عشر بليون (مليار) سنة، حدث انفجار عظيم لكرة من المادة كانت مضغوطة بنحو هائل لا يمكن وصفه، وانطلقت مكونات تلك الكرة في رحلة لا تزال مستمرة إلى يومنا هذا. وبدأ يحصل التمايز بين العناصر عندما تحول الهيدروجين إلى العناصر المختلفة للجدول الدوري. وتجمعت الذرات في سحب غازية. وتكثفت النجوم من خيوط اللهب الدائرة حول نفسها، وانبثقت الكواكب من تلك النجوم لتصبح قطرات مصهورة نبضت ونمت وأصبحت مكسوة بقشرة صخرية صلبة. ولنقصر ملاحظتنا على الكوكب الذي أصبح فيما بعد مسكننا، فنراه ينمو ويُغَطّى بالمحيطات ويُغَلّف بالغلاف الجويّ. ثم بدأت المياه قليلة العمق (الضحلة)، قبل حوالي ثلاثة بلايين ونصف سنة، تتخمّر بمادّة الحياة، التي استطاعت أن تحافظ على وسطها الداخلي بفضل نزعة الهيموستازيا Homeostasis (التوازن البدني: نزعة إلى الحفاظ على التوازن بين مختلف العناصر المشكلة لجسم ما)، وتمكنت من التكاثر وإنتاج مثيلاتها. ثم انتشرت بذرة الحياة من المحيطات عبر القارات، وظهر الوعي والعقل. وظهر أجدادنا على مسرح الأرض قبل ملايين من السنين، ومن الصعب تحديد زمن ظهورهم بالضبط، لأن علماء المستحثات يعلنون كل سنة أنهم اكتشفوا مستحثات «تعود بتاريخ ظهور الإنسان إلى ملايين أخرى من السنوات قبل ما تصوروه من قبل!» كما تحب أن تعلنه تقارير صحفية مفاجئة يقطعون لأجلها نشرة الأخبار. لقد علّمُونا هذه النظرية منذ المرحلة الابتدائية فما بعد فألفناها وحفظناها جميعاً مما يغنينا عن الإطالة في توضيحها.

قصور علم الكون التقليدي

لا جدال في أن علم الكون العلمي أحال على التقاعد علم الكون التقليدي ذا أيام الأسبوع الستة لخلق الكون. من يمكنه مناقشة علم الكون العلمي بعدما أوصل الإنسان إلى

سطح القمر؟ كان أجدادنا فلكيين ممتازين ونستطيع أن نجلّهم بلا تحفّظ على ما توصلوا إليه من علم حول الطبيعة بحواسهم المجرّدة. وثمة نقطة أخرى: هناك مذهب طبيعي Naturalism في الطاوية، والزن بوذية، والرؤية القبائلية (القديمة)، تباري، بطريقتها الخاصة، علم الكون المادي الحسابي، ولكنها تبقى مذهباً طبيعياً للفنان وللشاعر ولمحب الطبيعة أمثال: لي بو[1] Li Po ووردسورث[2] Wordsworth وذوريو[3] Thoreau، لا لعلماء مثل غاليليو[4] Galileo وبيكون[5] Bacon. الفنيون والجماليون لا يدخلون في موضوع بحثنا. علم الكون الحديث يخرج من التجارب المخبرية لا من اللوحات الطبيعية.

نقاط ضعف علم كون عصر ما بعد الحداثة

بعد أن صار "علم الكون" التقليدي خارج السباق، جاء دور البحث في "علم كون" عصر ما بعد الحداثة. بما أن العلم تراكميٌّ، فإن هذا يقتضي أن يكون علم الكون في القرن الحادي والعشرين متطور عن علم الكون الذي كان في منتصف القرن العشرين، وهو، في جدولي الزمني، الوقت الذي أعطى فيه عصر الحداثة مكانه إلى عصر ما بعد الحداثة.

---

(١) لي بو Li Po (٧٠١ – ٧٦١) شاعر صيني شهير، يعد من أبرز الشخصيات في الأدب الصيني.

(٢) ووردسورث، وليام Wordsworth, William (١٧٧٠-١٨٥٠)، شاعر إنجليزي، أحد أكثر شعراء إنجلترا الرومانسيين براعة وتأثيراً. خلقت نظرياته وأسلوبه تقليداً جديداً في الشعر الإنجليزي.

(٣) ذوريو Thoreau, Henry David (١٨١٧ – ١٨٦٢): كاتب وفيلسوف أمريكي من أتباع المذهب الطبيعي الذي يرى أن الله كامنٌ في الطبيعة، ومن المؤكدين على أهمية الفرد والفردانية. فضل الذهاب للسجن عام ١٨٤٦ على أن يدفع الضرائب التي فرضت لأجل دعم حرب المكسيك، لرفضه مبدأ الحرب والعنف بشكل مطلق.

(٤) غاليليو غاليلي Galileo Galilei (١٥٦٤ – ١٦٤٢): فيزيائي وعالم فلك ورياضيات إيطالي. يعتبر في رأي كثير من الباحثين واضع أسس العلم التجريبي الحديث. صنع عدة تلسكوبات، واكتشف أقمار المشتري، ولاحظ كلف الشمس وطبيعة القمر الجبلية... وأيد نظرية كوبرنيكوس القائلة بأن الأرض وسائر الكواكب تدور حول الشمس، فنقمت عليه الكنيسة وحاكمته فاضطر، مرغما إلى إعلان تراجعه عن هذا التأييد.

(٥) بيكون، فرانسيز Bacon, Francis (١٥٦١-١٦٢٦)، فيلسوف ورجل دولة إنجليزي، أحد رواد الفكر العلمي الحديث. عالج في مؤلفاته تشكيلة واسعة من المواضيع بما في ذلك الأخلاق والفلسفة والعلم والقانون والتأريخ، بالإضافة لتسلُّمه مناصب سياسية حكومية لمدة طويلة.

ولكن التحسينات التي أضافها «علم كون» عصر ما بعد الحداثة، لم تؤثّر في الحياة أي تأثير يوازي ذلك التأثير الكبير الذي قدمه المدّ الاجتماعي لعصر ما بعد الحداثة، لذلك فإن جائزة الأوسكار يجب أن تقدم لـ «علم اجتماع» عصر ما بعد الحداثة لا لعلم الكون فيه.

سنناقش في المقطع التالي من هذا الفصل إنجازات عصر ما بعد الحداثة في الجبهة الاجتماعية، ولكن قبل ذلك لا بد أن أثبت قناعتي بأن علم عصر ما بعد الحداثة (أو على نحوٍ أدق: الفيزياء في عصر ما بعد الحداثة) لا يوازي فيزياء عصر الحداثة في مجال الاكتشافات. فهو لا يقدم شيئاً يباري نبوغ وإبداع علماء مثل ستيفن هاوكنغ[١] Stephen Hawking و فريد هويله Fred Hoyle وجون ويلر John Wheeler و فريمان دايسون[٢] Freeman Dyson و ستيفن وينبرغ[٣] Steven Weinberg وأمثالهم، بالإضافة إلى أنهم لم يكتشفوا شيئاً في الطبيعة يقارَن باكتشافات كوبرنيكوس[٤]

---

(١) ستيفن هوكنغ Stephen Hawking (١٩٤٢ -)، عالم فيزياء وعالم رياضيات نظرية بريطاني معاصر، ولد في أوكسفورد ودرس فيها، وأظهر نبوغاً لافتاً في الرياضيات والفيزياء، ركزت أبحاثه على طبيعة المكان والزمان، بما في ذلك الحالات غير القياسية للزمان والمكان حيث لا تنطبق قوانين الفيزياء الكلاسيكية، وقد كرّس معظم حياته لبسط نظرياته وجعلها سهلة الوصول إلى الجمهور من خلال المحاضرات، والكتب، والأفلام.

(٢) فريمان دايسون Freeman Dyson (١٩٢٣ -)، عالم فيزياء نظرية وعالم فلك، أمريكي معاصر، بريطاني المولد، تخرج من جامعة كامبريدج ثم انتقل إلى معهد الدراسات المتقدمة في جامعة برينستون في الولايات المتحدة. قدم أبحاثاً مفيدة جداً حول العلاقة والتفاعل بين المادة والنور، اهتم بالاستخدام السلمي للطاقة النووية وألّف في ذلك كتابه: «الأسلحة والأمل» Weapons and Hope (١٩٨٤).

(٣) ستيفن وينبرغ Steven Weinberg عالم فيزياء أمريكي معاصر حائز على جائزة نوبل. تخصص في الفيزياء النووية وطرح مع زميله عالم الفيزياء الباكستاني عبد السلام نظرية وحّدت جميع الحقائق المعروفة حول التفاعلات الكهرومغناطيسية والضعيفة بين الجزيئات الذرّية. وسميت هذه النظرية بفرضية التوحيد وثبتت صحتها لاحقاً بشكل تجريبي، خلافاً لعدد من الفرضيات البديلة.

(٤) كوبرنيكوس، نيقولاوس Nicolaus Copernicus (١٤٧٣ - ١٥٤٣): عالم فلك بولندي. يعتبر أحد علماء الفلك القلائل الذين تركوا أعظم الأثر في الحركتين العلمية والفلسفية طوال قرون متعددة. قال بأن الأرض وسائر الكواكب السيارة تدور حول الشمس وحول نفسها، وبذلك قلب معطيات علم الفلك القديم التي كانت تقول إن الأرض هي مركز الكون الثابت. وتعرف نظريته هذه ب (نظام كوبرنيكوس)، وقد شجبتها الكنيسة الكاثوليكية بوصفها مخالفة لنصوص (الكتاب المقدس).

Copernicus ونيوتـن[١] Newton وماكسـويل[٢] Maxwell و آينشـتاين[٣] Einstein وهيسـنبرغ[٤] Heisenberg وبـور[٥] Bohr وشـرودينغر[٦] Schrodinger وبـورن[٧] Born . أما في الكيمياء الجزيئية فـالأمر مختلف . فاكتشاف الـ "دنا" DNA يعتبر اكتشافاً مذهلاً وصاعقاً ولكنه ـ بكشفه لأمر يعود إلى عدة بلايين من السنين فقـط (في حين يعـود مـا يكتشفه علماء فيزياء الفضاء إلى بلايين السنين الضوئية من عمر الكون) ـ لا ينتمي إلى

---

(١) نيوتن، السير إسحق Sir Isaac Newton (١٦٤٣ - ١٧٢٧): رياضي وفيزيائي إنكليزي. يعتبر أبرز وجوه الثورة العلمية في القرن السابع عشر وأحد أعظم العباقرة في تاريخ العلم الحديث. وضع النظرية الجسيمية في الضوء. وقانون الجاذبية العام، وقوانين الحركة. من أشهر مصنفاته: (علم البصريات) Optics (عام ١٧٠٤).

(٢) ماكسويل، جيمس كلارك James Clerk Maxwell (١٨٣١ - ١٨٧٩): فيزيائي أسكتلندي. يعد في بعض الأحيان أعظم الفيزيائيين بعد نيوتن. عني بدراسة الكهرباء والمغنطيسية، ووضع النظرية الكهرطيسية في الضوء.

(٣) آينشتاين، ألبرت Albert Einstein (١٨٧٩ - ١٩٥٥): فيزيائي أميركي. ألماني المولد. يعتبر أحد أعظم عباقرة العلم في مختلف العصور. استقر في الولايات المتحدة الأميركية، عام ١٩٣٣ فرارا بنفسه من الحكم النازي. وضع نظرية النسبية. منح جائزة نوبل في الفيزياء لعام ١٩٢١ . من آثاره: (معنى النسبية) The Meaning of Relativity (عام ١٩٢٣) و(بناة الكون) Builders of the Universe (عام ١٩٣٢).

(٤) هيسنبرغ ويرنر Heisenberg, Werner (١٩٠١-١٩٧٦)، عالم فيزياء ألماني وحائز على جائزة نوبل في الفيزياء. لعب دوراً كبيراً في تطوير ميكانيك الكم الذي يصف المادة كجزيئات وكموجات معاً. أهم مساهماته في نظرية الكم هو مبدأ الحيرة (أو اللا يقينية) uncertainty principle، الذي ينص على أن الموقع الدقيق وسرعة الجزيئة لا يمكن التعرف عليهما كلاهما في وقت واحد، وأنه كلما حاولنا معرفة أحدهما بالضبط ازدادت الاحتمالات في معرفة الثاني!

(٥) بور نيلز Niels Bohr (١٨٨٥ - ١٩٦٢): فيزيائي دانمركي. يعتبر أحد مؤسسي الفيزياء النووية في العصر الحديث. وضع عام ١٩١٣ نظرية الذرة المؤلفة من نواة يدور حولها عدد من الإلكترونات في عدة مسارات. . الخ ساعد على تطوير القنبلة الذرّية في بريطانيا أولاً ثم بعد ذلك في أمريكا. منح جائزة نوبل للفيزياء لعام ١٩٢٢ .

(٦) شرودينغر، أرفين Erwin Shrodinger (١٨٨٧ - ١٩٦١): فيزيائي نظري نمساوي. أسهم إسهاماً بارزاً في وضع الأسس لميكانيكا الكم باكتشافه معادلتها الرئيسية؛ ومن أجل ذلك منح جائزة نوبل في الفيزياء (بالمشاركة) لعام ١٩٣٣ .

(٧) بورن، ماكس Max Born (١٨٨٢ - ١٩٧٠): فيزيائي إنكليزي. ألماني المولد. غادر موطنه الأول عام ١٩٣٣ إثر استيلاء النازيين على الحكم. عرف بأبحاثه في نظرية النسبية وفي نظرية الكم وفي تركيب الذرة. منح جائزة نوبل في الفيزياء لعام ١٩٥٤ (بالمشاركة).

أسس تكوين الطبيعة . إن الاكتشافات العلميّة لما بعد الحداثة اهتمت بالتفاصيل والغرائب (خلافاً لاكتشافات عصر الحداثة في الفيزياء: مثل قوانين الجاذبية وقوانين الديناميكا الحرارية ، والكهرومغناطيسية ، والنظرية النسبية ، وميكانيكا الكم ، التي ما نزال نستفيد منها في جعل المكّوكات تحلّق في الفضاء ، وفي فهمنا لكيفية سلوك الإلكترونات الساخنة في شبه الموصِّلات) . لم تنتج بلايين الدولارات التي أنفقت منذ منتصف القرن العشرين (وملايين الصفحات التي كتبت حول نظريات تغيرت وتبدلت ذهاباً وإيّاباً) أيَّ اكتشافات ذات أثر عمليٍّ ملموس على حياة البشر بنحو يُذكر. لقد كانت كلها في حقل علوم الماوراء ، في حقل فيزياء جزيئات الطاقة العالية والفضاء ، - والتي يفترض أنها حدثت في الثواني الـ ١٠ -٤٢ من بداية حياة الكون أو نحو ذلك - التي ليس لها أي ارتباط ملموس في حياة الإنسان كما لا يمكن دحضها أو إثباتها بالطرق العادية ، هذا رغم أن وسائل الإعلام تضخم من شأنها . وهذا ما سمح لكتل بناء الطبيعة - الجزيئات أو الخيوط أو أيا كانت - أن تستمر في التغير ، ويقل عمر الكون إلى النصف ثم يقفز إلى الضعف بين الوقت والآخر. إن ٩٩,٩٩٩ ٪ (حسب تقدير العالم راستوم روي Rustum Roy) من العلم لم يتأثر بهذه النظريات المتذبذبة للعصر ما بعد الحديث كما أن جمهور الناس لا يعيرون مصيرها اهتماماً يُذْكر.

علاوة على السبب الذي ذكرته أعلاه الذي يستدعي أن لا نعطي جائزة "علم الكون" إلى علماء العصر ما بعد الحديث ، هناك سبب آخر هو حقيقة أن أكثر علماء العصر ما بعد الحديث ضجةً وعلواً في الصوت ، شكك في فكرة الحقيقة نفسها بجعله ادعاء الحقيقة ليس أكثر من لعبة قوة. تقول هذه القراءة للمادة أنه عندما يزعم الناس أن ما يقولونه هو الحق ، فإن كل ما يفعلونه في الواقع ليس إلا ادّعاء منزلة لعقائدهم من شأنها أن تحسّن وتدفع إلى الأمام بوضعهم الاجتماعي. وهذا يجعل ، بنحو راديكالي ، كلّ التأكيدات العلميّة ، أموراً نسبيّةً ، مما يُقْصي حتّى إمكانيّة اقترابها من معرفة طبيعة الطبيعة نفسها.

كان أكثر الكتب المدرسية تداولاً في الجامعات والمعاهد ، طيلة الثلاثين عاماً الماضية ،

كتاب «بناء الثورات العلمية» لتوماس كُهْن[1] Thomas Kuhn ، وهو صاحب نظرية تقول إن الحقائق تأخذ معناها من المثال (النموذج) الذي تنشئه . هذه النظرية حوّلت الانتباه من الحقائق العلمية إلى النماذج العلميّة . وبما أنه لا يوجد معايير حياتية يمكن بالاستناد إليها الحكم على هذه النماذج ، فإن نظرية «كُهْن» تؤدي إلى نسبية في النماذج تضع علم (قبائل) «هوتنتوت»[2] Hottentot بمستوى مساوٍ لعلم نيوتن Newton . لقد أوضح «كُهْن» نظريته بنحو دقيق جداً يكفي لتفادي الوقوع بمثل هذه النسبية ، ولكن الواقع أننا حتى لو أخذنا تلك النظرية على أحسن معانيها الممكنة ، فإنها لا تقدم للعلم أيّة إمكانية للوصول إلى إدراك عميق لكُنْه الأشياء . وهذه النتيجة تنقص من منزلة المشروع من أساسه ، وهذا يعطينا سبباً آخر مؤيدا بقوة لعدم إعطاء علماء العصر ما بعد الحديث جائزة "**علم الكون**" . هذه الجائزة تستحقها القضايا الاجتماعية التي عولجت بنحوٍ متميّزٍ في ذلك العصر .

ثورة العدالة الاجتماعية في ما بعد الحداثة

الكلمة السحرية لعصر ما بعد الحداثة هي "**المجتمع**" . ليس هذا الأمر مفاجئاً . عندما نعتقد أنه لا يوجد شيءٌ وراء عالمنا الحاضر ، فإن كل ما يتبقى لدينا هو الطبيعة والمجتمع . أما الطبيعة فقد أصبحت من اختصاص الأخصائيين . ولم نعد نواجه الطبيعة مباشرة إلا نادراً . إنها تأتينا في الغالب عبر محلات السوبر ماركت ملطَّفةً بالمكيفات و وسائل التدفئة المركزية .

---

(١) كُهن ، توماس صموئيل Kuhn, Thomas Samuel (١٩٢٢-١٩٩٦) ، مؤرخ أمريكي متخصص في فلسفة العلوم Philosopher of Science ومساهم رائد في تغيير محور الفلسفة وعلم الاجتماع في الستّينات . أثار كتابه ((بناء الثورات العلمية)) The Structure of Scientific Revolutions (عام ١٩٦٢) - الذي شرح فيه تطور العلوم الأساسية الطبيعية - لغطاً وجدلاً واسعاً بين موافق ومخالف .

(٢) ((هوتنتوت)) Hottentot تعبير انتقاصي استخدمه الأوروبيون في جنوب أفريقيا لوصف قبائل السود التي تعيش على الرعي وتتكلم لغة (كهوا) Khoi . وكلمة ((هوتنتوت)) في الأصل كلمة هولندية تعني : ((الذي يتلعثم في كلامه ولا يجيد النطق)) ، وأصبحت كلمة يطلقها الغربيون على كل ما هو غير متحضر ومتخلف في علمه وعاداته التي غالبا ما تكون مختلفة جدا وتوحي بثقافة غريبة وبعيدة عن ثقافة الغرب والعالم المتحضر .

وهذا يجعل "المجتمع" المجال الوحيد الذي يضغط علينا مباشرة ويضع أمامنا شيئاً من الأمل بأن نجعل الأمور أفضل.

وهكذا تبدأ التغيرات. وربما لعب الشعور بالذنب في مرحلة ما بعد الاستعمار[1] دوراً ما هنا، وأصبحنا نرى أن هناك شيئاً كثيراً ينبغي فعله قبل أن نهنئ أنفسنا. يوضّح سردٌ سريعٌ لبعض التغييرات التي ظهرت في مدّة حياة فرديّة، أن المظالم الاجتماعية تُلاحظ وتُواجه اليوم بنحوٍ أكثر جدية وحماسةً مما فعله أسلافنا:

- عام ١٩١٩، عرضت حديقة حيوان مدينة "بروكلين"[2] Brooklyn، أمريكياً أفريقياً داخل قفص جنباً إلى جنب قرود الشامبانزي والغوريلات. مثل هذا العمل لو حدث اليوم لواجهه الناس في العالم بمنتهى الاستهجان والغضب العارم.
- أنجزت حركة الحقوق المدنية[3] التي انطلقت في الستينات كل أهدافها الرئيسية. واليوم يختلط الناس الذين ينتمون لأعراق وألوان مختلفة - في الولايات المتحدة وحتى في جنوب أفريقيا - في أماكن لم يكونوا قادرين على الاجتماع فيها من قبل: شواطئ البحار، وأطقم الطائرات... وفي كل مكان.
- في الثلاثينات إذا اقتربت سيارة أجرة في سان فرانسيسكو من موقف لا ينتظر فيه إلا الأمريكيون الصينيون، كان المعتاد أن يتجاوزهم سائق التاكسي ولا يقف لهم. أما الآن (بعد ٥٠ عاما) فإنني عندما تقاعدت من التدريس في جامعة بركلي في كاليفورنيا كان رئيس الجامعة المحترم جداً، أمريكياً صينياً يتكلم الإنجليزية بلهجة صينية.

---

(١) أي شعور الدول الغربية الكبرى وعلى رأسها الولايات المتحدة في عصر ما بعد الحداثة بالذنب بسبب الفجائع التي ارتكبتها خلال فترة عصر الحداثة بحق الشعوب المستضعفة والفقيرة مثل استعمار الهند ودول جنوب شرق آسيا وشمال أفريقيا وعمليات الإبادة بحق الأقوام الأصليين في كل من أمريكا الشمالية وأستراليا.. الخ

(٢) بروكلين Brooklyn اسم منطقة إدارية ضمن مدينة نيويورك.

(٣) حركة الحقوق المدنية: اسم يطلق على حركة النضال السياسية والاجتماعية والحقوقية التي انطلقت في أنحاء أمريكا في الخمسينات والستينات من القرن العشرين مطالبةً بإعطاء حق المواطنة الكامل للسود الأمريكيين وإنهاء كل شكل من أشكال التمييز العنصري، وكان من أبرز دعاتها القس الأمريكي الأسود الحائز على جائزة نوبل للسلام "مارتن لوثر كينغ" (١٩٢٩ - ١٩٦٨).

• ما من حرب في تاريخ أمريكا اعترض عليها مواطنو الولايات المتحدة بشدة وعنف مثل حرب فييتنام. وعندما ساءت الأمور بالنسبة للأمريكيين هناك، لدرجة جعلت بعض القادة العسكريين يشيرون على الرئيس "نيكسون" باستخدام السلاح النووي، رفض الأخير ذلك قائلاً: لو فعلت ذلك فسوف أواجه أمة كاملة تخرج إلى الشوارع.
• رغم حداثة الحركة النسائية وكون تاريخها لا يتجاوز طرفة عين، إلا أنها سجلت انتصارات باهرة مؤثرة. لم يكن لدى المرأة الأمريكية، حتى بعد زمن طويل من انتهاء الحرب الأهلية [(١)]، حقوق مدنية ولا حقوق قانونية ولا حق ملكية. وفي عام ١٩١٨ فقط، عدلت ولاية تكساس قانونها الانتخابي الذي كان ينصّ على أن لكل شخص الحق بالإدلاء بصوته ما عدا «البله والمعتوهين والأجانب والمجانين والنساء».
• لعل أهم تطور لاهوتي في الفترة الأخيرة من القرن العشرين كان بروز لاهوت التحرير [(٢)] الذي كان في طليعته النموذج النسائي ونموذج أمريكا اللاتينية.
• في خطوة لا سابق لها، صلى البابا لله، في مارس عام ٢٠٠٠، طالباً منه أن يغفر خطايا الكنيسة التي ارتكبتها ضدّ الشعب اليهودي وضدّ المحبّة والسلام وضد احترام الثقافات والأديان الأخرى وضدّ كرامة المرأة وضدّ وحدة الأعراق البشرية وضدّ حقوق الناس الأساسية. وبعد شهرين فقط، خرج ٢٠٠,٠٠٠ أسترالي في مسيرة حاشدة عبرت جسر "هاربر" Harbor في مدينة سيدني Sydney للاعتذار عن معاملتهم لمواطني استراليا الأصليين، في حين كان هناك علم كبير يرفرف في السماء فوق دار الأوبرا في سيدني كُتب عليه: "Sorry" أي عفواً.

---

(١) يقصد الحرب الأهلية الأمريكية التي اندلعت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بين الولايات المتحدة في الشمال والولايات الاتحادية في الجنوب واستمرت من ١٨٦١ إلى ١٨٦٥ وأودت بحياة ما يربو على ٦٠٠ ألف شخص، وكان سببها الرئيس رفض الجنوبيين الانصياع لقانون إبطال الرق وتحرير العبيد الذي سنّه الشماليون.

(٢) لاهوت التحرير Liberation Theology حركة لاهوتية دينية نضالية انطلقت في أمريكا اللاتينية ودول البحر الكاريبي في الستينات من القرن العشرين، ثوّرت دور الكنيسة بمناداتها بوجوب وقوفها إلى جانب المضطهدين في المجتمع. وقد أطلق تلك الحركة مجموعة من رجال الدين الكاثوليك الرومان في أمريكا اللاتينية، بتعاونهم وتفاعلهم من النخب المثقفة في بلدانهم في السعي والكفاح لإنهاء الظلم الاجتماعي والاقتصادي والاستبداد، وقلب البنية السياسية الفاسدة في دول أمريكا اللاتينية النامية.

قصور العدالة الاجتماعية في العصر التقليدي

إن علامات التطور على الصعيد الاجتماعي المذكورة أعلاه، تَظْهَرُ أكثر جلاءً عندما توضع إلى جانب عدم الاهتمام بتلك القضايا في العصور السابقة.

لا يوجد ما يدعو لتصوّر أن الناس في العصر التقليدي كانوا أكثر قسوةً منا، ولكنهم كانوا، بنحو عام، يرون أن مسؤوليتهم لا تتعدى أعضاء جماعتهم أو عشيرتهم القريبة: خذ مثالاً الـ «دانا» dana (التحف) في البوذية، و«كأس الماء الذي يُعطى باسمي» لدى عيسى (المسيح)، ونحوها. كان الناس يطعمون الجوعى عندما يصادفونهم وجهاً لوجه، ويكسون العراة كذلك ويعطون الأرامل واليتامى حاجتهم، ويرون أن واجبهم الإنساني ينتهي عند ذلك الحد. لم يكونوا يعتبرون المظالم التي تتخذ شكل مؤسسات (هذا إن لاحظوا ذلك النوع من المظالم) داخلة ضمن مسؤوليتهم، لأنهم كانوا ينظرون إلى تلك المؤسسات على أنها معيّنة من الله وغير قابلة للتبديل. كان الناس ينظرون لتلك المؤسسات كما ننظر نحن لقوانين الطبيعة، فهي معطاة لنا لنعمل بها لا لننتقدها.

غيَّر العصر الحديث هذا الموقف. أدّى ازدياد السفر وتوسع التجارة بين الناس والشعوب إلى الجمع بين أناس ينتمون لتركيبات اجتماعية مختلفة جداً، مما أظهر لهم أن تلك المؤسسات الاجتماعية - في النهاية - ليست منزّلة من عند الله مثل قوانين الطبيعة، بل هي من اختراع الإنسان وبالتالي يمكن نقدها. ووضعت الثورة الفرنسية هذه النظرة في اختبار تاريخي، حيث حطمت الحق الإلهي للملوك، وأنشأت مجتمعاً قائماً على الحرية والأخوّة والمساواة. لقد فشلت التجربة وكانت الحركة الارتجاعية فورية، لكن فكرة أن المؤسسات الاجتماعية قابلة للتطويع والتبديل، بقيت حية.

قصور ونقائص العدالة الاجتماعية في عصر الحداثة

يستحق عصر الحدثة الثناء على ذلك الاكتشاف (أي اكتشاف إمكانية تبديل المؤسسات الاجتماعية)، ويمكننا (إذا أردنا) أن نعذره على استفادته الفقيرة من ذلك الكشف، بأنه كان

منشغلاً بفكرة جديدة أخرى، ومع ذلك فإننا إذا نظرنا إلى السجل الاجتماعي للعصر الحديث بمعايير عصر ما بعد الحداثة وجدناه سجلاً تعيساً بائساً.

لقد أخفى عصر الحداثة استعماره تحت ذريعة أن «الرجل الأبيض يجب أن يحمل على عاتقه» عبء مدِّ يد العون إلى «الأعراق البشرية ذات المرتبة الأدنى التي تعيش بلا قانون»، فقام باغتصاب آسيا وأفريقيا وبلغ الحضيض في ممارسته لحروب الأفيون في عامي ١٨٤١-١٨٤٢، التي انتهت بإخضاع كل العالم المتمدن إلى السيطرة الغربية. كثيراً ما يُمْدَح الفيلسوف ديفيد هيوم[1] David Hume بأنه كان يملك أصفى عقل من بين جميع الفلاسفة الكبار، ولكنني قرأت أنه كتب في أحد مراسلاته (لم أتمكن من مشاهدة هذه الفقرة بنفسي) أن «أسوأ إنسان أبيض أفضل من أحسن إنسان أسود». وشاهدت بنفسي إعلانات لصقت في حدائق تابعة لمستوطنات دولية بمدينة "شانغهاي" كُتبَ عليها «لا يسمح بدخول الكلاب ولا الصينيين»، وذلك عندما كنت أدرِّسُ في المدرسة الثانوية هناك. أما الولايات المتحدة، فإنها باغتصابها لقارة عذراء، لم تكن في حاجة لمزيد من المستعمرات، إلا أن ذلك لم يمنعها من صيد وإبادة الأمريكيين الأصليين ومن مواصلة مؤسسة الرق (استرقاق العبيد) ومن إلحاق جزر "بورتوريكو" Puerto Rico و"هاواي" Hawaii، ومن تأسيس محميات (دول ضعيفة تابعة) في الفيليبين وفي مناطق أخرى.

بعد أن عالجت موضوع «**الطبيعة**» و«**المجتمع**»، أنتقل الآن إلى القضية التي لا مفر للبشر من مواجهتها وهي «**تصور العالم**» أو «**الصورة الكلية**» The Big Picture.

---

(١) هيوم، دايفيد Hume David (١٧١١ - ١٧٧٦): فيلسوفٌ ومؤرِّخ ومنظِّرٌ سياسيٌّ اسكتلنديٌّ من "أدنبره". طوّر المنهج التجريبي لـ "جون لوك" إلى شكٍّ أو لا أدرية مطلقة Skepticism وأنكر قانون السببية وبالتالي أنكر القوانين العلمية، وأنكر وجود النفس الفردية. وقال بأن التجربة والاختبار العملي مصدر المعرفة كلها، وبأن وجود الله وطبيعته وأصل الكون أمور لا سبيل إلى معرفتها، لأنها خارج التجربة والاختبار العملي. من أشهر آثاره: بحث في الفهم البشري An Inquiry Concerning Human Understanding (عام ١٧٤٨).

التصور (المفهوم) التقليدي للعالم

قصور «علم ما وراء الطبيعة» (الميتافيزيقا) في عصر الحداثة

يتصف علم ما وراء الطبيعة في العصر الحديث بالضآلة والضعف، بسبب الافتتان الشديد بإنجازات العلم الحديث إلى الحدّ الذي رُفعَ معه المنهج العلمي إلى مرتبة: «**طريقتنا المقدَّسة للمعرفة**» كما سماه "ألكس كومفور" Alex Comfort[1]. وبما أن ذلك المنهج لا يسجل أي شيء ليس له مكونات مادية، فقد تم إسقاط الحقائق غير المادية من الرؤية ثم (عندما ازداد الموقف تصلّباً) جحدنا وجودها من الأساس. وهذا ما أطلقنا عليه ـ في التمييز الذي أشرنا إليه أول هذا الفصل ـ عملية تحويل الميتافيزيقا «علم ما وراء الطبيعة» إلى الكوزمولوجيا (علم الكون).

عندما افتتح "كارل ساجان" Carl Sagan حلقاته التلفزيونية "الكون" Cosmos بإعلانه أن «**الكون هو كل ما يوجد الآن وكل ما كان موجوداً منذ الأزل وما هو موجود إلى الأبد**» قدَّم للناس افتراضاً بدون حجّة أو برهان وكأنه يعرض حقيقةً علميّةً. إن "**الصورة الكليّة**" في العصر الحديث هي **المادية** (أو بعبارة أقرب للقبول) هي الطبيعية التي تعترف بوجود أمور غير مادية ـ كالأفكار والمشاعر ـ مع الإصرار على أن مثل هذه الأشياء تعتمد كلياً على المادة. وكلا النمطين من المادية يصبحان قزمين عندما يقارنا بالتصور والمفهوم التقليدي (الديني) للعالم. ومن المهم أن نفهم جيداً هنا أنه لا يوجد أي اكتشاف علمي يفرض المادية أو الطبيعية كحقيقة علمية فعلية، بل لقد انزلقنا إلى هذه المواقف الميتافيزيقية الضعيفة جداً لأسباب نفسية لا لأسباب منطقية.

---

(١) أستاذ جامعة إنجليزي حالي في جامعة لندن.

قصور ونقاط ضعف «علم ما وراء الطبيعة» في عصر ما بعد الحداثة

أما بالنسبة لعصر ما بعد الحداثة، فقد انطلق رافضاً وجود شيء اسمه "**الصورة الكليّة**" من الأساس.

ابتدأ عصر ما بعد الحداثة بداية موفقة عندما انتقد الرؤيا المبتورة للعالم لعصر التنوير، ولكنه اندفع بتهور من تلك البداية المنطقية إلى استنتاج غير منطقي هو أن التصوّرات المتنوِّعة للعالم Worldviews (و الذي كثيراً ما يطلق عليه اسم القضايا الكبيرة) مفهومٌ ضالٌّ من حيث المبدأ. في كتابه «حالة ما بعد الحداثة» The Postmodern Condition يذهب «جان فرانسوا ليوتارد»[1] Jean Francois Lyotard - في تصويره للعصر ما بعد الحديث - بعيداً إلى درجة تعريفه ذلك العصر بأنه «**عصر الشك بكل القصص الماورائية**» (عبارة مرادفة عنده للميتافيزيقيات).

يأخذ هذا الشك ثلاثة نماذج تزداد حدّتها بشكل متصاعد كلما تقدَّمْتُ إلى الأمام. الأول: نموذج خط الاعتدال في عصر ما بعد الحداثة، الذي قَنِعَ بالإشارة إلى أننا لا نملك اليوم تصوُّراً كليّاً للعالم مجمعاً عليه، «ليس عندنا خرائط للعالم ولا نعرف كيف نصنعها». والثاني: نموذج الخط الرئيسي لعصر ما بعد الحداثة، الذي يضيف: «ولن نملك بعد ذلك أبداً أي تصور مجمع عليه للعالم كالتصور الذي ساد في القرون الوسطى، أو في العصر الإليزابيتي في إنجلترا، أو في القرن السابع عشر لإنجلترا الجديدة؛ إننا ندرك الآن جيداً كم هي ضئيلة وضعيفة قدرة العقل على المعرفة». والثالث: هو الخط المتشدد لعصر ما بعد الحداثة الذي يصل بهذا المسار إلى حدوده المنطقية عندما يضيف: «و نِعْمَ التخلُّص من هذه القضيَّة!». يقول علماء ما بعد الحداثة - بتعبيرهم الاصطلاحي الذي يغرمون به -: إن

---

(١) جان فرانسوا ليوتارد: وزير الثقافة الفرنسي في الثمانينات (في عهد ميتران). كان ليبرالياً متطرفاً في التحررية.

تصورات العالم «**تعطي تصوُراً واحداً كلّياً**» مما يجعلها «تهمّش» وجهات نظر الأقليّات، لذا فهي مفاهيم ظالمة من حيث المبدأ وبالتالي يجب مقاومتها بعنف.

لو كان الخط المتشدِّد لعصر ما بعد الحداثة دقيقاً في هذا الاتهام لأوقف مسيرة الكتاب في أرضها، ولكنه لم يستطع أن يثبت أنه دقيقٌ فعلاً، إنه يفترض أنه دقيقٌ، مجرّد افتراض فحسب، وهو يستند في دعواه هذه على أمثلة عن الظلم صحيحة بحدّ ذاتها، لكن الذي لم يبرهن عليه هو استحالة وجود مفهوم للعالم يتبنى أساساً حقوق الأقليات كبناء أساسي فيه[1]. وهنا ثمّةَ مفارقةٌ عجيبةٌ، فعصر ما بعد الحداثة الذي يريد أن ينفي إمكانية وجود تصور شامل للعالم ذي طابع إنساني، هو نفسه يعمل على خلق مثل هذا التصور للعالم من خلال ثورة العدالة الاجتماعية، أي إصراره على أن يُعطى كل إنسان حقَّه العادل والمتساوي من طيبات الحياة. على أن الحقيقة الأعمق هي أن امتلاك أو عدم امتلاك تصوٌر شامل للعالم Worldview، ليس خياراً، لأن الرؤيا المحيطية الخارجية Peripheral Vision تكيِّف دائماً رؤيتنا البؤريَّة، ولا يوجد لـ «الرؤيا» المفاهيمية طريق مختصرة (أي لا يمكن تجاوز الرؤيا أو اجتنابها)[2]. الخيار الوحيد الذي نملكه هو إمَّا أن نكون عالمين بشكل واعٍ بتصوراتنا للعالم ونَنْقُدُها حيثما كانت في حاجة للنقد، وإمَّا أن نترك تصوراتنا للعالم تعمل فينا دون أن نَتَنَبَّهَ لها ولانلاحظ عملها، ونستسلم لمنهج حياة غير مُدَقَّق.

وبعامَّة، لم تستطع الحداثة و لا ما بعد الحداثة أن تعالج قضية "ما وراء الطبيعة" بصورة جيِّدة. وبالطبع لم نذكر بعد ما يثبت أن العصر التقليدي عالج المسألة بنحوٍ أفضل. لو كانَ هذا الفصل تامّاً مكتفياً بذاته لكان لزاماً عليَّ أن أكمله بشرح تصور العالم في العصر

---

(١) كالمفهوم الإسلامي للعالم مثلاً الذي يتبنى حقوق الأقليات كبناء أساسي فيه، وكذلك تصورات العالم في أديان الشرق مثل الهندوسية التي تعترف بسائر تصورات العالم الأخرى على أنها طرق تؤدي في النهاية لنفس الحقيقة، أو البوذية التي تعايشت كل التاريخ مع الطاوية والكونفوشية وسائر الأديان.

(٢) الاستعارة بحاجة لشيء من التوضيح: يريد المؤلف القول إن كل إنسان يمتلك تصورا معيَّناً للعالم، حتى الملحد إلحاده بحد ذاته تصورٌ للعالم، وتصور العالم يلقي بظلاله على كل ما يلاحظه الإنسان ويراه.

التقليدي والدفاع عن جدارته، ولكن لما كان هذا الموضوع هو نفسه موضوع كل الكتاب، لذا لن أحاول أن أضغطه الآن بصفحة أو صفحتين، بالإضافة إلى أن إعراض أكثر الناس اليوم عن «مفهوم العالم»، يجعل الطريق الممكن الوحيد لكي يكسب هذا التصور آذاناً صاغية من جديد، أن نسير نحوه بيسر وهدوء، مبتعدين عن التكلف والارتباك - إذا صح التعبير - وذلك بطرح أمور منطقية جديرة بالتصديق كلما ظهرت الفرص الملائمة لذلك.

هذا يبقي الفصل الحاليّ مفتوحاً، لكنّه لا يمنع أن تكون الصفحات السابقة قد أنجزت أمرين: الأوّل وصفيّ: إذْ وضعت العصر الحاضر (عصر ما بعد الحداثة) في إطاره التاريخي. الثاني: إرشادي توجيهي، لأن هنالك قيمة خلقية واضحة تنبثق مما قلناه. يجب أن نبدأ ألفيتنا الثالثة بغربلة لماضينا لنأخذ من كل عصر من عصوره الثلاثة الذهب الذي فيه، ونترك الزَّبد يذهب مع رمال التاريخ.

من اليقيني أن ذهبَ العصر الحديث - أي العلم - سيبقى لامعاً بنحو كبير في الألفية الثالثة، كما أن تركيز عصر ما بعد الحداثة على العدالة الاجتماعية له حظٌّ كبيرٌ أيضاً في الاستمرار. ويبقى تصوُّر العصر التقليدي للعالَم، هو المعرَّض للخطر والذي يجب إعادة تأهيله إذا أريد له أن يبقى ويعيش.

الفصل ٢

الهواء الطلْق والنفق المظلم داخله

إن الذين يخشون أن يكون احترامي وتقديري الذي أعلنتُهُ فيما سبق تجاه تصوّر «العصر التقليدي» للعالم، معناه أن هذا الكتاب عبارة عن رحلة حنين إلى الماضي، يمكنهم أن يتأكدوا أن الأمر ليس كذلك؛ فلن يجدوا في الكتاب تشبثاً بالأيام الخوالي السعيدة. عندما يمزح الأيرلندي قائلا: «ليذهب المستقبل إلى الجحيم، نحن نعيش في الماضي» فإنني أبتسم لهذه النكتة المقلوبة ولكن هذا لا يشكل فلسفتي في الحياة.

لا أقصد باستخدامي لاستعارة «**النفق**» كاستعارة رئيسة في هذا الكتاب أن زمننا بكليّته أسوء من الأزمنة الماضية. نعم الأمور تبدو الآن مخيفة من عدة جهات، ولكن في الوقت نفسه هناك إشارات مشجّعة، ولكي أصل إلى النقطة التي أريدها بنحو مباشر أقول إنني تجاوزت بالكامل قضية المقارنات التاريخية. فليس لديَّ ذلك الولع ولا البراعة اللازمان لإجراء مثل هذه المقارنات. كما ليس لدي أيّة فكرة عن كيفية شعور الناس الذين كانوا يعيشون في الأزمنة الماضية. ثم عن أي زمن نتحدث؟ وعن أي مكان من الأرض؟ ومن أي جنس وأي طبقة؟ لا بد للإنسان من معيار وسطي (عندما يريد أن يعطي حكماً عاماً) فكيف يتم ذلك مع أنه ليس لدينا إمكانية حتى لتحديد كيف يشعر الحد الوسطي من الناس في زمننا الحاضر. إذ مَن الذي سنشمله في نموذجنا؟ هل الأفارقة غير المصابين

بالإيدز؟ أم رعاة الماشية في نيوزيلندا؟ أم رؤساء الشركات المترفين إلى حد تمتعهم برواتب تبلغ ٤٠٠ ضعف أجور مستخدَميهم؟ أم الأمريكيون الأفارقة الذين يعيشون وسط المدينة؟ أم المشردون من كل نوع؟ اخْلُط كل هؤلاء مع بعضهم، وهزّ جيداً وانظر أي نمط من الحياة يخرج لديك؟؟

يخبرنا الشاعر «تْشسْلو ميلوسز» [1] Czeslaw Milosz الحائز على جائزة نوبل أنه: «من جهة، هناك إشراق ونورانية في العالم، وثقة وإيمان، وجمال في الأرض. ومن الجهة الأخرى هناك ظلام وشَكٌ وفقدان الإيمان وقسوة ووحشية على الأرض، وقدرة كبيرة لدى الناس على فعل الشر. عندما أكتب يكون الجانب الأول هو الصادق وعندما لا أكتب يكون الجانب الثاني».

و أنا نفسي أستلم بشكل منتظم رسائل من متشائمين لدرجة تَنَبُّئهم بقرب يوم الإدانة والهلاك وأننا نسير نحو الهاوية كما سقطت روما، ورسائل من أصحاب فكر معاكس تماماً يبدون وكأنهم يتوقعون حصول طفرات في الضمير تعيد فتح أبواب جنات عدن للداخلين والخارجين على طريق عريض ذي اتجاهين. وددت لو استطعت أن أوجه رسائل كل فريق إلى الفريق الآخر مغلقةً، وأدعهم يتشاجرون فيما بينهم في حين أمسك أنا بمعاطفهم. يبدو لي المثل الفرنسي القائل: «كلما تغيرت الأشياء، بقيت الأمور على ما هي عليه» مثلاً صحيحاً. وهو يماثل أول جملة من رواية: «قصة مدينتين» ل «تشارلز ديكنز» Charles Dickens التي يقول فيها: «كانت أفضل الأيام، وأسوأ الأيام». مع ذلك، لا يمكنني أن أؤيّد تلك الأقوال بصورة مطلقة، وإلا لما كان هناك أي معنى لتأليفي لهذا الكتاب، إذ لن يكون في تأليفه أي فائدة. لذا لا بد أن أتراجع قليلاً للوراء.

---

(١) تشسْلو ميلوسز Czeslaw Milosz: (١٩١١ -) شاعر وروائي وكاتب مسرحي ومترجم بولوني، حائز على جائزة نوبل للآداب. اهتمت كتاباته بشكل رئيسي بتأثير الظروف التاريخية على الأخلاق البشرية وسلوك الإنسان. انضم إلى المقاومة السرية ضد النازيين عندما غزا الألمان بولاندا عام ١٩٣٢ في بداية الحرب العالمية الثانية. نظم ديواناً من الأشعار ضد النازية سماه (أغنية لا تُغْلَب) Invincible Song (عام ١٩٤٢).

إن تحسين الأوضاع ممكن، وعلينا أن نبذل كل ما في وسعنا لتحقيق ذلك. ولكن، كما يقول «روبرت فروست» [1] Robert Frost: «يجب على كل شخص أن يشبع غليله من الدنيا بطريقته الخاصة». وطريقتي أنا تتعلق بتصور العالم. فأنا مقتنع بأن كل ما يحدث في الميادين المختلفة للحياة ـ السياسة، ومستويات المعيشة، والظروف البيئية، والعلاقات المتبادلة بين الناس، والفنون . . . ـ سيكون أفضل إذا أنقذنا أنفسنا من هذا التصور للعالم الذي انزلقنا إليه بلا إرادة منا، وتمكنا من استبداله بتصور أكثر صحةً وخيريةً. وهذا، وهذا فقط، هو همّ هذا الكتاب. لا شك، بالطبع، أنني أتمنى الأفضل لسائر ميادين الحياة الأخرى، ولكنني لا أستطيع أن أقول شيئاً مميزاً عنها يضمن لي اهتمام القارئ. أما بالنسبة لتصور العالم فالأمر مختلف. فأنا، منذ أن فتحت عيني على العالم، أتأمل جوهر طبيعة الأمور، وأحاول الغوص إلى أعماقها، ذهاباً وإياباً، من الأمام ومن الخلف؛ فسأكون ظالماً لنفسي إن لم أعتبر أن عصارة ما أنتجه ذلك النشاط الذهني الطويل، لا تستحق المشاركة في الحوار!

تصورات العالم Worldviews ... الصورة الكلية The Big Picture

ينطوي موضوع هذا الكتاب على مشكلة تتلخص في أن أمور ما وراء الطبيعة ليست بموضوعات جذابة تشد الأنظار. (أذكِّر أنني أستخدم في هذا الكتاب كلمات: أمور ما وراء الطبيعة، وتصور العالم، والصورة الكلية كمترادفات لمعنى واحد). فهي تشبه الرؤية السطحية الخارجية التي عادةً ما يتم تجاوزها، لكونها، بالضبط، سطحية خارجية. ومع ذلك فهذا لا يجعلها غير مهمة. يؤكِّد علماء النفس أن ما ننظر إليه، يتأثر دائماً بخلفيته.

---

(١) فروست، روبرت Robert Frost (١٨٧٤-١٩٦٣)، شاعر أمريكي، أخذ صور شعره منْ ريف منطقة نيو إنجلند (منطقة شمال الساحل الشرقي لأمريكا) تميزت أشعاره بنزعة شكوكية وساخرة أعطت لأعماله جدَّةً وبعداً عن السهولة التي تبدو فيها لأول وهلة. ولأن شعره جمع بين التقليد والشكّ فقد مثَّل حلقة وصل بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين في الشعر الأمريكي. فاز فروست بجائزة بوليتزر في ميدان الشعر أربع مرات (١٩٢٤، ١٩٣١، ١٩٣٧، و١٩٤٣).

هذا الأمر يسري على النحو الذي يظهر فيه العالم ونشعر به، تماماً كما يبدو للرؤية البصرية. لقد شعر التقليديون بهذا الأمر وكان «كلود ليفي شْتراوس»[1] Claude Levi-Strauss حادَّ الملاحظة عندما أدرك هذه النقطة؛ حيث استنتج أن أعمق فرق بين نظرية المعرفة عند الأشخاص البدائيين (القدماء) ونظريّتنا للمعرفة، أن البدائيين كانوا يعتقدون أنه لا يمكن أن نفهم أي شيء إذا لم نفهم كل شيء. لقد رأى أنهم مخطئون في تفكيرهم ذاك. في حين أن الحقيقة هي أننا عندما نأخذ بعين الاعتبار قضية الخلفية ـ الأمامية، نجد أنهم كانوا محقين تماماً. بالنسبة لنا، فإن مشاكل الحياة تضغط علينا ضغطاً شديداً لدرجة أننا نادراً ما نجد الوقت الكافي للتفكير في طريقة تأثير مواقفنا وافتراضاتنا اللاشعورية حول طبائع الأشياء، على طريقة إدراكنا لما هو أمام أعيننا مباشرةً. هذا ما جعل الفلاسفة يلفتون الانتباه إلى هذا السهو (الغفلة) كما ذكره «وليَم جيمس»[2] William James عندما

---

(١) كلود ليفي شتراوس Claude Lévi-Strauss (١٩٠٨ -) عالم إنسانيات (آنثروبولوجي) بلجيكي فرنسي ونصير بارز للمقاربة البنيوية (الهيكلية) في علم الأعراق الإنسانية الاجتماعي Social Anthropology. قام بدراسات ميدانية على القبائل الأمريكية الأصلية أثناء عمله في البرازيل بروفيسوراً في علم الاجتماع في جامعة ((ساو باولو)) (١٩٣٥-٣٩)، ثم أصبح أستاذ علم الأعراق البشرية الاجتماعي social anthropology عام ١٩٥٩ في كوليج دي فرانس، وحاز على وسام شرف زمالة الأكاديمية الفرنسية. يتوسد ليفي ستراويس مكانة بارزة بين الباحثين الذين يعتقدون أنّ الثقافات المختلفة للبشر وأنماط سلوكهم ولغاتهم وأساطيرهم تبرهن على وجود إطار وهيكل مشترك خلف كلّ الحياة الإنسانية.

(٢) وليم جيمس William James (١٨٢٤ - ١٩١٠) فيلسوفٌ أمريكيٌّ وعالمُ نفس. أهم كتبه: كتابه الكبير ((مبادئ علم النفس)) Principles of Psychology (عام ١٨٩٠) الذي جعل منه أحد أكثر مفكري عصره تأثيراً، حيث نقل علم النفس من أحد فروع الفلسفة، إلى علم مخبريٍّ يعتمد على المنهج التجريبي. وقد طبق هذا المنهج التجريبي على القضايا الفلسفية والدينية ومن جملتها موضوع وجود الله وخلود النفس، والإرادة الحرَّة والقيم الأخلاقية، كل ذلك بالرجوع إلى التجارب الإنسانية الدينية والأخلاقية كمصدر مباشر. وقد أبرز في كتابه ((تنوُّع التجربة الدينية)) The Varieties of Religious Experience تقديراً علم نفسياً مؤيِّدا للتجارب الدينية والعرفانية_ الباطنية (الصوفية). كما طور "وليم جيمس" الفلسفة البراغماتية (الذرائعية) التي ترى أن الحقيقة هي كل ما يفيد عملياً أو يعطي نتائج تجريبية صالحة، وانطلاقاً من هذه النظرية قال جيمس أن وجود الله قابل جزئياً للتحقق من أنه حقيقة لأنه ثبت عملياً أن كثيراً من الناس ينالون فوائد حقيقية من إيمانهم به.

قال: «يمكن لصاحبة فندق أن تتعرف على فلسفة حياة أحد نزلائها، بإجراء حوار معه، أكثر من فحصها لحسابه المصرفي». وقد ربط «جون ستيوارت ميل»[1] John Stuart Mill مثل هذا الأمر، مباشرةً، بقضايا ما رواء الطبيعة، فكتب: «إذا لم يكن مفيداً أن نعرف إلى أي نظامٍ ينتمي مصير حياتنا كله؟ و تحت أي حكومة للكون نعيش؟ فإنه من الصعب أن نتصور ما هو الأمر المفيد. لأنه سواء أكان الشخص في مكان سار أم غير سار، في قصر أم في سجن، فإنه لا يمكن إلا أن يكون مفيداً له أن يعرف أين هو في الواقع.». يقول عالم الحيوانات في القرن التاسع عشر «إرنيست هيكيل»[2] Ernest Haeckel إنه لو أتيحَ له سؤال واحد يضمن الإجابة الحقيقية الموثوقة عليه، لكان سؤاله: «هل الكون صديق لنا؟».

هذه التقارير تخبرنا بكل القصة. ولكنها مختصرة وتحتاج لشيء من الأمثلة والتوضيح، وهذا ما سأفعله رويداً رويداً.

قبل جيل من الآن، كتب عالم النفس في معهد الأطباء والجراحين التابع لجامعة كولومبيا "ويليام شيلدون" William Sheldon يقول: «إن ملاحظته المتواصلة خلال ممارسته الطبية أوصلته إلى نتيجة قاطعة لا يكاد يوجد مناص منها، هي أن هناك توقاً (رغبة ملحة) لدى الإنسان، أعمق بكثير من رغبته الجنسية، وأعمق من رغبته للوصول إلى

---

(١) جون ستيوارت ميل John Stuart Mill (١٨٠٦ - ١٨٧٣): عالم اقتصاد وفيلسوف بريطاني. نادى بالحرية الفردية، ودعا إلى الأخذ بمذهب المنفعة (مذهب النفعيَّة). من أشهر آثاره: (مبادئ الاقتصاد السياسي) Principles of Political Economy (عام ١٨٤٨) و(في الحرية) On Liberty (عام ١٨٥٩).

(٢) إرنيست هيكل Haeckel, Ernst Heinrich (١٨٣٤ - ١٩١٩) عالم أحياء وفيلسوف ألماني، كان نصيراً متحمّساً لنظرية التطور لتشارلز داروين وقام عبر كتبه ومحاضراته بإشاعتها في العالم الناطق بالألمانية. أحد أسباب اهتمامه بنظرية داروين يعود إلى نتائجها الفلسفية؛ فقد حاول استخدام نظرية التطور لبناء نظرية شاملة في علم الأحياء، والعلم بشكل عام، بل حتى في الدين. على سبيل المثال، رأى هيكل أن كلّ حيوان يتتبّع ثانية، أثناء تطوّره الجنيني، الخطوات التطوّرية التي أدّت إلى مكانه الحالي في النظام الطبيعي. والواقع أن بعض نظرياته كانت قائمة على مجرّد الحَدْس وأثبت العلم فيما بعد خطأها الذريع.

السلطة (المقام والجاه) الاجتماعية، وأعمق من غريزة التملّك، وهو التّوق إلى معرفة الاتجاه الصحيح، أي توقه إلى الحصول على التوجيه الصحيح نحو الوجهة الصحيحة.».

مثل هذا التوجيه يحتاج لمعرفة موقع البلاد، ولو بنحو الحدس، ولا يوجد طريق مختصرة لتجاوز هذه الجغرافيا إذا صح التعبير.

وبعبارة أخرى: تؤول النقطة التي أذكرها إلى التالي: تحتاج العقول لبيئة ملائمة للفهم الصحيح تماماً كما تحتاج الكائنات العضوية للبيئة الملائمة لوجودها ونموها. البيئة الملائمة للعقل هي تصوره للعالم Its Worldview، هي مفهومه لمجموع الأشياء في كليّتها (و لو لم يستطع أن يعبر لفظياً عن هذا الفهم بعبارات واضحة). إذا استثنينا الجنون، فإنّ ثمَّة توافقاً بين الاثنين (العقل والتصور الشامل للعالم)، ونحن نسعى لتحسين هذا الانسجام والتوافق.

إن من علامات التوافق الضعيف أو ضعف الانسجام بينهما: الإحساس بالخواء وأن لا معنى للحياة والعالم، والشعور بالاغتراب والقلق الذي يعرفه القرن العشرون جيداً. ومن علامات التوافق والانسجام الجيد: الشعور بأن الحياة والعالم لهما معنى. وعندما يكون التوافق تاماً، فإن طاقات الكون تصب في المؤمن وتمنحه قوّةً هائلة، وتدرك روح الإنسان أنها تنتمي للمطلق، وأن المطلق يؤيدها ويدعمها، وأن المعرفة التي تحصل عليها تنتج تصوّراً كلياً مثل قطعة أحجية الصور المقطعة (البزل Puzzle) التي توضع في مكانها الصحيح فتكشف لنا الصورة الكلية لجميع القطع الأخرى.

إذا لم تقنع الجمل القليلة السابقة القارئَ بأهمية أمور ما وراء الطبيعة، فإني أشك أن يقنعه أي شيء أقوله بعد ذلك، لذا سأكتفي بما ذكرت وأنطلق الآن من ما وراء الطبيعة بشكل عام إلى موضوع الكتاب الأساسيّ: أي دراسة التصورين المتباينين للعالم: التصور التقليدي والتصور العلمي للصورة الكليَّة (ما وراء الطبيعة).

البديل الحاسم

يحكم هذه المقارنة مبدآن: المبدأ الأول: مفهوم «ماكس ويبر»[1] Max Weber عن النماذج المثالية. النماذج المثالية تشبه المثل الأفلاطونية أو الخطوط الرياضية. فرغم أنها غير موجودة في عالمنا الناقص، إلا أنها تفيد بوصفها موجِّهات تساعدنا على الكشف وعلى تنظيم أفكارنا بشكل صحيح. والمبدأ الثاني هو وضع جدول مقارنة لمسألة الحقيقة في هذا الفصل: أيُّ المفهومين أوالتصوُّرين للعالم: التقليدي أم العلمي، يقدِّم برهانه على أنه أكثر توافقاً مع طبيعة الأشياء؟ هذا السؤال يسبق كل شيء سأقوله عن التصورات المختلفة للعالم، ولكنني أؤجله الآن لأنني سأعالجه بشكل مباشر فيما بعد.

بدايةً سأهتم بمسألة أي المفهومين للعالم أرفع تصوُّراً من الآخر؟ وأنه لو كان لنا الخيار فأيهما نختار؟

الحديقة الفاتنة (الساحرة)

في وصفه للتصور التقليدي (أي الديني) للعالم، استخدم "ماكس ويبر" Max Weber استعارة جميلة رغم أنها كئيبة. وقد استخدم هذه الاستعارة من أجل الهبوط إلى عقلية التقليديين لأن سحر الحديقة (في المفهوم التقليدي للعالم) الذي كان يقصده هو سحر أطفال لم يفسدهم الترويض، يجرّبون العالم الأصلي بطراوته الأولى، وبعباراته الجميلة: «في لحظةٍ ما، بدت لي المروج الخضراء والغابات الصغيرة وجداول الأنهار والأرض وكل منظر خلاب مكسواً بنور سماوي وممجداً ونضراً نضارة الحلم».
(أخبرني صديق لي أنه بعد أن تجاوز مرحلة الطفولة، كان يستطيع أن يستعيد سحرها عندما

---

(١) ماكس ويبر Weber, Max (١٨٦٤ – ١٩٢٠) عالم اقتصاد ومؤرخ اجتماعي ألماني اشتهر بسبب مقارنته العلمية المنظَّمة لتاريخ العالم وتطور الحضارة الغربية. عارض نظرية ((الحتمية الاقتصادية)) للماركسية (التي ترى أن العامل الاقتصادي هو العامل الوحيد في صياغة أحداث التاريخ)، قائلاً، من خلال دراساته التاريخية، أن العقائد الدينية والأخلاق ذات تأثير هام أيضاً في صياغة أحداث التاريخ.

يحني رأسه للأسفل وينظر للعالم مقلوباً من بين ساقيه ، وأن هذه التقنية نجحت معه قرابة سنة) .

اليوم انهارت عقيدة «ويبر» Weber التابعة لعصر التنوير التي اعتقد فيها أن الناس في العصور القديمة كانوا كالأطفال بالقياس إلينا ، أما استعارته للحديقة الفاتنة (الساحرة) بحد ذاتها ، فقد بقيت صحيحة ، لأنها تبين أن الناس في الزمن الماضي كان لهم كوّةٌ يرون من خلالها المشهد الجميل (غير محدودين بالنفق المظلم الذي سنتحدث عنه) . أمّا استعارتي البديلة التي طرحتها أنا عوضاً عن جنته ، أي تعبير : **"الهواء الطلق" الواسع الرحب** ، فإنها تسمح بمجال أكبر لتلك الكوّة التي نشاهد منها المناظر الخلابة . قد يكون بعض تلك المشاهد التي تظهر من تلك الكوّة مرغباً ، ولكن هذا لا يؤثّر على عظمتها ووسعتها . وسأتكلم بنحو أوضح : إن المفهوم التقليدي (الديني) للعالم أفضل من المفهوم الذي يستولي على أكثرنا الآن ، لأنه يعطي مجالاً لإشباع التّوق الأساسي الكامن في أعماق قلوبنا . وقد ذكرت هذا التّوق في المقدمة وعليَّ الآن أن أوضحه أكثر .

يوجد داخلنا ـ حتى لدى أكثر الناس سعادةً وابتهاجاً ـ نوع من عدم ارتياح أساسي ، يعمل فينا كنار لا تنطفئ تجعل غالبيتنا العظمى غير قادرة على الوصول إلى السلام الباطني التام في هذه الحياة . يوجد هذا التّوق في نخاع عظمنا ، ويكمن في أعمق المناطق من روحنا . وكل الأدب العظيم والشعر والفن والفلسفة وعلم النفس والدين محاولات لتسمية وتحليل هذا التّوق والعطش الشديد . نادراً ما نتصل بهذا التّوق والرغبة بشكل مباشر ، وفي الحقيقة ، يمنعنا العالم المعاصر من أن نكون على اتصال مباشر به وذلك عندما يغطيه بسلسلة من المناظر الوهمية التي لا تنقطع من المتع والتسالي والهواجس وأنواع الإدمان والمشاغل المتنوِّعة . ولكن التّوق موجود هناك ، وذاتنا مجبولة به ، كطائر محبوس في قفص يتحفز للتحرر والانطلاق .

ثمَّة لوحتان فنيتان تشيران لهذا التّوق في عنوانهما : الأولى لوحة "غوغان" Gaugun «من نحن؟ ومن أين أتينا؟ وإلى أين نذهب؟» ولوحة "شيريكو" Chirico "الحنين إلى

المطلق (اللامتناهي)" ، لكن دعني أتحدث بالكلمات لا باللوحات. سواءً أدركنا أم لم ندرك، فإن كوننا بشراً يعني ببساطة أننا نتوق للتحرر من الوجود الدنيوي المحدود بجدران التناهي والموت.

و الخروج من تلك الجدران يتطلّب وجود هواءٍ طلقٍ خارجها، والمفهوم التقليدي للعالم يمنحنا هذا الفضاء بشكل غزير. ذلك المفهوم التقليدي يعطي شعوراً بمسافات طويلة مفتوحة بلا حدود، ويفتح أمام الروح الإنسانية مشاهد لا حدّ لها يمكنها أن تحلق فيها، مشاهد مفعمة بالسموّ في كل أنحائها. بعض مشاهدها، كما ذكرت، مهول، ولكنها تبقى النظير الكيفي للكون الكمي الذي يستكشفه علم الفيزياء. كل إنسان - إلا من كان خائر العزيمة - سينتقل إلى هذا الفضاء الرحب فور إيمانه بوجوده. (كما يثبته هذا الفصل على الأقل). نعم، العلم الحديث الذي درّسونا إياه، يرفض وجوده، ولكن هذا العلم لم يستطعِ أن يمنعنا من المرور بتجارب نشعر أنها قادمة من عالم مختلف.

يملك الصوفيون موهبة الإحساس بالأمكنة التي يمكن فيها إحداث شقوق وتصدعات في الغطاء الخارجي الصلب للحياة الدنيوية، ومن تلك الشقوق يتعرضون لنفحات عالم الماوراء. "إشعيا" رأى الرب عالياً مرتفعاً، و"المسيح" انفتحت له السماوات عندما تعمّد. و"أرجونا" اطلع بنحو سري على "كريشنا" في شكله الكوني المهيب. وبوذا رأى الكون قد تحول إلى باقة من الزهور لحظة استنارته. و"يوحنا" يروي في رؤياه "كنت في جزيرة "بطمس" لأجل كلمة الله، وكنت في حالة جذب (اختطفني الروح)". "شاول" - في طريقه إلى دمشق - رأى نوراً ساطعاً فسقط ليقوم مكفوف البصر. أغسطينوس سمع صوت طفل يقول له: "استعد". "القديس فرانسيس" سمع صوتاً خارجاً من الصليب. وعندما كان القديس أغناطيوس جالساً على ضفاف جدول يتأمل جريان الماء فيه، والإسكافي العجوز «يعقوب

بويهمي» [1] Jacob Boehme ينظر إلى صحن من القصدير ، إذا بأخبار عن عالم آخر تصل لكل منهما ، عالم من مهمة الدِّين فقط أن يؤمِّن الاتصال به .

و تنمو قصصٌ حول تلك التجليات الإلهية للإنسان ، وتتراكم عبر الأجيال لتتحول إلى أساطير تغني الثقافات بالمعاني والمحفِّزات . هنا يزوِّدنا العلم بنموذج مماثل مفيد . لقد تم نسج التصور العلمي للعالم برمته ، من بضع تجارب حاسمة نسبياً ، يمكن تشبيهها بالنقاط المرقَّمة في لعبة "البزل" Puzzle (التي تقوم على رسم خط يصل النقاط المرقّمة مع بعضها ، حسب تسلسل أرقامها ، لينتج شكل حيوان ما ، مثل زرافة أو بطة أو نحو ذلك) . تشبه الأساطير الخطوط التي يرسمها التقليديون بشكل جماعي وبلا وعي في الغالب ، لوصل نقاط الكشوف الروحية المباشرة التي ترويها رؤاهم . إذا كان العدد هو لغة العلم ، فإن الأسطورة هي لغة الدين . فهي لا ترسم حرفيّاً عالمنا الحقيقي - ويخطئ أصحاب الفهم الحرفي للكتاب المقدس عندما يظنون ذلك - ولكن هذا ليس بمشكلة ، لأنه ، كما يخبرنا «ستيفن وينبرغ» [2] Steven Weinberg : «كلنا يعلم كم هي يائسة ومتعذرة محاولة تطبيق ميكانيكا الكمّ على عالمنا اليومي» .

---

(١) يعقوب بويهمي Jakob Boehme (١٥٧٥ - ١٦٢٤) متصوف ألماني "تيوصوفي" (من التيوصوفية theosophy وهو معرفة الله من طريق الكشف الصوفي أو التأمل الفلسفي أو كليهما) . كان منذ صغره يزعم أنه يرى رؤى روحية ، وادعى طوال حياته أنه ملهم منْ قِبَل الله . أول كتبه ((شروق حمرة الصباح)) (١٦١٢) الذي سجل فيه رؤاه و توسع في صفات الله . كما ألف فيما بعدَ ((في المبادئ الثلاثة لطبيعة الله)) (عام ١٦١٩) و((الطريق إلى المسيح)) (عام ١٦٢٤) . رغم أن كتاباته كتبت بأسلوب صعب الفهم إلا أنها لقيت استقبالاً حاراً في ألمانيا وهولندا ، ثم ترجمت للإنجليزية وصار له أتباع في بريطانيا عرفوا باسم البهمنيين Behmenists تم امتصاصهم فيما بعد في فرقة الكويكرز (الأصدقاء أو الهزازين) .

(٢) ستيفن وينبرغ Steven Weinberg عالم فيزياء أمريكي معاصر حائز على جائزة نوبل . تخصص في الفيزياء النووية وطرح هو مع زميله عالم الفيزياء الباكستاني عبد السلام نظرية وحّدت جميع الحقائق المعروفة حول التفاعلات الكهرومغناطيسية والضعيفة بين الجزيئات الذرّية . وسميت هذه النظرية بفرضية التوحيد وثبتت صحتها لاحقاً بشكل تجريبي ، خلافاً لعدد من الفرضيات البديلة .

التوقيع الختامي للأسطورة هو، دائماً، نهايتها السعيدة، التي تجعل الأساطير مثل الحكايات الممتعة. لكن الحكايات تضع نهايتها السعيدة - زواج الأميرة - في هذا العالم، أما الأساطير فإنها تلقي مرساة نهايتها السعيدة في الطبيعة النهائية للأشياء، أي في الانتصار على الموت نفسه. إنها أنجح ما تم تصوره إلى الآن من وسائل حبك القصة، ومن السهل معرفة السبب، إنه قدرة الأساطير على الذهاب بتصوراتنا إلى أقصى مداها، بله الذهاب أبعد من ذلك عندما تؤكد لنا أنه يمكننا الامتلاك الفعلي لهذا الذي وصلت إليه تصوراتنا. بعد ذلك فقط - دعنا لا ننسى ذلك أبداً - نبدأ بمواجهة امتحانات مثبطة للهمة بحجم كبير. سمّى «فيلو الإسكندري»[1] Philo of Alexandria و«أوريجن»[2] Origen، وسيلة حبك الرواية هذه: «مبدأ المعنى الأقصى»، واقترحا أن يكون هذا المبدأ هو السائد في كل التفاسير والتأويلات للكتاب المقدّس: "هل يلهمنا هذا المقطع المعين من الكتاب المقدس ويقوي عزيمتنا أم لا؟ (هذا هو المهم)".

لقد ذكرت تعبير "**الهواء الطلق**" من زاوية النظر الإنسانية محاولةً منّي لعرض شعورنا الممكن عندما نعيش في ذلك الفضاء الرحب. والحقيقة أن التقليديين لا يعتبرون العالم المحسوس مستقلا بذاته، بل يرون أن وجوده مشتق من مصدرٍ إلـهيٍّ هو الروح الكبرى العظيمة، الله، الواحد الفرد، المطلق، سمه ما شئت. هذا المصدر غير منفصل عن العالم - الشيء الوحيد الذي ينفصل عنه هذا المصدر هو الانفصال!.. ومع ذلك فهذا المنبع والمصدر منزه عن كل قيود وحدود العالم: منزه عن الزمان بدوراته المتكرّرة الفانية، وعن المكان بحدوده وانفصالاته، وعن التناهي بقيوده الخانقة. لقد اعتبر أسلافنا هذا التمييز بين

---

(١) فيلون الإسكندري Philo (١٥؟ ق.م. - ٤٥؟م.): فيلسوف ولاهوتي يهودي هليني من مواليد الإسكندرية. تأثر بأفلاطون في المقام الأول، ولكنه تأثر بأرسطو والكلبيين والرواقيين أيضاً. فسر التوراة تفسيراً مجازياً ليثبت أنها تشتمل على آراء فلاسفة اليونان.

(٢) أوريجين Origen (١٨٥؟ - ٢٥٤؟م.): لاهوتي مسيحي. ولد في الإسكندرية بمصر وتوفي بمدينة صور في لبنان. يعد أحد آباء الكنيسة. عمل في حقلي التدريس والتبشير، ووضع عدداً من الشروح التوراتية والرسائل اللاهوتية. سجن عام ٢٥٠ وسرعان ما لقي نحبه متأثراً بالعذاب الشديد الذي أنزل به.

"**السموّ على الوجود المادي**" Transcendence و الظاهر حاليّاً Immanence (و قد عرّضنا خط الأول لنبين علوه على الثاني) دعوةٌ للعودة إلى المنبع الأصلي الذي جئنا منه. وتعبر المسيحية عن هذا الأمر بقولها «صار الله الإنسان، ويمكن للإنسان أن يرجع ويصير الله». أما الرواية البوذية لذلك الأمر فتقول: «بما أنه يوجد ذلك الكائن غير المولود، غير الحادث، الذي لم يصر من شيء، غير المركب؛ لذلك فهناك إمكانية للخلاص والتحرر من الولادة، ومن الحدوث ومن الصيرورة، ومن التركيب».

عندما نقول أن الحاج ليس وَحْدَهُ في سفره ومعراجه الروحاني (لأن الله معه)، نختزل الحقيقة ونقلّل من شأنها، لأن الأمر أكبر من ذلك، إنها شرارة الألوهية نفسها، التي زرعها الله في الإنسان، هي التي تبدأ الرحلة نحو الله منذ الخطوة الأولى. السامي المتعالي هو الذي يبادر في كل مرة: في خلقه للعالم، في تجلّيه للعالم، في تشكيله للحضارات عبر الوحي والتنزيل، الوحي الإلهي الذي ينزل على الأنبياء ويحرك الحضارات ويؤسس مساراتها. إنها الأرضية التي لا تُغْلَب للأمل الذي يصبغ التصور التقليدي للعالم بالتفاؤل والبِشْر. كون الله هو الذي يجب أن يبدأ المبادرة إذا أراد لعودة العالم إليه أن تنجح، أمرٌ بديهيٌّ لكل من لديه أدنى نزوع ميتافيزيقيّ، ذلك لأن الفرق الهائل غير القابل للقياس بين المتناهي واللامتناهي يجعل من السخف تصور أنه في إمكان المتناهي أن يردم هذه الفجوة بينه وبين مصدره ومنبعه. فإذا كان هناك توددٌ وتقرُّبٌ من الإنسانية نحو الله فإن الواقع أن الله نفسه هو العامل الحقيقي في هذا التودُّد، أي هو المتودِّد كما هو المتَوَدَّد إليه في نفس الوقت.

أنا الآن أحاول أن أحافظ على تصميمي السابق بتأجيل استجوابات الحقيقة للفصول اللاحقة. ولكن بما أنني ابن عصر الشك، أجد تُهَم «التفكير المفعم بالأماني» و« التهربية» أي التهرب من الواقع والاستغراق في الوهم والخيال وتهمة «الآمال براحة العقل وسكونه» .. أجدها تقضم حواف تلك الفقرات وأنا أكتبها كما يقضم الجرذ أطراف الورق.. لذلك فمن الضروري أن أقطع كلامي هنا للحظة، لأردّ على تلك التهم، مبتدئاً من تهمة رابعة لم أذكرها في قائمة التهم لأنه لم يكن قد وصل إليَّ بعد كتاب "Concilience" (أي

الاسترضاء) لعالم الاجتماع والأحياء "إي. د. ويلسون" E.D.Wilson . الذي زعم في الصفحة ٢٨٦ منه أن الناس إنما يتبعون الدين لأنه "**أسهل**" من اتباع المنهج التجريبي Empiricism (مذهب الاعتماد على الملاحظة والتجريب). هذا الادعاء ضغط على أعصابي وأثار حفيظتي مما حرّضني على إجابة سريعة ومباشرة عليه:

يا سيد "ويلسون" !

- لو أنّك تحملت مشاقّ ممارسة العبادة "أوسِّيشيم" O-sesshim في دير «زن بوذي» جالساً القرفصاء بلا حراك لاثنتي عشرة ساعة في اليوم، مع عدم السماح بالنوم لأكثر من ثلاث ونصف إلى أربع ساعات فقط كل ليلة، إلى أن تُصاب - بسبب الحرمان من النوم الكافي والحلم - بنوع من العُصاب Psychosis المؤقت (حالتي الذاتية التي يعسر علي وصفها)
- لو أنّك حضرت أربع جلسات "الانعزال والخلوة المطرية" في مركز التبصر والتأمل البوذي في مدينة "بار" Barre في (ولاية) "ماساتشوسيت" لمدة سنة كاملة من عدم القراءة وعدم الكتابة وعدم الكلام مع إغلاق العينين بشكل دائم. (زوجتي)
- لو أنك مارست رياضات التقشف لحد الاقتراب من الموت قبل أن تجلس تحت شجرة البو Bo في الهند لتجد الاستنارة. (بوذا)
- لو أنّك صُلبت في الجُلْجُثَة[1].
- لو أنّك ألقيتَ في الكولوسيوم الروماني (المدرج الروماني القديم الذي كانت تجري فيه احتفالاتهم) لتكون طعاما للأسود. (كما كان يفعل بالمسيحيين الأوائل)
- لو أنّك حُبِسْت في معسكرات الاعتقال وعانيت و تحملت الإهانات لكرامتك، بسبب عقيدتك وإيمانك.
- لو أنّك وهبت حياتك كلها لأجل إعطاء حياة كريمة للمشردين والنساء المحرومات المعدمات في شوارع كَلْكُتا (الأم تيريزا Mother Teresa) أو أديت دور نظيرتها "دوروثي دي" (Dorothy Day) مع فقراء مدينة نيويورك المعدمين.

(١) الجُلْجُثَة golgatha المكان الذي يعتقد المسيحيون أن المسيح صلب فيه حسبما جاء في الأناجيل.

لو أنَّك مارست واحدة من تلك الأمور يا سيد "ويلسون"، لحقّ لك عندئذ أن تتكلم على "**سهولة الدين**" بالمقارنة مع صعوبة "المنهج التجريبي"!.

الآن، وقد هدأ غضبي، أستطيع أن أواصل الإجابة على قائمة التهم التي كان آخرها تهمة "**التهرُّبية**". هناك أوقاتٌ يكون فيها بذل الجهد للخلاص والهروب أمراً محموداً. هل يُعاب إنسانٌ وجد نفسه في سجنٍ فحاول الخروج منه والعودة لمنزله؟؟ وهنا أتذكر شيئاً قاله لي "والتر كابس" Walter Capps (بروفيسور الدين الوحيد الذي انتخب للكونغرس في الولايات المتحدة) قبيل انصرام حياته بحملة قلبية قاتلة. كان من جملة مؤلّفاته العلمية كتابه حول "**الرهبانية**" Monasticism الذي لقي انتشاراً واسعاً، وقد قام بعدة زيارات وإقامات في أديرة حية في سبيل تأليف ذلك الكتاب، وعندما كان عائداً إلى بيته من أحد تلك الأديرة، راوده تساؤلٌ عما إذا كان أولئك الرهبان "تهربيين" (متهربون من الحياة)، وإذا به يرى في طريقه متجراً فيتوقف ليشتري منه بعض ما يلزمه. وكان الوقت باكراً في الصباح (الرهبان يستيقظون في وقت مبكر جداً)، وعندما صار أمام المتجر وجد نفسه في وسط حشد من النساء اللواتي كن ينتظرن أن يفتح المتجر أبوابه، وعندما فتح المتجر أبوابه بعد لحظات، وجد نفسه أمام محل ضخم للتخفيضات على الألبسة الداخلية، وإذا به يجد نفسه قد دفع إلى داخل المحل ضمن تيار نهر النساء المتدفقات إلى داخل المحل واللواتي انهمرن على تلال الألبسة الداخلية للتفتيش بداخلها عما عساه أن يناسبهن ويوفرن به شيئاً من المال. قال لي "والتر": لقد ألقى هذا المشهد الضوء على التساؤل الذي كان يراودني في الطريق قبل لحظات: هل كان الرهبان الذين تركتهم قبل لحظات "هروبيين" أم أولئك النساء المنتظرات منذ الصباح لأجل شراءٍ رخيصٍ، واللواتي بَدَيْن وكأنّهنَّ يُحاولن الهروب من خوائهنَّ الروحيّ بشغل أنفسهنَّ بالحصول على توفير ضئيل في ألبسة داخلية رخيصة ربما لم يكن يحتجنها الآن؟؟

النفق

كان لمجيء العلم الحديث نتائج لم يكن في مقدور أسلافنا أن يتوقعوها. لا شك أن هذا العلم غيَّر عالمنا بنحو ممتاز يفوق التقدير، ولكن ما يهم هذا الكتاب هو طريقة تغيير العلم لفهومنا عن العالم. لقد سقط أمامه التصور (المفهوم) التقليدي للعالم، ولكن ليس سقوطاً تاماً. التغيرات التاريخية لا تكون فجائية حادة لأنَّ التقليد يشدها بالاتجاه المعاكس بنحوٍ يجعل من التباطؤ في تغير ثقافة المجتمعات عاملاً لا بد من حسابه دائماً. لهذا ألجأ (كما ذكرت سابقاً) إلى النماذج المثالية لـ «ماكس ويبر» Max Weber. إن الذين يتبنَّونَ اليوم المفهوم العلمي للعالم أو المفهوم التقليدي للعالم بنحو نقيٍّ خالص، دون أن يخلطوا (دون وعي منهم إن لم يكن بوعي ومعرفة) بعض خصائص المفهوم الذي لا يؤمنون به بخصائص المفهوم الذي يتبنَّونه، قليلون جداً بل ربما لا يوجدون أصلاً. فحتى الذين تخلوا عن خصائص المفهوم الديني الإلهي للعالم، ما يزالون يراوحون في انعكاساته، فهم يعتقدون أن الإنسان مُنِحَ بعض الخصائص الفريدة (الكرامة الذاتية المتأصِّلة، والحقوق الأساسية التي لا يمكن إقصاؤها) التي تميزه عن سائر الكائنات الحية، ونتيجةً لذلك فإنهم يقررون أن أهم وأرفع الأولويات التي يجب على كل مجتمع ديموقراطي أن يرسيها هي احترام قداسة وحرمة الفرد. يحاول التطوريون أن يبرروا هذه النزعات بأنها قيم ملحة، ولكن الأمر الذي يفوتهم الانتباه إليه (كما أشار إليه Walker Percy) هو أنه في اللحظة التي يتم فيها تحويل «حرمة الفرد» إلى «قيمة» Value، تكون عملية ضخمة لـ "نزع القيمة" Devaluation قد أنجزت قبل ذلك.

فإذا أضفنا لحقيقة أنه لا يوجد شخص يعتمد المفهوم العلمي للعالم فقط أو المفهوم التقليدي للعالم بشكل نقي خالص من شوائب المفهوم الآخر، حقيقة أخرى هي أنه لا يوجد شخصان يريان أياً من المفهومين بنفس الطريقة تماماً، يظهر عندئذ بوضوح السبب الذي يجعلني أعرض المفهومين والتصوُّرين كنموذجين مثاليين (أي عامَّين غير خاصين).

تقييم البدائل

فيما يلي أذكر خمس مواضع يتناقض فيها المفهوم التقليدي للعالم مع المفهوم العلمي بشكل كامل، وذلك لكي تظهر الفروق بين التصورين بشكل حاد وواضح تماماً.

١- في المفهوم التقليدي الديني الروح هي الأساس والمادة هي الفرع. (في هذا السياق سأستخدم تعبير "التقليدي" بديلاً عن كلمة "ديني"، ما لم أشر إلى خلاف ذلك، وذلك لأن كل المجتمعات التقليدية كانت دينية). إن المادة تحشر نفسها في بحر عالم الروح بشكل مؤقت، مثل جبل الجليد داخل البحر. والمفهوم العلمي للعالم يقلب هذه التصور رأساً على عقب. بتحديده للوعي والإدراك (الذي هو قريب من الروح كما يفهمها العلم) بأنه مجرد صفات للكائنات الحية المعقدة، فإنه يحول الروح إلى نُهَيْر (جدول ماء صغير) على كوكب فريد في صحراء قبل ١٥ بليون سنة ضوئية.

٢- في المفهوم الديني للعالم يعتبر الكائن الإنساني: **الأقل** الذي انبثق عن **الأكثر**. فالإنسان يجر ذيول المجد منذ بداية وجوده ويحمل في وجوده آثار أصله السامي. إن البشر مخلوقات لخالقهم أو (بتعبير الفلاسفة) انبثاقات وفيوضات من الواحد الذي ينطوي على كل كمال. أما العلم فإنه يعكس تصور العلة والمعلول حيث يضع الإنسان في مرتبة **الأكثر** الذي اشتُقَّ من **الأقل**. فهو يرى أن الحياة ظهرت في الكون بشكل تصادفي وأن الكون كان في بداية أمره مجرّداً من الإحساس والوعي. ثم تطورت الحياة من شكلها البدائي إلى مستوى رفيع هو هذا الكائن الإنساني الذي نتمتع به الآن. ولا يوجد في المفهوم العلمي للكون أكثر عقلاً من الإنسان.

٣- يبشر المفهوم التقليدي للعالم بنهاية سعيدة، لكن المفهوم العلمي للعالم لا يفعل ذلك. ففي عائلة الأديان الإبراهيمية (التي أثّرت في تاريخ البشرية بنحو أكثر مما فعلته الأديان الآسيوية والقبائلية) تنتهي أرواح الأفراد وتاريخ البشرية، كلاهما، نهاية سعيدة. فالتاريخ يبلغ ذروته بمجيء المسيح المخلص (اليهودية) أو بالمجيء الثاني للسيِّد المسيح (المسيحية) أو بمجيء "**المهدي**"؛ أي المُسَدَّد لطريق الحق، الذي يظهر قبل نهاية الزمان،

ويعيد إصلاح الرابطة بين السماء والأرض حتى نهاية الزمن وقيام الساعة (الإسلام). وتقدِّم الجنّة النهاية السعيدة للأرواح الفردية، بَيْدَ أنَّ عقيدة الهلاك الأبدي في الجحيم تقتحم علينا هنا بشكل صارخ يتطلّب تخصيص فقرة خاصة للكلام عليها وهو ما سأفعله بعد أن أنهي جولتي حول النهايات السعيدة. تعتبر أديان الهند - خلافاً لنظيراتها في الغرب - أن "سامسارا"[1] Samsara (وهو تقريباً العالم الذي نعرفه الآن) غير قابل لإعادة إصلاحه. ولكن الهندوسية والبوذية، إلى جانب أديان الهند الأقل شعبية، تُعلِّمُ جميعها إمكانية الخلاص والتحرُّر من "**سامسارا**" إلى "**النيرفانا**". لقد تقبَّل شرق آسيا (اعترافاً منه بقلّة باعه في أمور ما وراء الطبيعة مع عدم إبدائه اهتماماً كثيراً بها) البوذيّة في تاريخه المليء بالفَخَار، وأوكل إليها مهمّة أمور ما وراء الطبيعة. وبما أنني تحدّثت عن البوذية سابقاً، فسأشمل بحديثي التصور الصيني، المضاف على البوذية، لنهايات الأمور، مستفيداً من لمحات خاطفة عن دين الصين الشعبي (الفولكلوري) شاهدتها بنفسي أيام طفولتي في ذلك البلد.

أمام البوابة الخلفية لمجمّعنا السكني الصغير في مدينة "**تشانغسهو**" Changshu كانت هناك ساحة مخصصة للمناسبات العامة ومراسم تشييع الجنائز. وقد تم بناء منزل من الورق المقوّى مشابه لحجم المنزل الحقيقي، ووُضعَت بداخله طاولات حقيقية وكراسي وأَسِرَّة (ورأيت مرة غطاء من حرير أصلي ممدوداً على أحدها)، وأسندت حزم من قش الرز على البيت. وفي الوقت المعيّن كان يتمّ حرق البناء بكامله في حين يطوف الأحبار البوذيون حوله وهم يعزفون الفلوت (شبيه الناي) ويغنون الأناشيد. فكرة هذا الطقس واضحة، فهي (علاوة على كونه عرضاً استهلاكياً بشكل واضح) يهدف إلى تأمين آخرة مريحة للميت. في آخر طقس شاهدته من هذا النمط، كانت هناك سيارةٌ من الورق المُقَوّى مطابقةٌ تماماً لسيارة فورد ستيشن واقفة أمام الباب، ويبدو أنهم يفترضون أنه مثلما عاش الميت في الدنيا سوف يعيش حقيقةً في الحياة التالية.

---

(١) السمسارا Samsara (في الهندوسية والبوذية) هي عالم دورات الموت والولادة غير المنتهية التي تحكم العالم الماديّ كله.

و الآن حان حديثي الذي وعدت به عن الجحيم. في الغرب، تصدم **عقيدة الهلاك الأبدي** للبعض، الموجودة في تعاليم المسيحية والإسلام، الكثيرين، وليس هذا بلا سبب، فلا أعرف أن مثل هذه العقيدة توجد إلا في ذينك الدينين. هذا لا يعني أن فكرة الجحيم **لفترة محدَّدَة فقط** فكرة غير منتشرة بشكل واسع. وأرجع هنا مرة ثانية، وللحظة، إلى طفولتي، فأذكر أن المعبد البوذي الكبير الذي كثيراً ما كان والديّ يقومان بنزهة "بيكنيك" على أرضه الجميلة، كان في داخله تمثالٌ ضخمٌ لبوذا يواجه كل من يدخل المعبد وكأنه يحييه، ولكن في حائط الجهة المقابلة كان هناك لوح ضخم جداً فيه نقشٌ بارزٌ يصل طول نتوئه إلى قدم، يصف العذاب والآلام التي سينالها المدانون بعد الموت بألفاظ مروعة تخثر الدم في العروق.

الإطالة أكثر حول موضوع الدينونة الأبدية هنا، سيخرجنا عن موضوع هذا الفصل، لذا سأنهي ذلك الموضوع بنقطتين، وأعد أن أرجع إليه في الفصل الأخير من هذا الكتاب. النقطة الأولى: إن علماء النفس وصلوا إلى شكٍّ كبيرٍ في أثر التخويف بوصفه رادعاً عن الأعمال السيئة. والنقطة الثانية: إذا نظرنا إلى عقيدة الدينونة الأبدية في إطار التدين الإنساني بشكل عام، رأيناها تبدوا بالأحرى استثناءً يُثْبِتُ قاعدة النهاية السعيدة ولا ينفيها.

أما بالنسبة للمفهوم العلمي للعالم، فليس فيه أي شيء يمكن أن يعطينا وعداً بنهاية سعيدة. والموت فيه هو الحاصد الشرس لحياة الأفراد، وأما أنه هل ستكون نهاية الأشياء بكليّتها نهاية سعيدة أو تعيسة، نهاية ذات صوت مدوٍّ عنيف أم نهاية بصوت أنين ونحيب؟ (أو أن الأشياء ستستمر بالدوران وإطلاق المادة عديمة الإحساس في الكون المتسع باستمرار) فهذا أمر متروك لتخمين كل إنسان. حاول «تيلهارد دي شاردان»[1] Teilhard de Chardin - جاهداً - أن يدخل الغائية إلى الكون المادي **بنظرية "الأوميغا"**

---

(١) تيلهارد دي شاردان Teilhard de Chardin (١٨٨١-١٩٥٥)، كاهن كاثوليكي روماني فرنسي، جيولوجي، وعالم بالمستحاثات الجيولوجية القديمة، وفيلسوف لاهوتي، اشتهر بتفسيره التطوّري لخلقة الإنسان والكون وإصراره على اتفاق التطور مع تعاليم المسيحية.

Omega Point التي طرحها. ولكن نظريته هذه لم تجد لها جمهوراً مؤيّداً بين الإلهيين (أصحاب المفهوم الديني الإلهي للعالم) ولا بين العلميين (أصحاب المفهوم العلمي المادي للعالم). الإلهيون يريدون أن يعرفوا أين يوجد الله بالضبط في سيناريو نظريته، والعلميون ازدروا النظرية ازدراءً محضاً. كتب P.B. Medawar معلّقاً على كتاب «ظاهرة الإنسان» *The Phenomenon of Man* لـ "تيلهارد" «يمكن أن نعفي مؤلفه من تهمة "عدم الأمانة" إذا اعتبرنا أنه قَبِلَ أن يخدع الآخرين، بذل جهدا مضنيا لخداع نفسه.».

٤- التباين الرابع بين المفهومين المتنافسين يتعلق بالمعنى. ففي المفهوم التقليدي للعالم، بما أن العالم خُلِقَ بإرادة وقصد من قبل كمال مطلق كلي القدرة، أو (بتعبير أقل تجسيماً) فاض عن الكمال كينبوع متدفق، حسب التعبير الأفلاطوني، فإنه عالم ذو مغزى وغاية وهدف في كل ما فيه. أما العالم في المفهوم العلمي، فالمعنى والغائية فيه سطحية جداً بعمق بشرة الجلد، والجلد هنا يرمز إلى الكائنات الحية الموجودة على بقعة صغيرة جداً في الكون الفلكي الهائل. وكما قال جون آفي John Avis و ويليم بروفين William Provine : **«إن فهمنا العصري للتطور يتضمَّن نفيَ وجود أيّة غاية نهائية للحياة»**. وينضم "ستيفن وينبرغ" Steven Weinberg إليهما معترفاً أنه : **«كلّما بدا الكون قابلاً للفهم أكثر، بدا بلا معنىً أكثر»**.

٥- و أخيراً، يشعر الناس في العالم التقليدي أنهم في بيتهم. إنهم ينتمون لعالمهم لأنهم صُنِعوا من نفس المصدر الروحي المدرك الواعي الذي صُنِعَ منه العالم. تذكرني لوحة الكاكيمونو kakemono (لوحة زيتية يابانية بشكل لفيفة) في قاعتي الأمامية، كل يوم، أن السماوات والأرض (مصطلح آسيوي يعني كل ما في الوجود) مفعمة بالإحساس والشعور. يصعب علينا، نحن أبناء هذا العصر، أن نتصور كيف نسج التقليديون عالم الطبيعة الكبير، مع الجوانب الروحية لحياتهم بنسيج واحد لا تشقق فيه.

ومثال على ذلك شعب ال "باوني" The Pawnee People في ولاية أوكلاهوما يبنون بيوتهم على نمط بناء الطبيعة حسبما يتصورونها. وإلى يومنا هذا، لا يزال أطفالهم

يجلسون على أسطحة منازلهم يستمعون من والديهم كيف خلق نجم المساء والقمر أول طفلة، وخلق نجم الصباح والشمس أول طفل. ثم يشير والديهم إلى زعيم النجوم الذي يشرق من جهة ريح الشتاء ولا يتحرك من مكانه أبداً، في حين تدور حوله بقية النجوم، ويبقى الأولاد يحدقون لهذا النجم الرئيس والنجوم السابحة حوله حتى يستولي عليهم النوم. يذكر زعيم النجوم الكبير زعماء القبائل بمسؤوليتهم للعناية بأفراد قبيلتهم. مثل هذا المعنى من الانتماء للعالم لا يمكن أن نجده في المفهوم العلمي للعالم. يتحدث الروائي الفرنسي«ألبير كامو»[1] Albert Camos إلى تلاميذه فيقول: «لو كنت قطةً لانتميت إلى هذا العالم، هذا العالم الذي أعارضه بكل وجودي». ويرى "تشيزلو ميلوزش" الشاعر البولوني الإنساني Czeslaw Milosz وهو في العقد التاسع من عمره أنه عاش هذا العمر ليرى بعينيه بزوغ فجر "**عصر التشرُّد**"!.

تحلية التفاحة الحامضة المنتنة

واضح أنَّ هناك ميل كبير لمحاولة تنعيم الإطار القاسي للمفهوم الحداثي للعالم و«لتحلية التفاحة الحامضة المنتنة» (حسب تعبير فرويد). لذلك يتم الاستشهاد بشكل منتظم بعبارة «آينشتاين» التي يؤكد فيها أن « أجمل الأحاسيس التي يمكننا أن نشعر بها: الإحساس الصوفي»، ويتم تحديث هذا الاقتباس بشكل منتظم أيضاً. وأوضح مثال على ذلك، القصة المعاصرة: «الأعماق المقدسة للطبيعة» *The Sacred Depths of Nature* للكاتبة: «أورسولا غود إينف» Ursula Goodenough، التي ترى فيها أن الطبيعة: «لا خالق لها، ولا معنى سامي لها، ولا هدف أكثر من استمرار الحياة ودوامها». ومع ذلك فإن الطبيعة تملؤها بمشاعر "**الرهبة والإجلال**".

---

(١) ألبير كامو Albert Camos (١٩١٣ - ١٩٦٠): روائي فرنسي ملحد. جزائري المولد. أكد على عبثية الحياة الإنسانية ولا معقوليتها. منح جائزة نوبل في الأدب لعام ١٩٥٧.

نحن نُسَرّ لكون الطبيعة تملؤها بذلك، ولكن كم من الارتياح يمكن الحصول عليه من هذه الرهبة والإجلال الذي توقظه الطبيعة في نفوس البشر، والذي لا أثر له إلا مجرد ملاحظة ختامية - إذا صح التعبير - تُكتَب على لوحة الطبيعة التي لا تدرك شيئاً عن هذا التمجيد الذي نوليه إياها.

إن اعتبار أعماق الطبيعة مقدّسة بحد ذاتها، دون أن يكون البشر هم الذين أضفوا عليها هذه القداسة، هو الوقوع في "خطأ" التفكير "التجسيمي" (تجسيم الله وتشبيهه بالإنسان والمادة) الذي أسماه «جون روسكين»[1] John Ruskin "**الخطأ المحزن**" أي الفكرة الخاطئة لنسبة الإحساس والشعور للشيء الذي ليس عنده إحساس وشعور.

إن "القداسة" (الرهبة والإجلال) التي تتكلم عنها البروفسورة «غود إينف» Goodenough تكمن في عينيها فقط، أي عيني الناظر والمشاهد، وعيني الذين يشاركونها في إحساسها ذاك. أما ما يوجد في أعماق الطبيعة - أي تركيبها العميق الذي انبجس عنه الإحساس والإدراك كما انبجست بتلة الورد في البحر - فهو المادة الكمية عديمة الإحساس والشعور.

ترفض البروفسورة «غود إينف» Goodenough اعتراف «ستيفن فينبرغ» Steven Weinberg المشار إليه فيما سبق[2]، إلا أن الواقع أن ما ذكره هو النتيجة المتسقة مع حقيقة المادة. إن إبداعية العلماء تجعل من السهل عليهم، أكثر من الآخرين، إيجاد حياة ذات

---

(١) جون روسكين Ruskin, John (١٨١٩-١٩٠٠)، كاتب إنجليزي، وناقد فنّي، ومصلح اجتماعيّ اشتهر بدراسته الضخمة للعَمَارَة وتأثيراتها الاجتماعية والتاريخية التي جاءت في كتابيه ((سبعة مصابيح للعمارة)) (١٩٤٩) وتكملته ((أحجار فينيسيا)) (١٨٥١ - ١٨٥٣)، اللذَين يدور محورهما حول المعنى السياسي والاقتصادي والأخلاقي والديني للهندسة المعمارية المحلية في بريطانيا. ثار في محاضراته ضد التأثيرات الاجتماعية السلبية للثورة الصناعية التي خدّرت حس الجمال لدى الناس وخفّضت القيم الإنسانية الاجتماعية، وطرح نظرية ترى أن الفنّ، الذي هو شيءٌ روحيٌّ في جوهره، وصل إلى ذروته في الفنّ القوطي للعصور الوسطى المتأخِّرة، لأنّه كان يستمد إلهامه من الحماس الديني والأخلاقي.

(٢) راجع الصفحة ٤٣ من هذا الكتاب.

معنى وهدف لأنفسهم، وهذا المعنى والهدف هو الذي يضفيه أمثال «غود إينف»، خطأ، على الكون.

في منتصف القرن العشرين كتب «جورج لوندبرغ»[1] George Lundberg كتاباً أثار معركة فكريّةً، عنوانه: «هل يستطيع العلم أن ينقذنا؟». في خضم الإجابات بنعم أو لا على ذلك السؤال وجدتُ جوابي الخاص التالي: «إن العلم يمكن أن ينقذ العلماء لأن روعة الاكتشاف والإحساس بأن الإنسان قد توصل إلى أشياء مهمة وخطيرة يشبعان الروح بشكلٍ كبيرٍ».

عندما كنت أدرّس في «معهد مساتشوسيت للتكنولوجيا»، كَثُرَ في أروقة الجامعة تداول القصة التالية: عندما كان «إدوارد لاند» Edward Land وشريكه، يمران في الفترة الحاسمة لاكتشافهم العمليةَ التي أدت لاختراع المصوِّرة المستقطبة Polaroid camera، كانا يعملان على مدار أربع وعشرين ساعة، وفي لحظة ما غالبهما النعاس وهما جالسان إلى طاولة مختبرهما، التي عليهما أن يناما عليها ببساطة. عندها قال شريك "لاند" أنه مرهق جداً وأنه من اللازم أخذ فترة استراحة. فأجاب "لاند": "حسناً، إذن نستطيع أن نقوم بالتسوّق لأجل عيد الميلاد "الكريسماس" في طريقنا"، فأجابه شريكه: "إدوارد! اليوم ٣ كانون الثاني (يناير)!" (أي مضى على الكريسماس عشرة أيام).

كما يحصل عادة في سير العظماء، ربما يكون هناك شيء من المبالغة في رواية هذه القصة، ولكن من اشتغل بعمل اكتشافي لن يفوته مغزاها. إن نقطتي التي أريد بيانها في هذه القصة هي بيان الفرق بين الإشباع النفسي الذي أتى من اختراع "المصورة المستقطبة" من جهة، وذاك الذي يأتي من شرائها من الجهة الأخرى.

---

(١) رئيس تحرير مجلة الجمعيَّة الطبيَّة الأمريكيَّة لفترة طويلة، وأخرج منها عام ١٩٩٩.

مدى خطورة المسألة (المبحوث عنها)

كما قلتُ سابقاً، لقد حاولت في هذا الفصل أن أتجنب مسألة الحقيقة (أي ما هو الحق والصواب) واقتصرت ببساطة على عقد مقارنة توضح التباين بين المفهومين العلمي والديني للعالم، اللذين يتنافسان على عقل الإنسان في المستقبل. ولم أُشرْ، إلا بنحو عابر، للسبب الذي دعاني لعقد مثل هذه المقارنة، لذا آن الأوان لتوضيح سبب ذلك بشكلٍ كاملٍ.

عندما نسلم جدلاً بصحّة مواقف معيّنة، فإننا لا نحتاج إلى البراهين المثبتة لها لأنّها تبدو بديهيةً تنبع صحّتها من ذاتها. هذه نقطة، وهناك نقطة ثانية يشيع عدم الانتباه إليها أيضاً أكثر من الأولى، وهي أنه في الحالات التي نبحث فيها عن براهين تثبت نظرية ما، فإن أهمية هذا البحث وجديّته يعتمدان على خطورة النتائج التي يترتب عليها ثبوت النظرية أو عدم ثبوتها. مثلاً لاختبار قوّة حزام بنطال، نقوم بشده بقوّة، ونتائج هذا الاختبار ليست ذات أهمية إذ في حال عدم ثبوت المطلوب كل ما سيحصل هو انقطاع الحزام. لكن الوضع يختلف تماماً عندما يتعلّق الأمر بحياة الإنسان، لذا فإنّ قوّة حبال المظلّة (البراشوت) يجب أن يتم تعييرها بشكل دقيقٍ تماماً، لأن عدم تحقق ذلك يودي بحياة المظلي.

نتيجة النقطتين السابقتين هي التالي: بما أن المفهوم التقليدي للعالم شعبيته قليلة عندنا هذه الأيام لذا لا بد من البرهان على صحّته بشكل قاطع، إذا أريد له أن يستمرّ. ثم تأت النقطة الثانية: إن الجديّة التي يجب أن نوليها لهذا البرهان تعتمد على خطورة النتائج التي تترتب على ثبوت ما نبرهن عليه. أي مدى خطورة وأهمية الأمر المبحوث عنه. وأكرر هذه الجملة لأنه كان من الممكن أن تفيد كعنوان لهذا الفصل الثاني من كتابي الذي بينت فيه ما يؤكد ويدعم العنوان الكلي للكتاب: "**لماذا الدّين مُهِمّ؟**"

الخاتمة

كان موضوع التفوّق الذاتي للمفهوم التقليدي للعالم على بديله العلمي هو محور هذا الفصل، ولكن أريد أن أختم هذا الفصل بالعودة بشكل قوي لإثبات هذه النقطة، دون

إعادة تفصيلها، بل سيكفي لذلك ذكر تباينٍ صارخٍ أخيرٍ بين المفهومين يعقبه شهادةٌ لأحد أكبر العلماء في القرن العشرين.

أولاً التباين:

قبل عشر سنوات افتتحت مراجعة لكتاب في مجلة تاريخ التعليم العالي *Chronicle of Higher Education*، كلامها بهذا التأكيد الصريح: «**إذا كان هناك من شيء يميز عصر "الحداثة" فإنه فقدان الإيمان بالتسامي** (أي بالفائق المتعالي على المادة الظاهرة) Transcendence، **أي بالحقيقة التي تشمل شؤوننا اليومية وتتعالى عليها وتسمو فوقها**». فإذا وضعنا ذلك التأكيدَ إلى جانب الشهادة التالية لأحد أبرز شعراء عصرنا الإنجليزيين: "ديفيد جاسكوين" David Gascoyne، تبيَّنَ لنا بكل وضوح موضوع هذا الفصل. يقول ذلك الشاعر: «**إن الفكرة الأساسية التي بقيت ثابتةً وكامنةً خلف كل ما كتبته هي أن طبيعة الإنسان لا تتحمّل مطلقاً الحرمان من البعد الروحيّ والميتافيزيقي (الديني).**».

ونضيف إلى ذينك التأكيدين قرار«جاك مونود»[1] Jacques Monod عميد علماء المايكروبيولوجيا (علم الأحياء المجهرية أو الجرثوميات) الذي صرَّح به قبل وفاته قبل جيل من الآن. لقد ذكر حكمه هذا في خاتمة كتابه "**الحظ والضرورة**" Chance & Necessity فقال:

((لم يحصل للمجتمعات السابقة أن انطوت على هذا القدر من التناقضات المعذّبة التي يعاني منها مجتمعنا المعاصر. لقد رأى المفهوم الروحي للعالم (المرادف الذي يستخدمه"جاك مونود" لما أعبر عنه في كتابي بالمفهوم التقليدي للعالم)، في كلا الثقافتين البدائية والكلاسيكية، أن المعرفة والقيم ينبعان من مصدر واحد. ولأول

---

(١) جاك مونود Jacques Monod Lucien (١٩١٠ - ١٩٧٦) عالم بالكيمياء الحيوية فرنسي اكتشف نظام ((الأوبرون)) Operon system الذي يتحكّم بعمل الجينات (المورثات) في البكتريا. حاز عام ١٩٦٥ على جائزة نوبل بالمشاركة مع اثنين من زملائه في حقل علم وظائف الأعضاء (الفيزيولوجيا) لما قدموه من أبحاث واكتشافات في آلية العمل المنتظمة للمورثات (الجينات).

مرة في التاريخ تحاول حضارة من الحضارات أن تشكل نفسها بالتشبث باستماتة بالتقليد الروحاني لتبرير قيمها، وفي نفس الوقت تتخلى عن التقليد الروحاني كمصدر لمعرفتها.

وكما أنه يمكن لِ "خيار" ابتدائي أن يحدد كل مسيرة التطور البيولوجي المستقبلي للأنواع، كذلك الشأن في "خيار" الممارسة العلمية، فإن خياراً لا شعورياً في البداية، أطلق تطور الثقافة في مسارٍ ذي اتجاه واحد: هو الطريق الذي رأى فيه "مذهب العلمويَّة" Scientism للقرن التاسع عشر طريقاً صاعداً، بنحوٍ مؤكّد النجاح، نحو نعيم جنة للبشرية، في حين أن ما نراه أمامنا اليوم ليس إلا هاوية من الظلمات.)).

أما مسألة أنه هل البرهان العلمي يتطلب منا فعلاً أن نستسلم لأكثر التناقضات تعذيباً في التاريخ، أم أننا وقعنا في هذا التناقض جراء خطأٍ منطقيٍّ فحسب، فهذا يبقى للفصل القادم.

الفصل ٣

النفق المظلم بحد ذاته

لم يلقَ المفهوم العلمي للعالم حقَّه بسبب تأجيل الخوض في قضايا الحقيقة (أي البحث في الصِّحَّة وعدمها) في الفصل السابق. وربما صبر بعضُ أنصاره على قراءة ما قيل في الفصل الماضي على أساس أنه عندما سنصل إلى مرحلة تقييم الحقيقي من غيره فإن المفهوم العلمي للعالم سيستعيد اعتباره؛ وإذا كان الأمر كذلك، فإن الاستراتيجية التي أعلنتها للفصل الماضي كان لها بعض الأثر. لأنه لما كان المفهوم التقليدي للعالم قادماً من الماضي، كان لا بُدَّ من بذل جهد لكسب آذانٍ صاغيةٍ له، إذ لو بدأت بقضية الحقيقة والصواب من الأول؛ لقفزت أمامنا بقوة كلمات أمثال "كوبرنيكوس" Copernicus و"داروين" Darwin، لتجعل العقول تدير ظهرها بشدة للماضي _ على الأقل هذا ما كنت أخشاه.

أما وقد استعدَّينا الآن لسماع ما تقوله الحقيقة حول الصحة والدقة المقارنة للمفهومين العلمي والديني للعالم، فإننا نجد أن ما يمكننا قوله ضئيلٌ جداً وليس حاسماً أو قاطعاً. نحن نفترض ـ بشكل عام ـ أن الكشوف العلمية أحالت إلى التقاعد التصور التقليدي للكون، وهذه هي بالضبط غلطتنا الكبرى، ذلك لأن هذه الكشوف تنتمي للكون الطبيعي فقط (أي الكوزمولوجيا أو علم الكون المادي)، في حين أن موضوع المسألة الميتافيزيقية هو

البحث فيما إذا كان ذلك الكون الطبيعي هو كل ما يوجد أصلاً. إن تصورنا أن العلم يمكنه التحدث عن هذه القضية الميتافيزيقية يشبه تصورنا أن أناساً يطيرون في الفضاء في منطاد كبير، يمكنهم استخدام نفس الضوء الومضي الذي يضيء داخل المنطاد لمعرفة أين موقع المنطاد في الفضاء!! أو يشبه أن نستنتج من سماعنا لكون الصبيان في الحي الفلاني مهتمين فقط بالفتاة "سوزي"، أنه لا توجد في ذلك الحي إلا تلك الفتاة فقط!!

حسناً، إذا لم يكن في استطاعة العلم أن يخبرنا ماذا يوجد وراء الكون الطبيعي فمن الذي في مقدوره ذلك؟ إذا كان المقصود أن يكون في مقدوره أن يخبرنا بشكل قاطع فلا أحد، ولكن سيكون من الحماقة عدم البحث في كل الموارد المتاحة التي يمكنها إرشادنا في هذا المجال. الواقع أن مجموع الأشياء - بنحو كلي - ليست كما يقول العلم وحده، ولا كما يقول الدين وحده. إنها كما يقول العلم مع الدين مع الفلسفة مع الفن مع الفطرة السليمة مع حدْسنا العميق مع تفكيرنا العملي، مجتمعة. إن كل ما قالته تلك المصادر المتممة لبعضها البعض - باستثناء العلم الحديث الذي يعمل برؤية محدودة جداً (انظر الفصل الثاني عشر من الكتاب) - حول الصورة الكليَّة الكبرى، خلال تاريخ الجنس البشري، يمثل تصوّراً واحداً للعالم واضحاً وملهماً بنحو رائع. **هذا المفهوم للعالم الذي أعتبره زبدة حكمة الجنس البشري يوجد مقطَّراً (إن صح التعبير) في أديان العالم الكبرى الباقية.**

أنا أعتبر هذا التقرير التجميعي أفضل قياس لحقيقة كل الأشياء التي أمامنا ولكنني لا أستطيع أن أبرهن على ذلك. لذا سأقول شيئاً آخر قبل البدء بالموضوع الأساسي لهذا الفصل.

تُعَرِّف النظريةُ البراغماتيةُ الحقيقةَ بأنها كل ما يثبت فائدته العملية. أنا لست مغرماً بهذه النظرية، ولكننا إذا لم نعطها الكلمة الأخيرة، فإنها نظرية تضع أمامنا أموراً تستحق التفكير، وهنا تنتمي طروحاتها الشائقة للتأثير المُرْضي عملياً (حتى ولو لم يكن ذا حقيقة، كتأثير الدواء الذي يُعْطى لإرضاء المريض فقط). يمكن ترجمة ما ذُكر في ضوء علم النفس

عل النحو التالي: إذا كنت تتصوّر أن شيئاً ما يفيد فإنه يفيد، أو بشكل أكثر عمومية: إذا فكّرت بشكلٍ إيجابيٍّ فإن جهازك المناعيّ يستجيب بشكل إيجابيّ.

إذا كانت هذه هي الحقيقة السايكوسوماتية [١] للمادة، فإن امتدادها هو أن الموقف الإيجابي تجاه الحياة يعطي ثماراً مفيدة جداً للإنسان. ويبدو من السليم القول إن نقاط المقارنة الخمس السابقة بين المفهومين الديني والعلمي للعالم تبيِّن أن الأول يساعد أكثر من الثاني على حياة إيجابية، وفيما يلي ثلاث وقائع اخترتها كيفما اتفق تتكلم على نتائج مثل هذا الموقف:

- قام طالب يدرس علم النفس في جامعة نيويورك، بإجراء تجربة على طلاب كانوا يأخذون دورةً صيفيةً في القانون التجاري. قسَّم الطلاب إلى مجموعتين: مجموعة تجريبية ومجموعة ضبط. وجعل طلاب كل مجموعة يجلسون لمدة دقيقة واحدة في غرفة منفصلة أمام شاشة فارغة، وذلك قبل دخولهم إلى كل حصة من حصص دورتهم. وجعل صورة خاطفة تومض أمامهم على الشاشة، وكل ومضة تستغرق أجزاء من الثانية فقط، ـ وهو وقت أقل مما يتطلبه إدراك واع لمحتواها ـ. كانت الصورة الخاطفة التي تومض أمام طلاب المجموعة التجريبية تعرض جملة تقول: «أنا ومامي(أي أمي العزيزة) شخص واحد» أما بالنسبة لمجموعة الضبط فالصورة تعرض جملة« الناس يمشون في طريقهم». عند انتهاء الدورة الصيفية تبيَّن أن طلاب المجموعة التجريبية حازوا في دورتهم على درجات أعلى بنحو ملحوظ مما حاز عليه طلاب المجموعة الثانية.
- أظهرت تجارب «روبرت روزنتهال» [٢] Robert Rosenthal الشهيرة بـ «بيجماليون في قاعة الصف» أنه عندما يرفع الأساتذة مستوى توقعاتهم من طلاب معينين

---

(١) Psychosomatic سايكوسوماتي: جسدي نفسي: متعلق بـ(أو ناشئ عن) التفاعل بين الظواهر الجسدية والظواهر النفسية.

(٢) "روبرت روزنتهال": عالم نفس أمريكي معاصر اشتهر بتجاربه النفسية التربوية.

فإن هؤلاء الطلاب يتأثرون إيجابياً بهذا الأمر بنحو يزيد من ثقتهم بأنفسهم ويحسّن من مستواهم الدراسي ويجعل نتائجهم أفضل مما كانت عليه من قبل.

- أظهرت دراسة قامت بها جامعة ديوك Duke University عام ١٩٩٩، أن عدد الوفيات بين الأشخاص الذين يرتادون الكنيسة، خلال فترة سبع سنوات، أقل بنسبة ٢٨٪ من الأشخاص الذين لا يذهبون إلى الكنائس.

وهناك دراسات أخرى كثيرة من هذا النمط وكل الذي اطلعت عليه منها، اتفقت نتيجته مع نتيجة هذه الدراسة. لذا أقول أن الاعتبارات البراغماتية توجب علينا أن نتأمل مليا في هذه الأمور المذكورة أعلاه. ومع ذلك فلن أطيل في ذكر أمثال تلك الشواهد بل سأغلق الموضوع هنا بسرعة. وليست المسألة أنه كلما حاول الإنسان أن يجد مزيداً من تلك الشواهد، جاء جبلٌ من الاحتمالات المُتصَوَّرة المناقضة والاستثناءات غير المتوقّعة، ليغبّش الصورة ويميّع النتيجة التي يراد إثباتها فحسب، بل الأهم من ذلك بكثير هو أن استخدام نتائج الإيمان الديني الإيجابية لإثبات صحة الإيمان الديني نفسه، ليس أمراً مجدياً، لأن الدواء الكاذب الذي يعطى للمريض لمجرد إرضائه النفسي، لا يحدث هذا التأثير الإيجابي إلا عندما لا يعرف المريض حقيقة الدواء (أما إذا كان منذ البداية عالماً به ومقتنعا بعدم جدواه فلن يتأثر إيجابياً به). والحقيقة أن المفهوم التقليدي للعالم إذا كانت له آثار إيجابية مفيدة على الإنسان، فإن ذلك ينبع من يقين الإنسان ابتداءً بأن ذلك المفهوم حق وصدق. وإلا فلا يمكن لإنسان أن يقتنع أن الموضوع "س" حق لمجرد أن هذا الموضوع يحقق مكاسب وأرباح في الحياة. هذا بالإضافة إلى أن دراسة جامعة ديوك المذكورة أعلاه، تطرح خطراً آخر: عندما تكون نتائج الإيمان الديني جيدةً دنيوياً مثل إعطائه فوائد صحية وراحة نفسية...، فإن التركيز على هذه النتائج يحول الدين إلى مركز خدمات إبهاج وإرضاء للذات، وتحول الكنائس إلى نوادٍ صحية. وهذا في الواقع عكس هدف الدين الحقيقي الذي يرمي إلى إزالة مركزية "الأنا" من حياة الإنسان، لا العمل قوّاداً لأجل رغباته الدنيوية.

أنطلق الآن، بعد توضيح هذه النقطة الإيبيستيمولوجية (النظرية-المعرفية)، إلى النفق

الذي أدخَلَنا إليه العلم الحديث عندما لبس لبوس الميتافيزيقيات . وضع الفصل السابق من الكتاب ، "النفق" في أرضه التي يقع فيها ، وهذا الفصل سوف يدرس النفق بكليّته ، في حين ستعالج الفصول الأربعة التالية جوانب النفق الأربعة. ولكنني سأبدأ كل هذه الفصول الخمسة ، المتعلقة بالنفق ، بكتاب اخترته ليخدمني كرائد مرشد وسأتتبع آثار مسيره بكل أمانة لدرجة أن القارئ يستطيع أن يتصور النصف الأول من كتابي ، كقطع موزاييك رتبت من ذلك الكتاب الذي سأستخدمه مقدمةً لفصول كتابي المذكورة .

الكتاب المرشد لمسيرة هذا الفصل

كان كتاب "**النفق المظلم**" الذي ألفه «**ويليام جاس**»[1] William Gass عام ١٩٩٥ ، منافحاً قوياً عن الفكرة . وقد استخدمتُ عنوانَه كاستعارة سارية في كل كتابي ، وكان كتابه مظلماً كئيباً بنحو قابض للصدر تماماً كما هو شأن النفق . وكان بطلُ كتابه أكثرَ تنفيراً وكراهيةً مما يمكن أن يكون عليه البطل المنفِّر والمكروه لأي روايةٍ قصصيّةٍ أخرى . قرّر بروفيسور التاريخ في جامعةٍ في وسط غرب أمريكا ، في الأواسط من عمره ، أن ينزل إلى قبو منزله الكبير ، منزلٌ من منازل الطبقة المتوسطة من الناس ، ليهرب من زوجته الكريهة التي لا يحبها ولا يرغب في العيش معها . ويبدأ ، من القبو ، بحفر نفق تحت المنزل باتجاه خارج أسس بنائه ، منبطحاً على بطنه الكبيرة السمينة ومتلوياً بين الطين والغبار في طريقه للخروج . إنه يحاول الهروب من حياته ومن الزمن الذي يعيش فيه والذي رمز إليه ببيته الرهيب .

إن خط القصة يناسب جداً هذا الفصل الثالث من كتابي لدرجة أنه لولا وجود نقطتي اختلاف هامتين بين كتاب "جاس" وبين كتابي لتصورت أن السر وراء تأليف "جاس" لكتابه ليس إلا حملي على أن أؤلف كتابي هذا . أما نقطتا الاختلاف فهما أولاً أن كتاب "جاس" كتاب أرستقراطي (كتاب الطبقة العلية من المجتمع) كُتبَ للنخبة المثقفة فقط ، في حين أن

---

(١) "ويليام جاس" كاتب أمريكي معاصر ، أديب و روائي وناقد أدبي .

كتابي للعامة حاولت فيه جاهداً ما أمكنني أن أبسِّط أدلته التي لا يخلو أكثرها من صعوبة. وكتابه «**بعد حداثي**» (أي ينتمي لعصر ما بعد الحداثة) بكل معنى الكلمة بل وبشكل حاد. وقد رحب البعض بكتابه على أنه «ما بعد حداثي» على نحوٍ لا سابق له. ولقد كتبه مؤلفه - متعمِّداً - بصورةٍ مبهمة تحتمل تفسيراتٍ متعددةً، لكي يسمح بقراءات عديدة في كل عصر. أما هدفي من كتابي هذا فهو العكس تماماً، حيث أسعى أن أكون واضحاً ومباشراً بقدر ما تسمح به طبيعة الموضوع.

بعد أن أوضحت عدم أهلية كتاب "النفق" لقيادة مسيرة فصلي هذا، أصلُ الآن إلى كتاب «**الأرض البوار**» *The Waste Land* لـ «ت. س. إليوت»[1] T. S. Eliot - الذي أسرعُ في القول إنني انتخبته من بين عشرات الكُتب الأخرى في نفس الموضوع - ذلك لأن أحد أهم العلامات الدالة على أننا في **نفق مظلم** هو الطريقة التي استبدل بها القرن العشرون "**الطوباويات**[2]" بـ "**عدم الطوباويات**". إنه القرن الذي سرق فيه السياسيون "**الأمل**" على نحو لم يسبق له مثيل، مما جعل جميع الكتابات الطوباوية - كالوعد «بالحرب من أجل إنهاء جميع الحروب» و«الحرب لأجل جعل العالم آمناً ديموقراطياً» و«جعل القرن العشرين قرن الإنسان العادي» و«عصر الحريات الأربعة» و«عصر العولمة» و«عصر المجتمع الكبير» و«عصر النظام العالمي الجديد» - تصل إلى توقف مميت. لقد تنبأ "نيتشه" Nietzsche بصورة القرن العشرين على نحو واضح كما لم يتنبأ به أحد، وإليكم حكمه: «**الأفضل كثيراً لن يولد أبداً، والأفضل التالي سيموت قريباً**». أما الكاتب "ييتس" Yeats فيقول:

---

(١) ت. س. إيليوت T .S. Eliot (١٨٨٨ – ١٩٦٥) كاتبٌ وشاعرٌ أمريكيٌّ، اعتبر أحد أعظم شعراء أمريكا في القرن العشرين. كانت قصيدته الشهيرة (الأرض البوار) The Waste Land (١٩٢٢) نقداً كاسحاً للمجتمع في عصره. كتب "إيليوت" الدراما والنقد الأدبي، وسعى من خلال مسرحياته التي تعتمد الشعر إلى إعادة إحياء الدراما الشعرية لجمهوره المعاصرين. نال جائزة نوبل للآداب عام ١٩٤٨. **سبر في قصائده الخواء الروحي لمجتمعه المعاصر، واصفاً إياه بالموت الروحي للأحياء.**

(٢) الطوباوية: فكرة المدينة الفاضلة: أي مدينة ذات مجتمع مثالي في قوانينه وحكومته وسياسته وسائر أحواله الاجتماعية، بنحو مثالي يتعذر حصوله.

«الأفضل هو فقدان كل يقين، والأسوأ هو أن يمتلئ الشخص بالانفعال والعاطفة». وانتهى «كازانتسكيس»[(١)] Kazantzakis إلى أن «الأمل ليس إلا مومس نتنة الفخذين»، وحتى «بركسون» Bergson - (الذي رفع أفكار "داروين" من مستوى "علم الأحياء" إلى مستوى "الفلسفة") - سار في هذا الخط حتى آخره حين وصل إلى تصوره بأن «الإنسان سُحِقَ بنفس التقدم الهائل الذي حققه». لم أعتبر "سارتر" Sartre في وقت من الأوقات مفكراً عميقاً، لكن هذا لا يمنع أنه كان فينومينولوجياً[(٢)] داهيةً، وقد وصل، على الصعيد الوجودي الذي كان ميدان تخصصه، إلى نتيجة: «يجب أن نتعلّم أن نعيش بلا أمل»، ويردِّد عنوان أحد الأفلام السينمائية صدى هذه العبارة فيقول: «لقد رأيت المستقبل: إنه مستقبل فاشل».

إذا أخذت بعين الاعتبار تصريحات من هذا القبيل، لرأيت أنه يمكنني أن أختار أيَّ عدد من الكتب ليقود مسيرة هذا الفصل من كتابي: مثل كتاب «آرثور كوستلر»[(٣)] Arthur Koestler: «ظلام في وسط النهار» Darkness at Noon، أو كتاب «صموئيل بيكيت»[(٤)] Samuel Beckett: «في انتظار غودو» En attendant Godot، أو كتاب

---

(١) كازانتزاكيس، نيكوس Kazantzakis, Nikos (١٨٨٥-١٩٥٧) كاتب ومترجم يوناني، أشهر أعماله التي ترجمت إلى اللغة الإنجليزية قصته ((زوربا اليوناني)) (١٩٤٣) التي تم فيما بعد إنتاج فيلم ناجح على أساسها وهي قصة تحكي حياة عامل منجم يوناني معمّر مفعم بحبٍّ للحياة لا يقهر.

(٢) الفينومينولوجيا Phenomenology: علم الظواهر: وهو فرع من العلم يبحث في أنواع الظواهر الاجتماعية ويقوم بتصنيفها بعيداً عن أي تقييم أو تأويل لها.

(٣) آرثور كوستلر Arthur Koestler (١٩٠٥-١٩٨٣)، روائي وصحفي وكاتب إنجليزي، من أصل مجري. عمل في العشرينات والثلاثينات مراسلاً أجنبياً لعدد من الصحف الأوروبية. انضمّ إلى الحزب الشيوعي عام ١٩٣١ لكنه تركه محبطاً عام ١٩٣٧. خدم أثناء الحرب العالمية الثانية في الجيش البريطاني وأصبح بعدئذ مواطناً بريطانياً. أشهر أعماله روايته: ظلام في وسط النهار Darkness at Noon (١٩٤١) التي تحكي قصة حملات التطهير أو المحاكمات السياسية الجائرة التي مارستها موسكو في الثلاثينات. وقد ترجم الكتاب إلى ٣٠ لغة عالمية ثم أخرجت على أساسه مسرحيّة ناجحة عام ١٩٥١.

(٤) صموئيل بيكيت Beckett, Samuel (١٩٠٦-١٩٨٩)، شاعر وكاتب مسرحي ايرلندي المولد عاش في فرنسا وكتب رواياته ومسرحه باللغة الفرنسية، نال شهرة دولية بسبب مسرحيّته ((في انتظار "غودو") En attendant Godot، التي عرضت عام ١٩٥٣، والتي يحكي فيها قصة صعلوكين ينتظران تحت شجرة على طريق ريفي معزول شخصاً اسمه ((غودو)) وبقوا في الانتظار طوال حياتهما دون جدوى، إذ لم يكن لذلك

«أودين» Auden : «عصر القلق» *The Age of Anxiety*، أو كتاب «آلدوس هوكسلي»[1] Aldous Huxley : «العالم الجديد الشجاع» *Brave New World*، أو كتاب «جورج أورويل»[2] George Orwell « ١٩٨٤»، وكتاب «إس. سي. لويس» S. C. Lewis : «حذف الإنسان» *The Abolition of Man*، أو كتاب «هربرت ماركيوز»[3] Herbert Marcuse : «الإنسان الأحادي البُعْد» *One Dimensional Man*، أو عدد آخر لا يحصى من الكتب المماثلة. ولكنني اخترت كتاب «**الأرض البوار**» *The Waste Land* من بينها جميعاً لأن عنوانه بحد ذاته يخبرنا القصة كاملةً، ولأنه، أيضاً، يتزاوج بنحو منطقي مع تكملته ونتيجته: أعني كتاب «**البشر الخاوون**» The Hollow Men، للمؤلف نفسه، ليعطينا رسناً كتابياً (وفي حالتنا: شعرياً) نقود بواسطته سَيْرَ هذا الفصل وخطواته. يردِّد المقطع الشعري المألوف لهذه القصائد، عبارات عن القرن

الشخص وجود في الواقع. فاز بجائزة نوبل عام ١٩٦٩ وترك أثراً واضحاً على جيل كامل من المسرحيين، بما في ذلك عدد من الكتاب المسرحيين الإنجليز والأمريكيين. بدلا من عرضه لقضايا سطح الحياة التي يمكن للجميع ملاحظتها، بدا ((بيكيت)) ميالاً أكثر للخوض في عمق الحياة الإنسانية وبيان تناقضاتها ولامعقوليتها، الأمر الذي جعل بعض النقّاد يعتبرون أدبه ((أدب السخف واللامعقولية)) 'Literature of the Absurd'.

(١) ألدوس هكسلي Aldous Huxley (١٨٩٤ - ١٩٦٣): روائيٌّ وشاعرٌ وكاتبٌ وناقدٌ إنكليزيٌّ. له أكثر من ٤٥ كتاباً. هاجم الماديّة العلميّة التي تهدّد القيم الإنسانيّة بأعظم الخطر. سَحَرَتْهُ صوفية الشرق في المراحل الأخيرة من حياته الأدبية. أشهر آثاره رواية (العالم الجديد الشجاع) Brave New World (عام ١٩٣٢) وقد صوّر فيه بأسلوب ساخر مجتمع المستقبل المُمَكْنَن (الآلي) المجرَّد من العاطفة.

(٢) جورج أورويل Orwell, George اسم مستعار لإيريك آرثر بلير (١٩٠٣-١٩٥٠)، كاتب بريطاني، صبغت رواياته الرائعة وضميره السياسي حياته وأوقاته بصبغة عاطفيّة جيّاشة. ولد في الهند ودرس في إنجلترا وخدم في الشرطة الإمبراطورية الهندية في بورما (المعروفة الآن بميانمار) من ١٩٢٢ إلى ١٩٢٧، ثم استقال منها وعاد بعد ذلك إلى إنجلترا مصمما على الكلام ضدّ هيمنة أيّ شخص على آخر فكتب ((الأيام البورمية)) (١٩٣٤)، الذي تضمّن إدانة شديدة للإمبريالية البريطانية. وعبر بأسلوب فائق في روايته المجازيّة ((مزرعة الحيوان)) (١٩٤٥) عن إدانة المجتمع التوتاليتاري (مجتمع حكم وسيطرة الحزب الواحد) الاستبدادي.

(٣) هيربرت ماركيوز Marcuse, Herber (١٨٩٨-١٩٧٩)، فيلسوف أمريكي ألماني الأصل اشتهر بكونه أحد أبرز المنظرين لليسار الجذري (الراديكالي) واليسار الجديد وناقداً حاداً للنظام المؤسّس.

العشرين تشبه الكلمات القصيرة التي تنقش على ضريح شخص تكريماً لـه وإحياءً لذكراه.

يقول في كتاب "الأرض البوار":

أبريل هو أقسى الشهور، إنه يستولد أزهار الليلك (الزنابق) من الأرض الميتة....
كيف تنبت الأغصان من هذه النفايات الصخرية؟ يا ابن الإنسان
إنك لا تستطيع أن تقول، أو تخمِّن، لأنك تعرف فقط
أنه حيث تضرب الشمس يكون هناك ركام من الصور المحطمة،
و أن الشجرة الميتة لا تمنح ملاذاً، وأن لعبة الكريكيت لا تمنح خلاصاً
و أن الصخرة الجافة لا يخرج منها صوت خرير الماء

وفي كتابه الآخر "الناس الخاوون"، يصف "إليوت" قاطني هذه **"الأرض البوار"** بالعبارات التالية:

نحن الناس الخاوون
نحن الناس المحشيون غروراً
مستندون إلى بعض
رؤوسٌ مليئة بالتبن، واحسرتاه!.
أصواتنا الجافة
عندما نهمس مع بعضنا
همسات هادئة وفاقدة للمعنى
مثل الريح في عشب جاف
أو مثل قدم جرذ فوق زجاج محطم
في قَبْونا الجاف

إن محور هذا الفصل من كتابي، ليس إلا توسيعا لخطوط «ت. س. إليوت» هذه، ولكن بطريقتي الخاصة.

النفق موضوع البحث

أذكِّر القارئ (بما قلته في الفصل الثاني من كتابي هذا) أن استعارة "**النفق**" في هذا الكتاب لا تنطبق على عصرنا بكليَّته، وإنما على تصور العالم الذي ضللنا فيه عن جهل. وهذا الأمر يمثل صعوبة في الواقع، لأن تصورات العالم (كما بيَّنْتُهُ في ذلك الفصل) تميل إلى المرور دون أن ينتبه إليها أحد. وهذا لم يكن مهما في العهد التقليدي لأن التصورات الكونية في ذلك الزمن كانت تدعم وتقوي الحياة. كانت المعابد هي أهم الأبنية، والتماثيل تمثل الآلهة والقديسين، وكانت القصص والأغاني والرقصات تلعب دور التمثيليات الأخلاقية، وكانت الأعياد Holydays أعياداً دينيةً، أي Holy Days (= أياماً مقدسةً) على الحقيقة. كنت تجد في كل مكان ما يذكرك بالمقدس، منتشراً هنا وهناك، بلا مبالاة تقريباً، إذا صح لنا القول. روى "ماركو بولوس" أن "التِّبيت"[1] - التي عرفها في ذلك العصر التقليدي - كانت تبدو غارقة بأسرها في رسالة تعاليم بوذا: «*كانت تلك التعاليم تصل الإنسان مع الهواء الذي يتنفسه. الطيور كانت تبدو وكأنها تغرد تلك التعاليم، والعيون المتفجرة من صخور الجبال تهمهم عباراتها المتكررة. كانت هناك رائحة عطرة تبدو وكأنها تفوح من كل وردة، لتكون تذكيرا وإشارة في الوقت نفسه إلى الأعمال التي لا يزال علينا عملها. لقد كان هناك وقت يشعر فيه الإنسان أنه ربما يكون قد غفر له لأنه يرى نفسه أنه من الآن قد حلَّ في أرض الطهر.*».

في أزمنة كتلك، لم تكن هنالك حاجة لإحالات صريحة للمقدّس، ولكن مثل تلك الأزمنة ولّى عهدها منذ زمن بعيد. واليوم لم نعد نعيش تحت ظل تلك المظلة المقدسة. لقد رمت الثقافة المعاصرة تلك الأشكال وراء ظهرها جاعلة منها مجرد ستارة خلفية لمسرح الحياة. إن رسالة الحياة المعاصرة، التي تصم آذاننا كل يوم بضجيجها وصخب دعاياتها، وتنفذ إلى عقولنا بوعي أو بغير وعي، تتلخص في أن «**السعادة تأتي من الأشياء التي**

---

(١) إقليم واسع غرب الصين الحالية، يقع على هضبة كبيرة، ويدين أهله بمذهب خاص من البوذية.

نمتلكها». ولأن هذا ليس بصحيح، فإن تلك الرسالة أضرتنا كثيراً، ولذلك فإننا بحاجة لأن نعي التصور الكوني الذي يرعى ويقدم مثل تلك الرسالة. صحيح أن الخط الذي يصل بين التصور المادي للكون والفلسفة المادية للحياة ليس خطاً مباشراً مستقيماً، ولكنه خطٌ موجود فعلاً على أية حال. ولسوء الحظ، فإن الفلاسفة الذين كانوا يقومون بمهمة مراقبة التصورات المختلفة للكون وما ينجم عن كل منها من نتائج، تنصلوا في عصرنا هذا من مسؤوليتهم تلك. حذَّرَ «جاك ماريتين»[1] Jacques Maritain، منذ بدايات القرن التاسع عشر، من أن «**ضعف الروح الميتافيزيقية يمثل خسارة لا يمكن تقديرها بثمن، للنظام العام للعقل البشري والقضايا الإنسانية**». ولكن الفلاسفة المعاصرين لم يكن لديهم المزاج الذي يسمح بإصغائهم لذلك التحذير واختاروا «**هدم صرح الميتافيزيقيات**» الذي تميز به عهد ما بعد «نيتشه». يقول «ر. ج. كولينغ وود»[2] R. J. Collingwood: «**إننا نعيش في عصر أصبح فيه مجرد القبول بإمكانية وجود شيء اسمه "ما وراء الطبيعة"، يحتاج لجهد وكفاح كبيرين**». وتؤيد «آيريس موردوك»[3] Iris Murdoch

---

(١) جاك ماريتان (١٨٨٢-١٩٧٣)، فيلسوف فرنسي، اشتهر بتطبيقه لتعاليم الفيلسوف المدرسي المسيحي الشهير في القرون الوسطى: القديس توما الأكويني على مشاكل الحياة الحديثة. رغم نشأته في عائلة بروتستانتية إلا أنه تحول عام ١٩٠٦ إلى الكاثوليكية. استفاد في مقاربته للمسائل الفلسفية من المعلومات التي وفرتها العلوم الإنسانية الحديثة مثل علم الإنسان (الأنثروبولوجي) وعلم الاجتماع وعلم النفس. كانت أعمق إنجازاته وأكثرها أهميةً ودواماً آراءه في نظرية المعرفة (الإيبيستيمولوجي) Epistemology التي درس فيها الدرجات المختلفة للمعرفة وعلاقاتها المتبادلة مع السياسة والفلسفة، مؤكداً في كتاباته على أن الحقيقة يُمْكِنُ أنْ تُعْرَفَ عبر طُرُقٍ مختلفة كالعلم والفلسفة و الفنّ والكشف الصوفي الباطني، وأن كلاً منها تُساهمُ بشيء مُتَميّز في المعرفة الإنسانيّة.

(٢) ر. ج. كولينغ وود R. J. Collingwood، فيلسوف بريطاني ومؤرخ وعالم آثار (١٨٨٩ - ١٩٤٣) وصاحب أقوال قيمة في مبادئ الفن.

(٣) آيريس موردوك Iris Murdoch (١٩١٩-١٩٩٩)، كاتبة قصصية وفيلسوفة بريطانية من أصل إيرلندي. ولدت في دبلن، إيرلنده، ودرست في جامعة أكسفورد. كان أول كتاباتها ((سارتر: العقلاني الرومانسي)) (١٩٥٣)، دراسة للفلسفة الوجودية الفرنسية. ومن أعمالها غير القصصية الأخرى ((الميتافيزيقا (علوم ما وراء الطبيعة) بوصفها دليلاً للأخلاق: تأملات فلسفية)) (١٩٩٢).

ذلك الكلام بملاحظتها: «**إن الفلسفة الحديثة، في روحها، فلسفة ضد_ميتافيزيقيَّة**»، ومن هنا صرفت «آيريس» جُلَّ طاقتها نحو كتابة القصص الروائية.

إن رفض الفلاسفة لما كان يمثل في السابق أحد أهم إسهاماتهم في الحضارة لأمر غريب يثير العجب، هذا رغم أن سببه معروف، إذ أن له في الواقع تفسيران مرتبطان ببعضهما: الأول: هو أن الفلاسفة المعاصرين، بسبب خلطهم بين الكوزمولوجيا (علم الكون المادي) والميتافيزيقيا (علم ما وراء الطبيعة) ـ وهو خطأ وقعت به الحداثة على نحوٍ كليٍّ ـ، يميلون لاعتبار العلماء Scientists (أي المختصون بالعلوم الكونية والطبيعية) في موقع أفضل منهم (أي من الفلاسفة أنفسهم) لرؤية الصورة الكلية لجميع الأشياء. توضح الملاحظة التالية لـ «جون سيرل»[1] John Searle هذا الأمر تماماً: «**يؤمن معظم المحترفين في الفلسفة وعلم النفس والذكاء الصناعي وعلم الأعصاب وعلم المعرفة والإدراك، بشكل من أشكال المادية، لأنهم يعتقدون أنها الفلسفة الوحيدة التي تتسق مع الرؤية الكونية العلمية المعاصرة**».

السبب الثاني لوفاة: «ما وراء الطبيعيات» هو مذهب ما بعد الحداثة Postmodernism، لأن أهم دافع لظهور هذا المذهب (كما بينته في الفصل الأول) هو القيام بمهمة إنهاء الميتافيزيقيات. لقد حاول الفلاسفة، - مفترضين من دون دليل، أن تصورات العالم الشاملة Worldviews ستؤدي بالضرورة لحدوث تعصب وظلم، متناسين أنه حتى لو كان الأمر كذلك فإن تصورات العالم لا يمكن استئصالها من المعرفة الإنسانية، حاولوا بناء عالم خال من الميتافيزيقيات، مع أن عبارة "**عالم خال من الميتافيزيقيات**" لا تعدو كونها تناقضاً لفظياً. كتب «ريتشارد رورتي»[2] Richard Rorty قبل عدة سنوات،

---

(١) جون سيرل John Searle أستاذ حالي للفلسفة، أمريكي، له أبحاث في الفلسفة اللغوية.

(٢) ريتشارد رورتي Richard Rorty (١٩٣١ -): فيلسوف أمريكي معاصر أثارت مؤلفاته نقاشات عديدة حول دور الفلسفة، وأسس المعرفة، واستخدام اللغة في الفلسفة والأدب. بدأ داعيةً للفلسفة اللغوية إذ اعتقد أنّ أدوات المنطق والتحليل الدقيق للغة يمكنها أن تزوّدنا بإجابات عن معظم الأسئلة الفلسفية. لكنه أصبح فيما بعد من

على غلاف أحد أعداد مجلة خرِّيجي جامعة شيكاغو عنوانا يقول : **"لا توجد صورة كلية"** .

ولما كان الأمر ليس كما قال ، فإنني أواصل المهمة التي تشكل الجانب الأساسي والحرج من كتابي هذا ، وهي تعريض الصورة الكلية التي يدعو إليها عصر **الحداثة** ، إلى فحص صاعق يقضي عليها من أساسها . (ملاحظة : لا يمكن الفصل التام بين عصر الحداثة وعصر ما بعد الحداثة ، لذا فالسياق يجب أن يحدد فيما إذا كنت أستخدم كلمة **الحداثة** Modernity قاصداً العصر الذي يسبق عصر ما بعد الحداثة ، كما فعلت في الفصل الأول ، أو قاصداً ما هو أعم من ذلك أي ما يشمل الحداثة وما بعد الحداثة كليهما) .

كونٌ غير مؤهل

إن وصف «لويس مامفورد»[1] Lewis Mumfod للتصور العلمي للعالم بأنه **"غير مؤهَّل"** دقيقٌ حتى من ناحية اللفظ ، لأن ذلك المفهوم للعالم غير مؤهل حقيقةً إذْ لا أمل له في الفوز بالمنزل النهائي للإنسان . وما يسلب عنه أهليته لهذا الدور ، طريقته في سلب العالَم الموضوعي من خصائصه وطبيعته الحقيقية ، ليتركه عالماً **"غير كُفْءٍ أو بلا مؤهلات"** "dis-qualified" بكل ما في العبارة من معنى .

نحن نفترض بشكلٍ عام أن العلم يستطيع أن يعالج ، على الأقل ، العالم المادي العيني الذي تسجله حواسنا الجسمية . ولكن القضية ، وبكل دقة ، ليست كذلك أبداً . ذلك أننا

أشد النقاد لتلك الحركة والفلسفة ! . هاجم بشدة – في كتابه ((في الفلسفة ومرآة الطبيعة)) (١٩٧٩) – الفكرة القائلة بأن العقل يعكس أو يزود بتمثيل للحقيقة الخارجية أو الطبيعية (وهي فكرة مركزية من أفكار الفلسفة اللغوية) . ثم تخلى في كتابه ((نتائج البراغماتية)) (١٩٨٢) عن البحث عن الأسس الثابتة للمعرفة الإنسانيّة ليتجه بدلا من ذلك إلى تفضيل المفهوم الذرائعي (النفعي) للحقيقة الذي يركز على دور الفرد في الوصول إلى المعرفة .

(١) لويس ممفورد Lewis Mumford (١٨٩٥–١٩٩٠) ، فيلسوف اجتماعي أمريكي ، ومؤرخ ، ومخطّط مدن . رأى ((لويس ممفورد)) أن ثقافة التكنولوجية أدت إلى نزع إنسانية المجتمع ، وأنّه يجب العودة إلى المنظور الذي يضع العواطف والمشاعر والأخلاق في قلب الحضارة .

نحس العالم المادي مكسوا بالأصوات والروائح والألوان، في حين أن العلم يعطينا الأساس القابل للقياس فقط مِنْ قِبَل تلك الحواس. إن الخصائص الثانوية مثل الألوان التي نراها وتغريد الطيور الذي نسمعه، لا تبرز في الكتب العلمية. من وجهة نظر العلم: الناس (وربما الحيوانات الأخرى أيضاً) هم الذين يضفون تلك الصفات والخصائص على العالم، إذا صح التعبير. وإذا لم يكن للخصائص الثانوية للعالم مكان في العالم الموضوعي الإنساني الشامل، فإنه من باب أولى لن يكون هناك أصلاً مكانٌ للخصائص من الدرجة الثالثة أي **"القيم"**. لا تعدو الآمال والمخاوف، والمسرات والأحزان، والنجاح والفشل، والمجموع الكلي للحيوات التي نجرّبها ونشعر بها مباشرة، في نظر العلم، مجرد ظواهر مصاحبة[1] Epiphenomenal مثلها مثل الزبد الذي يظهر أعلى البيرة، والذي يحتاج إلى أن تكون البيرة (المادة) موجودة فعلاً ليُرى هذا الزبد عليها ولكن ليس العكس. **"قم بالاتّصال فقط"**، هذا ما ينصح به «إي. م. فورستر»[2] E.M. Forster في وداعه. ولكن بماذا **نتّصِل** إذا كان كل ما هو بشري بنحوٍ متميّز وبارز بالنسبة إلينا، ليس له إلا عمق بشرة الجلد فقط بالنسبة إلى الطبيعة الموضوعية للأشياء؟

تثير نصيحة «فورستر» المحكمة وبارعة الإيجاز تلك، إلى نقطة مهمة تستحق المتابعة. نستطيع اليوم بفضل معجزات التصوير الضوئي المجهري Microphotography أن نرى خلية عصبية مفردة، وما يلفت النظر هو تفرعاتها (زوائدها المتشجرة) التي تتموج مثل تموج الشقّار[3] آملة - هكذا تبدو - بملامسة التفرعات المتشجرة لخلية عصبية أخرى. وعندما

---

(١) الظاهرة المصاحبة: Epiphenomenon ظاهرة ثانوية ليس لها استقلال بذاتها بل تصاحب ظاهرة أخرى وتنشأ عنها.

(٢) فورستر، إي إم E. M. Forster (١٨٧٩-١٩٧٠)، روائي وكاتب إنجليزي، كتب رواياته بأسلوب بارز في إيجازه وسيولته، مستكشفاً المواقفَ التي تَخلقُ الموانعَ بين الناس. يدور محور كتابات "فورستر" حول الحاجة إلى تلطيفَ "ماديّة" الطبقة المتوسطة والتخفيف من غلوائها عبر إعطاء أهمية جديدة لقضايا العقل والخيال لكي تتوصل بذلك إلى الانسجام والفَهْم.

(٣) نبات ذي أغصان عديدة يعيش في قاع البحر.

تلامس التفرعات الشجرية لخلية عصبية أخرى فإنها تشبك سواعدها وبالنتيجة تجعل خلاياها ذات حظ أفضل في المواجهة الشجاعة لمخاطر الحياة. إنها قصة الدين في الحالة الجنينية، لأن كلمة Religio اللاتينية تعني: الربط أو الوصل من جديد. والدين كله صلة وإعادة صلة.

✓ تجد المجتمعات التقليدية الروابط والصلات متجذِّرةً في نسيج الأشياء، وتستخدم أديانها لأجل الحفاظ على العالم من خطر انحلال روابطه هذه. الأديان ترى أن الناس مرتبطون بالمصدر النهائي المطلق للأشياء، بنَسَبهم نفسه، لأنه وإن لم يكن "**المطلق**" أبٌ لهم بالمعنى الحرفي للكلمة، (كما هو الحال في فعل "إيزاناغي" و"إيزانامي" في أسطورة الخلق اليابانية)، إلا أنه **أنجب مادتهم** عبر الخلق أو الفيض. ولأن البشر اشتُقُّوا من ارتباط، صار لزاماً عليهم أن يرتبطوا بالآخرين. "**كونوا أعضاءً لبعضكم البعض**" هكذا يعلِّم القدّيس بولس. وتقول الرواية الكونفوشيوسية لهذا التعليم: "**الناس كلهم، في البحار الأربعة، أخوة**".

والطبيعة أيضاً مشمولة بهذه الصورة. يذكِّرنا عنوان قصة "كارولين مركانت" Caroline Mercahnt: «موت الطبيعة» بأن الناس لم يكونوا يتصوّروا دائماً أن الطبيعة ميّتةٌ، بل كانوا يرون الأرض حيّةً، ويعتبرونها أنثى خيِّرةً محسنةً، منفتحةً تقبل العروض بعطف، حاضنةً ومربيةً. وقديماً حذَّر المؤلِّف الروماني "بليني" Pliny من حفر المناجم بباطن "أمُّنا الأرض" Mother Earth (لاستخراج المعادن)، مخمِّناً أن الهزات الأرضية ليست إلا تعبيراً من الأرض عن سخطها على الاعتداء على حريمها بتلك الطريقة. وبنفس الطريقة تقريباً، كان الهنود الحمر يعترضون على طريقة الأوروبيين في التعامل مع "**أمّنا الأرض**". جاء في كلمات "سومهالا" أحد أفراد قبائل حوض كولومبيا:

تطلب مني أن أشقَّ الأرض (أحرثها)! فهل آخذ السكين لأقطع بها ثدي أمي؟
تطلب مني أن أحفر لأجل الأحجار! فهل أحفر تحت جلدها للوصول لعظمها؟
تطلب مني أن أقطع العشب وأصنع منه تبناً أبيعه! فكيف أجرؤ أن أقطع شعر أمي؟

استدعت الإشارة إلى **"البحار الأربعة"**، في قول كونفوشيوس الذي استشهدنا به قبل قليل، إلى ذهني، ذكرى ترتبط بذلك القول. قبل عدة سنوات، أخَذَتْ زوجتي "كيندرا" Kendra حفيداً يافعاً لنا إلى ملعبٍ مجاورٍ، لتجد فيه طفلين يلعبان بالأرجوحة والمنزلقة (زحليقة) أحدهما فتاة عمرها ثمان سنوات، والآخر صبي أصغر منها سناً، كان في الغالب أخاها الصغير. بعد مقدِّمةٍ مختصرةٍ جداً سألت الفتاة زوجتي: "أتعرفين ما نحن؟" أغمضت زوجتي عينيها نصف إغماضة وأجابت: "صينيون؟"، "لا"، "فيتناميون؟"، "كلا (مصحوبة بلَمْسَة انزعاج)". وعندما غامرت "كيندرا" بعرض إجابة محتملة ثالثة، برزت الإثارة: "كلا، أنا أسألك ما نحن؟"، في هذه اللحظة قالت "كيندرا" (وهي تفكر أنها لو عرفت إجابة البنت لفهمت سؤالها بنحو أفضل!): "استسلمت. لا أعرف. إذن قولي ما أنتم؟"، عندئذ أجابت الفتاة: "نحن أخ وأخت، وقد علّمتنا جدّتنا أن نحب بعضنا بعضاً، وأخبرتنا أننا إذا أحببناها، فإننا عندما نكبر ونصبح أجداداً، سيحبنا أحفادنا أيضاً.".

في مجتمعاتنا الفرديَّة Individualistic[1] سيئة السمعة، يحتاج الطفل (خاصة من أولئك الذين ليس لهم ارتباط قوي بأي حضارة تقليدية) إلى وقت طويل ليصل إلى هذه النقطة الجوهرية. ليس المهم "من *نحن*؟"، الذي يشير إلى الاختلاف، بل **"ما *نحن*؟" "ما هي ماهيتنا الجوهرية"**، وهو الذي أجابت عنه الفتاة الصغيرة إجابة دقيقة تماماً: **"ماهيتنا هي الارتباط، *نحن* أخ وأخت، وأساس تلك الماهية هو الحب"**.

ماذا يحدث عندما يتآكل هذا الإحساس بالارتباط بالمطلق، وتهمل التعاليم الدينية حول هذا الارتباط؟ سبق وحذَّر "واي. بي. ييتس" W. B. Yeats، قبل قرن من الآن، من أن «**الأشياء، عندما لا تبقى المركز، تتفكّك**». ويتابعه "جيرترود شتاين" Gertrude Stein بملاحظته أنه «**في القرن العشرين، لا شيء ينسجم ويتفق مع شيء**».

---

(١) أي التي لا يهتم فيها الناس ببعضهم البعض بل يهتم كل إنسان بنفسه فقط ويرى أن لا علاقة تربطه بالآخرين.

ورأى "عزرا باوند" Ezra Pound أن «**الإنسان يدفع بنفسه بقوة نحو تشوش كامل لا يمكن التغلب عليه**»، وأكثر عبارات مسرحية «المراعي الخضراء» بقاء هي عبارة: «**كلّ شيء مما كان مربوطاً بإحكام، يتفكّك الآن وينحلّ ارتباطه**». ولا عجب بعد ذلك أن تجيب "ريبيكا" Rebecca في آخر حوار أجري معها، عن سؤال: "**ما هو برأيكِ الطبع (الخُلق أو المزاج العام) الأكثر سيادة بين أبناء هذا العصر؟؟**" بقولها: «**هو بحث الناس المستميت واليائس عن نموذج يحتذونه**». إن بحثهم هذا يائس لأنه يبدو أنه لا جدوى من البحث عن نموذج عندما تصبح الحقيقة «مشكالية»[١] Kaleidoscopic (أي متغيرة و متحولة كل لحظة)، كما تصورها لوحة «رولاند بارثي» Roland Barthes الحيوية. مع كل دقّة للساعة تهبط قطع التجربة في نظام (ترتيب) جديد.

أخشى من خطر المبالغة في قضيتي. إن السبب المباشر للاضطراب وانزياح الأشياء عن موضعها Dislocation الذي عانى منه القرن العشرون هو التكنولوجيا. لقد أضعفت سياراته الروابط الأسرية والعائلية الكبيرة، وأضعفت الروابط بين أفراد الجاليات، كما حررت أجهزة المذياع والتلفاز فيه، الناسَ، من عناء الذهاب لزيارة بعضهم البعض، باحثين عن ترفيههم الخاص بجلوسهم مع بعض. مثل هذه التغيّرات هي المسؤولة بشكل أوليّ ورئيسيّ - أكثر من قضية تبدل تصورات العالم - عن إيجاد أكثر المجتمعات التي عرفها التاريخ فرديةً. ولكنني وعدتُ أن أثْبُتَ في هذا الكتاب على قضية تصورات العالم. لذا سأعود إلى الاكتفاء بالحد الأدنى من دعوى هذا الكتاب التي سجلتها سابقاً: دعنا نترك كل ما حصل ويحصل، ونركّز على الخروج بتصوّر للعالم يجعلنا متّصلين بالطبيعة النهائية للأشياء. إنه لَمنَ القسوة بمكان أن نضيف الألم النفسي إلى الألم الجسمي. وإنه لا يفيد العبيد[٢] شيئاً ولا يعزّيهم أدنى تعزية أن نسأل فيما إذا كانت الأناشيد الدينية التي كانوا

---

(١) المشكال: kaleidoscope أداة تحتوي على قطع متحرّكة من الزجاج الملوّن ما إن تتغيّر أوضاعها حتى تعكس مجموعة لا نهاية لها من الأشكال الهندسيّة المختلفة الألوان. فالمشكالي: رسم أو مشهد متغيّرٌ مختلف الألوان.

(٢) يقصد العبيد المستعبدين زوراً وظلماً الذين كان الأوروبيون البيض يخطفونهم من بلدانهم الأفريقية

يترنمون بها وهم يعملون في حقول القطن، (مثل أغنية: «دوري ببطء أيتها العربة الحلوة» أو «خذ بيدي أيها الرب اللطيف») تساعدهم فعلاً على تحمل مشقاتهم ومصاعبهم التي لا تحتمل، أم لا. والأمر نفسه يمكن سؤاله عن ضحايا المحرقة الذين كان اسم الله على شفاههم لحظات فراقهم للحياة.

وفيما أتنازل هنا، أود أن أعفي العلماء ثانيةً بوصفهم العلمي الاحترافي، من كونهم المسؤولين عن توصيلنا لنفقنا المظلم.

عندما أقلع العلم الحديث وحلّقَ وأخذ زخمه الشديد، بدت إنجازاته (سواء الفكرية أو التقنية) رائعة جداً إلى درجة ظهر معها وكأنّه قد يأتي بالجنة إلى الأرض! ، كما عبَّر عن ذلك «كارل بيكر»[1] Carl Becker في قصته القصيرة: «المدينة السماوية لفلاسفة القرن الثامن عشر». ويجب أن لا ننسى أبداً أن تلك التوقعات المنتفخة والمفرطة من العلم الحديث كانت تغذّيها آمال الناس وتمنّياتهم. في الواقع لم يكن العلماء هم الذين دفعونا نحو النفق، بل الأكثر دقّةً أن نقول إننا نحن الذين أسرعنا وهُرِعْنا متهوِّرين نحو ذلك النفق، وقمنا - تقريباً - بجرِّ العلماء إليه! ودخل الخبث هنا على الخط، إذ كل ما تمّت ملاحظته كان النتائج غير المتوقعة والانحراف عن المنطق الذي وإن كان انحرافاً صغيراً إلا أنه حاسمٌ ومميتٌ.

إذا كنّا قد برّأنا العلماء من تهمة قيادتنا نحو نفقنا، فإنّنا نحمِّلهم بعض المسؤولية عن إبقائنا في هذا النفق، غير أنني سأترك مناقشة هذا الموضوع للفصل القادم لأعود الآن إلى معالجة النفق بحدّ ذاته. كما أشرنا في الفصل ٢، كان الناس يشعرون، في الفضاءات الرحبة

ويجلبونهم لأمريكا للعمل في الحقول في القرنين السابع والثامن عشر فيما عرف "بتجارة الرقيق" رهيبة السمعة.

(١) كارل بيكر Carl Becker (١٨٧٣-١٩٤٥)، مؤرخ وأستاذ جامعي أمريكي، اشتهر بدراساته عن تاريخ الثورة الأمريكية (١٧٧٥-١٧٨٣)، بالإضافة إلى مساهماته الكبيرة في دراسة وبحث تاريخ الولايات المتحدة وقضاياها الاجتماعية بشكل عام. من كتبه المشهورة ((المدينة السماوية لفلاسفة القرن الثامن عشر)) *The Heavenly City of the Eighteenth Century Philosophers* (١٩٣٢): دراسة قصيرة للمناخ الثقافي في فرنسا قبيل اندلاع الثورة الفرنسية.

العظيمة، أنهم في بيتهم و أنَّ قوام الكون من الجوهر والطبيعة نفسها التي صُنعْنا منها، أي: القدرة على الإحساس، والقيَم، ووجود المغزى، والهدف والغاية. وأننا والكون تحت إدارة قديرة وكُفْء. ولأن الوعي (وليس المادة) هو الأساس، فإن موت الجسم لم يكن صاحب الكلمة الأخيرة. وعلى النقيض الكامل من هذا كلّه، ليس هناك أي سبيل للنفق أن يعطي الإنسان إحساساً أنه في بيته! ففي التصوُّر العلميّ الحداثي للعالم: كلُّ شيءٍ مُشتَقٌّ وناشئٌ من المادة الخامدة ومعتمدٌ عليها. وباستثناء الحياة العضوية **فإن العبثية واللاهدفيَّة هي السائدة في كل مكان.**

كما نلاحظ هذا التباين بشكلٍ واضحٍ في المصير الذي آلت إليه عقيدة أرسطو بشأن العلل الأربعة: العلّة الماديّة والعلّة الفاعليّة والعلّة الصوريّة والعلّة الغائيّة. العلّة الماديّة لحاسوبي الذي أكتب عليه الآن (في جزء منه) هي رقائق السيليكون، وعلّته الفاعليّة هي عمل الأشخاص الذين قاموا بتجميعه، وعلّته الصوريّة هي المخطّط والتّصميم الّذي بُني عليه الحاسوب، وعلّته الغائيّة هي الغرض والهدف من صنع مثل هذه الآلة، أي مساعدتي في كتابة هذا الكتاب مثلاً ونحوه من الأهداف. يحتفظ العلم بالعلّتين الأُولَيَيْن، ولكنه يقيّد ويحدّد العلّتين الأخريين بالكائنات الحيَّة، أي ذلك المظهر المخادع - في رأيه - والطبقة الخارجية الرقيقة جداً لعالَم المادة الميتة.

إن عداء العلماء العنيد لفكرة «**التصميم الذكي**» جزءٌ لا يتجزّأ من نكرانهم العلّة الصوريّة للأشياء التي يرون أنها لا توجد في أيِّ مكانٍ سوى عقلِ الإنسان فقط. وعلى الرغم من استفادتهم من العلّة الغائيَّة في وصف هدف وغاية سلوك الكائنات الحيَّة، إلا أنهم يصرُّون أنَّ هذه العلَّة أيضاً - بمعزلٍ عن تلك الحالة الخاصَّة (للكائنات الحيَّة)- لا وجود لها في الكون.

يؤكّد «جاك مونود» Jacques Monod أن حجر الزاوية في المنهج العلمي هو الإنكار التامّ والقاطع لإمكانية تحصيل المعرفة الحقيقية انطلاقاً من تفسير الظواهر بناءً على العلّة الغائيَّة أي بناءً على غاياتها وأهدافها.

عندما تكون العبثية واللاهدفية (ومرادفها: الصدفة) في مقعد القيادة، فإن الاندفاع الأعمى سيكون سيد الموقف!. وهذا يتركنا «**غرباء وخائفين في عالم لم نقم بصنعه أبداً**»، كما جاء في اقتباس (الشاعر الإنكليزي) إي إي هوسمان A. E. Housman في قصّته «فتى الشُّرُبْشير[١]» The Shropshire Lad. وأمَّا الروائي «ألبير كامو» Albert Camos فقد وجد "**العالَمَ سخيفاً لا معقولاً**" Absurd. وأما (الأديب والروائي) «صموئيل بيكيت» Samuel Becqette[٢] فقد جعل المتشرِّدَيْن المتسوِّلَيْن - (في قصّته المسمَّاة En attendant Godot أي في بانتظار "غودو" التي كتبها بالفرنسية) - ينتظران كل حياتهما، قُرْب شجرة على طريق ريفيٍّ مَعْزُول، شخصاً لا يعرفونه يدعى "غودو" Godot، والذي لم يصل أبداً! (في تعبير ساخر من الكاتب عن فلسفته التشاؤمية حول طبيعة الوجود الإنساني، وأنه لا حياة لمن يناديه الإنسان ويأمل منه العون!). واستنتج «فرانز كافكا»[٣] Franz Kafka أن «نظام العالَم كذبةٌ كبرى!».

هناك قصتان رمزيّتان أو استعارتان تشبيهيّتان تؤطّران الحضارة الغربية مثل مسندي كتب كبيرين: الأول استعارة "أفلاطون" لقصة الذين حبسوا بالكهف[٤] في بداية تلك الحضارة، والثاني استعارة "نيتشه" في نهاية تلك الحضارة لقصة الإنسان المجنون الذي أخذ على عاتقه مهمة الطواف في الشوارع لكي يعلن أن الله مات!. من الصعب أن نجد تعبيرين أكثر صدقاً وتمثيلاً لبيان ما تتميز به الفضاءات الرحبة العظيمة، في مقابل نفق الحداثة.

---

(١) الشُّرُبْشير Shropshire ضرب من الخراف الإنكليزية عديمة القرون، سوداء الوجوه والقوائم.

(٢) شاعر و روائي وكاتب مسرحي أيرلندي. (تقدمت ترجمته ص ٦٥ - ٦٦).

(٣) فرانز كافكا Franz Kafka (١٨٨٣-١٩٢٤)، روائي وكاتب قصص قصيرة تشيكي يهودي، ولد في براغ ودرس القانون في جامعتها. تنبّأت قصصه الرمزية، التي كتبها بالألمانية بالظلمِ وفقدان الأمل الذي سيعم في أواخر القرن العشرين. يُعتَبَرُ أحد أبرز الشخصيات في الأدب العالمي الحديث. يدور محور أعماله الأدبية حول موضوع الوحدَة، والإحباط، والشعور بالذنب المستبد بالفرد المهدد بقوى مجهولة خارج فهمه أو سيطرته. اتصفت أعماله الأدبية بكل من التعبيرية والسريالية، واقترب في أفكاره الفلسفية من الفلسفة الوجودية الفرنسية.

(٤) شرحتها في حاشية الصفحة ص ١٢ من الكتاب، فصل: التمهيد، فراجعها ثمَّة.

لم يكن من الصعب توقُّع أن يُقَابَل ذلك الجفاء وانعدام كرم الضيافة، الذي اتصف به العالَم في التصوُّر العلمي تجاه أعمق اهتمامات ومخاوف الإنسان بثورات ضده، وهذا ما حصل فعلاً وكانت الرومانسية والوجودية الثورتين الرئيسيتين في هذا المجال.

دعا «وليم بليك»[1] William Blake إلى «**نهوض الروح ضد العقل**» وذلك لإنقاذنا من «**الرؤية الأحادية، ونوم نيوتن**». لكن رثاء ونحيب «أرنولد ماثيو»[2] Arnold Matthew على «**الإيمان المتراجع المتقلّص**» بعد قرن من ذلك، بلغ قبولاً واعترافاً بأن قضية ورسالة «وليم بليك» لم يحالفها النجاح.

أما بالنسبة إلى الوجودية فقد صمدت بشكل حازم في دفاعها عن الحرية الإنسانية في وجه عالَم العلوم الذي بدا عالماً حتميَّاً قاهراً. ولكن لا الوجودية ولا الرومانسية كانتا قادرتين على إيقاف المدّ العلمي الطاغي، لأنهما لم تكونا تمتلكان تصوُّراً للعالم بديلاً يمكن للإنسان أن يجد فيه أساساً جذرياً لحقوق الإنسان اللتان كانتا تدافعان عنها بكل بطولة. ولأن كلا الرومانسيَّة والوجوديَّة كانتا تنتميان إلى أقصى الجانب العلمي في الثقافة، لم تكونا تحملان أي وزن في الجانب العلمي الذي حل مسائله ضمن نفسه، منظّماً وقائداً براهينَ قويةً مكّنته أن يسوّي بالأرض مدناً كاملةً ويجعلها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً[3] وأن يحدثَ ثقوباً في الفولاذ بمثاقب من الضوء (الليزر).

---

(١) وليم بليك William Blake (١٧٥٧-١٨٢٧)، شاعر إنجليزي ورسّام ونحّات، ولد في لندن و عاش فيها أغلب حياته، كتب الشعر منذ صغره (في عمر ١٢ سنة)، وأوجد شكلاً فريداً منَ الشعر التصويريّ. ويعتبر شعره الذي استلهمه من رؤيا روحية صوفية باطنية، من أكثر الأشعار أصالة وغنائية ونبوية في لغته. اصطبغ شعره بالتصوف الباطني والرمزيّة المعقّدة. بحث في قضايا الحبِّ الإلهي في مجموعة قصائده ((أغاني البراءة)) (١٧٨٩)، بينما عالج طبيعةَ الشرِّ في مجموعته ((أغاني التجربة)) (١٧٩٤).

(٢) آرنولد ماثيو Arnold Matthew (١٨٢٢-١٨٨٨)، شاعر إنجليزي، مثَّل شعره الاهتمامات الثقافية للعصر الفيكتوري وكَانَ الناقدَ الأدبيَ الأوّلَ في عصره. تميزت أشعاره بلحنها الرثائي والتأمّليّ، وعكست أشعاره إحساساً باليأس والعزلة.

(٣) يبدو أنه يشير إلى القنابل المدمِّرة و الذريَّة التي أنتجها العلم الحديث واستخدمت في الحرب العالمية الثانية.

الخاتمة

أوردُ في ختـام هـذا الفصـل مقابلـةً صحفيـة، في أحـد أعـداد مجلـة "نيُو يُورْكَر" New Yorker أجدها أمامي على الرفّ، يشير فيها «ألبيرت غور» Albert Gore [1] إلى: «نوع من الألم الروحي الكامن في الجذور العميقة ذاتها للعقل الحديث».

وعلى أي حال فإن الذي يستحق أن نعطيه الكلمة النهائية في هـذه الخاتمة هـم الشعراء وليس السياسيين. لذا سأستدعي فيما يلي اثنين من الشعراء كي يختموا لنا هـذا الفصـل. اشتهر الشـاعر الألمـاني "برتولـد بريخـت" Bertolt Brecht بسبب مسرحياته ولكـن النقّـاد يعتبرون أشعاره أعمق من مسرحياته. وما يتعلّق بموضوعنا من أشـعاره تلـك القصيدة التي عنونها: «إلى أولئك الذين ولدوا لاحقاً»:

حقّاً إنني أعيش في أوقات مظلمة!
إنّ الكلمة البريئة حماقة
والجبهة غير المجعَّدة تشير إلى تبلّد الإحساس وإفلاس المشاعر
والإنسان الذي يضحك
يفعل ذلك لمجرَّد أنه لم يسمع بالأخبار الفظيعة المروعة!.

أما الشاعر «ستيفن دن» Stephen Dunn فإنه أقل شهرةً، وأسلوب قصائده مختلفٌ إلى أقصى ما يمكـن أن تتخيلـه عـن الشـاعر «برتولـد بريخـت» Bertolt Brecht، بيـد أنـه بطريقته الخاصّة يقدم لنا قصيدة تعتبر بمثابة تلخيص لزبدة مضـامين هـذا الفصـل مـن كتابنـا، لذلك سأقتبس فيما يلـي قصيدتـه «في كنيسـة ميثفيل الميثودية» Smithville Methodist Church كاملةً:

كـان مـن المفـروض أنهـا سـتذهب لأسـبوع معـرض الفنـون والمصنوعـات الفنيـة اليدويّة
ولكنها عندما عادت إلى المنزل مع الزر الذي يقول «يسوع ينقذنا»

---

(١) ألبيرت غور Albert Gore سيناتور أمريكي معاصر ينتمي للحزب الديمقراطي ممثلاً لولاية تينيسّي الأمريكية.

عرفنا ماذا كان المقصود من ذلك المعرض في الكنيسة
وما حقيقة المصنوعات اليدوية الفنّيّة القديمة!.
لقد أحبَّت أصدقاءها الصغار.
وأحبَّت الأغاني التي غنَّوها عندما لم يكونوا يثنون ويطوون الأوراق ليصنعوا منها عرائسهم الفنيَّة.
ما الذي يمكن أن يكون سيئاً لهذه الدرجة؟
لقد كان يسوع رجلاً صالحاً،
وكل ما أمكننا قوله لها:
من الجيد أن نضع ثقتنا وإيماننا بالأناس الطيبين
وذلك لإيقاف ذلك الجانب من التهكّم الساخر
ذلك الحزن الآخر

حسناً، قلنا أسبوع واحد،
ولكنها عندما عادت إلى البيت تغني:
«يسوع يحبني، هكذا يخبرني "الكتاب المقدّس"»
رأينا أن الوقت حان لنجلس ونتكلم
هل كان يمكننا أن نقول لها إن يسوع لا يحبك؟
هل كان من الممكن أن نخبرها أن الكتاب المقدس كتاب عظيم يستخدمه بعض الناس لكي يجعلونك تشعرين شعوراً سيئاً.
لم نستطع أن ننبس ببنت شفة، بل كل ما فعلناه أننا أرسلناها ثانية لذلك الأسبوع الفني في الكنيسة.
لقد مضى زمن طويل على إيماننا واعتقادنا
ومضى زمن طويل على حاجتنا ليسوع
كعدونا وصديقنا لأننا اعتقدنا أنه كان ميتاً بما فيه الكفاية
وأن أولادنا سيفكرون بشأنه كتفكيرهم بأبراهام لينكولن أو توماس جيفرسون.
ولكن سرعان ما اتضح لنا أنه لا يمكنكَ أن تعلّم طفلاً الجحود وعدم الإيمان

إن كل ما تستطيع أن تعلّمه إياه هو القصص الرائعة فقط!
«ولم تكن لدينا قصّةٌ أروعُ من تلك».
في ليلة الآباء كان أسبوع الفنون والمصنوعات الفنيَّة اليدوية منتشراً في كل مكان،
كالمقبلات (المشهيات على الطعام)
ثم أخذنا مقاعدنا في الكنيسة وغنى الأطفال أناشيدهم
حول سفينة نوح
وهللويا (أي سبحوا لله)
وأغنية كانوا يقفزون فيها صعوداً وهبوطاً لأجل يسوع،
لا أستطيع أن أتذكر أنني شعرت يوما بمثل شعوري في ذلك اليوم بعدم الفهم لما
هو هزليٌّ؟ وما هو جديٌّ؟!
إن التطور سحريٌّ ولكنَّه مجرَّدٌ من الأبطال
لا يمكنك أن تقول لطفلك: «التطور يحبّك»
إنّ القصَّة انقرضت وبليت من الانقراض ولا يحدث شيءٌ مثيرٌ لقرونٍ طويلة.
وليس لديَّ أيُّ صورةٍ رائعةٍ جميلةٍ لطفلتي التي كانت تشعُّ
طوال الطريق، ونحن عائدون إلى البيت في السيارة، كانت تغنّي تلك الأناشيد
وأحياناً كانت تقف على قدميها لأجل يسوع،
ولم نكن نملك فعل شيءٍ سوى الاستمرار في قيادة السيّارة
وأن نغني في قلوبنا بصمت.

لسنا مضطرين أن نقيِّد أنفسنا بقصة يسوع التي أشار إليها الشاعر بقوله **«ولم تكن لدينا قصة أروع من تلك»**، لأنه يمكننا أن نجد نظيراً لها في كل قبيلة وحضارة، فلليهود قصة الفصح passover والنجاة الإعجازية في الخروج الجماعي من مصر، وفي كتاب "بهاغافاد غيطا" كان "آراجونا"، عشية المعركة الرهيبة، يستخرج معنى الحياة والموت من "كرشنا" الذي كان متنكرًا بصورة قائد عجلته الحربيَّة. وفي حكايات "جاتاكا" نجد سيدهاراتا غواتاما (أي البوذا) في تجسّده السابق بشكل أرنب يرمي نفسه على النار لينقذ صياداً عاثر الحظ كاد يموت من الجوع.. والقائمةُ لَيسَ لَها نهايةٌ.

الفصل ٤

أرضية النفق:

العِلْمَوِيَّة (مذهب العلميَّة) *Scientism*

بعد أن اتضحت صورة النفق، نمضي الآن في وصف جوانبه الأربعة مبتدئين بأرضيته المتمثّلة بـ "**العلمَويَّة**" (**أو مذهب العلميَّة**) [1] Scientism، التي تدعم الجوانب الثلاثة الباقية. هناك ثلاثة حروف فقط هي Ism تفصل "**العِلْم**"Science عن "**العلمَوِيَّة**" Scientism، ولكن هذه الإضافة الصغيرة - التي تقلب الأمور رأساً على عقب - هي السبب في كل مشاكلنا الحالية فيما يتعلّق بتصور العالَم worldview والروح الإنسانية. **فالعِلم** بحدّ ذاته، إجمالاً، جيدٌ؛ في حين لا يوجد شيءٌ جيِّدٌ يمكن أن نقوله عن "**مذهب العلمَوِيّة**".

كل شيء هنا يعتمد على التعريفات الدقيقة، ولو سُمِح للتمييز بين "**العِلْم**" و"**العلمَوِيَّة**" أن يغيب عن رؤيتنا، لأدى ذلك إلى انهيار هذا الفصل من أساسه. وإذا أردنا أن نصل إلى التعريفات الصحيحة لتلك المصطلحات فعلينا أن نتجاوز حشداً من الأفكار والصور والمشاعر والمصالح الشخصية التي تُحيطُ بكلمة "**العِلْم**" Science اليوم، لنصل

---

(١) Scientism مذهب العلمويَّة: هو القولُ بوجوب اتباع مناهج العلوم الطبيعية Sciences في جميع حقول المعرفة لأنه المنهج الموثوق الوحيد للوصول إلى الحقائق، **وأنه لا حقيقة سوى ما توصل إليه تلك المناهج العلمية**.

إلى التعريف الوحيد الذي لا جدال فيه للعلم أعني أن العلم هو الشيء الذي غيَّر عالمنا. إن العلم الحديث مصحوباً بما نتج عنه من خيرات التكنولوجيا هو الشيء الذي يميِّز الحضارات والمجتمعات الحديثة عن الحضارات والمجتمعات التقليدية القديمة. مضمونه هو تلك المجموعة الكبيرة من الحقائق وقوانين عالم الطبيعة التي كشفها لنا المنهج العلمي، الذي يشكل المنهج التجريبي جوهره ومركزه الحيوي بما يمتلك من قدرة على غربلة الفرضيات النظرية حول عالم المادة القابل للتجربة، وتمييز صحيحها من خطئها.

أما **"العلمَويَّة"** فإنها تضيف إلى **"العلم"** لازمتين تعتبرهما نتيجتين طبيعيتين له: الأولى: أن المنهج العلمي إن لم يكن المنهج الوحيد الموثوق الذي يمكن الاعتماد عليه للتوصُّل إلى الحقائق، فهو على الأقل المنهج الأكثر ثقةً وقابليةً للتعويل عليه. والثانية: أنَّ موضوع العلم – الكائنات المادية – هي الكائنات الأساسيّة في عالم الوجود. هاتان النتيجتان لم يتم التعبير عنهما بصراحة إلا نادراً، وذلك لأنه بمجرد لفت الأنظار إليهما، لن يكون من الصعب على أيِّ أحد أن يلاحظ بوضوح أنهما نتيجتان اعتباطيتان، غير مدعومتين بالحقائق العلمية، وأنهما في أحسن الأحوال فرضيّتان فلسفيّتان، وفي أسوأ الأحوال مجرّد رأيين. سنشير في هذا الكتاب إلى الكثير من أمثلة (حالات) "العلمَويَّة" Scientism ويمكن أن نجعل أحد مزاعم "سيغموند فرويد" يترأس هذا الاستعراض: «**علمُنا ليس وهماً، لكن الوهم هو أن نفترض أن ما لا يستطيع العلم إعطاءه، يمكننا أن نحصل عليه في مكان آخر.**»[1] تتأرجح أمزجتنا وروحنا العامة على مثل هذه الأرضية الرخوة غير القائمة على أساس وطيد.

إن هذه الحقيقة على درجة من الأهمية، مع عدم تنبه كثير من الناس إليها، تدعوني لتخصيص فقرة أخرى لتوضيحها بشكل مُحَدَّد وأكثر تفصيلاً. فبالنسبة إلى الطبقة المثقّفة في حضارتنا الصناعية الغربية، بدأ يظهر لنا كأنه من البديهي أن الرواية العلميَّة لحقيقة العالم

(١) أي أن «فرويد» يجحد وجود أية حقائق قد نصل إليها بالعقل أو البصيرة أو التجربة الصوفية أو بأي أسلوب آخر، ويحصر الحقائق في تلك التي يكتشفها العلم بأدواته المعروفة، ويتم البرهنة عليها بالمنهج العلمي التجريبي.

تعطينا قصته الكاملة في حين أن الحقائق المتعالية (فوق الطبيعية) المفترضة التي تتكلّم عليها الأديان لا تعدو، في أفضل أحوالها، ظنوناً مريبةً.

فإذا ابتعَدَتْ - على أيِّ نحوٍ من الأنحاء - أحلامُنا وحدسُنا وومضاتُ تألُّق روحنا وتساميها (فوق الوجود المادي)، والإلماعات إلى الخلود واللافناء التي نشعر بها، وتجاربنا الصوفية الباطنية، خطوةً عن ذلك المنهج العلمي وتلك الرؤية، فإن الرواية العلميَّة للكون تلقي عليها ظلالاً من الشك والاستبعاد. ورغم ذلك فإن التاريخ مقبرة لكثير من الرؤى و وجهات النظر التي كانت تُعْتَبَر يوماً ما من البديهيات. وما يعتبره كثيرون من البديهيات اليوم قد يصبح خرافةً مضحكةً غداً؛ إن الزمن يجعل الكثير من الحقائق القديمة أموراً غريبة غير مألوفة. ولقد عرَّفَ "آينشتاين" البديهيات الفطرية بأنها الأمور التي نتعلمها حتى سن السادسة أو ربَّما حتى الرابعة عشرة في حالة الأفكار المعقّدة. ثم تبدأ الحكمة بالاعتراف بأن افتراضاتنا خياراتٌ يمكن أن تُفْحَص وتُسْتَبْدَل إذا وجدناها في حاجة إلى ذلك. تلك هي خلاصة وجوهر **"مذهب العلمويّة"**.

الكتاب المرشد لمسيرة هذا الفصل

كتابي الرئيسي لهذا الفصل هو كتاب «بريان آبليارد» Bryan Appleyard: *Understanding the Present: Science and the Soul of Modern Man* أي: «فهم الحاضر: العلم وروح الإنسان العصريّ». وسأضغط أطروحته وأحوِّلها إلى قصّة، تفاصيلها لي أما مخططها وهيكلها فله.

تخيَّل سيدة مبشِّرة تعمل في أحد مجاهل أفريقيا. وأن عمليّة التحوُّل إلى المسيحية كانت تسير ببطء، إلى أن أُصيب طفلٌ بمرضٍ سارٍ (مُعْدٍ)، فاجتمع أطبَّاء القبيلة وتداعوا لمعالجته دون جدوى؛ وشرعت صحَّة الطفل بالتدهور وبدأت حياته تتجّه نحو الموت. في تلك المحنة تذكَّرتْ المبشِّرة في آخر لحظة أن لديها بعض حبات "البنيسلين" في حقيبة سفرها، فسارعت بإعطائها للطفل فما لبث أن تعافى من مرضه. يقول «آبليارد»: بهذا العمل الفرد

انتهى الأمر كله بالنسبة لثقافة القبيلة، فتخلّت عن كل ثقافة آبائها وأجدادها وتحوّلت إلى المسيحيَّة. «التقى النبي إيليًّا (العلم الحديث) بأنبياء بعل وانتصر عليهم». ويتابع «آبليارد» Appleyard قصتّه فيقول: لو أن تلك القبيلة استطاعت فقط أن تفكِّر التفكير المنطقي التالي فتقول لنفسها: إن هذه المبشِّرة الأجنبية أثبتت جيِّداً أنها تعرف عن أجسامنا ما لا نعرفه نحن، ويجب أن نكون ممتنِّين لها جداً إذْ قطعت تلك المسافات كلّها وجاءت إلينا لتفيدنا من معرفتها هذه، ولكن بما أن دواءها لا يبدو أنه يخبرنا بأيِّ شيء عمَّن نكون نحن، ولا من أين جئنا، ولا لماذا نحن موجودون الآن على سطح الأرض، ولا عما ينبغي علينا أن نفعله بينما نحن هنا، أي شيء كان، ولا عن ما سيحدث لنا عندما نموت؛ فإنه لا يوجد أي سبب منطقي يمنعنا من أن نقبل طبَّها فقط بكلّ رحابة صَدْر، في حين نواصل إجلال واحترام القصص الدِّينية التوجيهية العظيمة التي سلَّمَهَا لنا أسلافنا والتي تعطي الحافز والمعنى لحياتنا.

ويستنتج «آبليارد» Appleyard قائلاً: لو كان لدى أولئك الزعماء القبليين ذكاء التفكير المنطقي على ذلك النحو فقط، لما وجدت أيَّة مسألة على الإطلاق، ولكنَّهم لم يكونوا يمتلكون تلك الفطنة أو حصافة الرأي، تماماً كما لا نمتلك نحن الفطنة وحصافة الرأي. وأواصل أنا بطريقتي الخاصة أطروحة «آبليارد»، بعد ذلك التكثيف القصصي لكتابه الذي لقي - بالمناسبة - قبولاً واسعاً.

قبل أن أضع يدي على كتاب «آبليارد» حضرتُ مؤتمراً في جامعة نوتردام، ووجدت نفسي أثناء طعام الإفطار صباح يوم مع العالم البريطاني الشهير «أرثور بيكوك» Arthur Peacocke فسألته عن الكتاب باعتباره قد ظهر أوّل مرة في إنجلترا، وتصورت أن بيكوك ربما يكون قد سبقني إلى قراءته، ولكنه قال إنه لم يقرأه، بل سمع أنه كتابٌ "**ضدُّ العلم**"!.

انتباه!، ها نحن أمام "**مذهب العلمويَّة**" Scientism. عندما رجعت إلى الكتاب وجدت أنه ليس ضد العلم مطلقاً، أي ليس ضد العلم المتميِّز عن **العلمَويّة**، ولكن لأنَّه يتحدَّث بكل صراحة وبقوّة غير اعتيادية وبحياد تام عمّا قالته الانتقادات الاجتماعيّة منذ

مدَّة وحتى الآن، والإشارة بشكل خاص إلى قيام الكثيرين بتحويل العلم إلـى بقـرة مقدَّسة وأنهم يعانون اليوم من نتائج هذه الوثنيّة، فإنه غدا هدفاً سهلاً يرميه أتبـاع **مذهب العلمَويَّة** بسهامهم بحجّة أنه كتابٌ ضدّ المشروع العلمي برمّته. طبعاً لم يكن ذلك موقف كل العلماء، وليس من باب الاستطراد أن نؤكّد أنه ليس كلّ العلماء يعبدون مهنتهم.

يؤيِّد مقالٌ في عدد فصل الربيع لعام ١٩٩٩ لمجلّة "العالم الأمريكي" The American Scholar – التي أجدها فوق مكتبي في هذا اليوم الذي أكتب فيه هذه الصفحة – بقوة ما أنا بصدده. ترى المجلّة، في نقدها لكتاب «عن الذباب والفئران والناس»، أن كاتب ذلك الكتاب، أي عـالم الأحيـاء الدقيقـة أو الجراثيـم Microbiologist «فرانسـوا يعقـوب» François Jacob «**قـد كتـب كتابه لكي يتخلّى عـن كثير مـن الامتيـازات المعرفية** Epistemological privilege **للعلـم ويرفضـها، لأنـه – كمـا يشـير إلى ذلـك بنحـو مدهش وبتصميم قاطع – من الممكن جداً للأساطير والأوهام وسوء استخدام العلم أن تكون ماكرة في تسللها إلينا، إذْ يمكنها أن تخترق لغتنا واعتقاداتنا حتى في الوقت الذي نحاول فيه طردها!**».

لم يكن بإمكاني أن أجد حليفاً أقوى من عالم الجراثيـم الفرنسي هـذا لفكرتي في هذا الفصل. وبعد هذا التأييد، أعود لـ"براين آبليـارد" Brian Appleyard. عندما طُبع كتابه آنف الذكر *Understanding the Present* «فـهم الحـاضر» ظـهرَتْ فـوراً عـددٌ مـن التعليقات والردود عليه. فقد رأت «مجلة التايمز لمراجعة الكتب الأدبية» *The Times Literary Review* في كاتب الكتاب: «**ناطقاً عن الحقيقة التي ينبغي قولها**»، في حين أن المجلة العلمية البريطانية الرائدة Nature «الطبيعة» وصفت الكتاب بأنه «**خطير**»!.

ولمّا بدأت المجلات تظهر في هذا الجانب من الأطلنطي، اختارت مجلة نيويورك لمراجعة الكتب *The New York Review of Books* الكاتب «تيموثي فرِّيس» Timothy Ferris ليقوم بمهمة التعليق على ذلك الكتاب. لقد قدَّم لنا "فرِّيس" خلاصة رأيه عن الكتاب في الفقرة الختامية لمقالته، حين قال: «**إن هدف هجوم الكاتب ليس العلم بحدّ ذاته، بل**

"العلمَويَّة" Scientism، **أي ذلك المذهب الذي يدَّعي أنَّ العلم يزوِّدنا، ليس بأحد الطرق نحو الحقيقة، بل بالطريق الأوحد إليها»**. إلى هنا كان كلامه منصفاً عادلاً إلى حدٍّ كافٍ، ولكنَّ الأمر لم يقتصر على ذلك بل أردف «فرِّيس» Ferris ليخبرنا بعد ذلك أن:

«لقد ازدهر مذهب العلمَويَّة ازدهاراً سريعاً في القرن التاسع عشر، عندما أُعْجِبَ بضعة مفكِّرين بتلك الانتصارات لعلم الدِّيناميكا النيوتني وبالقانون الثاني للديناميكا الحرارية، إلى درجة أنهم سمحوا لأنفسهم أن يتصوروا أن العلم ربما يكون بعد وقتٍ قريبٍ قادراً على أن يتنبأ بكل شيء. واليوم علينا أن نكون قادرين على الاعتراف بأن مثل هذه الادعاءات لا تعدو ادعاءات إطنابية. إن العلمَويَّة اليوم، لا يدعو لها و يدافع عنها إلا أقليَّةٌ ضئيلةٌ جدًّا من العلماء.».

إن الذين يقفون خارج معسكر العلم منَّا لا يمكنهم أن يقرؤوا هذه الكلمات إلا بدهشةٍ وتعجُّبٍ: **«لقد ازدهر مذهب العلمَويَّة ازدهاراً سريعاً.. عندما سمح بضعة مفكِّرين مفتونين ببعض المكتشفات العلمية لأنفسهم أن يتصوروا أن العلم ربما يكون بعد وقتٍ قريبٍ قادراً على أن يتنبَّأ بكل شيء؟!»**، و**«إن مذهب العلمويَّة اليوم، لا يدعو له أو يدافع عنه إلا أقليَّةٌ ضئيلةٌ جدًّا من العلماء»**.

إن تأكيدات «فرِّيس» Ferris تحلُّ المشكلة الميتافيزيقية لعهدنا، عن طريق إجراءٍ تعريفيٍّ، وذلك لأنك لو عرَّفتَ "**العلمَويَّة**" بأنه الاعتقاد **«بأن العلم ربما يكون بعد وقتٍ قريبٍ قادراً على أن يتنبَّأ بكل شيء»** فلا شكَّ أنَّ ثمَّةَ عدداً قليلاً جداً من الناس يعتقدون بمثل هذا، أقل مما يمكن أنْ يشكِّلَ مسألةً.

تعقُّب 'العلمَويَّة' Tracking Scientism

تردُ إلى ذهني هنا مناقشةٌ شاركتُ فيها مؤخّراً. حيث كان مؤرِّخو الدِّين، يتساءلون عن السرِّ في كون التطلُّع إلى العدالة يظهر بنحوٍ أقوى في الكتابات العبريّة المقدّسة مما يظهر في

أيّة كتابات مقدّسة أخرى؟ وعندما أدلى أحد المناقشين بإجابته عن هذا السؤال، بدت إجابته مقبولةً و واضحةً لنا جميعاً.

لا توجد نصوصٌ مقدّسةٌ كَتَبَها شعبٌ تعرَّض للمعاناة والاضطهاد بأكثر مما تعـرّض لـه اليهود (القدامى)، الأمر الذي جعلهم ذوي حساسيَّة شخصية داخلية تجاه حالات الظلم المؤلم. قد يبدو من المبالغة مقارنـة أضرار **مذهب العلمَويَّة**، بمعاناة اليهود ولكن المبدأ في الخلفية في كلتا الحالتين واحدٌ. في الواقع، الفَطِنُون وأصحاب البصيرة فقط، من ضحايا **العلمَويَّة**، (والعلماء الدقيقون وأصحاب الحساسية المرهفة كعالم الجراثيم الفرنسي «فرانسوا يعقوب» الذي اقتبستُ فقرات من كلماته أعلاه) يمكنهم أن يشعروا بالقوَّة المستَبدَّة للعلمَويَّة ويدركوا جيداً المشاكل التي تخلقها، وذلك لأن الأمر يحتاج إلى عين بصيرة ودقيقة لتلاحظ مثل تلك الملاحظة التي تدرَّب عليها «ميشيل فوكو» Michel Foucault في السجون والمصحّات العقلية والمستشفيات (وهي العين البصيرة والملاحظَة بدقَّة التي أكافح لأجل إيجادها لدى القارئ في هذا الكتاب)، أي تلاحظ مدى قوة اللعبة والتأثير الذي تتركه الممارسات الدقيقة للعلمَويَّة في الحياة المعاصرة.

هنا يجب الدخول إلى نقطة إجرائية أخرى لأنها هي أيضاً كثيراً ما يتم التغافل عنها، أو عدم الانتباه إليها. إن نفس اعتبار الشيء أو عدم اعتباره "**علمَويَّة**" إنما تحرِّكُهُ نظرةٌ غيبيّةٌ ميتافيزيقيّةٌ، وذلك لأنه عندما يعتقد إنسانٌ أن **التصوُّر العلميّ للعالم** هو الحقيقة، فإنَّ المُلحَقَيْن التاليَيْن لهذا الاعتقاد واللذَيْن يحوِّلانه إلى "**علمَويَّة**" لا يُنْظَر إليهما على أنهما مجرَّد وجهتي نظر أو رأيين [أذكِّر القارئ أن هذين الملحقين هما: أولاً، أن العلم أفضل نافذة نحو العالم، وثانياً، أن المادة أساس كلّ ما يوجد في عالم الوجود]، بل يتمّ تبنِّيهما بوصفهما حقيقتين واقعيّتين، دون أن يقلِّلَ من شأنهما أنهما لا برهان عليهما، إذ يُعْتَبران نتيجتين واضحتين وضوحاً ذاتياً كالشمس في رابعة النهار! وهذا يطرح في الواقع المشكلة الرئيسية أمام هذا الكتاب، لأن الذي يؤخذ على أنَّه واضحٌ وضوحاً بديهيّاً هو في الواقع أمرٌ مستندٌ إلى تصوُّرٍ معيَّنٍ للعالم لدى أصحابه، وكلّنا يعلم أن النقاشات بين تصوُّرات العالم

المختلفة نقاشاتٌ غيرُ قابلةٍ للحلّ (كما بيّناه في الفصل السابق). إن البديهيات الذاتية المدعومة بالعلم تحوّلت اليوم إلى وقائع لا بُدَّ من التعايش معها. إنها مثل الريح التي تهبُّ في وجه الإنسان خلال رحلة سَفَرٍ طويلةٍ، دون أن يسمح لها أن تحرفه عن وجهة مسيره.

بعد أن رجعنا إلى «مجلة نيويورك لمراجعة الكتب» بشأن ما قالته عن كتاب «آبليارد» سوف أعود إلى هذه المجلّة ثانيةً لأجل مثالي الثاني عن العلمَوِيَّة، لأن هذه المجلّة تؤدي وظيفة الناطق الرسمي بلسان نخبة القرّاء في أمريكا.

يُعتَبَر «جون بولكينغورن» John Polkinghorne عالماً بريطانياً رائداً تحوّل في الخمسين من عمره إلى قسِّيسٍ أنجليكاني. لا تقوم «مجلة نيويورك لمراجعة الكتب» *The New York Review of Books* عادةً بمراجعة أي كتاب لاهوتي، ولكن لما كان «جون بولكينغورن» في بدايات أمره عالماً علمياً ممتازاً، فقد استثنت حالته وقامت بمراجعة كتاب له (جمع فيه بين العلم واللاهوت)، وعهدت لعالمٍ هو «فريمان دايسون» Freeman Dyson بهذه المراجعة.

انتباه! بل انتباه مضاعف!!. عالمٌ علميٌّ يقوم بمراجعة كتاب عن اللاهوت؟! إذا أردنا أن نعرف ماذا يعني مثل هذا الخيار فإننا نحتاج فقط أن نقلب الطاولة ونحاول أن نتصور محرري «مجلة نيويورك لمراجعة الكتب» يتصلون برجل لاهوتي ويطلبون منه مراجعة كتاب علميٍّ! التبرير النمطيّ لمثل هذا اللاتناظر هو أن العلمَ موضوعٌ تقنيٌّ في حين أن اللاهوت ليس كذلك. فهل الأمر كذلك فعلاً؟ للإجابة على ذلك أذكر هذا المثال فقط: قبل عدة سنوات، في مؤتمرٍ في جامعة "نوتردام"، سمعتُ أحد المتخصِّصين بالفكر اللاهوتي للقديس توما الأكويني يقول في تعقيبٍ له على إحدى الأوراق المقدَّمة في المؤتمر: «ربما يكون هناك – فقط ربما – اثنا عشر عالماً على وجه الأرض يفهمون لاهوت القدّيس توما، وأنا لست واحداً منهم!!»[1]. الآن أعود لما قاله العالم «دايسون» Dyson في مراجعته

---

(١) أي هذا يبين أن علم اللاهوت علم تقني خاص لا يجوز أن يتكلم فيه إلا المختص والمتبحر به.

لكتاب اللاهوتي «بولكينغورن» Polkinghorne، فبعد أن أثنى على المؤلِّف لإسهاماته في العلم وللمقاطع التاريخية الجيِّدة في كتابه، انتقل «دايسون» للقسم اللاهوتي من كتاب «بولكينغورن» فقال عنه إنه مثل كل علم لاهوت يُعَاني من كونه مجرَّد كلمات، في حين أن العلم كلامٌ عن الأشياء والحقائق. انتباه! بل انتباه مضاعف!! ولأنني نصبت من نفسي لجنة رقابة على "مذهب العلمويَّة" فقد تحدَّيتُ ادعاء «دايسون» ذاك برسالة كتبتها لـ «مجلة نيويورك لمراجعة الكتب» بدأتها كما يلي:

[[من علامات ميدان اللعب غير المتوازي الذي يتبارى عليه العلم والدِّين اليوم أن يقوم عالمٌ يفتقرُ إلى أدنى رصيد من علم اللاهوت (أقصد فريمان دايسون Freeman Dyson في مراجعته في العدد ٢٨ أيَّار (مايو) ١٩٨٨ من مجلتكم) بالسماح لنفسه أن يتكلَّم بكل حرية على هذا العلم الذي لا يفقه فيه شيئاً ويقول عن علم لاهوت زميلٍ عالمٍ له إنَّه مثل كل علم لاهوت، شيءٌ يقوم على الكلمات فقط وليس كالعلم الذي يقوم على الحقائق!. هذا في حين أن الحقيقة أن هذا التصور يصادم الواقع لأن معظم اللاهوت يعتبر "الله": «الشيء الوحيد الحقيقي الموجود تماماً وبشكل كامل، وأنَّ كل ما عداه هو كالظل له، حسب استعارة الكهف لأفلاطون، وأما المسلمون فإنهم يقرؤون شهادة إيمانهم القائلة "لا إله إلا الله" أحيانا بعبارة أخرى تقول "لا حقيقة إلا الحقيقة الواحدة"، انطلاقا من أن كلا التأكيدين واحدٌ».]].

وأودُّ في هذه المناسبة أن أورد الجمل الأولى من إجابة العالم «فريمان دايسون» على اعتراضي، لأشيد هنا بكل أمانة بلطف الرجل وكياسته إذ كتب يقول: «أنا شاكر لهوستن سميث تصحيحَه أخطائي، وأقرُّ أنه ليس لديَّ فعلاً أي رصيدٍ من علم اللاهوت كما قال، وقد تعلمت الكثير من رسالته». أجل قد لا يكون لدايسون أي اطلاع على علم اللاهوت ولكنه رجل محترم بكل تأكيد.

في هذه المناسبة أود أن أذكر حادثةً وقعت في «معهد ماساتشوسيت للتكنولوجيا MIT» الذي درَّست فيه مدة خمسة عشر عاماً. كنت جالساً أتناول طعام الغذاء في مقصف

الكليَّة ورأيت نفسي جالساً إلى جوار أحد العلماء. وكما يحدث دائماً في مثل هذه المناسبات تحوّل الحديث إلى الخلافات بين العلْم (الطبيعي) Science والعلوم الإنسانية، بيد أنَّه أثناء كلامي في هذا الموضوع قاطع شريكي ما كنت أقوله بوصفي باحثاً مكتشفاً للحقيقة ليصيح قائلاً: «الفرق بيننا هو أنني أحسب (أي أعدُّ) وأنت لا تحسب». فالأعداد هي لغة العلوم، وبهذه الجملة لخَّص كل ما جاء في كتاب سي بي سنو C. P. Snow «ثقافتان» Two Cultures.

إن اللحن الذي أعلن به عن اكتشافه – لعوبٌ ولكنه دقيق – ساعدني على الفهم، كما حدث في مناسبة أخرى في ذلك المعهد أن سألتُ عالماً: كيف ينظر هو وزملاؤه إلينا نحن معشر المتخصصين في العلوم الإنسانية، فأجاب بأسلوبٍ دمثٍ: «نحن لا نهتم حتى لتجاهلكم أيها الفتيان (بنبرة مازحة)!». رغم الهزل في هذه القصص فإن إخبارهم بحدّ ذاته يفتح الباب لتهمة العلم الحاضر، لذلك فبالنسبة إلى أولئك الذين سيقولون أنني أشعرُ بالمرارة، أقول لهم إنهم مخطئون تماماً، لقد عاملني عصرنا العلميّ شخصياً بأكثر مما أستحق، إنّ اهتمامي وقلقي هو بشأن تأثير "**العلمَويّة**" على زماننا كلّه، على طريقة تفكيرنا الجماعية. إن هذا المذهب – كما يقول الكاتب القدير "أبليارد" Appleyard – «**عاملُ تآكلٍ روحيٌ، وهو بإخراجه للدين من حلبة المصارعة يقوم بحرق جميع المرجعيات القديمة والتقاليد الروحية**». والطريقة الرئيسية التي تقوم بها "**العلمَويّة**" بذلك، كما يواصل «آبليارد» هي: «**فصلها لقيمنا عن معرفتنا بهذا العالم**». ولكن «تيموثي فرِّيس» Tomithy Ferris يرفض هذه التهمة معتبراً إياها «مفرطة وفارغة»، وهنا أيضاً لا يسعنا إلا أن نتعجَّب من درجة فقدان الرؤية التي يعاني منها أولئك الذي يقبعون داخل **التصوُّر العلميّ للعالم** بشأن حقيقة "**العلمَويّة**" التي يجدها الآخرون قد أحلَّتْ العصرنة والحداثة في كل مكان. فلا يمكن لفرِّيس، بوصفه كاتباً علمياً، أن يكون غير مطلع على كون «جاك مونود» Jaques Monod قد استنتج من فصلنا للقيم عن المعرفة نتيجةً أكثر اكتئاباً من

النتيجة التي استنتجها «آبليارد» Appleyard، إذ قال: «**لم يسبق لأي مجتمعٍ قبل مجتمعنا أن تمزَّق إلى هذه الدرجة بالتناقضات المؤلمة... إن ما نراه أمامنا هو هاوية الظلام**».

على أن «آبليارد» وجَّه للعلم تهمةً أخرى أكد عليها كثيراً وهي: «**إن العلم أظهر نفسه غير قادرٍ على التعايش مع أي شيء آخر**». إن العلم يبتلع العالم أو على الأقل يفعل ذلك أكثر بكثير من إسهامه فيه، ولا يستشهد «آبليارد» في هذا الصدد بـ «سبينوزا»[(١)] Spinoza، ولكنني أجد في كتاب "**الدافع الطبيعي**" *Conatus* لسبينوزا دليلاً آخر أيضاً على ما ذهب إليه «آبليارد» في توجيهه تلك التهمة للعلمَوِيَّة.

كتاب 'الدافع الطبيعي' لسبينوزا

كتب «سبينوزا» Spinoza كتابه "**الدافع الطبيعي**" *Conatus* باللغة اللاتينية، والكلمة اللاتينية *Conatus* تُترجم إلى الإنجليزية بـ "الإرادة" "Will". يرى «سبينوزا» أنَّه توجد لدى كلّ كائن حيّ رغبة ضمنيَّة في الاستمرار بتوسيع أرضه وعشبه إلى أن يلتقي بما يوقفه ويقول له: ابقَ خارجاً؛ هنا عشبي فلا تتعدَّى عليه. لم يعمِّم «سبينوزا» فكرته هذه على المؤسسات بل قصرها على الأفراد، لكنّ الواقع أنَّها تنطبق أيضاً على المؤسسات، وأنا أجد في هذا الدافع تفسيراً لعدم استعداد العلم حتى الآن لتعلُّم فنّ التعايش. وأغلب العلماء يعرفون فنَّ التعايش عندما يكونون أفراداً، لكنهم عندما يتجمّعون في مؤسسات – كالمؤسسة التي نالت باستحقاق اسم الجمعية الأمريكية لتقدّم العلم *American Association for the Advancement of Science*، وجمعية الأمريكي العلمي *Scientific American*، وما شاكلهما – فإن جو الكليّة والمعهد العلميّ هو الذي يسيطر على الأجواء بحيث يشعر

---

(١) سبينوزا، باروخ (أو: بنيديكت دو) Baruch [Or Bendict De] Spinoza (١٦٣٢ - ١٦٧٧): فيلسوفٌ ومفكرٌ دينيٌّ هولنديٌّ. صاحب (السبينوزية). أكد على دور العقل في الأخلاق وما وراء الطبيعة، وكان من أكبر القائلين بوحدة الوجود والمدافعين عنها. وقد اتهمه كثيرون بالإلحاد على الرغم من الشعور الدِّيني العميق الذي تنبض به كتاباته. من أشهر آثاره (كتاب الأخلاق) Ethica (عام ١٦٧٧).

الفرد ضمنه أنه خائن إذا لم يقم بالمساهمة في تقدّم نفوذ وسمعة وقيمة مهنته أي العلم. لديَّ صديقٌ يعمل طياراً يقود طائرات الجمبو. في الوقت الحاضر، تهدّد نقابته بالإضراب للمطالبة برفع الأجور. وقد علمت أنه شخصياً يعتقد أنّ الطيارين سبق و أخذوا أجوراً كافية أكثر مما ينبغي، وأنه حرٌّ في التعبير عن رأيه هذا والتصويت به ضد الإضراب أثناء اجتماعات النقابة. ولكن إذا تقرر في النهاية القيام بحركة الإضراب فإنه سيخرج مع المضربين ويرفع معهم عريضة الإضراب ويلوِّح بشعاراتهم!. إن حركية التجمع هذه - إذا شئت التعبير - وليس تكبُّر الأفراد وغطرستهم، هي التي توضِّح لنا السبب في كون العلم - الذي يملك اليوم الأوراق بيديه -«**أظهر نفسه غير قادر على التعايش مع أيِّ شيء آخر**». وليس هناك اليوم مؤسسةٌ قويَّةٌ قادرةٌ على أن تقول للعلم: ارجع إلى الوراء وابق في مكانك! هذا عشبي وأنت هنا تتعدى على أرض خارج نطاقك.

يمكنني أن أتذكّر اللحظة التي انفجرت فيها أمامي هذه الحقيقة المهمة مثل عيد الظهور!. حدث ذلك قبل حوالي عقد من الزمن عندما كنت أقود حلقة بحث (سمينار Seminar) طوال النهار حول «**العلمَويَّة**» Scientism في مدينة "أوجاي" Ojai، في ولاية كاليفورنيا. مع مضيُّ النهار وجدت نفسي ألاحظ بشكلٍ متزايدٍ شاباً من بين جمهور الحاضرين بدا أنه يسجِّل كلّ كلمة كنت أقولها دون أن ينبس ببنت شفة. وانتظر بلباقة حتى انتهت الحلقة البحثية في وقت متأخر بعد الظهر فتقدَّم نحوي وعرض عليَّ أن أنضم إليه في نزهة سيراً على الأقدام. فقبلت دعوته بكل ترحاب، وسرعان ما تبين أنه أستاذٌ في جامعة "مينيسوتا" Minnesota وظيفته تعليم العلم لغير العلماء. وكانت قد وصلت إلى مكتبه كلمة الندوة التي كنت بصدد عقدها ولمّا كان مهتماً بموضوعها، سارع إلى الطيران في عطلة نهاية الأسبوع لحضور هذه الندوة. وبعد أن تجاوزنا المجاملات قال لي: «لقد عالجتَ الموضوعَ جيِّداً اليوم لكن هناك شيءٌ واحدٌ حول "**مذهب العلمويَّة**" لا زلتَ لا تراه أيها الدكتور هوستن!، وهو ببساطة أن "**العلم**" هو "**العلمَويَّة**"!.».

في باديء الأمر بدا كلامه غريباً، فلقد أمضيت اليوم كلّه وأنا أبذل قصارى جهدي لتوضيح التمايز الحادّ بين الاثنين. ولكنني مع ذلك أدركت بسرعة ما أراد. لقد كنت أتكلم طوال الندوة على حقيقة الأمر أو ما يجب أن يكون عليه في صورته الصحيحة القانونية إذا صح التعبير، وأغفلت تماماً التطرُّق إلى الأمر كما هو واقع عَمَليّاً. من حيث المبدأ من السّهل تمييز **"العلم"** عن **"العلمَويَّة"**. ولكن من ناحية الممارسة العَمَليّة وخلال كل مسيرة العلم، فإن الطريقة التي أظهر العلم فيها نفسه في المجتمع، كانت ظهوره بنحوٍ لا يختلف عن **"العلمَويَّة"** في شيء، إلى حد يجعل من المستحيل التفرقة بينهما. وهنا يدخل **"الدافع الطبيعي"** لسبينوزا إلى الصورة بنحوٍ لا يمكن اجتنابه، تماماً كما يحصل في كل مؤسسة. والجمعية الطبية الأمريكية مثال واضح على ذلك، لكن الشواهد على هذا الدافع منتشرة في كل مكان.

أعرب «جورغن هابرماس» Jurgen Habermas، فيلسوف مدرسة فرانكفورت، بجملة مفيدة عن الطريقة التي أثَّر بها **المال والقوّة والتكنولوجيا** تأثيراً عكسيّاً على ظروف التواصل في الحياة العادية التي يتواجه فيها الناس وجهاً لوجه. لقد اتّهم تلك الأمور الثلاثة بأنها – حسب تعبيره – **"تستعمر عالم الحياة"**. وبوصفه ماركسياً جديداً لم يكن لديه أيُّ اهتمام خاصٍّ بالدِّين، ولكن ما يهتم به هذا الكتاب يدفعني إلى أن أضيف إلى قائمة تلك الأمور الإمبرياليّة الثلاثة التي تستعمر الحياة **"مذهب العلمَويَّة"** أيضاً. ولعلَّ أحد أكثر الطرق غير الملحوظة، والهدّامة للعلمَويَّة هي ما تمارسه من إطراء الدِّين بلسانها في حين أنها تعمل في الواقع على الحطِّ من شأنه. وكتاب «ستيفن جاي غاولد»[1] Stephen Jay Gould المعنون بـ «*Rocks of Ages*» أي «صخور الأزمنة» أفضل مثال على ذلك. وأبدأ

---

(١) ستيفن جاي غاولد Stephen Jay Gould (١٩٤١ – ٢٠٠٢) عالم أحياء أمريكي من أنصار نظرية التطور وعالم مستحثات جيولوجية، ومؤلف عدد من الكتب الشعبية في العلوم وكاتب عدة مقالات تبسط المعطيات العلمية في علم الأحياء للجمهور العام. ولد في نيويورك ونال الدكتوراه في عالم المستحثات من جامعة كولومبيا، وأمضى حياته المهنية أستاذا للجيولوجيا ثم علم المستحثات في جامعة هارفرد.

بتوجيه كلمة قصيرة لمؤلفه فأقول: «رغم أنك عالم مستحاثّات Paleontologist، إلا أنك أبديتَ أنك غير قادر على التميز بين الصخور والحصى، لأنك قمت بتقليص الدِّين إلى حصى!»، أما تفنيد كلامه بالتفصيل فأخصص له الفقرة التالية.

حول الصخور والحصى

يقول «غاولد» Gould إنه غير قادر على فهم كل هذه الجَلَبَة التي لا داعي لها على أمر تافه، وأن «النزاع بين العلم والدِّين لا يوجد إلا في عقول الناس، ولا وجود له في المنطق ولا في الاستخدام الصحيح أو الفائدة الصحيحة من هذين الموضوعين المختلفين تماماً عن بعضهما والحَيَويَّين جداً في نفس الوقت». ويضيف «غاولد» موضِّحاً أنه عندما تتم إزالة الخلط والتشويش فإن «الحلّ الواضح والبسيط لهذا الاختلاف يبرز بوضوح»، ومن غير المفاجئ أن يكون هذا الحل الذي يطرحه حلاً خاصاً به. «العلم يحاول توثيق الطبيعة الحقيقيَّة للعالَم الطبيعي، ويسعى إلى تطوير نظريات تنسِّق وتوضِّح تلك الحقائق. أما الدِّين، من الجهة الأخرى، فإنه يعمل في حقلٍ آخر مختلفٍ لا تقلُّ أهميتُهُ عن حقل العلم ولكنه يختلف عنه جذرياً، وهو حقل الأهداف والمعاني والقِيَم الإنسانية».

لاحظ أن "الدِّين" الذي يتعامل معه «غاولد» أهدافه ومعانيه وقِيَمه إنسانية وليست إلهية، والقضية الأعمق في ثنائية «غاولد» هي: «من هو المؤهل للتعامل مع الصفة الحقيقية للعالم غير الطبيعي أو ما فوق الطبيعي؟» لا أحد! وذلك لأن في عينيه الشكَّاكتين، عالم الطبيعة هو كل ما يوجد فعلاً. وله بالطبع مطلق الحرية في تبنِّي مثل هذا الرأي، ولكن لا حقَّ له أن يؤسِّس تعريفاته للعلم والدِّين على هذا الأساس لأنه بذلك يصدر حكماً مسبقاً بمنزلة المصادرة على المطلوب. صحيحٌ أنه يمكننا القول في أغلب الأحيان إن القضية بين العلم والدِّين هي بين الحقائق والقيم، إلا أن هذه القضية تُعتَبَر نتيجة لقضية قبلها لا أساساً ومرجعيةً. **إنّ القضية الأساسية تدور حول الحقائق، والحقائق لا غير.** إنها تلك العناصر المتكاملة مع بعضها التي تشكل صورة واحدة تتجلى في **تصوُّر و رؤيا محدَّدة للعالَم.**

وبشكل محدّد هنا، إن القضية هي قضية منزلة القيم في العالم الموضوعي، العالم الموجود حقيقة سواء وُجِدَ البشر أم لم يوجدوا. هل القيم متجذِّرة ولها أساسها في العالم كتجذُّر قوانينه الطبيعية؟ أم أنها تُضاف إليه كظاهرة مصاحبة فقط عندما تدخل الحياة إلى الصورة؟

كون هذه هي القضية الأساسية، أمر غائبٌ عن «ستيفن جاي غاولد» Stephen Jay Gould لكنه ليس غائباً عن فهم جميع علماء الأحياء. قبل سنتين طُلِبَ منّي أن أتكلّم على قضية التطور في "ديفيس" في جامعة كاليفورنيا، في محاضرة نظّمها مكتب الشؤون الدِّينية للجامعة. بعد عدّة أيام من عودتي إلى البيت بعد إلقائي المحاضرة استلمتُ رسالةً من أستاذ علم الأحياء الذي يدرِّس موضوع التطور في ذلك الحرم الجامعي. قال إنه حضر محاضرتي متوقِّعاً أن يسمع أشياء سيحتاج لدحضها في محاضرته التالية في صفه الجامعي، لكنه سُرَّ عندما لم يجد فيما قلته إلا شيئاً ضئيلاً من ذلك النوع. وأرفق رسالته بمقال كان قد كتبه فيما سبق يجيب فيه عن سؤال: ما هو أصل موضوع التطور؟. وكان جوابه: «**إن موضوع التطور ليس البحث عما إذا كان التطور علماً صحيحاً أم لا، ولا عما إذا كانت نظرية التطور أم نظرية الخلق هي الأفضل للتفسير العلمي لتنوع الحياة، وليس موضوعه البحث عما إذا كان قانون الاصطفاء الطبيعي برهانٌ دائريٌ (يعتمد في صحته على أمر هو من نتائجه) أم لا. إن الفكرة الأساسية في موضوع التطور ليست ذات علاقة بعلم الأحياء. إن فكرة التطور أساساً هي تصوُّرٌ محدَّدٌ للعالم Worldview.**».

كان من الممكن لكتاب «صخور الأزمنة» *Roks of Ages* أن يكون مفيداً جداً لـ«غاولد» Gould إذا تنبَّه إلى هذه النقطة، لكن الآن، بعد أن مَرَحْتُ مع «غاولد» قليلاً، ينبغي أن أعترف أنّني لم أكن عادلاً تماماً بشأنه، لأنه كان محقّاً تماماً في قوله إنّ موقفه الذي يدعو إليه "**تقليديٌّ تماماً**" بين العلماء، ولكن هذا لا يجعله على حق، وإنّما يبرّئه من تهمة ابتداع الخطأ الذي اقتبست من كلام «آبليارد» Appleyard إشارة إليه قبل بضعة صفحات: «**إن فصل قيمنا عن معرفتنا بالعالم** (العمل الأساسي الذي تقوم به "**العلمَويَّة**") **يحرق جميع المرجعيات القديمة والتقاليد الروحية**».

من الحرب إلى الحوار

لقد ماتت السيطرة الدِّينية قبل قرن أو قرنين من الزمن، ويبدو اليوم أن نظيرها العلمي يسير على نفس خطاها و يتبعها في الموت أيضاً. طبعاً ما يزال يوجد هنا وهناك مقاومون عنيدون متطرفون يقاومون حتى النهاية أي تغيير في مواقفهم، - مثل «ريتشارد داوكينز»[1] Richard Dawkins الذي يشبِّه الإيمان بالله بالإيمان بحكايات الجنِّيات الخرافية، ومثل «دانييل دينيت» Daniel Dennett الذي يرى أن اعتقاد «جون لوك»[2] John Locke بأن العقل لا بد أن يسبق المادة هو وليد شلل تصوُّريٍّ قديم عفى عليه الدهر مثل قلم الريشة - ولكن مثل هذه الأصداء لإعلان «جوليان هوكسلي»[3] Julian Huxley حوالي منتصف القرن الماضي أنه: «عن قريب سيصبح من المستحيل لأي رجلٍ (أو امرأة) ذكيٍّ ومتعلِّم أن يعتقد بوجود الله كما هو من المستحيل اليوم الاعتقاد بأن الأرض مسطَّحة!» أصبح يُنْظَر إليها على نطاقٍ واسع أنها لا تعدو انفعالاتٍ مُتشنِّجَة جدليَّة وتهجُّميَّة لا أكثر. لقد أصبح من الواضح أن كلا العلم والدِّين باقيان وستبقى لهما كلمة يقولانها. سيكون «إي أو ويلسون»[4] E. O. Wilson مسروراً - كأيِّ شخصٍ آخر - أن يرى الدِّين يرسب

(١) ريتشارد داوكينز: عالم أحياء بريطاني معاصر (١٩٤١ -) متخصص بعلم الحيوانات، من دعاة الإلحاد.

(٢) جون لوك John Locke: (١٦٣٢-١٧٠٤)، فيلسوف إنجليزي، واضع أسس المذهب التجريبي Empiricism الذي يؤكد على أهمية التجربة في الوصول إلى المعرفة بدلاً من الاستنتاج العقلي والحَدْس.

(٣) جوليان هوكسلي Julian Huxley (١٨٨٧ - ١٩٧٥)، عالمُ أحياء بريطانيٌّ اشتهر بإيضاحه المفاهيم العلمية لعامة الناس. تخرج من جامعة أكسفورد. وعين أول رئيس لمنظمة التربية والعلوم والثقافة التابعة للأمم المتحدة "اليونسكو" خلال عامي ١٩٤٧ - ١٩٤٨. اقترح في كتابه Religion Without Revelation «دين من دون وحي» (عام ١٩٢٧، وراجعه عام ١٩٥٧) أن البشر يمكنهم أن يجدوا منفذاً لحماسهم الدِّيني عبر التأمل بمصيرهم بأنفسهم، عوضاً عن الاتكال على عقائد إلهية غيبية، وبهذا كان من دعاة الإلحاد.

(٤) ويلسون إدوارد أوسبورن Wilson A. O. (١٩٢٩ -)، عالم أحياء أمريكي معاصر من أنصار نظرية التطور، اشتهر بعمله الذي تتبّع فيه تأثير الاصطفاء الطبيعي على الجاليات البيولوجية، كما رأى أنّ العديد من الخصائص السلوكية (مثل البطولة، الإيثار، العدوانية، وهيمنة الذكر) يجب أن تفهم كنتائج تطوّرية، وأن معظم السلوك البشري يقرّر جينيّاً (أي عبر المورِّثات)، وقد أثارت استنتاجاته هذه جدلاً كثيراً بين العلماء. نال كتاب ويلسون «في الطبيعة البشرية» (١٩٧٥) جائزة بوليتزر عام ١٩٧٩.

في امتحان الداروينية (أي لا يتوافق مع نظرية داروين عن التطور) ولكنه يعترف أننا نملك في خلايا دماغنا مُوَرِّثاً (جيناً) دينياً، ولا يجد أن هناك أي سبيل للتخلص منه. وكتب يقول: **«يواصل الشكّاكون اليوم اعتقادهم بأن العلم والتعلُّم سوف يقضيان بالضرورة على الدِّين، ولكن هذا المفهوم لم يسبق أن بدا عقيماً جداً كما يبدو اليوم»**.

إذن كلٌّ من الدِّين والعلم لهما وجوده الدائم في التاريخ، لذا فإنَّ السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: «كيف يمكن للدِّين والعلم أن يتعايشا مع بعضهما». كان «ألفريد نورث وايتهيد»[1] Alfred North Whitehead يرى أن مستقبل الإنسانية يعتمدُ، أكثر من اعتماده على أيِّ شيءٍ فردٍ آخر، على طريقة تلاقي القوتين الأقوى في التاريخ (الدِّين والعلم) مع بعضهما وحلِّ خلافاتهما وإرساء العلاقة المتبادلة بينهما، وأنَّ هناكَ دعوةً جديَّةً اليومَ لتعاونهما وتداخلهما لم يُرَ مثلها منذ أن ظهر العلم الحديث.

لعل أحد أسباب نشاط هذه الدعوة هو دخول المال على الخط (جائزة تيمبلتن[2] Templeton Prize للتقدّم في الدِّين أكبر من جوائز نوبل)، وهو يشير بالتأكيد إلى تغيّر في

---

(١) ألفريد نورث وايتهد Alfred North Whitehead (١٨٦١ – ١٩٤٧): عالمٌ بريطانيٌّ شهيرٌ بالرياضيات والميتافيزيقيا (علم ما وراء الطبيعة)، اعتبر أحد أعظم فلاسفة القرن العشرين. كان رياضيا بارعاً ألف بالتعاون مع برتراند راسل Bertrand Russell كتاب مبادئ الرياضيات (في ثلاث مجلدات) الذي يعتبر أحد أعظم المؤلفات في المنطق والرياضيات (١٩١٠ – ١٩١٣). عارض بشدة مفاهيم المادية العلمية، وطوَّر منذ أوائل القرن العشرين منهجه بشأن التجريد التام، وانتقل في المرحلة الأخيرة من حياته إلى فلسفة أكثر تخصصاً جمعت بين الميتافيزيقيا والدِّين ومبادئ المعرفة، وأحدثت مفاهيمه المعرفية ثورة في «نظرية المعرفة». وقد كتب في هذه المرحلة: (العلم والعصر الحديث) *Science and the Modern World* (١٩٢٥)، و (دينٌ في حالة الإحداث) *Religion in the Making*.. الخ.

(٢) جائزة تيمبلتن Templeton Prize جائزة سنويةٌ ثمينة قدرها ١,٥ مليون دولار تقدمها مؤسسة أمريكية تدعى: *The John Templeton Foundation* "مؤسسة جون تيمبلتن"، هدفها تشجيع الأبحاث والاكتشافات في حقل الحقائق الروحية، وتحديد الحدود بين العلم واللاهوت. وللمؤسسة نشاطات متعددة تصب كلها في دعم الأبحاث والدراسات العلمية حول المواضيع التي تدعم الروح والدِّين والصحة النفسية للإنسان وتربية الأخلاق. وللمؤسسة موقع على الإنترنت عنوانه: http://www.templeton.org .

مناخ الرأي العام أيضاً. يحسّ العلماء احتمالاً بأنّهم لم يعودوا قادرين على إقناع الجمهور بقبول تصريحاتهم بشأن القضايا الكبرى دون مناقشة أو تفكير، وأن عليهم أن يقدموا براهينهم على كل ما يدّعونه. وعلى أية حال يبدو الحوار بين الدِّين والعلم منتشراً في كل مكان. تزدهر اليوم عشرة مراكز أبحاث في الولايات المتحدة تكرّس جهودها لدراسة العلم والدِّين، وتعمل مجتمعةً على عقد الكثير من المؤتمرات والمحاضرات و ورشات العمل في هذا الصدد. هناك عدةّ مئات من المحاضرات والدورات العلميَّة عن العلم والدِّين يتم تدريسها كل سنة في المعاهد والكليّات والجامعات في مختلف أنحاء البلاد، في حين أنه قبل عقد أو عقدين من الزمن كان علينا أن نبحث كثيراً في كل مكان لنجد بصعوبة مثالاً أو مثالين لمثل هذه الندوات والمحاضرات؛ كما أننا نشهد كل سنة تقريباً صدور مجلات جديدة تحمل عناوين مثل: «العلم والروح» و«العلم وعلم اللاهوت» و«الأصول والتصميم» تنضم إلى الحلقات الدراسية المتقدّمة القديمة لمركز «زايغون للدين والعلم»[1] Zygon Center for Religion and Science، وذلك لزيادة سيل الكتب – الكثير منها من الكتب الرائجة التي تحقق أفضل المبيعات Best-Sellers– التي تُبْقِي الحوار بين العلم والدِّين متواصلاً ومندفعاً إلى الأمام.

إجمالاً، يُعْتَبَرُ هذا الاهتمام المتزايد علامَةَ صِحَّة، لكنّه يخفي خطر أن يستخدم العلم هذا الحوار كحصان طروادة يدخل بواسطته إلى حِصن الدِّين المركزي: علم اللاهوت. لكنّ هذه الاستعارة غير دقيقة لأنها تتضمن كون العلم يفعل ذلك انطلاقاً من خطّة وتصميم متعمّد. لذلك لعلّ مثال حدوث فتحة في السدّ يكون أفضل في التعبير عن المسألة، فإذا

(١) مركز زايغون Zygon مركز دراسات و أبحاث ذو أساس ديني، اسمه الكامل: Zygon Center for Religion and Science "مركز زايغون للدين والعلم"، يقع ضمن الكليَّة اللوثرية لعلم اللاهوت في شيكاغو، ويرعى دورتين في السنة: الأولى سمينار (حلقة بحث) "حول الدِّين والعلم" مستمرّة منذ عام ١٩٦٥، و الثانية حلقة دراسية حول "ملحمة الخلق"، مستمرة منذ عام ١٩٨٩، بالإضافة لعقده سنويا عديداً من المؤتمرات والندوات التي تبحث في موضوع الدِّين والعلم. ولهذا المركز موقع على الإنترنت عنوانه: http://zygoncenter.org .

حدثت فتحةٌ في سدٍّ "نيزيرلاند" فلن تقوى أي أصبع على منع ثقل المحيط من الاندفاع من خلالها.

استعمار علم اللاهوت

بما أنني كنت أنتمي يوماً ما لمعسكر العدو (مع اعتذاري من استخدام هذه اللغة العسكرية!) فإنني أمتلك بصائر جيدة عن طرق عمله لذا سوف أستفيد من هذه الميِّزة هنا.

عندما عُدْتُ إلى أمريكا من ميدان البعثة التبشيرية في الصين، كانت منصة هبوطي اللاهوتية عندما حططتُ في الكليّة الميثودية المركزية في ميسوري، هي إيماني بالله الطبيعي Naturalistic Theism، وهي وجهة نظر ترى أن الله لا بد أن يكون جزءاً ما من الطبيعة ذاتها لأن كل ما يوجد فعلاً هو هذه الطبيعة فحسب. كان «هنري نيلسون وايمان» Henry Nelson Wieman - بمساعدة بسيطة من «جون ديوي»[1] John Dewey - هو الذي أسس تلك المدرسة من علم اللاهوت، وكان عميد كليّتي أحد أصدقائه الأوائل. كان الأمر كذلك عندما وصلتُ إلى كليَّة اللاهوت في جامعة شيكاغو للدراسة مع الأستاذ «وايمان»، حيث كنت من أكثر التلاميذ حماساً لمدرسته الفكرية تلك. واستمرَّ الأمر كذلك طيلة دراستي العليا إلى أن جعلني ميلي إلى الصوفيين Mystics أهتدي إلى مفهومهم للعالم.

في ذلك الوقت الذي أتكلّم عليه (منتصف القرن العشرين)، كان «لاهوت (وايمان) الطبيعي التحرُّري» قد بدأ بالانحسار مفسحاً المجال لنشاط منافسه: «اللاهوت المحافظ الأرثوذكسي_الجديد»، الذي وضع أسسه اللاهوتي السويسريّ «كارل بارث» Karl

---

(١) جون ديوي John Dewey (١٨٥٩ - ١٩٥٢) فيلسوفٌ أمريكيٌّ وعالمُ نفس، وأستاذٌ جامعة ومستشار تربوي. اهتم كثيراً بإصلاح مناهج التربية والتعليم نظرياً وتطبيقياً، وأصبح مستشاراً تربوياً ومحاضراً حول الأنظمة التربوية الحديثة في كل من الصين واليابان والمكسيك وتركيا والاتحاد السوفييتي. أكدت نظريته التربوية على وجوب التعليم باستخدام عدة نشاطات تشاركية متنوعة عوضاً عن طريقة الإلقاء التقليدية. ترك أثاراً ضخمة مثل "علم النفس" و"المدرسة والمجتمع" و"التعليم والديمقراطية" وغيرها.

Barth، وكان يقوده في أمريكا «رِينولد نيبوهر» Reinhold Niebuhr، الذي بـدأ بـامتلاك أرضيته لدى العقل البروتستانتي. ربح «رينولد نيبوهر» الجولة، ولكن مع قدوم «وايتهيد» Whitehead وخليفته اللاهوتي «تشارلز هارتشورن» Charles Hartshorne عاد مذهب اللاهوت الطبيعي بعد أن عُدِّلَ تعديلات متعاقبة. كانت فلسفة هـذا اللاهوت المعـدَّل بشـأن الكائنات الحية (كما كان «وايتهيد» يحيل إلى علم المتيافيزيقا» أغنى من «المذهب الطبيعي»[1] Naturalism لـ«وايمان» Wieman، كما أن أحاسيس «وايتهيد» Whitehead و«هارتشورن» Hartshorne الدِّينيَّة كانت مشحوذةً على نحوٍ أرفع، على أن اللاهوت المعدَّل بقي لاهوتاً طبيعياً مع ذلك. إلهُهُ ليس استثناءً من المبادئ التي تحكم هذا العالم، كل ما في الأمر أن هذا الإله نموذجُ العالَم الرئيسي الأساسي. فالله – في ذلك اللاهوت – ليس خارج الزمن خالقاً لَهُ، بل هو ضمن الزمن، كما أن الله ليس كليَّ القدرة (قادراً على كل شيء) ولكنَّه مثل كل شيء في هذا الكون، محدودٌ. إنَّه إلهٌ «نصف كُفْءٍ» حسب تعبير «آنِّي ديللارد» Annie Dillard.

ألا تلاحظ معي هنا يد العلم – التي يشير إليها أتباع اللاهوت المعدَّل بكل افتخار – متدخِّلةً في هذه النزعة اللاهوتية في نصف القرن الماضي؟ وعندما نربط هذه النزعة باهتمامات هذا الفصل، يبرز لدينا سؤالان: الأول: لو كان لدينا الخيار، فهل نفضِّل أن يكون الله كُفْأً ومقتدراً بشكل كامل، أم كُفْأً ومقتدراً بنحوٍ جزئي. والسؤال الثاني: هل اكتشف العلم أية «حقائق» تجعل الخيار الأول (أي الخيار الدِّيني التقليدي) أقل معقولية ومنطقية من الخيار الثاني؟ لو كان الأمر كذلك، لكان العلم عندئذ هو الذي يقود هذه النزعة اللاهوتية الجديدة، و علينا أن نسير على طريقه. أما إذا لم يتم إبراز مثل تلك «الحقائق»، فإن الأساليب العلمية للتفكير متَّهمةٌ باستعمار علم اللاهوت.

بعد هذه الإشارة السريعة للسنوات الخمسين الأخيرة، أتحول الآن إلى الزمن الحاضر.

---

(١) المذهب الطبيعي Naturalism: مذهب يُنكر أن يكون لأي حادثة أو شيء معنى خارقٌ للطبيعة؛ وبخاصة: المذهب القائل بأنَّ النواميس العلميّة مؤهّلة لتعليل جميع الظواهر.

ميل (انحياز) طاولة المفاوضات

بما أن أتباع "مذهب العلمويّة" يتفاوضون حول هذه النقطة انطلاقاً من موقع قوة في المجتمع، وبما أنهم سيكونون سعداء أن تبقى الأمور دائماً كذلك، فإن على اللاهوتيين أن يأخذوا زمام المبادرة في الحفاظ على الحوار قائماً. وقد سبق وذكرتُ المعاهدَ العشرةَ أو نحو ذلك، التي تأسّست على أساسٍ دينيٍّ والتي تؤدّي هذه الوظيفة. وفي هذه الصفحات سوف أقتصر على اثنين من تلك المعاهد يعتبران الأرفع مقاماً والأكثر أهميَّةً، وهما مركز "زايغون" في جامعة شيكاغو ومركز اللاهوت والعلوم الطبيعية (م. ل. ع. ط.) في اتحاد الدراسات اللاهوتية العليا في بركلي Graduate Theological Union in Berkeley.

في تقسيمٍ غير رسميٍّ للأدوار يقوم معهد شيكاغو بطباعة مجلة "زايغون"، المجلة الأكاديمية في هذا الحقل، في حين يقوم مركز بيركلي بعقد الندوات والمؤتمرات. مَنْ الذين تُطبَع مقالاتهم في مجلة "زايغون" ويُدْعَوْنَ لحضور المؤتمرات في مركز اللاهوت والعلوم الطبيعية في بيركلي؟ ليس هناك سياسةٌ عمليةٌ منصوصٌ عليها أو مصرَّحٌ بها، ولكن إذا أجرينا مسحاً شاملاً لكلِّ مَن يُنْشَر لهم ويُدْعَوْنَ لإلقاء المحاضرات لما كان من الصعب ملاحظة أن هناك تحيُّزاً واضحاً ضدَّ من يتصفون بأحد أمور ثلاثة: أولاً: انتقاد النظريَّة الداروينية، وثانياً: الاستدلال على أن الكون تم تصميمه بتخطيط عقليٍّ ذكيٍّ، وثالثاً القبول بإمكانية أن يتدخَّل الله أحياناً في التاريخ بطرقٍ خارج القوانين التي تعمل بها الطبيعة. يُسْمَحُ بالاعتقاد بأن الله خلق الكون، وأنه يعمل في الكون ويدبِّره، ولكنْ لا يُسْمَح بتصور أن الله يمكن في أي وقت من الأوقات أن يعلِّق العمل ببعض قوانين الكون ويعطِّلها، أو يترك في قوانينه ثغراتٍ يمكن ملؤها إلهياً من الخارج، (وهذا سيعطينا "إله الثغرات" وهي ألوهية سوف تُطرَد خارجاً، كما من المفترض حصوله، عندما يكتشفُ العلمُ ما يملأ أمثال تلك الثغرات). وبكلمة مختصرة: المعجزاتُ والأمورُ فوق الطبيعية مستبعدةٌ تماماً. فالذين يحترمون هذه التحريمات المفروضة الثلاث يتمُّ الترحيب بهم في مركز اللاهوت والعلوم الطبيعية في بيركلي وفي مجلّة "زايغون" وأما الذين لا يحترمونها فلا يُرَحَّب بهم. هذا على

الأقل قراءتي للوضع. إذا كانت قراءتي دقيقة أساساً، فإن تلك السياسة العملية تبدو غريبة جداً عندما يفكر أحدنا فيها؛ إنّها تُظهر أن محور بيركلي/ شيكاغو قام بنزع وإزالة ثلاثة جوانب أو سمات أساسيَّة من **التصوُّر الدِّيني التقليدي للعالَم** (المقصود هنا ذلك التصوُّر الذي لدى الهندوسية والأديان الإبراهيمية. أما البوذية وأديان شرق آسيا فإنها تضع أمامنا تعقيدات بعيدة عن موضوع بحثنا هنا). لماذا؟. الإجابة واضحة: لا تبدو تلك السمات أو الجوانب متلائمةً مع "**التصور العلميّ للعالَم**" Scientific Worldview. لا يمكنني أن أتكلّم عن المجالس أو الهيئات الحاكمة في المعهدين دون أن أعرف فيما إذا كانت سياستهم هنا تكتيكية – أي اتُّخذَتْ لمنع أتباع "**العلمَويّة**" من الابتعاد عن طاولة التفاوض فقط – أو أن سياستهم تعكس اعتقاداً بأن العلم قد اكتشف أشياء تتطلب إسقاط تلك السمات التقليدية. إنّني أعرف فريق العمل في بركلي جيِّداً على نحو يجعلني متأكِّدا من أنَّ أعضاءه مسيحيون مخلصون لا يرون أنفسهم مستسلمين أو منقادين **للتصوُّر العلميّ للعالَم** إذا كان ذلك التصوُّر يُقْرَأ بنحوٍ يستبعد الله، ولكن الله الذي يسعون لإثباته هو: (١) علّة الكون الأولى والنهائية. (٢) ويعمل في التاريخ بواسطة التحكُّم بالطريقة التي يسمح فيها علماء الطبيعة للجزئيات أن تتحرك وتقفز تحرُّكاً لا يمكن تحديده مسبقاً، وهذا يبقي الله في الصورة ولكن بطريقة تكمِّل **المفهوم العلمي للعالم** ولا تسبِّب له أيَّ إزعاج.

إن المشكلة الخطيرة في هذه المقاربة تتمثَّل في الطريقة الإجرائيَّة التي تسير بها الأمور، ذلك أن المعاهد التي تسيطر على حوار الدِّين_العلم لا تعتبر الطريقة التي تراها لارتباط اللاهوت بالعلم مجرَّد واحدة من الطرق العديدة الأخرى الممكنة التي تستحق الإصغاء إليها أيضاً، بل تعتبرها الطريقة الحقيقيّة الوحيدة، وأنه لا بد من الأخذ بها إذا أريد للدِّين أن يستمر في العيش في عصر العلم.

تزوِّدنا الداروينية بأوضح مثال لهذه المقاربة الاحتكارية. لا شك أن قضية معرفة كيف ظهر الإنسان إلى عالم الوجود لأول مرة، معرفة ذات وزن ديني كبير، وأنا ومؤسس الداروينية اثنان من بين ملايينَ يجدون في النظريَّة الداروينية، عندما تُؤخذ بوصفها تفسيراً

كاملاً لأصول الإنسان، نظريّة تجرّنا لموقف ضدّ النظريّة اللاهوتية. في الواقع هناك نقاشٌ مشتعلٌ بشراسة بين العلماء أنفسهم حول نظريّة داروين، وتغذّي ذلك النّقاش تعليقات مثل "فرد هويله" Fred Hoyle المشهور اليوم، والذي يقول إن فرصة الاصطفاء الطبيعي لإنتاج إنزيم واحد تماثل فرصة أن يؤدي إعصار يهبُّ على فناء صناعة إلى إنتاج طائرة بوينغ ٧٤٧! أولئك العلماء أنفسهم، تجدهم عندما يدخل الدّين في الصورة يرصّون صفوفهم ويتّحدون في دعم الداروينية، ويجدون (للأسف) أن مركز اللاهوت والعلوم الطبيعية في بيركلي ومجلة "زايغون" معهم في موقفهم هذا.

لم يحصل - فيما أعلم - أن نُشرَ أيّ مقالٍ ناقدٍ لنظريّة داروين في مجلّة "زايغون" أو تمّ إدراجها ضمن أيّة أوراقِ ندوةٍ أو مؤتمرٍ مُهِمٍّ في (م. ل. ع. ط.) في بركلي.

ينبّهنا «مايكل روز» Michael Rose، الأستاذ الجامعي في جامعة غويلف University of Guelph - وهو مجاهرٌ جريءٌ وشجاعٌ ضد الداروينية - إلى الاستعمار الذي يقوم به علم الأحياء للاهوت، ويوضّحه أمام أنظارنا، عندما يتّهم زميلَه الداروينيّ بالتصرُّف كما لو أن الداروينية دينٌ بحد ذاته! بل يذهب "راستوم روي" Rustum Roy - وهو عالمٌ ماديٌّ في جامعة بنسيلفانيا الحكومية - أبعد من ذلك. لقد هدَّدَ، تهديداً نصفَ جديٍّ، بأنه سيرفع دعوى ضد مؤسسة العلوم الوطنيّة لانتهاكها مبدأ فصل الكنيسة عن الدولة بسبب تمويلها لفروع من العلوم حوّلت نفسها إلى أديان. إذا كان هؤلاء الناس على حقّ وكانت الداروينية قد أصبحت عقيدة، فقد بدا لدينا مشهدٌ واضحٌ لهذا الاستعمار الذي تقوم به الداروينية ليس للاهوت فقط بل حتى لعلم الأحياء أيضاً. وسأختم هذا الفصل بهذا الشاهد:

عقد مؤتمر عام ١٩٩٩ حول أصل تصاميم جسم الحيوان والسجل المستحاثّيّ في الصين، حيث تمّ هناك اكتشافُ عددٍ غيرِ متكافئٍ من المستحثّات المتعلّقة بالانفجار

الكامبري[١] Cambrian Explosion لأوّل مجموعة من الكائنات الحيَّة ذات النظام والترتيب المشترك. وقد حاولت الوفود الغربية، عامَّةً، أن تثبت أن الانفجار يمكن أن يُفسَّر من خلال المقاربة الداروينية في حين كان المندوبون الصينيون أكثر شكّاً في ذلك. وقد ختم "جوناثان ويلز" Jonathan Wells، من مركز تجديد العلم والثقافة Center for Renewal of Science and Culture في معهد الاكتشافات في سياتل Discovery Institute in Seattle تقريره عن المؤتمر برواية تحمل معاني إضافية منذرة بسوء تستحقُّ أن أوردها هنا كاملةً، قال:

((سوف أنهي تقريري هذا بحكاية محزنة واحدة حول حوارٍ جرت بيني وبين عالمة أحياء تطورية صينية من شانغهاي عادت مؤخَّراً من بحث قامت به في ألمانيا. لقد أخبرتني أن الممارسة العامة للتعليم في الصين، هي أن يتم الاستقرار على نظرية علمية رسميَّة، ثم يتمّ تعليمها بنحو يتمّ معه إقصاء كل النظريَّات المخالفة الأخرى. وقالت حتّى اليوم لم تحصل مثل هذه الممارسة (لحسن الحظّ) في علم الأحياء، وذلك لأنها هي نفسها ناقدةٌ لفكرة أن تكون البرامج الجينية (الوراثية) هي التي تتحكّم في التطوُّر، ولكنَّها أبدت تخوّفها من إمكانيَّة أن تحصل تلك الممارسة في علم الأحياء قريباً جداً. وقالت إنها وزملاءَها يعتقدون أن أملهم الوحيد هو استعداد ورغبة العلماء الغربيين لمناقشة النظريَّات المنافسة وعدم الانحدار نحو الدوغماتية أي التعصب العقائدي لنظرية محدَّدة. وكان يزعجها أن ترى في ذلك المؤتمر الدرجة التي أصبح فيها علماء الأحياء الأمريكيين يتعصَّبون عقائديَّاً لنظرية محدَّدة، وطالبت معي بضرورة الدفاع عن روح البحث العلمي الحرّ. والطريقة التي وضعت بها ذلك الأمل كان قولها: (إن العالم يعتمد عليكم لفعل ذلك.)).

---

(١) الانفجار الكامبري Cambrian explosion انفجار بيولوجي يعتقد علماء الجيولوجيا أنه حصل في العصر الكامبري وهو عصر جيولوجي يعود من ٥٧٠ إلى ٥٠٠ مليون سنة قبل الآن، ممتداً على مدى سبعين مليون سنة، يرون أن زيادة نسبة الأوكسجين خلاله في الغلاف الجوي للأرض والمحيطات أدَّت إلى إعطاء إمكانية لتشكل أنماط جديدة من الكائنات الحية في البيئة البحرية تحصل على طاقتها عبر التنفُّس، وأنه على الرغم من أن الكائنات الحية لم تبدأ في اليابسة ولا الفضاء في هذه الفترة بعد، إلا أنهم يعتقدون أن هناك كائنات بحرية حية بدأت بالتكون في هذه الفترة مثل اللافقاريات والإسفنجيات والديدان البحرية وما شاكلها.

الفصل ٥

الجدار الأيسر للنفق:

التعليم العالي *Higher Education*

نتَّجه الآن إلى الحائط الأيسر للنفق، الذي يتمثَّل في "**التعليم العالي**". دعنا نبدأ بكتاب يؤسّس سياق هذا الفصل. مرَّةً ثانيةً نجد (كما وجدنا في الفصل ٣) أن الكتب التي يمكننا أن نختار أحدها لقيادة هذا الفصل ليست قليلة، ولعلَّ من أبرزها كتاب «بيج سميث» Page Smith: «قتل الروح: التعليم العالي في أمريكا» *Killing the Spirit: Higher Education in America*، على أنني اخترتُ كتاب «**جورج م. مارسدن**» George M. Marsden: «**روح الجامعة الأمريكية**» *The Soul of the American University* لأن عنوانه الثانوي: «**من مؤسسة بروتستانتية إلى الإلحاد المؤسَّس**» *From Protestant Establishment to Established Non-Belief* أقرب إلى إطلاعنا على القصة كاملةً.

الكتاب الرئيسي المرشد لمسيرة هذا الفصل

كانت أولى المعاهد والجامعات التي أنشئت في أمريكا معاهد لتدريب رجال الدين، ونتيجةً طبيعيةً لذلك فقد كان الجوّ السائد في الحرم الجامعي جواً دينيّاً. استمرّ ذلك الجوّ الديني عقوداً عديدةً رغم توسع أهداف التعليم إلى أمور خارج تدريب القسس ورجال

الدين. وحتى قرن سابق فقط، كانت جميع الجامعات والمعاهد الحكومية والخاصة، تقريباً، تفرض أداء الصلاة في المصلى (الجامعي) على جميع الطلبة كما كان بعضها يوجب على طلابه حضور قُدَّاس يوم الأحد في الكنيسة أيضاً. أما اليوم، فقد اختفى تماماً تقريباً ذلك الحضور الواسع والقويّ للدين في الحرم الجامعي. ليس كتاب: **«روح الجامعة الأمريكية»** (الذي أشرنا إليه) مجرَّد رثاء لعصر ذهبي مفقود تمتعت به أمريكا أثناء سيادة المؤسسة الأنغلو_سَكْسُونية البروتستانتية البيضاء، إلا أنه مع ذلك يريد أن يثبت أنه لم يكن من الضروري لعملية إدخال مبادئ المساواة بين الجنسين وتعدّد الثقافات أن تستبعد المفاهيم الدينية التقليدية وما كان ينبغي لها أن تفعل ذلك، فتلك الرؤى الدينية كانت تغني منهج الكليّات الجامعية دون أن تهدِّد الثقافة العلميَّة السليمة أو البحث العلمي الحرّ.

إنّ تاريخ هذه القضية مألوفٌ جداً إلى درجة أنه لن يكون علي سوى التوقّف عند بعض النقاط الهامة في أطروحة المؤلف «جورج مارسدن» الجيدة وأضيف إليها بعض تعليقاتي الخاصة.

ما الذي حدث؟

لقد أُسِّسَت الجامعات والمعاهد الأمريكية في وقت كانت المثاليّة الوطنية والأخلاقية فيه على أشدِّها. سيكون من المفاجئ أن لا ينظر مؤسسو تلك الجامعات إلى اهتماماتهم العمليّة من خلال العدسات الدينية. كانت تلك العدسات بروتستانتيةً، إنجيليَّةَ المشرب، وكان رؤساء أو رجال دين تلك الكليّات المبكِّرة يعطون، نموذجيّاً، دورات علميّة في الكتاب المقدّس Bible والعقيدة المسيحيّة ويشجّعون إحياء الدين في الحرم الجامعي. بيد أنه، منذ البداية، اعترفت الكليّات الجامعيّة بالحقائق التي يمكن أن يتم التوصُّل إليها بمجرَّد **«العقل الطبيعي»** وبدون مساعدة الوحي الإلهي. **«فالفلسفة»** هي الحقل الذي كانت تعيش فيه أمثال تلك **"الحقائق"**، وكان اسم ذلك الفرع من الفلسفة الذي يتعامل مع الطبيعة: **«الفلسفة الطبيعية»** Natural Philosophy (الاسم المبكّر للعلم).

في الأيام الأولى لجامعة "هارفرد" اقتبس أحد رؤسائها قول أرسطو الذهبي: «**ابحث عن صديق في أفلاطون، وابحث عن صديق في سقراط، ولكن قبل كل شيء ابحث عن صديق في الحقيقة**»، ثم واصل ثناءه على الفلسفة الطبيعية قائلا بوضوح: «ليست الفلسفة الطبيعيّة سوى نظام يتمّ توضيح الأشياء الطبيعية فيه، وأيّةُ فرضيّة يمكن بوساطتها إيضاح وتفسير أكبر جزء من الظاهرة الطبيعية، تُعَدُّ في هذا النظام، الفرضية الأفضل. فهذه الأشياء يجب السعي إليها والحصول عليها».

إذن كان العلم والدِّين حليفان في البداية. ولكن خلال القرنين التاليين، كان يتمّ إزاحة الدين بشكل تدريجي متواصل ومستمرّ من الساحة، وتهميشه ورميه نحو الحاشية.

وعلى كل حال لم تتصرف الجامعات والمعاهد في هذا المجال (وسأستخدم لفظ الجامعة والمعهد هنا بنحو متبادل إذ لا يوجد فرق بينهما سوى في الحجم) بمعزل عن الجوّ المحيط بها، بل كانت تتماشى، عموماً، مع عمليّة **العَلْمَنَة**[(١)] Secularization السائرة قُدُماً، ببساطة، في كلّ المجتمع الأمريكي، وقد ضاعفت الجامعة سرعة حركتها في هذا الاتجاه في القرن العشرين مؤكدةً التزامها بعمليَّة العَلْمَنَة ضمن حرمها.

والسبب الأهم لزيادة وتيرة العلمنة في القرن العشرين هو **التَّقْنَنَة** المتطورة للعالَم الغربي أي تحويله إلى مجتمعات تكنولوجية متطورة، تحت شعار التقدُّم، وقد لعبت الجامعات دوراً أساسياً في هذا المشروع. إذ تمّ استدعاء العلماء الباحثين ليقوموا باكتشاف قوانين جديدة للطبيعة، ثمَّ تمَّ استدعاء المهندسين ليستعملوا تلك القوانين ويستفيدوا منها عملياً. في الواقع، لم يقتصر الأمر على الجامعات والعلماء، بل لقد تمَّ إدخال الجميع في هذا المشروع، ولا عجبَ، إذ كانت السلع المادية الناتجة من ذلك المشروع، بدءاً من المحافظة

---

(١) العَلْمَنَة Secularization = نزع الصفة الدينية أو إزالة السيطرة الدينية أو الإكليركية (سلطة رجال الدين) من أي مجال لا سيما الحكومة، واستبداله بالصفة الدنيوية.

على الجسم سليماً صحياً وانتهاءً بفرن الماكرُوييف وأجهزة التلفاز، الجوائز الأكثر وضوحاً التي تضعها الحياة أمامنا.

وقد ترتَّب على ذلك أن لا شيء أمكنه أن يمنع ذلك الانفجار الحقيقي للعلم والهندسة في حرم الجامعات. تم تأسيس معاهد على أراض مُنحَتْ مجاناً، لأجل أن تقوم، بشكلٍ واضح وحصري، بتعزيز الجانب العَمَليّ للتعلم. ولكن في الوقت الذي كان يتوسَّع فيه العلم والهندسة بزخمهما الخاص في الجامعات العريقة والأكثر رفعةً، كان الخط بين «المعاهد والكليّات الحكومية الرسميَّة» والجامعات يختفي تقريباً. وكان آخر القادمين الجدد إلى الصنعة المتنامية للتعليم: كليّات **"التجارة وإدارة الأعمال"**. والسبب واضحٌ، فبعد أن تعلّمنا كيف ننتج المنتجات، انتقل التركيز بالطبع إلى معرفة كيف نقوم بالإنتاج الشامل Mass Production، وبعد أن أتقنّا ذلك، وجب أن نتعَلَّم أساليب الدعاية الناجحة والتسويق والتوزيع، وكل هذه العلوم تقع ضمن اهتمام الشركات الكبرى. كان الطلاب الأجانب يأتون إلى الغرب فيما مضى للحصول على الشهادات العلمية في العلوم الكونية (الطب والهندسة والكيمياء والفيزياء إلخ. .) ولكن يُقال إن الحصول على درجة الماجستير في إدارة الأعمال والتجارة من كلية التجارة في جامعة «هارفرد» Harvard يُعْتَبَر اليوم أهم شهادة يمكن للطالب الأجنبي الحصول عليها.

إذا أخذنا بعين الاعتبار العالم الحديث، فإن هذا التكاثر والنمو للعلوم والتكنولوجيا وكليات التجارة وإدارة الأعمال في الحرم الجامعي أمرٌ حتميٌّ لا يمكن اجتنابه وهو متّسقٌ مع هذا العالم الحديث. ولكننا دفعنا ثمنه على أيَّة حال، فقد تمَّ دفع العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية التي تدرِّس «قضايا الإنسان» نحو الحاشية.

سوف أعود إلى هذه النقطة لاحقاً، ولكن ثمَّة مجموعة من التطورات الاجتماعية الأخرى أثَّرت تأثيراً ملحوظاً في «الشعور العام» للتجربة التعليمية، ومن الضروري ذكرها هنا، قبل أن أستأنف الموضوع الأصلي لهذا الفصل؛ وهو الطريقة التي شكَّلت فيها الجامعة **"تصور العالم"** لدى الطلاب.

١. إنَّ فَتْحَ باب تسجيل الطلاب بشكل واسع في الجامعات حَوَّلَها إلى مجمَّعات علميَّة ضخمة. ففي حين كنَّا – نحن الطلاب – في أيام تحصيلي العلمي (في الثلاثينيات من القرن العشرين) نزور أساتذتنا في بيوتهم طوال الوقت، أصبح الحد المنطقي للتعليم الذي سلبت منه الصفة الشخصية اليوم، هو الدورات العلمية التي يتم إعطاؤها بشكل كامل عبر الإنترنت!. وقد ابتكر أحد المتخرِّجين من طلابي، مثل هذه الدورات العلمية لموضوع علم الأديان، حيث لم يكن قادراً على الحضور في موقع تعليمي يتم التعليم فيه وجهاً لوجه، فأخذ زمام المبادرة و أوجد برنامجاً تعليميَّاً عن أديان العالم لا تزال كلية ملحقة بجامعة كاليفورنيا تواصل تقديمه للحصول على تقدير Credit في هذا المجال. خلال خمس سنوات كاملة يتم التعليم عبر الإنترنت، إلى الحد الذي يقول فيه طالبي أنه حتى اليوم لم تكتحل عيناه برؤية طالب واحد من طلابه!.

٢. إذا كان الالتحاق المتزايد وسريع النمو للطلاب في الجامعات قد أزال الصفة الشخصية من التعليم، فإن تكاثر فروع المعرفة جزأً إلى حدٍّ كبير ذلك التعليم. لقد اختفى منذ عهد بعيد رجال النهضة الذين كانوا يعرفون شيئاً ما عن كل شيء كان معروفاً في زمانهم. أما الطلاب اليوم، فإنَّهم يواجهون كثرة الانقسامات في عالم المعرفة، والأقسام المتجزِّئة جداً لكل فرع من فروع المعرفة. وبما أنَّه لا يتمّ تعليمهم كيف يربطون بين المعارف المختلفة، فإن الطلاب لا يُعْطَوْن الشعور بالصورة الكليَّة، وإذا شعروا بالحاجة إلى مثل هذه التصوُّر، فإن كل ما يقوله معلموهم في هذا المجال هو أنهم يعتقدون أن هناك نسيجاً مستمراً من المعرفة فحسب.

٣. مع تصاعد تكاليف الدراسة يضطر أغلب الطلاب إلى العمل أثناء الدراسة مما يتركهم متعبين في أغلب الأوقات.

٤. لقد سيطرت الأهداف المهنيَّة (التعليم بهدف استلام وظيفة والحصول على عمل) على حقل التعليم. كان التعليم العالي وسيلة دائماً للحركة الاجتماعية، أمَّا اليوم فإنَّ الطلاب يسعون إلى الشهادات الجامعية لأجل التوقف العلمي بعدها والمراوحة في نفس

المكان، إذ لم يكن هدفهم من التعلم إلا تفادي شبح الحصول على الحد الأدنى من الراتب فقط.

٥. هناك تطوّران آخران في التعليم العالي لهما علاقة بمناقشتنا هنا، ولكنني أضعهما ضمن فئة مختلفة لأن تأثيراتهما البعيدة المدى تُنْذرُ بآثار كبيرة جداً: وهما التغير الواضح في الطبيعة العرقية للحرم الجامعي اليوم، وكون العنصر النسائي أصبح أكثر تواجداً فيه.

لا شك أنه كانت هناك مكاسب معوِّضة في التغيُّرات المزعجة الأربع التي أشرت إليها، وأنه من الخطأ أن نقلِّل من قيمة قدرة الروح الإنسانية على التكيُّف مع الظروف الجديدة، ولكنَّ قصدي من الإشارة إلى تلك التطورات الاجتماعية هو حقيقةَ أن أضعها جانباً بعد أن أنبِّه إلى تأثيرها على الروح الإنسانية، أما وقد أشرتُ إلى ذلك أعود الآن إلى النفق الميتافيزيقي الذي هو موضع اهتمام هذا الكتاب.

إن ميتافيزيقيات هذا الفصل من الكتاب هي المذهب الطبيعي[1] Naturalism، وهدف هذا الفصل هو بيان كيف أثَّر **إهمال** الجامعات (في أفضل الأحوال) للحقيقة التي تتجاوز الطبيعة أو **الإنكار التام** (في الحالات الأسوأ) لوجود مثل تلك الحقيقة أصلاً، في صياغة وتشكيل مفهوم وتصور العالم لدى الطلاب.

لا بد من إعادة ذكر التعريف الذي سبق وقمنا به. "**المذهب الطبيعي**" Naturalism ليس هو مذهب "**المادية**" Materialism نفسه، لأن «المادية» تعتقد أنه لا يوجد شيء في الكون سوى «المادّة» فقط، أما «المذهب الطبيعي» فإنه يرى أن تلك التجارب الشخصية - الأفكار والمشاعر - مختلفة عن المادَّة ولا يمكن اختزالها إلى مادة فقط، مع إصراره في

---

(١) المذهب الطبيعي Naturalism = مذهب يرى أن الطبيعة هي الحقيقة الوحيدة في الوجود وأنه يمكن فهم كل الظواهر الطبيعية عبر البحث العلمي، ويُنكر أن يكون لأي الحادثة أو ظاهرة معنى خارقٌ للطبيعة؛ بل يرى أنَّ النواميس العلمية مؤهّلة لتعليل جميع الظواهر في الوجود.

الوقت نفسه على أنها تعتمد كُليّاً على المادّة، سواء في ذلك العقول أم الأدمغة أم الكائنات الحيَّة أم القدرة على الإحساس.

هذه سمة بارزة للتصوُّر العلميّ للعالم، والذي حدث للتعليم العالي أنّ هذا التصوُّر سيطر وساد فيه. هناك قصّة تبيِّن مدى هذا التأثير، إذْ تقول إنه عندما ذهب طالب - في فترة من أوائل القرن العشرين - إلى "بنيامين جويت" Benjamin Jowett (كان حينها يشغل منصب مدير كليّة باليول Balliol College في جامعة أكسفورد)، وأعرب عن حزنه لكونه فقد إيمانه بالله، ارتعدت فرائض "جويت" Jowett وقال له في الحال: «ستجد هذا الإيمان ثانيةً قبل السّاعة التّاسعة من صباح الغد أو تفصل من هذه الكليّة.». لا شكّ أنها نكتة مزوّرة، لكنّها تبرز كم تغيّر الزَّمَن!.

رغم قولي إن التصوُّر العلميّ للعالم سيطر وساد، إلا أنني يجب أن أشدّد ثانيةً على أنّ ذلك لم يتم عن قصد ونيَّة سابقة. إنّ السيطرة كانت، ببساطة، تتويجاً للجهد والعمل المضني غير المدروس لـ "**مذهب العلمويّة**" Scinentism في الجامعات، والذي تشبَّعت به الحداثة في كافة أنحائها. لقد عمل النجاح المدهش للعلم مثل مغناطيس على الأقسام الأخرى للجامعة وجعلهم يقلدون منهجه العلمي خطوةً خطوة. في آخر حلقة دراسيّة حضرتُها حول العلوم الاجتماعية افتتح المتكلّم (رجلٌ اقتصاديٌّ) الندوةَ بالتساؤل عمّا إذا كانت العلوم الاجتماعية أصبحت علوماً علميَّةً أكثر؟ وكان جوابه: «ليس بالسرعة الكافية!.».

قيام العلم بشدّ سائر فروع المعرفة نحوه

بما أن قوة جذب المغناطيس تكون أشد عندما يكون الجسم أكثر قرباً؛ لم يكن من المفاجئ أن يكون قسم العلوم الاجتماعية (الإنسانية)، من بين جميع الأقسام الجامعية الأخرى، هو الذي انجذب بقوة أكثر نحو العلوم الكونية أو الطبيعية. وقد اضطر العالم

الاجتماعي «روبرت بيلـلاه»[1] Robert Bellah إلى التعايش مع هذا الجذب طيلة مدة مهنته التعليميَّة، ولما كان استثنائياً في وضوح اعترافه بهذا الجذب موضع البحث، وفي شجاعته في مواجهته والاعتراض عليه، لا أملك في هذا المقام إلا أن أحوّل منبر الكلام إليه في بقية هذا الفصل:

العلوم الاجتماعية

كتب «روبرت بيللاه» Robert Bellah يقول:

((يمكن تلخيص الافتراضات المستترة خلف التيار الرئيسي السائد للعلوم الاجتماعية بما يلي: الفلسفة الوضعية[2] Positivism, الاختزالية أو مذهب التفكيك والتبسيط Reductionism، والنسبية Relativism، و الجبريَّة [3] (أو الحتميَّة) Determinism. لا أقول إن العلماء الاجتماعيين الحاليين أمكنهم أن يقدموا دفاعاً فلسفياً جيّداً عن تلك الافتراضات، ولا أنهم واعون بشكلٍ تامٍّ أنهم ملتزمون بها سلفاً، وإنما أقصد أن أشير فقط، بمعنى وصفيٍّ، إلى تلك الافتراضات المسبقة والأحكام المتحيِّزة المحدَّدة سلفاً الكامنة في أذهانهم حول طبيعة الحقيقة. ولا أقصد هنا بالفلسفة الوضعية أكثر من ذلك الافتراض أن مناهج وطرق علم الطبيعة هي المقاربة الوحيدة الممكنة للوصول إلى المعرفة الحقيقية، وتلك هي البديهية التي تزعم أن العلوم الاجتماعية لا تختلف عن العلوم الكونية إلا بالنضج وأن كلا العلمين سيصبحان عمّا قريب علماً واحداً. وأقصد بمذهب التفكيك والتبسيط الميل لتفسير المعقّد والمركّب بلغة البسيط، والبحث عن دوافع بيولوجية ونفسانية واجتماعية

---

(١) روبرت بيلـلاه Robert Bellah: عالم أمريكي معاصر، حجة في علم اجتماع الدين Sociology of Religion، ومؤلف رئيسي لكتاب حقق أفضل المبيعات عنوانه: ((عادات القلب: الفردية والالتزام في الحياة الأمريكية: Habits of the Heart: Individualism and Commitment in American Life. (١٩٨٥).

(٢) الفلسفة الوضعية: Positivism: فلسفة صاغها عالم الاجتماع الفرنسي "أوغست كونت" (١٧٩٨ – ١٨٥٧م) تعترف بالظواهر الواقعية المحسوسة والوقائع اليقينية فحسب، مهملةً كلَّ تفكير عقليٍّ تجريدي في الميتافيزيقيات أو الإلهيات، إذ ترى أن العقل لا يستطيع أن يصل فيها لمعرفة يقينية.

(٣) الجبريَّة أو الحتميَّة Determinism: مذهب فلسفي يقول بأن أفعال المرء أو التغيرات الاجتماعية الخ... كلها ثمرة آليَّة لعوامل لا سلطة للمرء عليها.

ورغبات (حاجات) ومصالح معيَّنة خلف الأشكال الثقافية المعقَّدة. وأقصد بالنسبيَّة Relativism الافتراض بأن قضايا الأخلاق والدين، كونها لا يمكن أن تُفَسَّر إلا بمجموعة محددة من الظروف النفسانية والاجتماعية، فإنه من غير الممكن الحكم بنحو مطلق أنها صحيحة أو خاطئة، صادقة حقيقية أو باطلة كاذبة، لأنها بكل بساطة أمورٌ نسبيةٌ تختلف من شخص لآخر ومن ثقافةٍ لأخرى ومن مجتمع لآخر. ولا أقصد بمذهب الحتميَّة Determinism أية رؤيةٍ فلسفيَّةٍ معقَّدةٍ، بل مجرَّد الميل للتفكير بأن أفعال الإنسان إنما يمكن تفسيرها بلغة «المتغيِّرات» التي تفسِّر أسباب صدورها)).

ويواصل «روبرت بيللاه» كلامه قائلاً إن معظم علماء العلوم الاجتماعية لا يعتقدون أن تلك الافتراضات السابقة تتضارب مع مبادئ الدين وأصوله، بل هي افتراضات حقيقيَّة وبديهيَّة بشكل واضح جداً يجعلها خارج موضوع التناقض من الأساس. أما الدين، فلكونه غير علميٍّ، لا يمكنه بأي حال من الأحوال أن يدَّعي الحقيقة، وهذا لا يمنع أن يقبل بعض علماء الاجتماع العصريين بالدين بوصفه اعتقاداً خاصاً أو ممارسةً شخصيَّةً، ويُقرُّوا بأنه مفيد نفسيّاً لبعض الناس، «هذا مع أن الواقع أن تلك الافتراضات تتعارض بشكل تام وحادّ مع كل الأديان التقليدية الكبرى والفلسفات الإنسانية».

ثم يضيف «بيلاه»:

((إن العلوم الاجتماعية تجسِّد أخلاقيات الحداثة والعصرنة تماماً، فبالنسبة إليها لا يوجد كونٌ كليٌّ، أي لا يوجدُ شيءٌ كليٌّ يمكن لأفعال الإنسان أن يكون لها معنى بالاستناد إليه. وليس هناك بالطبع "الله"، ولا أيَّة حقيقة مطلقة نهائية، وبنفس الوقت لا توجد هناك أيضاً طبيعةٌ بالمعنى التقليديِّ للخلق أو لكونها تعبيراً عن حقيقةٍ متعاليةٍ ساميةٍ. وكذلك لا يمكن لأيَّةِ علاقةٍ اجتماعيّةٍ متبادلةٍ أن يكون لها أيَّةُ قداسةٍ. ولا يمكن لأيِّ شكل اجتماعيٍّ أن يُصْبَغَ أو يُشْرَبَ بأيِّ معنىً إلهيٍّ مقدَّسٍ أو كونيٍّ، بل على العكس يمكن تفسير كل علاقة اجتماعية متبادلة بلغة فائدتها الاجتماعية والنفسيَّة. وأخيراً، رغم أن علماء الاجتماع يتحدَّثون كثيراً عن ((النفس)) Self، إلا أنَّه ليس لديهم أيُّ شيءٍ يقولونه عن ((الروح)) Soul، بل مفهوم الروح نفسه يتضمن إطاراً إلهيّاً ومقدَّساً وكونيّاً (كوزمولوجيّاً) مستبعداً وغائباً تماماً في الفكر الحديث. وإذا أردنا أن نضع هذا التباين بطريقة أخرى، فإن النظرة الدينية التقليدية تجد أن العالم في جوهره ذا مغزى ومعنى، وأنَّ دراما الوجود الشخصي والاجتماعي تمَّ عيشها في إطار المعنى الكوني والروحي المتواصل، أما الرؤية

العصريَّة الحديثة فإنها تجد العالم في جوهره لا معنى له، ولا يتَّصف بالمعنى إلا من خلال الفاعلين الفرديين والمجتمعات التي يبنونها لأجل أهدافهم الخاصَّة.)).

ولأنَّ "بيللاه" يقول ما كنت أود قوله بالضبط – ويقوله ممتلكاً لحجيَّة عالم الاجتماع المتخصِّص المطَّلع عليه من الداخل – سأدعه ينهي هذه الفقرة:

((معظم علماء العلوم الاجتماعية العصريين سيرفضون بأدبٍ أن يناقشوا البيانات التي ذُكِرَت للتوّ، ولن يُبْدُو أيَّةَ نيَّةٍ سيئةٍ تجاه الدين؛ كلُّ ما في الأمر أنهم ببساطة غير واعين بالدرجة الهائلة التي يضعف فيها، ما يقولونه وما يكتبونه، كلُّ الفكر التقليدي والإيمان والعقائد الدينية التقليدية. وخلافاً لجيلٍ سابقٍ من محطِّمي المقدَّسات، فإن هؤلاء العلماء لا يشعرون أنهم يؤدُّون رسالة القضاء على «الخرافات»، بل يعتبرون أن الأسئلة التي تمَّت إثارتها أعلاه «خارج حقلهم» ويحيلون كل من يبحث عنها إلى الفلاسفة وعلماء الإنسانيات أو طلاب العلوم الدينية لكي يناقشوها معهم. لقد أصبحت حياتنا الثقافيَّة مجزَّأة ومُمَزَّقة جدّاً، حتى أنه في أفضل الجامعات لا يُعْتَبَر طرح مثل تلك الأسئلة أمراً مناسباً أبداً، وهذا لا يعني أنهم لا يعطون إجابات ضمنيَّة (غير مباشرة) لتلك الأسئلة.))

علم النَّفس

لقد انقسم علم النفس إلى عدة فروع. يقترب علم النفس التجريبي Experimental Psychology من أن يكون علماً تاماً بكل معنى الكلمة، ولكنَّ أغلب عقولنا وأنفسنا تقع خارج نطاقه، وهذا يترك لعلم النفس السريري، أو علم النفس العميق، Clinical or Depth Psychology أن يلتقط البقيَّة، في حين يتعامل علم النفس التجريبي مع الناس كأشياء، يتعامل علم النفس السريري مع الناس كأشخاص. إن الاختلافات في المنهج التي تتطلَّبها كل من تلك المقاربتين كبيرةٌ جداً لدرجة تجعل المعسكرين يجدان صعوبةً كبيرةً في التواصل بينهما لعدم وجود لغةٍ مشتركة، مما يوجب علينا أن ننظر للعلمين على أنهما علمان منفصلان تماماً.

في علم النفس التجريبي تدخل تجربة كلاب «بافلوف» Pavlov التي يسيل لعابها، والمذهب السلوكي لواطسون J. B. Watson's Behaviorism، ونسخة العالم «ب. ف.

سكينر»[١] B. F. Skinner's المطوَّرة لتلك التجربتين، ضمن مجال العلوم البحتة. ويمكن أن نضيف إليها نظرية الاستجابة للحافز بشكل عام: وهي التي ترى أن الأفعال التي يتبعها مكافأة أو جائزة، تتكرَّر. كما نلاحظ أن قانون الأثر Law of effect لعالم النَّفْس الأمريكي «ثورندايك»[٢] Thorndike، الذي يسعى لمجارات التطور، قانونٌ ميكانيكيٌ محضٌ أيضاً، وكل عشر سنوات تجرى لهذا القانون تعديلات لإظهاره بمظهر عصريّ ولكن حدوده التفسيرية تنبع من ذاته وتشكل جوهره، لذا انْتَقَلَ الاهتمام إلى تسليط الضوء على علم النفس الإدراكي Cognitive psychology، ولأنّني سأتحدَّث عن هذا العلم بشكل مفصَّل في فصل لاحق، سأتجاوزه هنا الآن لأعود مباشرة إلى علم النفس السريري أو علم النفس العميق Clinical Psychology.

لعلّ الحقيقة الأكثر دلالةً هنا هي رفض الجامعات لنماذج «النَّفْس» Models of Self التي تفسح مجالاً أكثر للروح الإنسانية مما تسمح به الفرويدية الأرثوذكسية. ويُعْتَبَرُ النموذج البديل الرئيس لتلك النماذج هو تلك النماذج التي اقترحها في البداية «كارل ج. يونغ»[٣]

---

(١) ب ف سكينر: Skinner, Burrhus Frederic (١٩٠٤ – ١٩٩٠) عالم نفس أمريكي ورائد المدرسة السلوكية في علم النفس، وهي التي تفسر السلوك الإنساني بوصفه استجابة نفسية لمحفزات أو دوافع خارجية.

(٢) ثورندايك إدوارد لي Edward Lee Thorndike: عالم نفس وعالم تربوي أمريكي (١٨٧٤ – ١٩٤٩) توصل عبر إجرائه تجارب ((التجربة و الخطأ)) على الحيوانات إلى صياغة ما أسماه ((قانون الأثر)) law of effect. اشتهر بشكل خاص في تطوير اختبارات مختلفة لقياس الذكاء والقابلية الذهنية.

(٣) كارل ج. يونغ Carl J. Jung كارل جنك (١٨٧٥– ١٩٦١) عالم نفس وطبيبٌ نفساني_عقليٌ سويسريٌ أسس المدرسة التحليلية في علم النفس، وسَّع مقاربة "فرويد" التحليلية النفسية، مفسِّراً الاضطرابات العقلية والعاطفية كمحاولات للوصول للكمال الشخصي والروحي. تعاون في البداية مع فرويد، لكنه بنشره فيما بعد لكتابه *Psychology of the Unconscious* "**علم نفس اللاشعور**" (عام ١٩١٢)، أعلن استقلاله عن أفكار فرويد، مبتعداً عن تفسيراته الضيِّقة التي تبالغ في التركيز على الدافع الجنسي فقط، بتفسيره للدوافع الإنسانية على أساس طاقات خلاَّقة أوسع من مجرّد الجنس. ونشر كتابه *Psychological Types* "**الأنماط النفسيّة**" (عام ١٩٣٢) الذي شرح فيه العلاقة بين الوعي واللاوعي، واقترح أنماط الشخصية المعروفة: الشخصية المنبسطة أو الانفتاحية والشخصية المنغلقة أو الانطوائية. كتب كثيراً من المقالات والأبحاث حول مناهج وطرق التحليل النفسي، وحول **العلاقة بين المعالجة النفسية والإيمان الديني**.

Carl J. Jung (عالم النفس السويسري الشهير ومؤسس المدرسة التحليلية في علم النفس) ثم اقترحها علم النفس الإنساني وما وراء الشخصي (أي الذي يعم الناس كلهم كمجموع) Humanistic and Transpersonal Psychology ، ثم اقترحتها ثالثاً الأديان الآسيوية التي أثبتت جميعاً أنها مفيدةٌ للمعالجين النفسيين الممارسين، مما جعلها تنتج: (١) المعاهد اليونغيَّة (نسبة لعالم النفس السويسري "يونغ" Jung)، و(٢) جمعية علم النفس الإنساني ذات التوجه الوجودي، و(٣) جمعية علم النفس ما وراء الشخصي. هذه المعاهد الثلاثة تزدهر اليوم وقد أدَّت إلى تأسيس برامج معتمدة لتدريب المعالجين خارج الجامعة. (معهد كاليفورنيا لعلم النفس الاحترافي، معهد سايبروك Saybrook Institute، ومعهد باسيفيك Pacific Institute في «سانتا باربارا» Santa Barbara، وكلها تقع في الفناء الخلفي لمنزلي). لكن فائدة تلك المعاهد التي ثبتت للجميع لم تشفع لها في الدخول إلى الحرم الجامعي.

ولا يحتاج الإنسان إلى أي جهد عقلي كبير ليكتشف يد الفرويدية Freudianism الأرثوذكسية وراء ذلك المنع.

يقول «دانيال غولمان»[1] Daniel Goleman - محرِّر سلوكي سابق في مجلة نيويورك تايمز *New York Times* - إنّ تصوير "فرويد" للنفس الإنسانية هو الأقرب لما اتخذه الغرب نموذجاً للإنسان، نموذجاً لا يرى فيه «غولمان» أي حُسْنٍ. إنه نموذجٌ للنفسِ أكثرُ تشاؤميّةً من جميع النماذج البديلة التي يتعامل معها علماء النفس العاملون خارج أسوار الجامعة. (يشير الطبيبان النفسيان "روجر والش" Roger Walsh و"دين شابيرو" Dean Shapiro إلى أن فهرس أعمال "فرويد" يتضمّن ٤٠٠ مدخل لحالات النفس المرضية، ولا يتضمن مدخلاً واحداً للحالة الصحية لها!)، كما أنه نموذجٌ أكثرُ جبريّةً (ومن

(١) دانيال غولمان Daniel Goleman كاتب وصحفي أمريكي معاصر، بسط في كتابه ((الذكاء العاطفي)) Emotional Intelligence (١٩٩٥) النظريات علم النفسية التي اقترحت وجود ما أسمته ((الذكاء العاطفي)) الذي يعتبر مكملا للذكاء الذي يمكن قياسه باختبارات آي كيو I Q .

هنا برز علم النفس الوجودي ليتحدّى هذه السمة الفرويدية للنفس الإنسانية). ولكن لمّا كانت الفرويدية Freudianism ماديةً بشكل شديد وعنيد، بالإضافة لادعائها أنها علميّةٌ (خلافاً لبراهين كل من "أدولف غرونباوم" Adolph Grunbaum و"فريدريك كروز" Frederick Crews اللذين أثبتا عكس ذلك أي عدم علمية النظريات الفرويدية) فإنها لاءمت أكثر الأحكام المنحازة المسبقة والمجحفة لجامعة اليوم.

العلوم الإنسانية

كانت العلوم الإنسانية، التي تدافع عن روح الإنسان، تمثّل تقليديّاً قلب التعليم العالي، أما اليوم فلم تَعُدْ في قلب التعليم العالي ولا في مركزه، بل حلّت محلّها، في مركز التعليم العالي، العلومُ المهنيةُ والعلومُ الكونيةُ التطبيقيةُ، لتُزاحَ العلومُ الإنسانية إلى الحاشية، سواءٌ في عدد الطلاب الملتحقين بها أو في الميزانيات المخصَّصة لها أو سمعتها ومكانتها في المجتمع. يشير مقالٌ نُشر في مجلة «هارفرد» عام ١٩٩٨ إلى أن عدد الشهادات الجامعية الممنوحة في العلوم الإنسانية يتناقص باستمرار منذ عام ١٩٧٠ على كلا المستويين النسبي والمطلق. وبشكلٍ عامٍّ، في المعدّل الوسطي، يستلم أساتذة العلوم الإنسانية أدنى الرواتب الجامعية اليوم، بفارق آلاف (وأحيانا عشرات آلاف) الدولارات، كما أن حمْلَهُم التعليمي (عدد ساعات التدريس) أثقل، والوقت الذي يُمنَح لأجل الأبحاث هو الأقل والأدنى.

يمكن أن نعتبر ذلك سيطرةً وسيادةً للعلوم التقنية والمهنية Vocationalism، ولكن يمكن اعتباره أيضاً وبالمقدار نفسه تنازلاً مِنْ قِبَلِ العلوم الإنسانية: لقد تخلّى المتخصّصون في العلوم الإنسانية عن دورهم كناصحين أخلاقيين. يقول «إيميرسون» Emerson إنّ «السرَّ في قوّة المعلّم يكمن في اقتناعه بأنّ الناس قابلون للتحوُّل والتقدم نحو الأفضل، وأنهم يريدون اليقظة والوعي (ولهذا الغرض يحتاجون للمعلّمين) لكي يُخْرِجوا الروح من سرير رقادها، ويوقظوها من نومها المألوف العميق». كان هذا هو الحال قبل عهد بعيد. أما اليوم

فإن أساتذة العلوم الإنسانية تقاعسوا عن الكفاح لأجل وجود الإنسان والقيادة الصحيحة لروحه. يرى «روبرت سكولز» Robert Scholes أن الأخبار الحزينة هي «معاناة أساتذة الآداب [وهو منهم] من مشكلة السماح لأنفسهم بالاقتناع بأنها لا تستطيع أن تدّعي الحقيقة، بل عليها أن تواصل "الاعتراف بالطريقة نفسها"». ويضيف «كارل وودرينغ» Carl Woodring بكل برود: «الآداب مفيدة للسلوك الشكّي في الحياة».

هذا الشكّ الذي تتبنّاه اليوم كل العلوم الإنسانية يتمّ إعماله باندفاعين رئيسيين: الهدم (أو التفكيك) Deconstruction (الذي يقترب من أن يكون جوهر **ما بعد الحداثة**)، والتأويلات المشكّكة Hermeneutics of Suspicion. وكلاهما يتطلّب منا شرحاً موجزاً.

أولاً، التفكيك Deconstruction. في مباراة «سمِّ تلك الأغنية أو ذلك العهد أو ذلك القرن» أُعْتُبِرَ لقب "**ما بعد الحداثة**" أفضل تسمية استطاع المؤرخون أن يطلقوها على النصف الثاني من القرن العشرين وما بعده. لكن هذا اللقب يشير (كما تدل عليه كلماته) إلى فترة زمنية لا أكثر، وليس له أي مضمون إيجابي خاصٍّ به، لذا تقدَّم الهَدْم والتفكيك في وقت مبكّر جداً ليملأ ذلك النَّقْص في المضمون ويعطي ذلك اللقب مضموناً محدَّداً. كما أشرنا إليه في الفصل الافتتاحي لهذا الكتاب، ابتدأ "**عصر ما بعد الحديث**" كحركة تشكيك بالمبادئ والعقائد الكبيرة حول التنوير والرقيّ الإنساني، واستمر على ذلك ليصل إلى وضع جميع تصوُّرات العالم موضع السؤال أي يُشكّك في صحة جميع تصوُّرات العالم (التقليدية). وكان اتهام تلك التصوُّرات (سواء الاجتماعية أم الفكرية التصوّريّة) اتّهاماً قسرياً أخذ على عاتقه مهمَّة تفكيكها وتدميرها بالكامل.

لم يسبق أن سمعتُ أحداً عتبر أن التفكيكَ Deconstruction توسيعٌ وامتدادٌ لـ «نظرية غودل»[1] Godel's Theorem (في نقض الأساس اليقيني للرياضيات أو عدم

---

(١) نظرية غودل: تُعرَف كذلك بنظرية النقص، وهما نظريتان اقترحهما المنطقي الأمريكي النمساوي المولد

اكتمال علم الرياضيات) من الرياضيات إلى الفلسفة والنقد الأدبي، ولكن التردُّد وعدم الحسم (عدم اتخاذ القرار) يمثّلان النقطة الجوهرية لكلا النظريّتين؛ فمنذ عهد أرسطو وحتى «تيورينغ»[1] Turing حاول علماء الرياضيات أن يؤسسوا أنظمة كاملة، فجاء «غودل» وحطّم هذا الحلم. تنصُّ نظريّة النَّقص وعدم الاكتمال المشهورة الخاصة بـ«غودل» أنه في نظام رسميٍّ يفي بعديد من الشروط الدقيقة سيكون هناك دائماً افتراضٌ واحدٌ على الأقل لا يمكن الجزم بشأنه، أي سيكون ذلك الشرط قضيةً لا يمكن البرهان لا على وجودها ولا على نفيها ضمن هذا النظام. ويبدو إنكار «جاك دريدا»[2] Jaques Derrida لوجود معنى واحد لأي نص امتداداً وتوسعاً مباشراً لهذه النظرية. لقد أصبح النشاطُ أو الفعّاليّةُ المتطاولةُ بلا نهاية للتأويلات المختلفة التي تنبع من ذلك الإنكار - (مثل تصارع ديكَة مستمر بين التفسيرات المعقولة البديلة على أمل توليد أفكار جديدة وقيم جديدة وفهم جديد للعالم

---

*كورت غودل. تنصّ النظريتان على أنّ بعض أجزاء الرياضيات مستندة على أفكار لا يمكن إثباتها ضمن نظام الرياضيات. فتقول النظرية الأولى إنّ أيّة نظرية رياضيّة ثابتة متضمِّنة للأعداد الطبيعيّة (أعداد الحساب ١، ٢، ٣، ٤، ..) نظريةٌ ناقصةٌ. في حين تقول نظريته الثانية إنّ مثل تلك النظرية الرياضية لا يمكنها أن تتضمن برهاناً على صحتها وثباتها، بل قد تكون صحة النظرية قابلة للإثبات فقط ضمن نظرية أكبر، لكن الصحة المبرهن عليها ضمن النظرية الأكبر تتطلّب نظرية أكبر أيضاً، مما يؤدي إلى تسلسل بلا نهاية.

(١) تيورينغ Turing عالم رياضيات بريطاني (١٩١٢ - ١٩٥٤)، عمل عملاً رائداً في نظرية الحاسوب. قدّم في بحثه ((في الأعداد المحسوبة)) مفهوم آلة حساب نظرية عُرِفَت باسم آلة ((تيورنغ))، كان لها دور مهم في تطوير الحاسبة الإلكترونية التي نعرفها اليوم.

(٢) جاك دريدا Jaques Derrida (١٩٥٢ -) فيلسوف فرنسي حداثي معاصر، ولد في «المبريدي» في الجزائر، ودرس في الكلية العليا في باريس، ثم أصبح مدرسا في السوربون وفي عدد من جامعات الولايات المتحدة الأمريكية. أنشأ بأعماله مدرسة التفكيك deconstruction في قراءة النصوص، وهي إستراتيجية في التحليل تم تطبيقها على الآداب وعلم اللغة والفلسفة والقانون والهندسة المعمارية. يكشف منهج التفكيك عن الطبقات المتعددة للغة النص موضع الدراسة، مما يضاعف عدد التأويلات والتفسيرات المشروعة لهذا النصّ. بالرغم من أن فكر ((دريدا)) Derrida يُصوَّر أحياناً من قبل النقّاد بأنه فلسفة تدميرية، إلا أنه من الممكن فهم فكره أفضل إذا اعتبرناه مظهراً للتوتّرات التي لا يمكن اجتنابها بين نموذجي الوضوح والتماسك اللذين يحكمان الفلسفة والعيوب الحتمية التي ترافق إنتاجها.

وللطرق التي يمكن أن نستجيب بها له) – السهمَ الرابحَ في تجارة التفكيك وإزالة الأبنية . أما موضوع هل الأفكار الجديدة أفضل من الأفكار الأصلية أم لا؟ فهو موضوع نادراً ما يتم الاهتمام به بل يُعْتَبَر دائماً – في الواقع – نقطةً جانبيةً بالنسبة للنقطة الأساسية التي هي «التفكيك المفتوح للسماح لكل البدائل» الذي هو عنوان اللعبة بحد ذاته .

وأنا أكتب هذه الصفحة تصادف أن وُجِدَ على منضدتي مقال "ديفيد كارسون" David Carson «الرؤية الثانية : المخطط التصويري بعد نهاية الطبعة» *2nd Sight: Graphic design after the end of Print*. تقول رسالته كما هو مكتوبٌ على غلافها : «إن الإبداع ليس مادةً غير عاديةً ، إنه يخيف ، إنه يُشَوِّش ، إنَّه هدَّامٌ ، إنَّه يرتاب بما يسمع ، إنه يجرؤ ويتجاسر على الشكِّ ، إنه يُقْدِم على الفعل حتى لو أخطأ ، إنَّه يخترق المفاهيم المُتَبَنَّاة سابقاً ، إنَّه يهزُّ قَنَاعاتنا اليقينيّة الراسخة ، إنَّه يبتدعُ بشكلٍ متواصلٍ طرقاً جديدةً ، ومهناً جديدةً ، إنَّه يثير ويغيِّر وجهة النظر . » . إن النقطة التي نريد توضيحها في هذا الفصل هي الطريقة التي يساهم فيها الهدم والتفكيك (بأنماط مشابهة لذلك الكتاب) في تآكل الإيمان والاعتقاد الذي يرى «مارسدن» Marsden أن الجامعات اليوم تحرِّض عليه ، وذلك لأنه ليس هناك من قصدٍ للحفاظ على ثبات الاعتقادات والإيمانيات ، التي بُنِيَت انطلاقاً من الأوراق التي يتم تبديلها بشكلٍ مستمرٍّ ومتواصلٍ بلا نهاية .

أما بالنسبة للتأويلات التشكيكية Hermeneutics of Suspicion فأبتدئ بما أورده العالم الفيزيائي (الأمريكي) «ستيفن وينبرغ»[1] Steven Weinberg عن صديقه المسنّ الذي صرّح له أنَّه لدى اقترابه من الموت وشعوره بدنوّ أجله ، كان ثمَّة شيءٌ واحدٌ يسعده ويعزِّيه في الموت ، هو أنه سيرتاح إلى الأبد من الهرولة إلى قاموسه للبحث عن ما تعنيه كلمة

(١) ستيفن وينبرغ Steven Weinberg عالم فيزياء أمريكي معاصر متخصص في الفيزياء النووية حائز على جائزة نوبل . (تقدم ذكره في الفصل ٢) .

"تأويلات" *hermeneutics*. إنها تعني التفسير *Interpretation* ولكن "التأويلات" تبدو أكثر بروزاً.

إن التأويلات المشكِّكَة جهازٌ تفسيريٌّ يهاجم كل الأطروحات الفكرية ليس وجهاً لوجه ولكن بشكل غير مباشر، أي بالغمز والطعن المبطَّن. مثلاً عندما يقترح أحدهم أن "س" هي الحالة، لا يجيب التأويليُّ المتشكِّكُ بالاستدلال على أنها فعلاً هي الحالة أو أنها ليست الحالة - في الواقع إنَّه لا يخوض في هذه الدعوى على هذا المستوى مطلقاً - بل يجيب بتغيير الموضوع باتِّجاه البواعث غير المعترف بها التي يدَّعي (يتَّهم) أنها هي الأسباب الحقيقية الكامنة وراء تقديم مثل ذلك الاقتراح. في علم البيان والخطابة يُعْرَف هذا باسم «مغالطة التفسير النفسي للشيء»، ويعتاش المتشكِّكون التأويليون على هذه المغالطة؛ فمثلاً لو انطلق الهجوم على صاحب الفكرة من زاوية ماركسيَّة فسيُقال إنَّ الأسباب الحقيقيَّة التي جعلت صاحب الفكرة يقترح فكرته تلك هي مصالحه الطبقيَّة! وإذا انطلق ذلك التشكيك من الزاوية الفرويدية فسيتم اعتبار القمع العدواني أو الغريزة الجنسية السبب الحقيقي الكامن وراء طرح تلك الفكرة!. في النماذج اليومية يُتَّهم المدَّعي لأيِّ ادعاء، بأنه يريد أن يصنع لنفسه شهرةً أو أنه يريد أن يكون محرِّضاً.

بالنسبة لمفهوم الحقيقة شكَّل المتشكِّكون التأويليُّون كارثةً. توقترب الحقيقة لدى الفيلسوف الفرنسي المشكِّك المعاصر «فوكو»[1] Foucault، وبشكل عام لدى معظم مفكري عصر ما بعد الحداثة، من أن تصبح شيئاً لا يزيد على مجرد لعبة القوَّة (الحق هو رأي صاحب القوَّة). ذكر الأستاذ «ويلفريد كانتويل سميث» Wilfred Cantwell

---

(١) فوكو، ميشيل Foucault, Michel (١٩٢٦-١٩٨٤) فيلسوف فرنسي، حاول إثبات أن الأفكار الأساسية التي يعتبرها الناس عادة حقائق دائمة حول الطبيعة البشرية والمجتمع تتغير خلال مسيرة التاريخ. تحدّت دراساته تأثير الفيلسوف السياسي الألماني كارل ماركس والمحلّل النفساني النمساوي سيغموند فرويد. عرض ((فوكو)) مفاهيم جديدة تحدّت فرضيات الناس حول السجون، والشرطة، والتأمين، والاعتناء بالمرضى العقليين وحقوق الشواذ جنسيا (اللوطيين)، والرفاهية. رأى أن الأحداث يمكن أن تُفهَم على أنها نتاج الطبيعة، أو نتاج الجهد الإنساني، أو ناتجة من فعل الله، وأن لكل طريقة في فهم الأشياء فوائدها وأخطارها.

Smith أنّه بـالرغم من أن الحقائق بقي محتفظاً على أنها شيءٌ مقدَّسٌ في شعار جامعة «هارفرد»، إلا أن هذه الكلمة (حقيقة) لم تظهر حتى مرة واحدة في بيان أهداف التعليم الجامعي الذي استغرقت الجامعة سنتين لصياغته قبل فترة قليلة من تقاعد «سميث».

إن التأويلات المشكِّكة لها ما يبرّرها، لأن الدوافع تنعكس دائماً وبانتظام في الأعمال الإنسانية. وسأذهب إلى حدّ الاعتراف بأنّ النصف الأوّل من كتابي بكامله يمكن أن يُقرأ كتحقيق واسع حول الطريقة التي عملت بها الدوافع الخفيَّة، التي لم نكن نشعر بها، على جعلنا نعلّق آمالنا بشكل مفرط على العلم. لكنّي لا أجعل مثل هذا الاكتشاف اهتمامي الأعلى؛ إن اهتمامي الأعلى هو طبيعة الأشياء بحدّ ذاتها، وهو ما كرَّست النصف الثاني من هذا الكتاب لشرحه.

إنّ ضعف وتراخي ذلك الاهتمام بحقيقة الأشياء بحد ذاتها (معرفة الحق من الباطل منها والصحيح من الخطأ فيها) هو الذي يولِّد الإلحاد وعدم الإيمان الذي يضطرب له «مارسدن» Marsden. ويصدّق «روبرت بيلاه» Robert Bellah أطروحة «مارسدن» ويؤكد عليها، ويقول في هذا المجال: «**إن الإدانة الأعمق لجامعة اليوم هي أنها تضعِفُ (تصيب بالتآكل والتفكك) العقائد الدينية، وليس هذا فحسب بل كل عقيدة أيّاً كانت ما عدا تلك التي ينص عليها العلم!**».

لقد توصَّلتُ إلى مثالٍ وشاهدٍ واضحٍ جداً عن هذه الظاهرة في الفناء الخلفي لبيتي مؤخَّراً؛ فقد قابلني جارٌ جديدٌ في مجمعنا السكني صدفةً في حفل عشاء في الهواء الطلق في يوم عطلة، فطلب مني أن نتناول طعام الغذاء معاً مبرِّراً ذلك باهتمامه بالفلسفة، وعندما تم اللقاء ذكر لي قائمة بالمحطات التي مر بها في حياته – المخدّرات، الهند، اتباع "راجنيش"[1]

---

(١) راجنيش Rajneesh هو غورو (أي معلم روحي للهندوسية) من الهند (١٩٣١ – ١٩٩٠م) أنشأ زاوية ومعتزلاً خاصاً به كونه فيلسوفاً هندياً في مدينة "بونا" في الهند، ثم انتقل إلى الولايات المتحدة عام ١٩٨١ حيث أسس جماعة ومركزا إداريا لدعوته في مدينة "أوريجون" Oregon، اشتهر بسمعته الرديئة بسبب عقيدته في الشفاء

Rajneesh ، واتباع دا فري جون Da Free John (قائمة مألوفة) - ثم اكتشف حقيقة مشكلته ، فقال «مشكلتي أنني عاجز عن اتخاذ أي قناعة ثابتة ، يمكنني أن أعتقد بشيء وأقتنع به لمدة سنة أو سنتين ، ثم ينحل هذا الاعتقاد وأبدأ بالبحث عن عقيدة أخرى من جديد» . إن جملة «**عاجز عن اتخاذ أية عقيدة ثابتة**» ليست إلا تلخيصاً موجزاً لنموذج «**عدم الاعتقاد**» Nonbelief الذي تكلم عنه «مارسدن» Marsden ، كما أنه بيان للاتهام الذي يوجهه «فيليب ريف» Philip Rieff للحداثة بأن جوهرها هو «**ملاحقة كل عقيدة مستقرة والقضاء عليها**» .

الفلسفة

خارج العالم الغربي ، لا يكاد يكون من الممكن الفصل بين علم اللاهوت والفلسفة ، وحتى في الغرب ، وإلى عهد ليس ببعيد ، كان الأمر كذلك أيضاً إذ كان علمُ اللاهوت والفلسفةُ شريكين خلال العصور الوسطى وما بعدها . وصف "كليمنت"[1] Clement المسيحية بأنها ملتقى نهرين : أثينا والقدس ، وشكَّل "توما الأكويني"[2] تركيبة القرون الوسطى بإضافته ميتافيزيقيات أرسطو إلى أسس علم اللاهوت المسيحي . في العصور الوسطى ، كانت الفلسفةُ خادمةً لعلم اللاهوت ، وباستثناء فلسفة "هيوم"[3] Hume الذي

الجماعي لا سيما مواعظه عن الخلاص عبر ممارسة الحب بشكل حرٍّ ، و قد تم ترحيله عام ١٩٨٥ من أمريكا بسبب انتهاكه لقوانين الإقامة و انحلت جماعته عقب رحيله .

(١) كليمنت الإسكندراني (القديس) Clement of Alexandria (١٥٠ - ٢١٥م) كان رئيس مدرسة دينية لاهوتية مسيحية في الإسكندرية ، ثم اضطر لتركها هربا من الاضطهاد الروماني . كانت أهم مساهماته في علم اللاهوت المسيحي ربطه بين الفلسفة الإغريقية والإيمان المسيحي .

(٢) القديس توما الأكويني (١٢٢٥ - ١٢٧٤م) : راهبٌ وفيلسوفٌ ولاهوتيٌّ إيطاليٌّ . وضع مذهباً فلسفياً يعرف بالتومائية وفّق فيه بين الإيمان والفلسفة التجريبية والعقلية الأرسطية ، ونجح في توظيف معارف عصره في خدمة الدين وحقائق الإيمان . كان لتعاليمه أثر ضخم في الكنيسة الكاثوليكية . أهم آثاره (الخلاصة اللاهوتية) Summa Theologica (١٢٦٧ - ١٢٧٣) .

(٣) هيوم ، ديفيد Hume David (١٧١١ - ١٧٧٦) : فيلسوفٌ ومؤرِّخ ومنظِّرٌ سياسيٌّ اسكتلنديٌّ من "أدنبره" .

كان المنشق الوحيد، بقي اللهُ الشخصَ المقدَّمَ والرئيسيَّ في الأنظمة الميتافيزيقية الحديثة العظيمة، واستمر الأمر كذلك حتى عهد "فردريك هيغل"[١] Frederic Hegel الذي كانت فلسفته آخر الفلسفات الإلهية المهمّة، ذلك أنه على الرغم من أن الفلسفة المثالية الألمانية[٢] Idealism والحركة الرومانسية[٣] Romanticism في القرن التاسع عشر أبطأتا تقدّم التصور العلميّ البحت للعالم، بشكل مؤقّت، إلا أنه منذ بدايات القرن العشرين قامت الفلسفة الوضعية المنطقيّة[٤] Logical Positivism بإزاحة الاثنتين (المثالية والرومانسية) جانباً. ثم

طوّر المنهج التجريبي لـ ((جون لوك)) إلى شكٍّ أو لا أدرية مطلقة Skepticism وأنكر قانون السببية وبالتالي أنكر القوانين العلمية، وأنكر وجود النفس الفردية. وقال إن التجربة والاختبار العملي مصدر المعرفة كلها، وإن وجود الله وطبيعته وأصل الكون أمور لا سبيل إلى معرفتها، لأنها خارج التجربة والاختبار العملي.

(١) هيغل، جورج ولهلم فريدريتش George Wilhelm Friedrich Hegel (١٧٧٠ - ١٨٣١): فيلسوفٌ ألمانيٌّ. صاحب الفلسفة الديالكتيكية أو الجدلية وخلاصتها أن منهج الوصول إلى الحقائق هو الجدل المستمر، الذي تولّد فيه كل فكرة (أو أطروحة Thesis) فكرة مناقضة دائماً (أو نقيض الأطروحة Antithesis)، ومن تفاعل الفكرتين تنشأ فكرة جديدة تؤلف بينهما (وهي ما دعاه هيغل الجمعية Synthesis)، واستخدم هيغل Hegel هذه الطريقة الجدلية في أعماله لتفسير التاريخ وكيفية تطور الأفكار. وقال هيغل بـ (المثالية المطلقة).

(٢) الفلسفة المثالية Idealism في الأساس هي القول بأن الحقيقة المطلقة كامنة في عالم يتعدى عالم الظواهر، أو القول بأن الطبيعة الأساسية للحقيقة كامنة في الوعي أو العقل أو الروح. وفي ألمانيا طرح "هيغل" مثالية جديدة هي (المثالية المطلقة) التي تعني أن العالم المحدود لا يعدو أن يكون انعكاسا للعقل، الذي هو وحده حقيقي بكل ما في الكلمة من معنى، في هذا العالم. وليس هذا فحسب، بل انطلق هيغل من ذلك إلى القول بأن الكائن المحدود (الذي يوجد ثم ينعدم) يفترض وجود ذات أزلية مطلقة يشكل الكائن المحدود في نطاقها عنصراً تابعاً.

(٣) الحركة الرومانسية: حركة أدبية وموسيقية وفنية عمّت بشكل واسع كلّ بلاد أوروبا، والولايات المتّحدة، وأمريكا اللاتينية في الفترة من حوالي ١٧٥٠ إلى ١٨٧٠م، تميّزت بالاعتماد على الخيال والنظرة الذاتية، وحرية الاعتقاد والتعبير عن الأفكار وتمثيل الطبيعة. يعتبر المفكر الفرنسي ((جان جاك روسو))، والمفكر الألماني ((غوته)) من الرواد الذين دشنوا هذا الاتجاه.

(٤) الفلسفة الوضعية المنطقية: Logical Positivism: اتجاه جديد في الفلسفة الوضعية ظهر في عصر التقدم العلمي واتخذ منحىً جديداً هو إنكار فلسفة ما بعد الطبيعة أو الميتافيزيقا من الأساس واعتبار المعرفة الصحيحة هي المعرفة المبنيّة على الواقع والتجربة، وأن العلوم التجريبية هي التي تحقق المثل الأعلى لليقين، وقد تعزز هذا الاتجاه في العشرينات من القرن العشرين. فقد قيل عندئذ إن العبارة من الكلام التي لا تعبّر عن أمر قابل للتحقيق من أمور الواقع، هي عبارة خالية من المعنى. وعلى هذا الأساس فإن الميتافيزيقا ليست زائفة بل خالية من المعنى.

في الربع الثالث مـن ذلـك القرن أبطأت الفلسفة اللغويةُ Linguistic Philosophy تقدُّمَ الفلسفةَ الوضعية، ولكـن القرن العشرين انتهى بعودة الفرضية المادية إلى السيطرة على الساحة الفلسفية. أذكّر القارئ بزعم "جون سيرل" John Searle المقتبس سابقاً بأن المحترفين في الفلسفة اليوم يقبلون ببعض نسخ الفلسفة المادية لأنّهم يعتقدون أنّها الفلسفة الوحيدة التي تتفق مع العلم المعاصر.

من الواضح تماماً أن «الله» ليس له مكان في مثل هذه الفلسفة، لكن الأمر الأكثر أهميّةً والذي يجب الانتباه إليه هو حقيقة أنّ غياب الله أصبح يُعْتَبَرُ من المسلّمات إلى درجة أنه بالكاد يمكن ملاحظته. فيما سبق، كان الإلهيون والملحدون – على الرغم من اختلافهما في النتيجة التي توصّلوا إليها – يشتركون في اعتبارهم موضوع البحث مهماً، لكن اليوم حتى هذه الأرضية المشتركة انهارت. لقد أفسحت حركة التحطيم الهجومي للمقدّسات Confrontational Iconoclasm التي قادها «برتراند راسل»[1] و«جان بول سارتر»[2] المجال لإلحاد اللامبالاة وعدم الاكتراث.

فيما يتعلق بالروح الإنسانية، لم يكن إذعان الفلسفة إلى قوة جاذبية العلم إلا نصف

---

(١) برتراند راسل Bertrand Russel (١٨٧٢ - ١٩٧٠) عالمُ رياضيات وفيلسوفٌ بريطانيٌّ، إنسانيّ النزعة، وداعية سلام. يعتبر هو و"ألفرد وايتهد" واضعا علم المنطق الرمزي أو الرياضي، من آثاره: (الدين والعلم) Religion and Science (عام ١٩٣٥)، و(تاريخ الفلسفة الغربية) History of Western Philosophy (عام ١٩٤٥) و(السلطة والفرد) Authority and the Individual (عام ١٩٤٩). نال جائزة نوبل للآداب عام ١٩٥٠ وأخذ لقب "بطل الإنسانية وحرية الفكر". قاد في الخمسينات من القرن الماضي حركة تدعو لنزع السلاح النووي في بريطانيا من طرف واحد، وسُجِنَ عقب اشتراكه في أحد المظاهرات المعادية للتسلّح النووي رغم أن عمرَهُ حينذاك كان قد بلغ ٨٩ عاماً.

(٢) جان بول سارتر Jean-Paul Sartre (١٩٠٥ - ١٩٨٠) روائيٌّ وكاتبٌ مسرحيٌّ وفيلسوفٌ فرنسيٌّ ملحدٌ ساعد من خلال كتاباته ورواياته ومسرحيّاته على تطوير الفلسفة الوجودية. تركّزت أعمال ((سارتر)) على معضلة الاختيار التي يواجهها الأفراد الأحرار وعلى تحدي إيجاد المعنى في التصرف المسؤول في عالم بلا مبالاة، وفي جملته الشهيرة (الإنسان محكوم عليه أن يكون حراً) يذكّر سارتر بالمسؤولية التي ترافق القرارات الإنسانية، أي العبء الذي تلقيه الحرية في اتخاذ القرارات التي تأتي مخالفة (معاكسة) لما هو واقع في الخارج.

القضيّة فقط. أمّا النصف الآخر فكان تعزيز الفلسفة لذلك الانجذاب نحو العلم بشكلٍ فعّال عندما نأت بنفسها عن الدين كليّاً. عندما كانت مباحث الميتافيزيقا و فلسفة الأخلاق على رأس جدول أعمال الفلسفة، كانت الفلسفة تسمح لنفسها بحضور فاعل في أقسام الفلسفة والدين، لكن عندما أزاح المنطق تلك الأولويات أصبح التعايش بين الفلسفة والدين مربكاً وغير مريح. عندما سيطر رأي "برتراند راسل" القائل أن المنطق يمثّل جوهر الفلسفة، حلّت المطالبة بمقدرة الطالب على اتّباع البراهين الكمالية للأنظمة الأساسية بواسطة المنطق الرمزي محل مطالبته بمعرفة اللغات الأجنبية بوصفه أحدَ متطلبات التخرُّج، و وجدت الفلسفة نفسها، بشكلٍ متزايدٍ، تفقد مشتركاتها مع الدِّين أكثر فأكثر.

ودخل الغرور والكِبْر على الصورة أيضاً، إذْ إن المنزلة المنخفضة للدِّين في الجامعة جعلت الفلاسفة يستاؤون من كونهم مرتبطين بأقسامه ويطالبون بأقسامٍ منفصلةٍ خاصّةٍ بهم. يقترح "ريتشارد رورتي" Ritchard Rorty أنّ الفلسفة المعاصرة قد تكمّل اليوم رؤية «هنري آدامز» المظلمة الذي اعتبر (قبل حوالي قرن من الزمن) «أن الدِّين الجديد المتمثِّل بالعلم يمارس خداع-النفس تماماً كالخداع الذاتي الذي كان يمارسه الدِّين القديم، واعتقد أنّ طريقته العلمية [كانت]، ببساطة، قناعاً يخفي وراءه وحشيّةَ ويأسَ عصرِ العدميّة». قد يبدو التأسيس الأخير لجمعية الفلاسفة المسيحيين شاهداً مناقضاً لما أقوله، ولكن النصيحة التي يسمعها الأعضاء الطموحون في تلك الجمعية من معلّميهم الناصحين المخلصين هي التالية: «لا تكتب أطروحتك الآن عن فلسفة الدين، بل اكتبها عن أي موضوع آخر، وعندما تحصل على وظيفة (عمل)، يمكنك عندئذ أن تشتغل بفلسفة الدين!».

الدراسات الدينية

عندما أُنشئَتْ الجامعاتُ والكليّاتُ الرسميةُ، أُفْتُرِضَ في البداية أنّ فصل الكنيسة عن الدولة، الذي نصَّ عليه الدستور (الأمريكي)، يقتضي منع تعليم الدين في المؤسسات الحكوميَّة. إلا أنه حوالي منتصف القرن العشرين تقريباً تمَّ قبول التمييز بين تعليم الحقائق

الموضوعية للدِّين، الذي لا يناقض ذلك المبدأ الدستوري، وبين الدعوة الدينية والسعي لهداية الناس للدِّين في الجامعات (وهو ما يمنعه الدستور)، وهو تمييزٌ مهَّدَ الطريق أمام افتتاح أقسام للدراسات الدينية في أغلب الجامعات.

ولكن تلك الأقسام لم تخدم الروح الإنسانية بالمقدار الذي كان يُتَوَقَّع منها، لأنه عندما تبنّى التعليم العالي النموذج الأوروبي للجامعة، فإنه استعار واقتبس منه طريقته في دراسة الدِّين، والتي كانت طريقةً وضعيةً مثْلَ طريقته في دراسة المواضيع الأخرى. (سوف نتكلم أكثر عن هذه النقطة قريباً). حدَّد الفيلسوفُ وعالمُ الاجتماع الفرنسيّ «أوغست كونت» المسار الواجب اتباعه في تعليم الدين في الجامعات الأكاديمية عندما قال: «إن الدِّين يمثل مرحلة طفولة الجنس البشري». من الجيِّد أن يعرف الإنسان الحقائق المتعلقة بالطفولة، لكن احتفاظه بوجهة نظرها يُظْهِرُ أنّه لا يزال طفلاً!. هذا المبدأ وضع انطلاقة الدراسات الدينية في بدايةٍ غير واعدة (أي لا تبشِّر بمستقبلٍ جيِّد). ولا عجب في ذلك، فواضعو مناهج الدراسات الدينية الأوائل، الذين لا يزالون محترمين مبجلين حتى اليوم بوصفهم عمالقة هذا القسم من الدراسات – كاللغوي «ماكس مولر»[1] Max Muller، وعالم الإنسانيات «إميل دوركهايم»[2] Emile Durkheim، وعالما الاجتماع «ماكس ويبير» Max Weber وكارل مينهيم Karl Mannheim – كانوا جميعاً إمّا شكيين لا أدريين أو

(١) ماكس مولر Max Muller (١٨٢٣ – ١٩٠٠): مستشرقٌ وعالمٌ لغويٌّ بريطانيٌّ لُقِّب بأبي مقارنة الأديان، وكان من أبرز المنادين بالتحليل اللغوي والتاريخي في دراسة الدين، وقام بدراسات نقدية وتاريخية للديانات التقليدية، وركز في دراساته على أن الأديان كانت نتاجاً للتطور التاريخي للمناطق التي نشأت فيها، ومع ذلك كان يرى أن كل دين يمتلك مقدارا معيَّناً من الحقيقة. صنَّف الأساطير وفقا للغرض الذي هدفت إليه، ودرس الأديان دراسة مقارنة. من أشهر أعماله: (محاضرات في علم اللغة) Lectures on the Science of Language، (١٨٦١-١٨٦٣) و(المدخل إلى علم الدين) Introduction to the Science of Religion (١٨٧٣).

(٢) إميل دوركهايم Emile Durkheim (١٨٥٨ – ١٩١٧) فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي. يعتبر أحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث، وقد وضع لهذا العلم منهجية مستقلة تقوم على النظرية والتجريب في آنٍ معاً. أبرز آثاره (في تقسيم العمل الاجتماعي) De la division du travail social (عام ١٨٩٣)، و(قواعد المنهج علم الاجتماعي) Les Règles de la méthode sociologique (عام ١٨٩٥).

ملحدين. اعترف «مولر» Muller بأنّه دينياً «ليس لديه أذُناً موسيقية!» (في تعبير تهكُّمي)، وتكلم «مينهيم» Mannheim باسم الجميع تقريباً عندما قال: «**ليس هناك ما بعد، فالعالم الحالي ليس رمزاً للأبدي، ولا تشير الحقيقة الفورية إلى أي شيء أبعد من نفسها**».

بقي هذا النمط من الأحكام المسبقة، المبكّرة، سارياً على الدوام. عندما تمَّ تقسيم العالم على طول الخطوط العلمية وغير العلمية، أصبح علم الاجتماع (كما أشار إلى ذلك «بيتر برجر»[1] Peter Berger) عدواً أكثر شراسةً للدين من العلم؛ وذلك لأنه يدَّعي سلطة قضائيَّة على «الإنسان الاجتماعي»، الذي عُرِّف بأنه «الناس في تجربتهم الجماعية الكليَّة». وقد مهَّد «التاريخُ» الطريقَ لهذه السيطرة بإصراره على الصفة التاريخية للدين، أي القول بأن الأديان لم تظهر نتيجة التدخل الإلهي في العالم، بل نتيجة للظروف التاريخية للبشر، وبالتالي فهي بشريَّةٌ ونسبيَّةٌ. و وسَّع "فرويد" Freud العامل النفسي لهذه النظرية أو لهذا النظام الفكري مُدَّعياً أن الدين ما هو إلا تعبيرٌ عن حاجات الإنسان ورغباته، وهي وجهة نظر أكثر شراً ومعاداةً لحقيقة الدين نظراً للطبيعة غير المحدَّدة للحاجات والرغبات التي افترضها «فرويد».

تعتبر الأساطير والنصوص المقدَّسة قلبَ الدِّين. ويتقبَّلها أتباع كلُّ دينٍ على أنها وحيٌ إلهيٌّ. لما نزلت من السماء - إذا جاز التعبير - أتتنا بحقائق تتجاوز عالمنا اليومي وتسمو عليه. أما الدراسات الدينية (والتي تتبع في مناهج دراستها النمط ذاته الذي تتبعه مناهج دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية بشكل عام) فلم يكن بإمكانها أن تقبل بهذه الحقيقة حسب معناها الظاهري. وسأدع عالمين بالكتاب المقدَّس يخبراننا بالقصة: أحدهما يشرح القصة لدى تطبيقها على كتاب العهد الجديد، والآخر لدى تطبيقها على التوراة. كتب «ماركوس بورج» Marcus Borg حول كتاب «العهد الجديد» يقول:

---

(١) بيتر برجر Peter Berger: روائي بريطاني، وكاتب وناقد للفنّ، ولد عام ١٩٢٦، وهو من جملة العلماء المدافعين عن الأديان والإيمان، وأحد المحررين في مجلة The worldview ((مفهوم العالم)) في بريطانيا.

تُعْتَبرُ الصفة الأساسية للدراسات الإنجيلية في الزمن الحديث - إلى حدٍ كبيرٍ - محاولةً لفهم الكتابات المقدّسة فهماً نصيّاً محضاً بمعزلٍ عن موضوع الوحي أو أي عالَم آخر. وتسعى الدراسة العلمية الحديثة للكتاب المقدّس Bible - التي وُلِدَت في عصر التنوير وحوّلت بشكل جذريٍ كل المناهج التعليمية الأكاديمية - تسعى إلى فهم مادة البحث طبقاً للصورة الجذرية للحقيقة التي تهيمن على العقل الحديث. ويتم تقديم التفسيرات ((العقلانية)) - أي العقليّة ضمن إطار الفَهْم أُحَاديّ البُعْد للحقيقة - للنصوص التي تتكلّم عن الظواهر ((الخارقة أي فوق الطبيعية)).

أمّا أهم فروع الدراسات الدينية التي تفرّعت عن علم الكتاب المقدّس فهي التي يمكن القيام بها دون العودة للمستويات الأخرى للحقيقة: مثل دراسة الطرق التي اتبعها كُتّاب الكتاب المقدّس في تنقيحهم للنصوص المنقولة التي وصلت إليهم، ودراسة شكل و وظائف الأنماط الأدبية والشفهية المختلفة لنصوص الكتاب المقدّس، ودراسة التطوّر البلاغي للتقليد المسيحي المبكّر الذي عبّر عن نفسه في النصوص.. الخ... وكلها يجمع بينها قاسم مشترك واحد هو أنها تركّز على السمات ((الدنيوية المتعلقة بهذا العالم)) للنصوص، فقط.

أما بالنسبة للتوراة العبرية فقد كان على «آرثر جرين» Arthur Green أن يقول:

((أحدث بروز مذهب الـ ((ويسن شافت))[1] Wissenschaft «علم التاريخ بالمعنى الأوروبي الواسع لكلمة العلم» انقساماً بين دراسة التوراة كوظيفة دينية، وبين صياغة منهج للبحث العلمي في التوراة وتحويله إلى دينٍ بديلٍ بحدِّ ذاته. إننا مجبرونَ على ((تضييق)) أهداف التعليم والبحث عن إيماننا في الله، والطرق التي تتم بها دراسة الدين في الجامعة هي نفس طرق دراسة التاريخ وعلم فقه اللغة (في أقسام الدراسات الإنسانية)، أو طرق فرع الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) وعلم النفس وعلم الاجتماع (في أقسام العلوم الاجتماعية). ولقد كانت نتيجةُ مناهج الدراسة تلك، إنقاصَ قيمة التوراة كوحيٍ إلهيٍّ. إن أي عالِم باحثٍ يقدّم موضوعا لمجلة ((الأكاديمية الأمريكية للدين)) *Journal of the American Academy of Religion* أو مجلة ((أدبيات الكتاب المقدّس)) *Journal of Biblical Literature* مُفْتَرِضاً أن الكتابات المقدّسة تمثّل فعلاً وحقيقةً كلمة الله سوف يصبح بحثه أضحوكةً.))

(١) مذهب الـ ((ويسن شافت)) Wissenschaft هو السعي المنظّم وراء المعرفة والعلم والتعلّم، وهي نظرية أو فلسفة للمعرفة والعلم استندت خاصّةً إلى الفلسفة المثالية الألمانية.

من عدم الاعتقاد إلى التكذيب

كان كتاب «**روح الجامعة الحديثة: من مؤسسة بروتستانتية إلى عدم الإيمان المؤسَّس**» كتاباً ثميناً جداً في تخطيطه لمسيرة هذا الفصل، ولكن الفقرتين السابقتين اللذين كتبتهما بكلماتي المباشرة أظهرتا كيف أن ذلك الكتاب توقف دون المنزلة التي يجب أن يصل إليها. إن الجامعة الحديثة في الواقع ليست **لا أدريةً** حيال الدين، بل هي **معاديةٌ** له بشكل نَشط وفعَّال. إنها تقبل "**الروحانية**" طالما تُركت غير معرَّفة؛ لم يحدث أبداً أن صادفتُ طلاباً لا يعتقدون أن لديهم جانب روحيٌّ في طبيعتهم. ولكن الروحانية المنظَّمة والمؤسَّسة (وهي التي يقدِّمها الدين) لا يُنظر إليها بعين القبول والاستحسان في الحرم الجامعي.

في كتاب متابع للكتاب الذي كنت حتى الآن أرجع إليه، يصل «مارسدن» Marsden إلى هذه النقطة قائلاً: «يتعلَّم العلماء الأصغر سنّاً بسرعة أن الأساتذة ذوي التأثير يحملون مواقف سلبيَّة تجاه التعبير الديني المنفتح، وأنهم إذا أرادوا أن يكونوا مقبولين في الجامعة فعليهم أن يلزموا الصمت بشأن إيمانهم ومعتقدهم الديني».

يساعدنا التاريخ في وضع هذه الأحكام المسبقة في منظورها الصحيح، فنحن نعلم أنَّ الجامعات تطوَّرت في أوروبا انطلاقاً من الأديرة. وأن كلمة معهد أو كلية College كانت تحيل في البداية إلى أديرة الرهبان الذين كانوا يحتاجون لمعرفة كيف يقرؤون من أجل أن يؤدوا وظائفهم وطقوسهم الدينيَّة.

وكما أشرنا سابقاً، كان أوَّل المعاهد والكليَّات في العصر الحديث معاهد وكليَّات لتدريب رجال الدين (القساوسة). ولكن لما ضعف ارتباط الكليات بالكنيسة – في أثناء عملية تحول الكليَّات إلى جامعات –، أو انقطع ارتباطها معها كُليّاً، احتاجت الجامعات إلى هويَّة جديدة (أي نمط تعليميٌّ جديد إذا أردت التعبير) وكانت الجامعات الألمانية، التي كانت في ذلك الحين الأرفع مستوىً في العالم، جاهزةً في متناول اليد. كانت تلك الجامعات وضعيَّة الاتجاه حتى النخاع، (ولكونها احتفظت بمكانتها كأنموذج للجامعة الأمريكية فإنه

من الضروري أن نفهم العلمانية المقاتلة التي تحوّلت إلى كلمة «الفلسفة الوضعية» Positivism.

الفلسفة الوضعية Positivism هي « الموقف الفلسفي الذي يتمُّ ربْطُهُ عادةً بعالم الاجتماع الفرنسي في القرن التاسع عشر «أوغست كونت» الذي كان أشهر من بسَّط هذه الفلسفة وجعلها في متناول مدارك الجمهور. يحمل اصطلاح «وضعي» كما يستخدمه «أوغست كونت» معنى الشيء الذي أُعطي أو وُضِع ، ولأنَّه شيءٌ أُعْطي فيجب قبوله كما هو وحسب معناه الظاهري دون الحاجة إلى تفسير. وكنتيجة سلبيَّة واضحة لذلك، تحذِّر الكلمة من محاولات علم اللاهوت والميتافيزيقا جميعها الذهاب إلى ما وراء العالم الواضح الوضعي أمامنا باعتبارها آمال عقيمة تسعى بلا جدوى لاكتشاف العلة الأولى أو الغايات والأهداف النهائيَّة. وفي نظر الفلسفة الوضعيَّة: «المعارف الأصيلة والصحيحة هي تلك التي تكون ضمن حدود العلم فقط لا غير، أمَّا الفلسفةُ فتبقى مفيدةً لتوضيح مجال وطرق العلم، ولكن ليس لديها أي شيء جيد تقوله لنا بشأن اللاهوت. ينتمي الدِّين إلى عهد طفولة الجنس البشري، وعلى الفلسفة أيضاً أن تتخلى عن الادعاء بأنها وسيلة للوصول إلى معرفة لا يمتلكها العلم.».

ومن مؤشِّرات هذه العداوة الصارخة للدِّين، حقيقةُ أنَّه عندما ألقى اللاهوتي الألماني «فريدريك شلييرماخر» Friedrich Schleiermacher، في نهاية القرن الثامن عشر، سلسلة محاضراته التي عنوانها «حول الدين» في جامعة «ماربورغ» Marburg، وضع عنواناً فرعياً لمحاضراته هو: «خطابات للمثقَّفين المستخفِّين به» *Speeches to Its Cultured Despisers*.

لقد انهارت الفلسفة الوضعية كموقف فلسفي، ولكن معاداة رجال الدين التي أوجدتها تلك الفلسفة في الجامعة الألمانية في القرن الثامن عشر بقيت كما هي في الجامعات الأمريكية حتى اليوم. يمكن لقوة العادة أن تفسِّر هذا الأمر جزئيّاً، ولكنَّ التنافس دخل الصورةَ أيضاً، فعندما نالت الجامعة استقلالها الذاتي عن الكنيسة، غدت منافسةً لها

للسيطرة على عقل الناس في هذا الزمن، ونادراً ما يكون لدى المتنافسين صورةٌ عادلةٌ ومنصفةٌ عن مواقف معارضيهم الحقيقيَّة.

ليس هذا موضوعا محبَّباً ومسراً. لا أتذكَّر أنه في جميع النقاشات التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى بين الدِّين والعلم، التي شاركتُ فيها خلال السنوات الماضية من حياتي كلها، أنني سمعتُ مرَّةً واحدةً أن هذا التنافس تمَّ وضعه على طاولة البحث، ولكنه حقيقةٌ من حقائق الحياة، ولكي نواجهها مباشرةً فإنني سأستخدم وصف «جون كينيث غالبريث» John Kenneth Galbraith التنافسَ بين واشنطن وبين مجتمع التجارة والمال، أعني التنافس الذي خلقته الصفقة الجديدة التي عقدها الرئيس «فرانكلين ديلانو روزفلت» Franklin Delano Roosevelt لإخراج الولايات المتحدة من الانهيار الاقتصادي الكبير The Great Depression الذي عانى منه العالَم في الفترة بين ١٩٢٩ وحتى ١٩٤٠):

يعترف غالبريث «أنَّ للإيديولوجية دوراً، وأنه يجب الدفاع عن نظام الاقتصاد الحرّ. ويرى مجتمع رجال الأعمال في نفسه المدافع الأوَّل عن مثل هذه الإيديولوجية. وكان هذا هو الحافز الذي تم تأييده، ولكن ثمَّةَ حافز أعمق وأكثر قوة وهو الشعور والإحساس بالمقام والمنزلة المفقودة، وبالهيبة والمنزلة الاجتماعية التي انتقلت من نيويورك (مدينة رجال الأعمال) إلى واشنطن و"بيتسبرغ" Pittsburgh و"ديترويت" Detroit. لقد كان هذا الشعور بخطر فقدان المنزلة الاجتماعية هو الذي حرَّك رجال الأعمال والتجارة، بنفس مقدار تحرُّكهم بدافع العقيدة والإيديولوجية، ضدّ (فرانلكين د. روزفلت). ».

جملتا «**الشعور بالموقع المفقود**» و«**انتقال الهيبة والمنزلة الاجتماعية للآخرين**» هما بيت القصيد في اقتباسي السابق لأنهما تفسِّران لنا القصة التي نتحدَّث عنها. يعمِّمُ "غالبريث" Galbraith في كتابه «إسقاط الاسم» Name-Dropping فكرته في فقرةٍ وثيقة الصلة جداً بموضوع عداوة الجامعة للدِّين، يجعلني أقتبسها هنا كاملةً:

«توجد في أي نظام اقتصاديٍّ قوتان محركتان أو محفِّزتان: الأولى الرغبة بالمال، والثانية الحاجة لامتلاك الجاه والمقام والمنزلة (أي النفوذ والاحترام الناشئان عن تحقيق

أعمال عظيمة). إن السعي وراء المال يعرفه الجميع على نطاق واسع، ولكن بالنسبة لمجتمع رجال الأعمال فإن المقام والمنزلة الاجتماعية مهمَّةٌ بالنسبة إليهم بعمق، و هي شيء لا يريدون أن يشاركهم فيه أحد. إن السياسة الاقتصادية الوحيدة المقبولة ((من وجهة نظر رجال الأعمال)) هي تلك السياسة التي تمنح الرتبة الأولى والصف الأول لمدراء الشركات أو الخبراء الماليين، والحكومة الحالية، أي حكومة روزفلت، تتحدَّى كليًّا وبنحوٍ واضحٍ أساس التقدير والاحترام للعمل التجاري وغروره، والأفضل أن يعاني الإنسان قليلاً من فقدان الدَّخل (كما فعلت التجارة في فترة الكساد أو الانهيار الاقتصادي الكبير) من أن نرى تلك المنزلة والنفوذ ـ حقّ الزعامة ـ يصاب بالضعف أو يتمّ غزوه)).

كل ما يلزم تغييره في هذا الاقتباس لتوضيح الأحكام المسبقة المجحفة بحق الدين في الحرم الجامعي المعاصر (أي إنكار الأمور الدينية الذي يتم تبنِّيه وزرعه لدى الطلاب) هو استبدال المنافسة بين العمل التجاري والحكومة في رواية غالبريث Galbraith، بالمنافسة بين الجامعة التي يسيطر ويهيمن عليها العلم، من جهة، والدين من الجهة الأخرى، إذ أنَّ الجامعة مستغرقةٌ جدًّا في ادعائها السيطرة والتحكُّم في المعرفة. طبعاً الموازاة ليست دقيقةً تماماً لأن الأعمال التجارية ترى نفسها مهددةً بهذه الصفقة الجديدة، في حين أن الدِّين ليس أبداً في موقع تهديد جامعة اليوم الواقعة تحت هيمنة العلم، ولكن المشكلة أنَّه هدَّد فعلاً التعليم في الماضي، والذكريات تموت ببطء.

علاوة على ذلك، فإن هذه المنافسة بين الطرفين على امتلاك العقل العام، تتواصل بشدة وسرعة في المجتمع العام، أي خارج الحرم الجامعيّ.

عدم فعَّالية الردّ اللاهوتي

وضع هجوم الجامعة على الدِّين علماءَ الدِّين في موقفٍ صعبٍ؛ فأصبح عليهم أن يواجهوا هذا الهجوم ليضمنوا بقاء المجال مفتوحاً أمام اهتمامهم العلميّ في الجامعة؛ وفي الوقت نفسه، لم يرغبوا بالانسحاب من الحياة الفكريَّة للعلم، وكان التعليم العالي قد

أسَّس نفسه بشكل محكم جداً بوصفه المركز المؤسساتي الأساسي والأوَّل لتطوير المعرفة التي يعتمد عليها المجتمع العلمي_التكنولوجي الحديث. والأهم من ذلك أن اللاهوتيين كانوا بأنفسهم نتاجاً للجامعة، وتأثَّروا إلى حدٍّ كبيرٍ بصبغتها الفكرية.

إذا كان عليَّ أن أختار كتاباً قائداً لهذا المقطع الصغير الحالي فسيكون كتاب «دوغلاس سلون» Douglas Sloan: «الإيمان والمعرفة: الخط العام للبروتستانتية والتعليم العالي الأمريكي» *Faith and Knowledge: Mainline Protestantism and American Higher Education*، لأنه يخبرنا بالقصة بتفصيل كامل، والتي سأختصرها وأضغطها هنا إلى عدة فقرات:

كانت الاستراتيجية التي تبناها علماء اللاهوت في القرن العشرين لهزيمة هجوم الجامعة على الدِّين محاولاتهم إثبات نمطين أو نوعين من الحقيقة (ذكرنا هذه الإستراتيجية في الفصل السابق من خلال التقاء "ستيفن جيْ غاولد" Stephen Jay Gould معها): النوع الأول هو حقائق المعرفة المشتقَّة من العلم ومن العقل المؤَسَّس على الاستقراء والتجربة، والنوع الثاني هو الحقائق التي يقدِّمها الإيمان والتجربة الدينية والمعنى والقيم. هذا النوع الأخير من الحقائق ليس ذا أساس معرفي، وإنما ينبع من مزيج من الإحساس والشعور والحَدْس والعمل الأخلاقي والتوافق العام والتقليد الفولكلوري والتجربة الباطنية الصوفية.

إن قوَّة هذه المقاربة ذات البعدين تكمن في أنها تساعد على الحفاظ على أبعاد التجربة الإنسانية الهامّة والمعنى، حيّاً، وهو ما يعني أنَّ الرؤية المهيمنة للمعرفة لا يمكنها أن تتجاوز هذه الاستراتيجية. ولكن هذا الطرح يتضمَّن ضعفاً قاتلاً. ففي حين تقاوم تلك الاستراتيجية بعض الطرق العقليَّة الحديثة فإنَّها تقبل في الواقع، في مستوىً أعمق، الشقَّ الأساسيَّ من نظرية المعرفة الحديثة التي يشير إليها «جاك مونود» Jacques Monod في الاقتباس الذي نقلته في آخر الفصل٢ (أي الانشطار بين الشخص والشيء، بين الواقع والقيمة، بين النظرية والتطبيق، بين العلم والإنسانيات، و(بالنسبة للدين) بين الإيمان والمعرفة). وبالطبع فالميزان بين الحقلين ليس متساوياً. إنَّ مجال أو حقل الإيمان والمعنى

والقيَم، يوضع باستمرار في موقع الدفاع، ويتمّ التقليل من قيمته بواسطة هجمات المعرفة الوضعيّة الضيِّقة، إلى جانب التصوُّر المادّي - المرافق - للعالَم. عندما يُنظَر إلى الإيمان والأخلاق والفنّ على أنَّها أمورٌ ليس لها أساسٌ متجذِّرٌ في الحقيقة لكونها لا تمتلك قاعدةً من الحقيقة التي يُعْتَرَف بأنَّ لديها قابليَّةً كامنةً للمعرفة، فإنَّ موضوع الإيمان والأخلاق والفن يصبح في خطرٍ دائم وهو أن يتحوَّل إلى مجرَّد ظاهرة مصاحبة (أي ظاهرة ثانويّة تصاحبُ ظاهرةً أخرى وتنتج عنها) وأن تكون حقيقةً على نحو اشتقاقيٍّ فقط. إن أزمة الإيمان في العالم الحديث تنشأ من عدم التكافؤ الإدراكي بين هاتين النظرتين للحقيقة.

لقد صوَّر علم اللاهوت في القرن العشرين عدم التكافؤ هذا ولكنه لم يقم بتصحيحه.

بقي حدثٌ آخر تجْدُرُ ملاحظته قبل أن ننهي هذا الفصل:

الحرَفيَّة (المِهَنيَّة) الجديدة

إن ظهور الجامعة الأمريكية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر جلب معه ثورةً في فهمنا للحياة الفكريَّة. كانت المواقف التي تكشف أكثر روح تلك الجامعات أسلوبها الذي جمعت فيه العلم إلى العلمانية، وحرَّرت نفسها من التوجيه الديني الذي وجّه الكليّات القديمة، واتَّخذت الفضول المعرفي قيمةً في حدِّ ذاتها، وقدّست العقل معتبرةً إيّاه القوَّة الدافعة في الحياة الفكريَّة الثقافيَّة.

هذه الروح الجديدة أظهرت نفسها بشكلٍ خاصٍّ في الحرَفيَّة (المِهَنيَّة) الجديدة، التي أعادت تنظيم المهن القديمة (علم اللاهوت، الطبّ، والقانون)، وفرَّخَتْ مهناً جديدةً (إدارة الأعمال، الصحافة، الطبّ البيطري، علم الغابات، وما شابهها). أخذت الحرَفيَّة (المِهَنيَّة) القديمة الدراسات التحرّرية بجدية لأنها جعلت مركز اهتمامها **"الإنسان"**، أما الحرَفيَّة الجديدة فإنها تدرس **"الأشياء"**، وهي تثير أسئلة ليس حول الهدف الأسمى والنهائي للإنسانية والمسؤوليات التي يتطلبها ذلك الهدف، بل أسئلتها حول هل (س) أم (ع) هي الطريقة الأفضل لإنجاز بعض الأهداف المباشرة والضيِّقة. هذا الاختلاف - بين

الحِرَفِيَّة (المِهَنِيَّة) القديمة والحِرَفِيَّة الجديدة - ليس من باب الاختلاف في الدرجة بل هو اختلاف في النوع. في تقديس المعرفة ذات الفائدة الأدواتية (أي المعرفة الذرائعيَّة) وجعلها مركزية، حوّلت الجامعاتُ المتكاثرةُ الوظائفَ إلى حِرَف. وفي عملية التحويل هذه، ضاع هدف الحياة والمعنى، وليس هذا فحسب، بل ضَعُفَ أيضاً الاهتمام بإنسانيَّة الإنسان، لأنه حوّل البشر إلى آلات لتقدّم المعرفة الدنيوية المحضة أي الخاصة بهذا العالَم فقط.

الخاتمة

أختم هذا الفصل عن التعليم بدعابتين لاذعتين في محتواهما ولكن تم التعبير عنهما بطرق تحفظهما من أن تبدوا لاذعتين.

افتتح كاتبٌ مراجعته ونقده لكتابٍ صدر مؤخّراً يسخر فيه مؤلِّفه من كليات الزراعة في وسط غرب أمريكا - وعنوانه "مو يو" - بقوله: لا شكّ أن هذا الكتاب هجوٌ، ثم أردف قائلاً بوجوب عَذْر هذا الكاتب متسائلاً كيف يمكن الكتابة عن جامعة اليوم بطريقة مختلفة؟

الملاحظة الثانية أبداها مؤرِّخ الفنّ «إي. ك. كومارا سوامي» A. K. Coomaraswamy الذي أُستُقْدِم من الهند ليقوم بتأسيس الجناح الآسيوي لمتحف بوسطن للفنون الجميلة. قيل إنه لاحظ أن عدة عقود مضت عليه مهاجراً إلى أمريكا أقنعته أن الحصول على معهد تعليمي في أمريكا يستغرق أربع سنوات، ولكن التخلُّص من هذا المعهد يحتاج إلى أربعين سنة!.

الفصل ٦

سقف النفق:

وسائل الإعلام *The Media*

يقوم التعليم الرسمي الجامعيّ في أمريكا بتربية وتنشئة معظم المثقّفين في البلاد تنشئة اجتماعية عميقة وكاملة، بغض النظر عن مهنتهم. هذا يعني أنّ الجامعات هي التي تضع اللمسات الأخيرة على عقول أولئك الذين يصعدون لقيادة أمريكا وحكمها. فلا عجب بعد ذلك أن نرى أن علمَانيَّة تلك الجامعات وروح معاداة رجال الدين Anticlericalism المنتشرة فيها، ينعكسانِ في كل حياتنا الثقافية. تُظْهِرُ نتائجُ التصويت بشكلٍ دائمٍ أنّ أغلبية الأمريكيين يقولون إنّهم يؤمنون بالله، إلا أنَّه سيكون من الخطأ اعتبار أنَّ تلك الإحصائيات تعكس منزلة الدِّين الحقيقيَّة في الحياة العامّة. من هنا حُقَّ لدُعابة «بيتر برجر» Peter Berger أن تلقى انتشاراً واسعاً، حين قال: «**إذا كان شعب الهند أكثر الشعوب تديُّناً على وجه المعمورة، وكان شعب السويد أقلهم تَدَيُّنَاً، فإنّ أمريكا أرضٌ يسكنها هنودٌ ولكن يحكمها سُوَيْدِيُون!**». الفصل التالي سيؤكد هذا القول فيما يتعلّق بالقانون؛ أما هذا الفصل فسيظهر كيف يعكس "**الإعلام**" في أمريكا تلك الحقيقة الواقعة.

الكتاب الرئيسيّ المرشد لمسيرة هذا الفصل

الكتاب الرئيسيّ المرشد لمسيرة هذا الفصل هو كتاب «إدوارد جي لارسون»[(١)] Edward J. Larson «صيف للآلهة: محاكمة (الأستاذ) "سكوبس" ونقاش أمريكا المستمر حول العلم والدِّين» *Summer for the Gods: The Scopes Trial and America's continuing Debate over Science and Religion*. يهتم الكتاب، الذي ألفه مؤرِّخٌ للعلم، وأستاذٌ في القانون في جامعة جورجيا، ونشرته مطبعة جامعة "هارفرد" عام ١٩٨٨، يهتمّ بظاهرة وحيدة هي: تعامل وسائل الإعلام مع قضية محاكمة أستاذ علم الأحياء «سكوبس» Scopes عام ١٩٢٥ في بَلْدَة «دايتون» Dayton في ولاية «تينيسّي»[(٢)] Tennessee. إن تحليل «إدوارد لارسون» لهذا الحَدَث يعكس بشكلٍ واضح جداً حقيقة الموضوع مما يدفعني إلى أن أخصِّص النصف الأوّل من هذا الفصل لنقل رواية الكتاب، لأرجئ التعميمات حول وسائل الإعلام إلى نصفه الثاني.

لِتَرِثْ الريّح Inherit the Wind

قبل أن يبدأ المؤرخون بالنظر في القضية وقبل أن تبدأ نتائج مكتشفاتهم تترشح وتصل للجمهور، لو سألتَ عمليّاً أيَّ أمريكيٍّ: ماذا حصل بالضبط أثناء محاكمة أستاذ علم الأحياء «سكوبس» Scopes في «دايتون» Dayton في ولاية "تينيسّي" Tennessee في صيف عام ١٩٢٥ الحار؟ فإن إجابة غرفة الجلوس كانت ستأتيك عن حقائق تلك القضية القضائية أقل بكثير مما ستأتيك به عن الأساطير التي حيكت حولها والتي تم نسجُها بواسطة

---

(١) «إدوارد جي لارسون» كاتب ومؤرِّخ أمريكي حصل عام ١٩٩٨م على جائزة (بوليتزر) Pulitzer السنوية الأمريكية في فرع التاريخ بسبب كتابه المشار إليه: أي: Summer for the Gods: The Scopes Trial and America's continuing Debate over Science and Religion (علما أن جائزة بوليتزر Pulitzer جائزة سنوية تقدمها مؤسسة بوليتزر لأفضل إنتاج في الصحافة والأدب والموسيقا في أمريكا).

(٢) ولاية «تينيسّي» Tennessee إحدى الولايات الأمريكية في جنوب شرق الولايات المتحدة، شمال ولايات جورجيا وآلاباما، وهي ولاية صغيرة نسبياً ومحافظة، وعاصمتها ناشفيل Nashville.

فيلمٍ سينمائيٍّ ناجحٍ جداً عنوانه «لترث الريح» *Inherit the Wind* والذي ارتكز بدوره على مسرحية «برود وي» Broadway الناجحة أيضاً بشكل كبير، والتي كانت تحمل الاسم نفسه.

كان الفيلم بطولة «فريدريك مارتش» Frederic March و«سبينسر تريسي» Spencer Tracy، اللذين لعبا دور المدّعي العام «ويليام جينينغس بريان» William Jennings Bryan ومحامي الدفاع «كلارنس دارو» Clarence Darrow على الترتيب، وقد قلب هذا الفيلم الحقيقة رأساً على عقب كما تُقْلَبُ الفطيرة، و رفع نفسه إلى مقام الأسطورة!.

الحقيقة العارية من الإضافات التي انطلق منها الفيلم معروفةٌ لدى الجميع عموماً (لما كان الفيلم مرتكزاً على تلك المسرحية فسوف أحيل إليهما بشكل متبادل). عام ١٩٢٥ سنَّت ولاية "تينيسِّي" Tennessee قانوناً حظرت بموجبه تدريس نظرية التطوّر الداروينية في المدارس (نظراً لكونها تعارض تعليم الكتاب المقدَّس حول أصل الإنسان وكيفية خلقه) فأعلن «الاتحاد الأمريكي للدفاع عن الحريات المدنيَّة» أن معلِّمَ علم أحياء تحدَّى دستورية ذلك القانون فتعرَّض للمحاكمة، وقد أمل الاتحاد أن يُبْقي المحاكمة حتى تصل إلى مرحلة المواجهة بين «حرية التعبير» و«قضية الأغلبيَّة» – مؤيدو مبدأ حق الأغلبية يستدلُّون بأن الأغلبيَّة تملك الحق في تحديد النتائج – ولكن عندما دخل المدَّعي العام "ويليام جينينغس بريان" William Jennings Bryan و محامي الدفاع "كلارنس دارو" Clarence Darrow في الشجار، لم يعد من الممكن اجتناب تحول القضية إلى قضية صراع بين الدِّين والعلم. وكانت هذه القضية هي التي التقطها كاتب المسرحية ثم كاتب سيناريو الفيلم، اللذان عرضا العلم فيها بوصفه الفارس الشجاع الذي وَضَعَ على جسمه الدرع المشرق، ليحارب أنصار الدِّين الجهلة المتخلِّفين والمتزمِّتين.

يُخَبَّرُ جمهور المشاهدين أن الفيلم ليس «تاريخاً حقيقياً» ولكنه «فيلم تاريخيٌّ»، بيد أن هذا لم يمنع النص السينمائيَّ من أن يُعْرَضَ على المشاهدين على أنه تاريخٌ حقيقيٌّ. إنه

يخبرنا بطريقته الخاصة قصة محاكمة القرد التي أدين بها المعلّم «جون سكوبس» John Scopes بتهمة انتهاك قانون حظر تعليم نظرية التطوُّر.

إعادة تمثيل القضية في المسرحية بإشراف «ستانلي كرامر» كان رائعاً وكان مشبعاً بشكل صارخ بتأييد موقف المعلّم، ثم جاء الفيلم ليستبدل تقريباً كل المحاكمة في ذاكرة الجمهور.

قال «إيرفين ستون» Irving Stone حينذاك أن الفيلم وجّه الضربة القاضية للأصولية، التي لم يميزها الفيلم، بشكل عام، عن الدين نفسه. ولكن إذا أثبت الزمن أن «إيرفين ستون» كان على خطأ، فهذا معناه أنه لم يكن لفيلم «لترث الريح» أي فضل.

«الشيء» في المسرحية

يبتدئ فيلم «لترث الريح» بأغنية ليزلي أوغام Leslie Uggams «أعطني ذلك الدين القديم» ذات اللحن الحزين الذي يشبه الترنيمة الجنائزية، مع إيقاع قرع طبلٍ وثلاثة ضباط شرطة متجهّمي الوجه برفقة واعظ ديني يسيرون في بلدة جنوبية صغيرة متّجهين نحو قاعة صفٍّ لاعتقال مدرِّس مادَّة علم الأحياء (البيولوجيا) الذي أشيع أنه يقوم بتدريس نظريَّة التطوُّر. وينقلنا الفيلم فوراً إلى المشهد الثاني الذي نرى فيه المدرِّس «جون سكوبس» John Scopes خلف قضبان السجن تزوره خطيبته الرائعة التي شغفت به واحتارت بين حبّها لخطيبها المبدئي الشجاع، زوج المستقبل قريباً، وحبّها لأبّيها الذي يخفق قلبه على الكتاب المقدس Bible، والذي يعتبر «جون سكوبس» الشيطان نفسه.

إنها خدعة شائعة تستخدم دائماً لسوق الجمهور نحو الموقف الذي يريده الفيلم، لكن تاريخيّاً ليس لتلك التفاصيل أي رصيد واقعي بل هي خيال قصصي محض، إذ لم تلعب الرومانسية أي دور في أحداث تلك المحاكمة، ولم يحدث أبداً أن سُجنَ المدرِّس «سكوبس»، بل حدث في الواقع أن «بريان» Bryan (المدعي العام الرئيس في القضية) جادل بأنه ينبغي أن لا يُحاكَم المدرِّسُ من الأساس، وعندما أجاب القاضي أن مثل هذا

التساهل يخرجه عن صلاحياته ، عرض المدعي «بريان» أن يقوم بدفع الغرامة الدنيا التي تبلغ ١٠٠ دولار ، فقبل القاضي بذلك و انتهت كل القضية .

كان ذلك هو ما حدث فعلاً على أرض الواقع ، أمَّا الفيلم فقد حددت تلك المناورة الافتتاحية مسيرة الفيلم كلـه . كـان هنـاك توجيه من المخرج يتعلق بطريقة عرض مسرح الأحداث يوجب أن تكون البلدة مرئيَّةٌ دائماً في الخلفية ، و أن يتمّ إظهارها دائماً معاديةً للمدرِّس «سكوبس» Scopes ولمحاميه السيِّد «دارو» Darrow .

وعندما يصل المدَّعي العام «بريان» إلى محطة قطار بلدة «دايتون» يُستَقبل استقبال الأبطال وتُقَدَّم له مأدبة عشاء ، في حين يكون رصيف المحطة خالياً تماماً عندما يأتي محامي الدفاع "دارو" ، بل يصطف عدد من المواطنين العدائيين له على طرفي مسيره الذي يتّخذه سائراً وحدَهُ نحو فندقه ، ولا يحطم ذلك الصمت المطبق سوى صراخ طالبة مرحلة ثانويَة تصيح : «شرِّيرٌ!» . طبعاً لا شيء من هذا يشابه تاريخ القصة الواقعي مطلقاً . فعلى عكس الحضور العدائي والظالم لأهالي بلدة دايتون الذي يعرضه الفيلم ، كان أهالي البلدة في الواقع ودودين ومتسامحين . وكانت المحاكمة تتم بروح مرحة تشبه مرح أوقات العطلات ، وكانت تحظى بانتباه واسع من الجمهور . ولم يتظاهر أي جمهور صاخب خارج السجن الذي لم يكن له وجود أصلاً ، وهم يصرخون : «سوف نعلِّق جون سكوبس على شجرة التفاح الحامضة» ، ولا كان هناك وجود حتى للمراسل الإخباريّ لصحيفة «بالتيمور سَنْ» الذي كان يتصف في الفيلم بالإلحاد المبهرج ، والذي كان يحضّ المتَّهم «سكوبس» على أن يقول شيئاً غير مسؤول «مشاغبو العالم متَّحدون ، ليس لديك شخصاً تحرقه سوى مثقفيك» .

أما الوقائع الفعلية فكانت التالية : على أمل إنهاء ثلاثة عقود من حالة الركود والعزلة لسكان بلدة «دايتون» الذين كانوا يتجنّبون الحياة العامة ، رأى آباء البلدة في بحث «الاتحاد الأمريكي للدفاع عن الحقوق المدنيَّة» عن مدرِّس مادة الأحياء ليتحدى بواسطته شرعيَّة قانون ولاية «تينيسي» فرصةً ذهبيةً لإعادة بلدتهم ثانيةً إلى الخريطة . كان مدرِّس مادَّة

الأحياء الأصلي في ثانوية البلدة مريضاً وغير قادر على مواصلة إعطاء الدروس، لكن هذا لم يطرح أية مشكلة؛ فقد قام الأستاذ «جون سكوبس» مدرِّب كرة القدم، والذي كان في الوقت ذاته مدرِّس العلوم العامة، قام بالواجب بعد أن تم تكليفه بإكمال تدريس المادة. شهد «سكوبس» هذا أنه بوصفه معلِّماً بديلاً في النصف الثاني من السنة فقط، تعلم من الطلاب أشياء من علم الأحياء أكثر مما علَّمهم! لأنهم كانوا قد تلقَّوا العلم خلال ستة أسابيع (في النصف الأول من السنة) على يد مدرِّس كان يعرف فعلاً شيئاً عن الموضوع. بالطبع لا شيء من هذا تمَّت الإشارة إليه في الفيلم. لقد تجاوزت إستراتيجية آباء البلدة آمالهم العريضة. فقد اجتمع حوالي مئتي مراسل خبري في مدينة «دايتون» ليشاهدوا وقائع المحاكمة، التي تحولت إلى أول محاكمة في أمريكا تحظى بتغطية إعلامية عالمية. إن تصرفات الفيلم وتغييراته لحقائق قصة المحاكمة، من هذا النمط الذي ذكرته، تملأ الفيلم من أوله إلى آخره، وكلها تهدف لإيصال المشاهد إلى النقطة المطلوبة وهي إظهار أن العلم وأنصاره مظلومون ومنطقيون ومتسامحون وتقدُّميُّون بعيدو النظر، في حين أن الدين (الذي تم عرضه على أنه مساوٍ للأصولية) مستبدٌّ ومتخلِّفٌ ومغلقُ العقلِ ومتزمِّتٌ.

رغم التأكيد الواضح للمدَّعي العام «بريان» على المنصة أنه يقرأ قصة خلق السموات والأرض في ستة أيام على نحو مجازيٍّ، فإنه وُصِفَ في الفيلم كرجلٍ حَرْفيٍّ بشكل شديد في فهمه لنصوص الكتاب المقدَّس، والأكثر من ذلك أن الجانب الإنساني لتلك القضية تمَّ تجاهله والتعتيم عليه كليّاً. كان المدعي العام «بريان» أولاً وقبل كلّ شيء رجلاً إنسانياً عاطفياً، وكان داعيةً متحمِّساً جداً للإصلاح الاجتماعي، وكانت الداروينية الاجتماعية - والتي سيتم قريباً بيان بطلانها وفسادها - في ذلك الوقت في أوج عنفوانها. لقد رأى «بريان» أكبر الأخطار في بقاء النظرية الداروينية على قيد الحياة، لأنَّها كانت أكثر النظريات ملائمةً لاستخدامها في الدفاع عن أقطاب (بارونات) السرقة في أمريكا، كما كانت تستخدم لتبرير العسكرية الوحشية في ألمانيا التي أدَّت إلى الحرب العالمية الأولى. وقد قاده هذا الأمر إلى الاعتقاد بأن النظرية الداروينية تمثِّل للإنسان الوصول إلى كماله الحاضر عبر

عمليَّة قانون الكراهية والحقد، القانون الذي لا يعرف الرحمة، الذي يقوم به الجمهور القوي بقتل الضعيف.

ولكن لم يكن من الممكن أبداً لأي مشاهد لذلك الفيلم أن يدرك أن هذا الفهم والإدراك للدراوينية هو الذي أشعل غضب المدَّعي «بريان» أكثر من أي شيء آخر، وذلك لأن الفيلم كان يركِّز على سعي محامي الدفاع «دارو» للاستخفاف بالمدَّعي «بريان» عبر اعتقاده (الذي عُرِضَ بشكل غير دقيق) بنظرية التطور وأن يسجِّل بذلك نصراً كاسحاً للعلم. رأى المراسلون الصحفيون الذين قدموا لتغطية حدث المحاكمة الأمور بشكلٍ مختلف. لقد اعتبروا المواجهة مناوشة افتتاحية في المعركة التي ستتواصل دائماً بين الأصولية الدينية والمتدينين المتحررين. يُظْهر الفيلم المدَّعي العام «بريان» منهاراً على منصته تحت وطأة اختبار المحامي «دارو» المُخْرِج الذي لم يكن له أية علاقة بالقضية (وهذا كان دقيقاً فعلاً) سوى أن الأمر كان يتعلق فقط بسعيه للسخرية من «بريان» ومن الحرفية في قراءة الكتاب المقدَّس. كتب المحامي «دارو» إلى «منكين» Mencken بعد انتهاء المحاكمة يقول: «لقد صمَّمتُ أن أُرِيَ البلاد كم كان هذا الرجل جهولاً، ونجحت في ذلك».

أما في الواقع وحقيقة الأمر، فإن «بريان» لم يعتبر نفسه مهزوماً أبداً. لقد أمضى الأيَّام التالية وهو يصدر بياناتٍ للصحف ويُعِدُّ خطاباً من خمسة عشر ألف كلمة يؤكد فيه أنه سيواصل معركته ضد الداروينية وضد المحامي «دارو». وقد توفّي بعد خمسة أيام من المحاكمة، ولكن ليس لأن روحه كانت قد تحطَّمت. في إحالةٍ من المحامي «دارو» إلى شغف «بريان» الأسطوري بالطعام، ذكر أنه توفي بسبب تلبُّك مَعِدِيّ.

أنا الآن أكتب كما لو أنّ فيلم «لترث الريح» كان وحده الذي شوَّه حقيقة محاكمة «سكوبس»، لكن الواقع أن التشويهات بدأت تتكون تدريجيّاً بعد سنة أو سنتين فقط من المحاكمة ذاتها. وإذا كان هناك من كتابٌ واحدٌ له الفضل في إطلاق عمليات التشويه والتحريف تلك (!) فهو كتاب الكاتب "لويس ألين" Lewis Allen: «فقط أمس» Only Yesterday، الذي نشر عام ١٩٣١ وبيع منه حوالي مليون نسخة. كان كتاباً حيويّاً حول

حوادث العشرينيات الصاخبة، تَوَلّى كِبْر نشر أكذوبة أن المدَّعي العام «بريان» كان أصوليّاً يؤمن بالمعنى الحرفي لنصوص سفر التكوين، وهو أمرٌ رأينا كيف أنه لم يكن حقيقيّاً. لقد حوَّل الكاتب «ألين» المحاكمة إلى مسابقة بين وجهتي نظر «بريان» و«دارو» المتعارضتين حول الدِّين ونظرية التطوُّر، مهملاً بشكل كامل كل من إنسانية «بريان» ودفاعه عن حق الأغلبية في تقرير النتائج. كان «بريان» قد قال وهو على منصة المحكمة: «ليست القضية في الحقيقة هي ماذا يمكن أن نعلّمه في المدارس الحكوميَّة، بل القضية: من الذي له حق التحكُّم بالنظام التعليمي وتنظيمه؟»».

ومجمل القول، تركت معالجة «ألين» للمحاكمة انطباعاً لدى قارئي كتابه بانتصار العقل على الوحي، وأصبح النسخةَ التي تم تلقيها من الآن فصاعداً عن القضية. وحتى فترة الخمسينات والموجة «المكارثيّة»[1] McCarthyite كان مؤرخون في مستوى «ريتشارد هوفستاتر»[2] Richard Hofstadter يشيرون إلى تلك المحاكمة كتعبير عن قوى الظلام المعادية للعلم والثقافة في أمريكا. وكان لا بد أن ينقضي نصف قرن قبل أن يبدأ الناس بالانتباه إلى خطأ تلك الفكرة الشائعة عن تلك المحاكمة وتبدأ الجهود لتصحيحها. في مقالة عنوانها «زيارة لدايتون» لفت «ستيفن جيْ غاولد» Stephen Jay Gould انتباه الناس إلى الآثار الكبيرة والخطيرة التي أحدثها تشويه حقيقة قضية محاكمة المدرِّس «سكوبس»،

---

(١) الموجة المكارثية هي موجة معاداة الشيوعية في أمريكا التي قادها السياسي الأمريكي والسيناتور ورئيس لجنة التحقيقات في مجلس الشيوخ «جوزيف رايموند مكارثي» Joseph Raymond McCarthy (١٩٠٨-١٩٥٧)، الذي قاد حملة ضدّ الفتنة الشيوعية في أوائل الخمسينات من القرن العشرين. جذب مك كارثي McCarthy انتباه الأمة الأمريكية أوّلاً في فبراير/ شباط ١٩٥٠، عندما وجه اتهاماً إلى وزارة الخارجية بأنها قد أُخْتُرِقَت مِنْ قِبَل الشيوعيين. وبالرغم من أن تهمته هذه لم تثبت أبداً إلا أنه خلال السنوات الثلاث التالية واصل اتهامه لمسؤولين كبار مختلفين مراراً وتكراراً بنشاطات هدّامة واستدعاهم للاستجواب والمساءلة، وكثيرا ما كان يثبت بطلان تهم مكارثي McCarthy، حتى صوّت مجلس الشيوخ الأمريكي على قرار يلومه بسبب الوسائل غير المشروعة التي كان يستخدمها.

(٢) ريتشارد هوفستاتر Richard Hofstadter كاتب وأديب ومؤرخ أمريكي معاصر أشهر كتبه: «معاداة العقلانية (أو معاداة الفكر والثقافة الحرة) في أمريكا» Anti-Intellectualism in America (عام ١٩٦٣).

وأيدت رأيَ «غاولد» هذا كثيرٌ من الدراسات التاريخية الأخرى (مثل كتاب «ري جينجر» Ray Ginger : «ستة أيام أو إلى الأبد: تينيسّي ضد جون توماس سكوبس» *Six Days or Forever: Tennessee v. John Thomas Scopes*، ونظرة إدوارد لارسون Edward Larson الابتدائية لهذه القضية في كتابه: «المحاكمة والخطأ: الجدل القانوني الأمريكي حول الخَلْق والتطوُّر *Trial and Error: The American Legal Controversy over Creation and Evolution* ، والذي أعدَّ الأرضيَّة المناسبة لدراسته الأكثر تفصيلاً والنهائية وهي الكتاب الأساسي المرشد لمسيرة فصلنا هذا).

التساهل (التسامح) الشِّعْرِيّ

لا شكَّ أنَّ للفنِّ حقوقه الخاصة، فله أن يختار ويبْرز بعض المواقف ليجعل محور قصته واضحاً، وفي أثناء ذلك يمكنه أن يحرِّض أناساً جيِّدين ضدَّ أناسٍ سيئين. ولكن بعد أن نقرَّ بذلك، نقول إن الحقيقة الفاضحة حول فيلم «لترث الريح» ليست سماحه لنفسه بالقيام بتلك التصرفات في القصة، فحتى تشويهاته الكبيرة يمكن لأحدنا أن يعذره لأجلها (إذا أراد أن يعذره) باعتبارها تصويرات شعريَّة؛ لكن الحقيقة الفاضحة لدوافع إنتاج ذلك الفيلم هي الرسالة التي أراد إيصالها، وأن طريقته في طرح الرسالة في المنظور جعلته يطرح أدوار الممثلين في الفيلم بشكل معكوسٍ ومقلوبٍ تماماً. في جوّ الرأي العام في يومنا هذا، هل يمكننا أن نتخيّل «هوليوود» تستخدم قضية محاكمة «سكوبس» قاعدةً لقصّة تجعل من «ويليام جينينغس بريان» William Jennings Bryan بطل القصة ومن «كلارنس دارو» Clarence Darrow ممثلاً لدور الوغد؟

لا يَتَّهِمُ «إدوارد لارسون» Edward Larson فيلمَ «لترث الريح» أنه جاء من فراغ، فلا شك أن عدم التسامح الفكري كان قضيةً مهمَّةً في الموضوع. لكن ما فعله «إدوارد لارسون» (بالإضافة لبيانه الأخطاء الكبيرة في الفيلم) هو إعادة الانتباه لجوانب المحاكمة التي كان يتمُّ، عادةً، تجاوزها والتعتيم عليها، والتي لا تزال تداعياتها مستمرَّةً حتى اليوم

في المناقشات الدائرة حول مكانة العلم والدين في المدارس الحكومية العامة. إنَّ التَخَوُّف الذي عبَّر عنه المدَّعي العام «بريان» أثناء المحاكمة كان قوله: «إننا سنفقد وعينا بحضور الله في حياتنا اليوميَّة لو كان علينا أن نقبل بالنظريَّة الداروينيَّة التي تقول إنه خلال كل العصور لم تكن هناك أيَّةُ قوةٍ روحيَّةٍ لمست حياة الإنسان وشكَّلت قَدَر الأمم ومصيرها». وهذا التخوُّف يمكن قراءته كما لو أنه قيل أمس، بل إن جوهر هذا التخوُّف تمَّ الإعراب عنه أمس فعلاً، وذلك في الضوضاء التي أثيرت مؤخَّراً حول «الداروينيَّة» في ولاية «كانساس»[1] Kansas.

تجدُّد القضية في ولاية 'كانساس'

لم أكن لأخصِّص كل هذه المساحة التي خصصتها لفيلم «لترث مع الريح» لو لم أرَ فيه أكثر الأدلة والشواهد - التي عرفتها - رسماً وإيضاحاً لطريقة تعامل وسائل الإعلام مع الدِّين في عصرنا اليوم. تؤكِّدُ تغطية وسائل الإعلام لقرارات هيئة التعليم في ولاية «كانساس» Kansas في أغسطس عام ١٩٩٩، المتعلِّقة بموضوع نظرية التطوُّر الداروينية، هذا الانطباع، لذا سوف أتعقَّب هذه القضيَّة وكأنها تجديدٌ لقضية محاكمة «سكوبس». اتَّبَعَتْ صحيفتي المحلية «يوميات سان فرانسيسكو» *The San Francisco Chronicle* ذلك النموذج النمطي الرائج في كل البلاد بمقالها الافتتاحي حول ذلك القرار تحت عنوان: «تصويتٌ لصالح الجهل» A Vote for Ignorance. أمَّا لو نظرنا تحت هذا العنوان فسنجد أن تغطية وسائل الإعلام للقرار هي التي أبرزت مستوى الجهل فعلاً في أمّتنا.

إذا كان ذلك يبدو تهمةً غير مسؤولة، فإنني أسأل القارئ فيما لو كانت الوقائع التالية حول القضية مفاجئةً له. إذا كانت مفاجئةً فهذا بحدِّ ذاته يبيِّنُ مدى تقصير وعيب الصحافة في روايتها للحَدَث. على نقيض الانطباع الذي تعطيه وسائل الإعلام، زاد قرار ولاية

---

(١) كانساس Kansas ولاية أمريكية تقع في الوسط الغربي للولايات المتحدة تحدها ولاية أوكلاهما جنوباً و ولاية ميسوري شرقاً، وعاصمتها مدينة توبيكا Topeka.

«كانساس»، في الواقع، من تأكيد المدارس الحكومية في الولاية على التطوُّر. لقد خصَّصت المعايير القديمة لمناهج التعليم (المتَّبعة منذ عام ١٩٩٥) حوالي ٧٠ كلمة لموضوع التطور البيولوجي، في حين زاد المعيار الحالي ذلك إلى حوالي ٣٩٠ كلمة. رغم أن هذا كان أقل من ال ٦٤٠ كلمة التي أرادتها لجنة معايير الكتابة في هيئة تعليم العلوم في «كانساس»، إلا أنها تبقى زائدةً بمقدار خمسة أضعاف عما كان يوجد في الكتب من قبل. لا شك أن عدد الكلمات لوحده لا يخبرنا بالقصة الكاملة، لكن ال ٣٩٠ كلمة التي وافقت عليها المدارس، اشتملت على الكثير من البنود التي أوصت بها اللجنة. لقد تبنَّت الهيئة حرفياً تلخيص اللجنة لنظريَّة داروين والتي تقول ما يلي:

يتضمَّن الاصطفاء الطبيعي المفاهيم التالية: (١) توجد تغيرات موروثة في كل نوع من الأنواع؛ (٢) بعض السمات والميزات القابلة للوراثة أكثر فائدة وامتيازاً لإعادة التوليد والبقاء من غيرها؛ (٣) ثمَّةَ تزويدٌ محدودٌ للمصادر المتاحة للحياة، فلا تبقى كل السلالات حيَّةً؛ (٤) الأفراد الذي يمتلكون مزايا أفضل هم الذين يبقون عموماً؛ (٥) المزايا الأفضل تزداد في الناس خلال الزمن.

وألزمت الهيئة المدارس بامتحان الطلاب في هذه الخلاصة لنظرية الاصطفاء الطبيعي لداروين. وهي خلاصة كافية ووافية من الصعب لأحد أن يأتي بأحسن منها.

كما أنها طالبت الطلاب أن يفهموا أن: «التطور المجهري MicroEvolution يفضِّل التغيرات أو الطفرات الوراثية المفيدة ويساهم في التنوع البيولوجي» مع تمثيلها لهذا الأمر بالتغيرات في منقار طائر البرقش.

فما هو السيئ إذن في قرار هيئة التعليم في ولاية «كانساس»، ولماذا حدثت تلك الضجَّة؟

إن المسألة كلها تكمن في رفض هيئة التعليم لتبنِّي اقتراحين من الاقتراحات التي أرادت لجنة العلوم تضمينهما في القرار. أولاً، رفضت اللجنة أن تطالب الطلاب أن يفهموا أن التطور المجهري الدقيق يؤدي إلى تطور على المستوى الكبير MacroEvolution، أي

تطور أصل أبنية جديدة ومجموعات جديدة من الكائنات الحيَّة، وثانياً، لم تطالب الطلاب برفع التطور البيولوجي إلى مرتبة «المفهوم التوحيدي» للعلم، الذي يكون على مرتبة المفاهيم ذاتها مثل الدليل والشكل والوظيفة. والآن نقول أليس من المجحف والصعب النظر إلى ذلك الرفض على أنه «تصويتٌ لصالح الجهل»، في الوقت الذي لا يتَّفق فيه علماء الأحياء أنفسهم على تلك النقاط؟.

إن تحيُّز الصحافة في روايتها لقضية «كانساس» لا تتضح من طريقة تغطيتها للحَدَث فحسب، بل تتضّح أيضاً من طريقة عدم تغطيتها لبعض ملابساته. وأشيرُ في ذلك إلى الندوة أو الحلقة الدراسية Symposium التي عُقِدَت لمناقشة القرار الذي أصدرته جامعة «واشبورن» Washburn في «توبيكا» Topeka (عاصمة ولاية كانساس) في أعقاب تلك الضجَّة. لمّا كانت تلك الندوة (حسب علمي) المناقشة الأكاديميّة العلميّة المسؤولة الوحيدة التي عُقِدَت بشأن تلك القضيَّة – وأقول مسؤولة لأنها أعطت وقتاً متساوياً لكلا طرفي النزاع – فإن لأحدنا الحق بأن يتوقع أن يجد الصحفيون في تلك الندوة مناسبةً لتعميق تغطيتهم للحَدَث، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث. إلى الحد الذي استطعتُ أن أعرفه، تمَّ تجاهل هذا الحدَث تماماً في الصحافة في «توبيكا».

إن الصحافة بعملها هذا، حجبت عن الأمّة واقعةً وحدثاً ذا دلالةٍ مهمَّة، هي أنَّ قسم علم الأحياء في جامعة «واشبورن» Washburn امتنع عن المناقشة. فما تأثير هذا الامتناع على صورة العلوم كما تم تبريرها وبيان أسبابها في المعالجة الحرّة والمنفتحة لذلك الموضوع.

الصورة العامة

هناك مشهدٌ قبل نهاية فيلم «لترث الريح» يبدو - في السياق الحاليّ- كما لو أنه كُتِبَ لكي يقودنا من الفيلم نفسه نحو القضية الأوسع لموضوع معالجة وسائل الإعلام للدِّين عموماً. تدخلُ شخصيَّةٌ عُرِفَتْ بأنها مُذيعٌ إلى قاعة المحكمة حاملاً ميكروفوناً كبير الحجم، ويقول هذا المذيع إنَّ ذلك الميكروفون موصولٌ عبر بثٍّ مباشر بمحطَّة واي جي إن WGN في

«شيكاغو»، ثم يمضي في تقريره راوياً للأمة، بشكلٍ عامٍ وعلى نطاق واسع، لما يحدث في قاعة المحكمة، وهنا يحاول المدَّعي العام "ويليام جينينغس بريان" William Jennings Bryan، المشهور بأنه خطيبٌ مُفَوَّهٌ ذو صوتٍ جهوريٍّ عالٍ، أن يتكلَّم من خلال ذلك الميكروفون، فيتحسّس ويتلمّس بارتباك ذلك الجهاز الجديد، ولكن صوته كان عالياً بشكلٍ كافٍ ليتمّ التقاطه في أيِّ مكانٍ ولتنتقل كلماتُهُ إلى الجمهور العام. إلا أنه كآخر شتيمةٍ يقوم بها الفيلم لـــ «بريان»، يقرِّرُ مديرُ البرنامج في شيكاغو أنَّ كلمته تمَّ بثُّها لمدّةٍ طويلةٍ بنحوٍ كافٍ، ويقطع المُذيع كلمةَ «بريان» ليُعْلنَ أن المحطَّة يجب أن تعود للبث من الأستوديو المحليّ في شيكاغو لإذاعة فاصلٍ موسيقيٍّ. ويعرض المشهد السينمائي هذا كإذلالٍ نهائي لـــ «بريان».

يستخرج «فيليب جونسون» Phillip Johnson (أستاذ في كليَّة «بولت» Boalt للقانون في جامعة كاليفورنيا) من هذا المشهد قضيَّةً يسمِّيها: «من يمتلك الميكروفون؟». يمكن للميكروفون (الذي يمثِّل وسائل الإعلام الإخبارية بشكل عام) أن يلغي أيَّ شيءٍ ربما كان «بريان» قد قاله، بأن يطفئ الميكروفون الذي يتكلَّم بواسطته «بريان» بكلِّ بساطة. ولأنَّ الأستاذ «فيليب جونسون» نفسه كان ناقداً للادعاءات الداروينية المبالَغ فيها، فإنه ربط هذه النقطة بتجربته الخاصَّة. يقول إنه في جوِّ وسائل الإعلام اليوم، من المستحيل عمليّاً أن نجعل صحيفةً تعترف أن هناك مشاكلَ علميةً ذاتيَّةً في «الداروينيَّة» لا علاقة لها بأيِّ شيءٍ يمكن أن يفكِّر به أيُّ شخصٍ حول ما جاء في الكتاب المقدَّس (التوراة Bible). يمكن لمراسل إخباري أن يفهم جيداً هذه النقطة أثناء مقابلة صحفيَّة ولكن بعد أن تذهب القصَّة إلى رئيس التحرير، فإنَّها تعود دائماً، تقريباً، حاملةً الصيغة نفسها: «إن القائلين بنظرية الخلق يحاولون استبدال نصوص العلم، بسِفْر التكوين (الفصل الأوّل من التوراة)».

لديَّ نظيرٌ لهذا التقرير خاصٌّ بي يأتي من حقلي العلمي «أديان العالم». قبل عدة سنوات سافرت مراسلةٌ متخصِّصةٌ في الأديان، تعمل لحساب إحدى الصحف الوطنية

الرائدة، إلى منطقة خليج سان فرانسيسكو Bay Area لتُجْري معي مقابلةً صحفيَّةً بشأن موضوعٍ كانت تنوي الكتابة فيه. بعد الأسئلة التقليدية المعروفة عن خلفيّتي، والتأثيرات التي شكَّلت فكري واهتماماتي الإنسانية، وآرائي حول الموضوعات المختلفة، دخلت المراسلة في لبّ الموضوع، أي الصراعات والنزاعات الدينية، فقلت لها إن هذه النزاعات تميل لكونها سياسيةً أكثر من كونها دينيَّةً، واستدعى هذا محاضرةً قصيرةً كان مضمونها ما يلي:

في الصراعات العرقيَّة التي تتداخل مع الدِّين، يزوِّد الدِّينُ كلاً من الفريقين المتحاربين بهويته الخاصَّة، ولكنَّ هذا لا يستتبع أن تكون هذه الاختلافات في الهويّة الخاصة لكل من الطرفين هي السبب الحقيقيّ وراء الصراع الجاري. وإذا أردنا إيضاح الموضوع بالطريقة التي يستخدمها المناطقة (علماء المنطق) قلنا إن الهويَّات المتعددة شرطٌ ضروريٌّ للصراع ولكنّه ليس شرطاً كافياً، ويوجد ما يماثل هذه القضيَّةُ تماماً لدى عامَّة الناس. فلَكَيْ تحصل مشاجرةٌ لا بد أن يكون هناك أطرافٌ متميِّزةٌ عن بعضها، ولكن تنوع الأطراف لا يستدعي وحدَهُ وقوع الشجار أو الحرب والاقتتال، إنَّ التمايز قد يوفِّرُ ظروف الصداقة كما قد يزوِّد بأسباب الكراهية والحقد. شرحتُ للمراسلة الصحفيّة أنَّ ما قلتُهُ يوضِّحُ المسألةَ على نحوٍ تجريديٍّ، لذلك دعيني أعطيك مثالاً عملياً ملموساً لتتضح الصورة أكثر:

قبل عدة سنوات عندما كانت أنظار العالم بأسره مشدودةً باتجاه البوسنة، حدث أن التقطتُ نشرةَ أخبارٍ مسائيَّةٍ كان المراسل يستجوب خلالها امرأةً صربيَّةً في قريةٍ صربيَّةٍ، وقد جرت المحادثة بالشكل التالي:

المراسل: هل هناك أيُّ مُسْلِمٍ في قريتكِ؟

المرأة: لا!

المراسل: ماذا كنت ستفعلين لو كان هناك مسلمٌ في قريتكِ؟

المرأة: كنا سنقول له أن عليه أن يغادر القرية.

المراسل: وماذا لو رفض؟

المرأة: كنا سنقتله!.

المراسل: لماذا؟

المرأة: لأن هذا ما كانوا يفعلونه بنا قبل أربعمائة عام!.

أخبرتُ المراسلةَ أن هذه المحادثةَ تخبرنا بقصة الصراعات الدينيَّة تماماً. إن الاختلافات في العقائد الدينية – أي الدائرة الخاصة بالدين ذاته – ليست هي السبب الرئيس والأوَّل للمشاكل؛ فلم يكن الصِّرْب يأبهون كثيراً لما «**يعتقده**» المسلمون، بل كانت ذكريات الأعمال الوحشية التي لم يتمّ الانتقام منها هي التي أثارت أحقادهم وأوقدت نيران الحرب من جديد. طبعاً ليس الأمر كذلك دائماً. عندما يدخل الدين في التاريخ لأوّل مرة، فإن عقائده المحدَّدة والمتميِّزَة تقع في صراعٍ مع العقائد السابقة والسالفة ومع الجيران، لذا يتم النظر إليها على أنها تهديدٌ بحدٍّ ذاتها. هل كان يسوع هو المسيح فعلاً أو لم يكن؟ هل كان نظام الطبقات الهندوسي مقبولاً أو يجب رفضه كما طالب بوذا بذلك؟ هل كان محمَّدٌ نبياً على خط الأنبياء مثل إبراهيم وموسى وعيسى أو أنه كان دجَّالاً مدَّعياً؟ أسئلةٌ مثل هذه هي حقّاً أسئلةٌ دينيَّةٌ محضةٌ، وقد أدَّت إلى معاركَ دمويَّةٍ موجعةٍ عندما كان الدين الجديد يسعى إلى ترسيخ استقلاله عن دين الآباء والأجداد، بما يشبه ثورات العصيان المراهقة في تاريخ العالم. ولكن بمجرَّد أن ينتزع الدِّين الجديد استقلاله عن دين الأسلاف، وينجح في فرض هويته الجديدة المستقلَّة وترسيخها، فإن القضايا السياسيَّة هي التي أثارت المشاكل بعد ذلك أكثر مما أثارته الاختلافات العقائدية. علاوة على ذلك فإن الزعماء السياسيين كثيراً ما يستخدمون الدِّين لأغراضهم وأهدافهم الخاصَّة.

أصغت المراسلة إليَّ جيِّداً ثم قالت: «أعتقد أنني أفهم جيِّداً ما قُلتَهُ، ولكنَّ مسؤول التحرير في صحيفتي لن يفهم ذلك!. إن الذي يريده مني حديثٌ عن الإرهاب والحروب المقدَّسة، والأفضل أن يكون حديثٌ عن «*الجهاد*». «إذا كانت تنزف فإنها تقود!» If it bleeds, it leads.

أقول: إنه من المؤكَّد (أتكلم الآن مع نفسي) إن هذا هو بالدرجة الأولى ما تعطينا إياه وسائل الإعلام عندما يتعلق الأمر بحديثها عن الدِّين.

بعد أن ذكرتُ البوسنة، سأذكر مثالاً ثانياً في الموضوع نفسه، شملني شخصيّاً. عندما كان الشرق الأوسط مشتعلاً في السبعينات (من القرن العشرين) حيث كان الرهائن الأمريكيون مُختَطفون في لبنان، ولم يكن الأمريكيون قادرين على أن يفكِّروا بشيء إلا في موضوع رهائنهم، حدث أن تلقَّيتُ مكالمةً هاتفيَّةً في عصر أحد الأيَّام - وكنتُ حينها أدرِّس في جامعة سيراكيوز[1] Syracuse- من زميلٍ أستاذ في قسم العلوم السياسية في الجامعة. كان مزمعاً أن يبدأ سلسلة محاضراته عن الشرق الأوسط في ذلك المساء، وطلب إليَّ أن آتي لأشرح دور الدِّين في أزمة الشرق الأوسط؟. لقد حملني واجب الزمالة الجامعية للموافقة على طلبه، ولكنني لا أزال أتذكَّر خطواتي الثقيلة وأنا أشق طريقي في الحرم الجامعي نحو قاعة محاضراته، لأنني كنت أعلم جيِّداً أن ما سأقوله سيخيِّب أمله وأمل طلابه؛ فقد علَّمتني التجربة أنه يأمل منِّي أن أكون قادراً على الإشارة إلى الاختلافات الدينية العقائدية التي تساعد على تفسير الصراعات في المنطقة، - وخاصَّةً وبشكلٍ أعمق، تلك الاختلافات بين المسلمين واليهود - في حين أن ما كنت سأقوله لطلاب الصف، هو أنه بالمقارنة مع القضيَّة المشتعلة في الأرض، فإن التدقيقات اللاهوتية ليست إلا حذلقةً لا أكثر!. إذا أردنا الحقيقة، فإنَّ الاختلافات الدينيَّة بين الإسلام واليهودية ضئيلةٌ جداً لدرجة أنَّ محمداً كان قد تفاجأ للغاية عندما وجد اليهود والمسيحيين في عصره لم يقبلوه كنبيٍّ جديد يُضاف إلى قائمة أنبيائهم الخاصِّين.

وأعود الآن إلى الصورة العامَّة. لا بد أنَّه مما يحبط وينهك مراسلي وكالات الأنباء الذين يحملون آلات التصوير أن تكون الروح الإنسانية غير مرئيَّة. إذ لمَّا كانت الروح الإنسانية غير قابلة للتصوير فإنها لن تظهر أبداً في نشرة الأخبار المسائيَّة. وهذا ما يجعل

---

(١) مدينة «سيراكيوز» Syracuse إحدى مدن ولاية نيويورك تقع في شمال شرق الولايات المتحدة الأمريكية.

المراسلين الإخباريين يسعون للتغلب على هذه الصعوبة بعرضهم ما يمكن إظهاره بصرياً والذي هو (فيما يخصُّ الدِّين) إفرازات الدِّين وإنتاجاته العلنيَّة. هنا ندخل نحن (الجمهور العامّ) في المشهد مصطحبين إدماننا للعنف. إذا أطلق أحد أنصار الحياة (الرافضين للإجهاض) النارَ على طبيبٍ محترفٍ للإجهاض، فمن المؤكَّد أن هذا الخبر سيملأ عناوين الصفحات الأولى لكلِّ صحيفةٍ يوميَّةٍ في البلاد. في هذه الأثناء، سوف يخصِّصُ ملايين المواطنين العاديين جزءاً من يومهم لأجل شيء من التفكير بشأن أرواحهم عبر الصلاة والتأمُّل وقراءة الكتاب المقدَّس وما شابهها من نشاطات تصل بهم إلى عمق الروح حيث المفاتيح ملقاةٌ بين الشفقة والقسوة، والأمل واليأس. هذا أمر واضح لا خلاف فيه.

هنا هو المكان الذي تبدأ به القضية، ولكنه ليس المكان الذي ستنتهي به.

يُعَلَّمُ مراسلو وكالات الأنباء أن فنَّ حرفتهم يقتضي منهم أن يحتفظوا بآرائهم الشخصية بعيداً عن قصصهم. «لا شيء سوى الوقائع، أجل، لا شيء سوى الوقائع»، ولكن هذا القول المأثور لا يتم الالتزام به عندما تعكس آراؤهم الشخصيَّة الآراءَ الشكَّاكة التي تتميَّز بها أخلاقُنا السائدةُ. يوضِّح «إي جي ديون» E. J. Dionne من صحيفة "الواشنطن بوست" هذا الأمر بحكاية تتعلق بمأزقٍ واجَهَهُ مرَّةً بينما كان في مهمَّة صحفيَّة في أفريقيا. كان يغطي خبر زيارة البابا، فَجَرَتْ محادثةٌ بينَهُ وبين كاثوليكيٍّ، تصادف وقوفه إلى جانبه. عندما أعرب «ديون» Dionne لجاره عن قلقه بشأن الطقس غير المساعد (الممطر)، أجابه جاره أنه ليس قَلِقاً مطلقاً لأنَّ السماء ستتوقف عن الإمطار عندما يصل البابا. فسأله «ديون» متعجِّباً: «كيف لك أن تعرف ذلك؟!»، فكانت إجابة الكاثوليكي: «دكتور المطر قال ذلك، لأن البابا مباركٌ». لم يكن «ديون» ليخبرنا بتلك القصَّة لو أن الأمور لم تحصل تماماً وبالضبط كما توقَّعها دكتور المطر!. ظهرت الشمس وقاد البابا الجماهير في عالمٍ مشرقٍ غسلته الأمطار. كُلَّما أخبر «ديون» طلابَه في كلية الصحافة بهذه القصة، كان يسألهم كيف كنتم ستتعاملون مع مثل هذه القصَّة لو حدثت لكم؟ وكان يجد

دائماً إجماعهم على أن ذلك الحَدَث كان مجرّدَ صُدْفَة (أي لا يستدعي الذِّكْر). ولكنه كان يسأل عندئذ: وماذا تفعلون عندئذ تجاه مبدأ: «الوقائع ولا شيء سوى الوقائع»؟

أعود لوصف «بيتر برجر» أمريكا بأنها «أرض يسكنها هنود ويحكمها سُوَيْدِيُّون».

إن كتاب «كريستوفر لاش»[1] Christopher Lasch «انتفاضة النُّخَب» The Revolt of the Elites مخصَّصٌ لهذه المسألة، وفيه فقرةٌ يجدر اقتباسها هنا. يقول «لاش» Lasch إن كون الأمريكيين يُعْرِبُون بشكلٍ عامٍّ عن أنهم يؤمنون بالله لا يعني في الواقع شيئاً أبداً، وذلك لأنه:

«الحياة العامّة (النشاطات الحكومية) مُعَلْمَنَةٌ كليّاً. وقد أصبح مبدأ فصل الكنيسة عن الدولة يُفَسَّرُ على أنّه يقتضي حَظْر أيّ اعترافٍ حكوميٍّ بالدِّين مطلقاً، وغدا هذا التفسير مُعْتَمداً و راسخاً جداً في أمريكا أكثر من رسوخه في أيّ بلد آخر. لقد تمّت إزاحة الدين وطرده إلى حاشية النشاطات الحكومية.

لا يوجد للدِّين، بين النخب، ذلك التقدير والاحترام الواجب، بل يتم الاعتقاد به بنحو أقلّ من شأنه وأهميّته عندما يُنظَر إليه بوصفه شيئاً مفيداً في حفلات الزفاف ومراسم الجنائز فقط، وما عدا ذلك فهو شيء غير أساسي يمكن الاستغناء عنه.

إن الشك وحالة مهاجمة كل المعتقدات الدينية وعقلية تحطيم المقدسات، حالة عقلية تمثل إحدى الخصائص المميِّزة للطبقات المثقّفة. لقد فهموا التزامهم بثقافة النقد على أنه يستدعي بالضرورة استبعاد أي التزام ديني. يتراوح موقف النُّخَب من الدين من اللامبالاة الكاملة إلى العداوة النشِطة. وهو يستند على أصوليّة دينيّة كاريكاتيرية، تُصَوِّر الدِّين حركةً رجعيَّةً مصمِّمةً على معاكسة وقلب كل الإجراءات التقدمية التي تمّ إنجازها خلال العقود الماضية الأخيرة.»

---

(١) كريستوفر لاش Christopher Lasch (١٩٣٢ – ١٩٩٤) مؤرخ أمريكي وناقد اجتماعي.

ويضيف «كريستوفر لاش» قائلاً إن المثقفين يقدِّمون الدِّين على نحوٍ نمطي على أنه وسيلة لإيجاد الراحة في نفوس الناس لأنه يعطيهم ذلك الوهم المحبَّب لنفوسهم بأنهم في مركز الكون، وأنهم موضع محبَّة الله وشفقته واهتمامه البالغ. ولكن «كريستوفر لاش» يشير (في فقرة ليس من السهل قراءتها ولكنها مهمةٌ جداً لدرجة تستدعي اقتباسها) إلى أن هذا الوهم هو بالذات ما يحاربه بلا هوادة أكثر الأشكال جذريَّةً للإيمان الديني، لذا:

« يميز اللاهوتي والقِسّ ((جوناثان إدوارد)) Jonathan Edwards بين ((النية الطيبة المعترفة بالجميل)) (جذر الشعور الديني كما فهمه)، وذلك النوع من الامتنان والاعتراف بالجميل الذي يعتمد على أن يكون الإنسان محبوباً ومقدَّراً ، أي - بعبارةٍ أخرى - ذلك النوع الامتنان الذي يمكن أن يشعر به الناس تجاه خالق يُفتَرَض أن تكون منافع الناس ومصالحهم اهتمامه الأساسيّ. ويكتب ((جوناثان إدوارد)) قائلا: ((إن الفضيلة الحقيقية لا تتكوَّن من الحبّ لأي كائنات خاصَّة، ولا من الاعتراف بالجميل لتلك الكائنات لأنها تُحبُّنا، ولكن في وحدة واتحاد القلب مع الوجود والكون بشكل عام)). ليس للإنسان حقٌّ على الله يطالبه فيه بالتفضل والإحسان، وبناء عليه فيجب أن نفهم النية الحسنة الممتنَّة لا كاعتراف وشكر على استجابته لصلواتنا، إذا جاز التعبير، ولكن اعترافاً بقدرة الله المعطية للحياة على تنظيم الأشياء كما يشاء دون أن يقدِّم أيَّ حسابٍ على أعماله أو يُسأل عن أفعاله».

ويستنتج «لاش» أن هذه الرؤية للّه لا تحمل أي مشابهة للصورة الحميدة للأب التي يطرحها عالم النفس «فرويد» التي يستحضرها الإنسان الطفولي انطلاقاً من حاجته غير الواعية للاعتماد على شيء والثقة به. يفترض فرويد (الذي يميل المثقفون للنظر إليه كَحُجَّة في هذه المسألة) أن الدِّين يلبِّي حاجة النفس هذه للاعتماد على شيء، في حين أن «إدوارد» يثني على أولئك الذين يرفضون - انطلاقاً من اعتمادهم على أنفسهم - المطالبة بأي شكل من أشكال هذه الحاجة. في الواقع، يجد أمثال هؤلاء الأشخاص أنه من المزعج والمثير للحنق أن يتم تذكيرهم بتبعيَّتهم الشخصيَّة وتوقّفهم واعتمادهم على قوة خارج سيطرتهم.

إن الخطّ الذي ينطلق من ملاحظات «كريستوفر لاش» Christopher Lasch نحو وسائل الإعلام ليس خطا دائرياً، وهدف هذا الفصل أن يبين إلى أيٍّ حدٍّ هذا الخط خطٌّ مستقيمٌ ومباشرٌ. بيد أنه قبل أن أختتم كلامي أودّ أن أقحم هنا بضع فقرات حول الدعاية والإعلان. ستكون الفقرات مختصرة لأن الدعاية والإعلان مؤسسة اجتماعية في حين أن موضوع هذا الكتاب هو الرؤى الكونية لا الاجتماعية. ولكن تماماً كما رأينا في الفصل ١ السابق أنه من الضروري أخذ ملاحظة عابرة عن بعض التغيُّرات البنيويَّة (الهيكليَّة) في الجامعة لأن تأثيراتها على الجانب الروحاني لدى الطلاب كان واضحاً جداً لدرجة تجعل عدم ذكرها على الإطلاق نوعٌ من الإهمال والتجاوز.

من يدفع للزمَّار؟

تتحكم صناعة الدعاية والإعلانات التجاريَّة في جزء كبير من وسائل الإعلام، لأن الدعاية والإعلان هي التي تقدم المال لتلك الوسائل وتدفع فواتيرها.

إلى الحد الذي تقوم فيه صناعة الدعاية والإعلانات التجاريَّة بإعلام الناس عن المنتجات التي لا يعرفونها والتي يمكنها أن تحسِّن حياتهم، فإنها تقدِّمُ خدمةً ثمينةً وقيِّمةً للجمهور، ولكن من السذاجة بمكان الافتراض أن وكالات الدعاية والإعلان ترى أن هذا الأمر هو رسالتها. في الواقع إن هدفها الإقناع وليس مجرَّد الإعلام.

ولعل المجتمعات الصناعية تتطلب في الواقع أن يكون المعلنون مقنعين، وذلك لأن التقدّم التكنولوجي أتاح الإنتاج الشمولي، إلى درجة أن الاهتمام انتقل من الإنتاج إلى تأمين الاستهلاك، أي تحريك المنتجات من المخازن والمستودعات والتسابق على إغراق الأسواق بالسلع لكسب السوق قبل الآخرين. وهذا ما يجعل "الإعلانات"، ونظيرها القريب منها: "التسويق"، السِّمات الحاسمة في حلقة التغذية الراجعة للرأسمالية.

تضع الفقرة التي سبقت، قضية «الإعلانات» في إطارها الاجتماعي، ولكن يبقى السؤال: كيف تؤثر الإعلانات، على الروح الإنسانية؟. لم أعرِّف بعد «الروح» ولكنني

عندما سأفعل ذلك، سيكون الخُلُق (السلوك) أحد عناصرها ومكوناتها المهمَّة، وعمليَّة «الإعلانات» تترك بصماتها وآثارها الواضحة على الخُلُق.

تخيَّل ثلاثة سيناريوهات تحدث عقب وجدان شخص لمحفظةٍ على رصيف أحد الطرق. في السيناريو الأول يلتقط واجدُ المحفظة المالَ منها ثم يرمِ بها (بما فيها من بطاقات وأمور أخرى) في أقرب حاوية للنفايات، ويَسْعَدَ في سريرته أنه كان محظوظاً ذلك اليوم. في السيناريو الثاني يتردَّدُ الواجد للمحفظة في البداية في أخذ المال منها، ثم يقرر في النهاية أخذ المال وإرسال المحفظة بما فيها من بطاقات ائتمان وغير ذلك لعنوان صاحبها عبر البريد. في السيناريو الثالث لا يتردد واجد المحفظة لحظةً في لزوم إعادتها بكل ما فيها لصاحبها، فيسارع إلى أقرب هاتف ويُخبِرُ مالكَ المحفظة بأنه وجد محفظته، ثم يرفض أخذ أية جائزة يعرضها عليه صاحب المحفظة إكراماً لأمانته.

يتفق معنا كلُّ إنسانٍ بأن خُلُقَ وسلوك واجد المحفظة يرتفع ويرتقي بالترتيب في سلسلة السيناريوهات الثلاثة المتتالية تلك. والسؤال الذي يطرح نفسه هو كيف نكتسب خُلُق وسلوك الواجد الثالث؟.

× الخطوة الأولى أن نؤسس أنفسنا كعاملين أخلاقيين وهذا يتضمن أن نتعلَّم كيف نتحكَّم برغباتنا ونسيطر عليها بدلاً من أن نكون عبيداً لها. وإذا فشلنا في تحقيق هذه السيطرة فإن هناك قولاً يابانياً مأثوراً يُنبِئُنا عن نتيجة ذلك: «في البداية الإنسان يتناول الشراب، ثم الشراب يَجُرُّ الشراب، وفي النهاية الشراب هو الذي يَجُرُّ الإنسان ويستولي عليه». إذا تساءلنا أيٌّ من رغباتنا يجب تقويته، كانت الإجابة هي تلك الرغبات التي تفيدنا على المدى الطويل وتساعد على تقوية الصالح العام وتحقيق مصلحة الناس.

إن الدعاية والإعلان تعمل بالضبط في عكس ذلك اتجاه تلك المتطلبات الأخلاقية، لأنَّها تضغط وتؤكِّد على الدوام على الإرضاء الذاتي المباشر وعلى الأشياء التي سيستفيد منها الشخص بذاته بدلاً مما يفيد الناس بمجموعهم والصالح العام.

الخاتمة

لقد كان هدف هذا الفصل توثيق الفكرة الواضحة التي تقول إن عقول الصحفيين صيغت صياغة أكاديمية (في الجامعة) وقولبت بقالب العلمانية. يصيح الكاتب الناقد «غاري ويلز» Garry Wills مستنكراً تصرف الصحفيين في هذه النقطة. إنه يقول إن نظرتهم العلمانية تجعلهم يتجاهلون تماماً ١٢٠ مليون إنسان في أمريكا يمارسون دينهم بشكل منتظم. ويواصل «غيري ويلز» قائلاً:

« إنه من الإهمال الفظيع إغفال وتجاهل كل هذه الأعداد الغفيرة من الناس. ثم بعد ذلك، كلما شدَّ التديُّنُ انتباهَ المثقفينَ فإنَّه يتمُّ التعاملُ معه كأنَّه شهابٌ مفاجئٌ ظهرَ في السماء!. يمكن أن نلاحظ بكل وضوح أنه لا يوجد شيء في تاريخنا كان دائماً أكثر ثباتاً واستقراراً وأقلَّ قابلية للإزاحة والزحزحة من المعتقد الديني والممارسة الدينية. إن الدين لا ينتقل أو يتردَّد، ولكن انتباه الملاحظين له هو الذي ينتقل ويتردَّد، فملاحظة الجمهور تشبه بقعة الضوء التي لا تفتأ تتحرك وتعود من وقت إلى آخر خلال فواصل زمنية، لتلقي الضوء على استمرارية المؤمنين، لتعلن بتعبيرات من الدهشة والفزع أن الدِّين يمر الآن ببعض الازدهار والإحياء. »

يختتم «بيتر جيننس» Peter Jennings (وهو صحفيٌّ كبيرٌ ومنسِّقُ أخبار، وحالياً وأنا أكتب هذه السطور، محرِّرُ برنامج "أخبار العالم هذا المساء" في قناة إي بي سي A B C التلفزيونية) خطاباً ألقاه قبل عدة سنوات في كلية «هارفرد» للإلـهيات تحت عنوان: «وسائل الإعلام أمام تحدِّي تغطية الدِّين» مستخدماً ذلك الامتعاض الذي أعرب عنه «غاري ويلز» Garry Wills ويضيف إليه قائلاً: «علينا أن نتوقف عن التعامل مع الدِّين كما لو أنه شيءٌ مماثلٌ لهواية بناء الطائرات النموذجية، أو مجرَّد هواية أخرى، رافضين اعتباره نشاطاً ملائماً للبالغين الأذكياء. إننا كلما أسرعنا في التوقف عن تعاملنا مع الدِّين على ذلك النحو، كان لدينا إدراك أفضل لأمتنا».

أما اختتامي الخاص لهذا الفصل فسأستخرجه من كلمة قالها الروائي الشهير «شاول بيلو» Saul Bellow أثناء الأسابيع الثلاثة التي أمضاها في جامعة "سيراكيوز" Syracuse في

في أوائل الثمانينات من القرن الماضي:

«سأله أحد المراسلين الصحفيين في المؤتمر الصحفيّ الذي عقدته له الجامعة بعد استقباله: ((أيها السيد بيلو! نحن كتّاب وأنت كاتبٌ، فما الفرق بيننا وبينك؟))
أجاب بيلو: ((أنتم كصحفيين تهتمون بأخبار اليوم، وأنا كروائي أهتم بأخبار الخلود.)).»

استبقُ هنا النصف الثاني من كتابي هذا فأضيف من الآن إلى ملاحظة السيد «بيلو» أنه من المؤكَّد أنَّ الألفية الثالثة ستُخْدَم على نحوٍ أفضل إذا تمَّ تضييق الفجوة بين هاتين المهنتين للكتابة.

الفصل ٧

الجدار الأيمن للنفق:

القانون *The Law*

إن محاولة ربط روح الإنسان بالقوانين محاولة صعبة وتتطلّب براعةً وحذراً، أولاً، لأنَّ القوانين تتغير باستمرار، فكل قرار قضائي مهم يضيف سابقة يجب على القرارات المستقبليَّة أن تستند إليها. وإذا اعتاد الفلاسفة القول أننا لمعرفة موضوعٍ ما في فلسفة «برتراند راسل» فعلينا أن ننظر إلى ساعتنا لنعرف في أي وقت كتب «راسل» المقال موضع البحث! فإن لدينا في القانون وضعاً يشبه ذلك إلى حدٍّ كبيرٍ. »

المشكلة الثانية هي أن الآراء تختلف في فهم وتأويل المقصود الحقيقيّ من المادّة الدستوريّة التي تنصّ على الفصل بين الكنيسة والدولة؛ فهل قُصِد من تلك المادَّة حماية الكنائس من تدخلات الدولة؟ أم قُصِدَ منها حماية السياسة من ضغط المجموعات الدينية؟ خلف كلا الاتجاهين تكمن حقيقة أنه لا يوجد أبداً سبيلٌ للاحتفاظ بالدولة والكنيسة منفصلين عن بعضهما تماماً. ولطالما وقع التصادم والتنافس بينهما وسيبقى الأمر كذلك دائماً. لذا دعني أقول أن الجدار الأيمن للنفق الذي يصفه هذا الفصل من كتابي هو الجدار حسبما تمَّ بناؤه في النصف الثاني من القرن العشرين.

أمَّا أنَّه هل تدل التطورات التي حدثت منذ ذهاب هذا الكتاب إلى المطبعة على أننا في حالة خروج من هذا النفق أم أننا ندخل فيه أكثر؟ فهو أمرٌ أترك للقرّاء أن يقرروه بأنفسهم.

الكتاب الرئيسي (الرائد لهذا الفصل)

بالنسبة للكتاب الأخير الرئيس الذي سأستخدمه لقيادة مسيرة هذا الفصل، اخترتُ الكتاب الذي ألَّفه «ستيفن كارتر» Stephen Carter وعنوانه: «ثقافة الإلحاد: كيف يُنْقصُ القانون الأمريكي والسياسة الأمريكية من شأن الالتزام الديني (أو التديُّن)» *The Culture of Disbelief: How American Law and Politics Trivialize Religious Devotion*.

حدث معي أمرٌ عجيبٌ قبل ساعة من شروعي في كتابة هذه السطور يرتبط بالعنوان الفرعي لذلك الكتاب. يبتدئ يومي النمطي (بعد عدة دقائق من ممارسة الهاثا يوغا) بقراءة لمقطع من أحد الكتب الدينية المقدَّسة الباقية في العالم. وهذا الصباح، مباشرةً قبل أن أجلس لأبدأ بكتابة هذا الفصل عن القانون، وجدتُ نفسي أقرأ في الإنجيل طبقاً للوقا ما يلي: «**وَالْوَيْلُ أَيْضاً لَكُمْ يَا عُلَمَاءَ الشَّرِيعَةِ، فَإِنَّكُمْ تُحَمِّلُونَ النَّاسَ أَحْمَالاً مُرْهِقَةً، وَأَنْتُمْ لاَ تَمَسُّونَهَا بِإِصْبَعٍ مِنْ أَصَابِعِكُمْ!... الْوَيْلُ لَكُمْ يَا عُلَمَاءَ الشَّرِيعَةِ، فَإِنَّكُمْ خَطَفْتُمْ مِفْتَاحَ الْمَعْرِفَةِ، فَلاَ أَنْتُمْ دَخَلْتُمْ وَلاَ تَرَكْتُمُ الدَّاخِلِينَ يَدْخُلُون!**» (إنجيل لوقا: ١١/ ٤٧ و٥٢).

لك أن تعتبر ذلك مجرد صدفة، أو تعتبره من باب "التزامن النفسي" الذي أشار إليه عالم النفس «كارل يونغ»، أو تقبل أن الله تعالى يرشدني من وراء الستار في هذا المجال.

وأيّاً كان الأمر، لو أن إدانة رجال القانون وعلماءه التي وردت في النص الإنجيليّ المذكور بقيت غير مقيَّدة أو ملطَّفة فلا أريد الاستشهاد بأي جزء منها، ولكن هذا الفصل، كما أشرت أعلاه، يبحث في أفعال علماء القانون في النصف الثاني من القرن العشرين، وفي هذه الفترة الزمنية عمل القانونيون فعلاً أموراً كثيرةً تتطلب التفسير، كما يشير إلى ذلك «ستيفن كارتر» في كتابه المذكور.

يشرح «ستيفن كارتر»، الذي كان يُدَرِّس القانون في جامعة ييل Yale [1]، أنه كتب كتابه لأنه لاحظ زيادة تهميش الدين في الحياة العامّة أثناء السنوات الثلاثين من سيرته المهنية، فأراد أن يلقي نظرة على الدور الذي لعبه القانون في هذا الانحدار للدين. وكما قال لشخص كان يجري معه مقابلةً لدى أول صدور لكتابه:

« في فترة سابقة، وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك في أي وقت من الأوقات احترامٌ جيِّدٌ كما ينبغي للتعددية الدينية، إلا أنني أعتقد أنه كان هناك احترام جيِّدٌ لما يمكن اعتباره دينيًّا. ربما كان الناس إلى حد ما محدودين في رؤاهم لما يُعْتَبَر ديناً، ولكن كان ثمّة احترامٌ لديهم، وأعتقد أن هذا كان صحيحاً وموجوداً خلال كل الطيف السياسي والصعود الهبوط في السلم الاجتماعي والاقتصادي. ولكن الأمر تغيَّر اليوم. هناك احترام أقل للدين، أي هناك تقدير أقل لاعتبار الدين قوةً هامَّةً يمكنها أن تكون بكل صدقٍ القوة الحافزة في حياة الناس دون أن تكون بطريقة ما علامةً على شيءٍ مرضيٍّ عصبيٍّ. هذا هو الشيء الذي فقدناه. ».

إن مساهمة النظام القانوني في تلك الخسارة تلائم بشكل واضح قصة القرن العشرين التي كنت أتحدث عنها. ولمّا انصرم ذلك القرن، فرضت الثقافة المهيمنة الليبرالية- العقلانية بشكل متزايد، على الجمهور: «**خطاباً شائعاً يرفض القبول بأن الناس الاجتماعيين العقلانيين يمكنهم أن يأخذوا الدين مأخذ الجدّ**». ولم يقتصر الأمر على أن تشتري المحاكم هذا الخطاب؛ بل ادَّعت بشكل متزايد لنفسها القدرة على تقوية هذا الخطاب وتعزيزه. إن انتقاد الكاتب «كارتر» لهذا الأمر ليس حاداً، بل هو يحث ببساطة القادة على أن يتعاملوا مع الاهتمامات الدينية على نحوٍ أكثر احتراماً مما كانوا يقومون به حتى الآن، كما أنه لم يقف الموقف الصلب في نقده لقرار المحكمة العليا للولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٩٠ الذي عرف بقرار: (قسم التوظيف ضدّ سميث) *Employment Division v.*

(١) جامعة «ييل» Yale University مؤسسة تعليمية أمريكية عريقة خاصة بالتعليم العالي في ميناء «نيو هافن» New Haven في ولاية كونكتيكت Connecticut شمال ولاية نيويورك.

Smith ، والذي سلب من طائفة الهنود الحمر الأمريكية الأصلية[1] Native American Church حقوقَهَا الدستورية. ولأن ذلك القرار استغرق سنتين من حياتي العمليَّة (سنتان كانتا من أكثر السنوات بركةً ومردوداً لي، ولكن أكثر بركة لتلك الطائفة) فسوف أستخدمها كنموذج في هذا الفصل، في دور مُوَازٍ لذلك الذي لعِبَتْهُ مسرحية وفيلم (لترث الريح) *Inherit the Wind* في الفصل السابق.

قرار المحكمة العليا (قسم التوظيف مقابل سميث)

أيّاً كان السبب (ربما لأن موضوع الدِّين كان أكثر سخونةً من القدرة على التعامل معه) فإن واضعي الدستور الأمريكي تركوا معالجة الشؤون الدينية في كل ولاية لمحاكم الولاية الخاصة. وكانت تلك النية الواضحة للتعديل الأول: «لن يشرِّع الكونجرس أي قانون بشأن تأسيس ديانة أو حرية ممارستها». وبعد قرنين من الزمن جاء قرار (قسم التوظيف ضدّ سميث) الذي أصدرته المحكمة الفدرالية العليا للولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٩٠ صفعةً مباشرةً لذلك البند من الدستور. حكمت المحكمة العليا في ولاية «أوريغون»[2] بأن أحد مواطني الولاية: «ألفريد ليو سميث»، له الحق في الانتماء إلى طائفة الهنود الحمر الأمريكية الأصلية، فقامت المحكمة الفدرالية العليا للولايات المتحدة الأمريكية بنقض ذلك القرار وإبطاله. ولما كانت القصة التي أدت إلى إصدار ذلك القرار غير معروفة على نطاق واسع خارج الدوائر القانونية فإني أُلخصها بما يلي:

ولد ألفريد سميث في محميَّة «كلامات»، ولكنه في سن الثمانية أُخذَ من أبويه

---

(١) طائفة الهنود الحمر الأمريكية الأصليَّة Native American Church لقبٌ جديدٌ لديانة الهنود الحمر القديمة، السكان الأصليين في أمريكا، وقد انضوى تحت هذا الاسم الجديد أكثر من ٧٠ قبيلة من قبائل الهنود الحمر الأمريكيين، وصار لها معابد في كل ولاية من ولايات أمريكا الواقعة غرب الميسيسيبي. ولهذه الطائفة موقع على الإنترنت يشرح كل شيء عنها وعنوانه: http://www.nativeamericanchurch.com

(٢) أوريغون Oregon ولاية أمريكية تقع أقصى غرب أمريكا على المحيط الهادئ إلى الشمال مباشرة من ولاية كاليفورنيا.

ووضع في مدرسة كاثوليكية أبرشية ضيقة الأفق. وقد أمضى كل دراساته الرسمية في المدارس الداخليَّة. يحدثنا بنفسه عن نتائج ذلك فيقول:

«لقد كانت أوقاتاً صعبةً بالنسبة لي. لقد فصلت عن عائلتي وأُخِذَتْ مني لُغتي وثقافتي وهويتي، وفي النهاية أصبحتُ مدمناً على الخمور. وعندما بلغت السادسة والثلاثين من العمر توقفتِ عن الشرب وبدأت بالتحسُّن والتعافي من الكحوليّات بفضل مساعدة مؤسسة ((مدمنو الخمور المجهولون)). وبعد خمسة عشر سنة تم إدخالي في أول مراسم احتفال محفل الكوخ (كوخ من أكواخ الهنود الحمر). كانت تلك بداية تعرفي على الطريقة التي عاش بها أسلافي، وإلى يومنا هذا لا زلت أتلقى الإرشاد الروحي من طائفة الهنود الحمر الأمريكية الأصلية.»

بعد معافاته الكاملة، طوَّر «سميث» برامج طائفة الهنود الحمر الأمريكية الأصلية لأجل موضوع الكحول والإفراط في المخدِّرات. وكان آخر عمل له في هذا الحقل في «روزبيرغ، أوريغون» حيث تم استخدامه للمساعدة على تطوير خدمات لأجل زبائن طائفة الهنود الحمر الأمريكية الأصلية. مضت الأمور على ما يرام حتى عصر يوم جمعة عندما استدعاه رئيس عمله إلى مكتبه وسأله فيما إذا كان عضواً في طائفة الهنود الحمر الأمريكية الأصلية، وعندما أجابه بالإيجاب سأله رئيسه فيما إذا كان قد تناول ذلك العقار (يقصد: بيوتي) Peyote فأجاب سميث: «كلا، ولكنني أشترك في طقس طائفتي وأتناول معهم». أخبره رئيسه أن «البيوتي» Peyote غير قانوني وأنه لا يرغب في أن يكون عنده، على قائمة من يستلمون الرواتب، شخص منتهك للقانون. في يوم الاثنين التالي استدعاه رئيسه ثانيةً إلى مكتبه وسأله فيما إذا كان قد ذهب إلى كنيسة طائفته الخاصة خلال عطلة الأسبوع وعندما أجاب «سميث» بالإيجاب، سأله رئيسه ثانيةً فيما إذا كان قد تناول ذلك العقار «البيوتي»؟ وعندما أجاب «سميث» مثل إجابته السابقة: «لا! ولكني اشتركت في طقس طائفتي وتناولت معهم»، تم صرفه من العمل و إنهاء خدماته (برفقة عضو آخر من أعضاء تلك الطائفة كان يعمل في الوكالة نفسها».

إن أتباع طائفة الهنود الحمر الأمريكية الأصلية غير متدربين جيداً على الدفاع عن حقوقهم. سمعت مرة دانييل إينويي Daniel Inouye، رئيس لجنة مجلس الشيوخ المختصة بشؤون الهنود (الحمر) يقول خلال جلسة للكونجرس: «لا يسرني أن أنقل إليكم أنه في حوالي ال ٨٠٠ معاهدة واتفاقية التي عقدتها الولايات المتحدة مع الهنود (الحمر) لم تف الولايات المتحدة ولا بواحدة من المعاهدات وخرمت بها جميعاً في حين وَفَى الطرف الهندي (الأحمر) بالتزامه في كل تلك الاتفاقيات.»

وعلى كل حال أثبت «ألفريد سميث» بأنه كان استثناءً بارزاً في بني قومه في موضوع الدفاع عن حقه. إنه لم يطالب بإعادته إلى رأس عمله، بل اكتفى بالمطالبة بأن تُصْرف له مستحقاته التي حصل عليها، فلمَّا حرموه منها، حمل قضيته إلى محاكم «أوريغون» ورفع دعوى يطالب فيها باستلام مستحقاته. وأخذت القضية تتأرجح ذهاباً وإيَّاباً مدَّة ست سنوات إلى أن أصدرت المحكمة العليا في ولاية «أوريغون» بعد ست سنوات قراراً لصالحه يؤيد دعواه ويطالب جهة عمله بتسليم مستحقاته إليه. ولكن لما أحال المدعي العام لمحكمة «أوريغون» القرار للمحكمة الفدرالية العليا للولايات المتحدة قامت الأخيرة بإلغاء قرار محكمة «أوريغون» وإبطاله.

كان قرار المحكمة الفدرالية العليا انتهاكاً سافراً لِنَصٍّ وروح الدستور الأمريكي: أمَّا أنَّه انتهاكٌ لنصِّ الدستور فلأن التعديل الأول The First Amendment يمنع المحكمة الفدرالية من اتخاذ أي إجراء ضد حرية ممارسة الطقوس والشعائر الدينية لأي فرد، وأما أنه انتهاك لروح الدستور فلأن قصد التعديل الأول كان تحويل القضايا الدينية ضمن كل ولاية إلى محاكم الولاية فقط. ولكن الأمر لم يقتصر على مجرد انتهاك الدستور بل إن الطريقة الأخلاقية التي تمَّ بها ذلك تستحق الذِّكْر. أتكلم بشيء من العاطفة هنا لأنني (كما ذكرت في تقديمي لهذه القضية) لقد سُحِبْتُ إلى نتائجها. كون المحكمة الفدرالية العليا الأمريكية قد اختيرت بذاتها للقيام بعمل ظالم تجاه أضعف شريحة في مجتمعنا وأكثرها تعرُّضاً للاضطهاد والإحباط هو بحدِّ ذاته صورة زائفة عن العدالة أو الديمقراطية بشكلٍ كافٍ - أولاً

استولينا على أراضيهم، ثم لم نكتف بذلك حتى اتجهنا نحو ملاذهم الأخير فسلبنا منهم دينهم أيضاً - ولكننا نحتاج أيضاً أن ننظر بعين الاعتبار إلى طبيعة «البيوتي» Peyote أي الطقس الديني للطائفة الأمريكية المحلية الأصلية الذي تحول بسببه اتجاه القضية كله، ولكن ليس قبل أن أشير إلى الكيفية التي تبنَّتْ فيها هذه القضية.

ذهب أحد طلابي "جيمس بوتسفورد" James Botsford إلى الطائفة الأمريكية المحلية الأصلية، وفي صباح اليوم التالي لصدور قرار (سميث) اتصل بي ليسألني فيما إذا كنت أرغب بالاشتراك في حركة استعادة حقوق الأمريكيين الأصليين (الهنود الحمر)، فأجبت أنني أرغب بذلك، وتلت بعد ذلك النتائج!.

لقد استجرَّ قرار المحكمة استجابةً من الأمريكيين الأصليين (الهنود الحمر) لم يكونوا حتى ذلك الحين قد استعدوا لتنظيمها وإعداد مثلها. لقد رفعوا تحت قيادة وتوجيه أحد أعظم زعماء الأمريكيين الأصليين في القرن العشرين السيد «ريئوبين سنيك» Reuben Snake (الذي عرَّفَ نفسه إليَّ أوَّلَ مرَّةٍ بقوله: "ثعبانك المتواضع") رفعوا مشروع: «الحرية الدينية للأمريكيين الأصليين» والذي شمل في الواقع كل القبائل الثلاثمئة (جميع قبائل الهنود الحمر في الولايات المتحدة الأمريكية). وبما أن السلطة القضائية أهملت طلبهم ولم تُعِرْهُ اهتماماً، فإنهم قاموا بجولة ثانية نهائية وحملوا قضيَّتهم إلى الكونجرس. ولما كان الممثلون في الكونجرس حسَّاسين تجاه رغبات ناخبيهم، شعر «تحالف الأمريكيين الأصليين» The Native American Coalition بالحاجة إلى إطلاع الجمهور على القضية موضع الجدل، فقاموا بإنتاج فيلمٍ وثائقيٍّ تحت عنوان «طريق البيوتي» The Peyote Road، ثم قرَّر الزعيم «ريئوبين سنيك» أنهم يحتاجون إلى كتابٍ ليكون مرافقاً للفيلم في تعريف الناس بالموضوع، وكلَّفني بمهمَّة كتابته (أو حسبما تطورت الأمور فيما بعد عندما ظهر الكتاب كلَّفني أن أقوم بتحريره). وتحركت الأمور بسرعة أكبر مما توقعناه، ففي عام ١٩٩٤ أصدر الكونجرس قانوناً عاماً برقم ١٠٣-٣٤٤ وهو قانون تعديلات الحرية الدينية للهنود الأمريكيين والذي أعاد إلى طائفة الهنود الحمر الأمريكية الأصلية حقوقها الدستوريَّة، وهذا

حوَّل الكتاب إلى رواية احتفالية لانتصار الهنود الأمريكيين الأصليين على أعلى محكمة في البلاد. وقد تم تحريره بالتعاون مع «ريئوبين سنيك» وأعطيناه عنوان «أمَّة واحدة تحت الله» *One Nation Under God*. إن انتصار طائفة الهنود الحمر الأمريكية الأصلية The Native American Church يحكي قصَّةً يمكنها أن تُلهم عشاق الحرية من الشعوب في كل مكان.

بعد أن بيّنّا هذه السيرة الذاتية أعود الآن إلى العامل الذي أثار قرار «سميث» أي موضوع «البيوتي» Peyote. يُعْتَبَرُ «البيوتي» في الوقت الحاضر عقاراً ممنوعاً في الولايات المتحدة الأمريكية، إذ يُصَنَّفُ كأحد العقارات المخدِّرة، كمثل الهيروين والكوكايين، وهنا بالضبط يكمن الخطأ، وذلك لأن «البيوتي» صبّارٌ غير مؤذٍ وغير ضارّ، ويستحيل أن يُدْمِنَ الإنسانُ عليه، ولم يستتبع أبداً ولا مرَّة واحدةً حدوث جُنْحَة ناهيك عن تَسَبُّبه بوقوع جريمة. عندما نضع هذا السجل إلى جانب أضرار الكحول فإن الصورة تصبح سرياليَّة[1] غريبة. بما أن الكحول عنصرٌ من عناصر الطقس الديني (المسيحي) في هذه البلاد (أي في القربان القداس أو الأفخارستيا)، فإنه يُعْتَبَرُ مُرْضياً ووافياً بالمطلوب ولا يثير أي اعتراض، أما «البيوتي» الذي هو عنصر من عناصر «قُدَّاسِهِم» فإنه يثير ذلك الاعتراض ولا يتم قبوله. إن أحد المفارقات في هذه القصَّة الدرامية هو أنَّ طائفة الهنود الحمر الأمريكية الأصلية The Native American Church، التي أُفْرِدَت في السابق وحدها في الحرمان من الحقوق المدنيَّة وحق التصويت في أمريكا، أصبحت اليوم (بفضل رؤية الأمريكيين الأصليين وعزمهم وتصميمهم)، بواسطة المادة القانونية التي صادق عليها الكونجرس، الطائفة الوحيدة في الولايات المتحدة الأمريكية التي تتمتع بحماية قانونيّة صريحة وواضحة. أيّاً من الطوائف الأخرى لم يحالفها ذلك النجاح.

(١) سريالي surrealistic من السُّرياليّة surrealism أي الفَوْق-واقعيّة؛ ما فوق الواقع: مذهب فرنسي حديث في الفن والأدب يهدف إلى التعبير عن نشاطات العقل الباطن بصُوَرٍ يُعْوِزُها النظام أو الترابط.

قانون استعادة الحرية الدينية

لقد أرسل قرار (قسم التوظيف ضدّ سميث) موجات اهتزاز ضمن كل الطوائف في البلاد، وذلك لأنه رغم استهداف القرار، على نحو مباشر، للطائفة الأمريكيَّة المحليَّة (للهنود الحمر) الأصليَّة فقط، إلا أن تشعُّباته ونتائجه لم تؤثر على تلك الطائفة وحدَها. لقد كان المراقبون في أغلب الطوائف في البلاد يتابعون قضية «سميث» عن كثب، لأنهم كانوا يرون أن نتائجها ستؤثر على موضوع الحريَّة الدينيّة بشكلٍ عامٍّ، ولسان حالهم يقول: «إذا كانت القضية تتعلق بهم اليوم، فمن يعلم متى سيأتي الدور إلينا غداً؟». لذا، في اليوم التالي لصدور قرار المحكمة العليا للولايات المتحدة الأمريكية، قدَّم التحالف الواسع للهيئات والمؤسسات الدينية، الذي يبلغ أعضاؤه خمساً وسبعين هيئةً، والذي لم يسبق له أن اتحد على هدف واحد مشترك، قدَّم مذكِّرةً قضائيةً تطالب المحكمة العليا بإعادة النظر في قرارها ذاك، الأمر الذي رفضته المحكمة العليا.

وكان لتلك الطوائف الحق في قلقها، إذْ أنَّه لم يتوقَّع أحدٌ أن تصل البنود المتعلِّقة بقضية «سميث» إلى هذا البعد بتلك السرعة. من بين مئات القضايا القانونيَّة المتعلِّقة بالنزاعات بين الحكومة الفدرالية وحكومات الولايات بشأن الحرية الدينية الأمريكية في المئتي سنة الماضية، برزت جملة «مصلحة الدولة الشديدة» كاختبار لتدخل الدولة. فما لم تستطع الدولة أن تثبت أنه كان هناك فعلاً مصلحةٌ مهمَّةٌ وقويَّةٌ وضروريَّةٌ حملتها على التدخُّل، فإن تدخّلها سيصبح غير قانوني. وقد خفَّض «سميث» فيما بعد تلك الجملة إلى عبارة «أساس معقول».

ولكي يدعم قاضي المحكمة العليا «أنتونين سكاليا» Antonin Scalia، الذي كتب القرار، التراجع عن العتبة أو القاعدة التي تمّ تأسيسها سابقاً، استدل بأنَّ التنوُّع الديني الأمريكي قد تكاثر إلى الدرجة التي أصبحت فيها الحرية الدينية «**ترفاً**» لم يعد في إمكان المجتمع التعدُّديّ أن «**يتحمَّله**»!.

وبسحبها لمقياس «مصلحة الدولة الهامَّة والضرورية» أزالت المحكمة أيضاً من قانون الحماية المعدَّل كل جسم القانون الجنائي، وهذا في الواقع أعاد كتابة القانون المعدَّل الأول ليصبح كالتالي: «لن يقوم الكونجرس بتشريع أي قوانين (بشأن تأسيس ديانة أو حريَّة ممارستها) إلا القوانين الجنائية، التي تمنع وتحرِّم الممارسة الحرَّة لدينٍ ما!.». (ويمكن وضع المسألة ببساطة أكثر، وهو أن «سميث» أناب الكونجرس أن يهمل قانون التعديل الأول إذا تم تصنيف القانون ذي العلاقة بأنه قانون جنائيٌّ).

وأخيراً اقترحت المحكمة أن القانون المعدَّل الأول لا يحمي الممارسة الحرَّة للدِّين ما لم يتضمَّن حق تلك الممارسة أحد الحقوق الأخرى التي ضَمنَهَا القانون المعدَّل الأول مثل «حقّ حرية التعبير عن الرأي» أو «حقّ حريّة التجمُّع»؛ وهذا بالطبع يجعل حقّ الحريّة الدينيّة لا معنى لها، وذلك لأن تلك الحقوق تمَّت حمايتها بنحوٍ مستقلّ.

قال البروفيسور «ميلنو بول» أستاذ القانون الدستوري في جامعة جورجيا في ذلك الوقت: «بعد قضية سميث، أصبح هناك سؤالٌ حقيقيٌّ ومثيرٌ للإزعاج بشكلٍ جدِّيٍّ حول ما إذا بقي للفقرة المتعلّقة بالممارسة الحرّة للدين أي معنى عملي حقيقي في القانون على الإطلاق». عندما تحتاج القانون المعدَّل الأوَّل، فإنك لن تجده هناك، أو على الأقل هذا هو النحو الذي تركت فيه قضية سميث القانون.

لقد سبق وأشرت إلى الذُّعْر الذي بثَّه قرار سميث في أوساط الطوائف الدينية وكيف أنه أدَّى بهم إلى التحرُّك الفوريّ. نجح تحالف الطوائف، بفضل الدعم القوي الذي لقيه من الرئيس «بل كلينتون» بحمل الكونجرس على المصادقة على قانون إعادة الحرية الدينية لعام ١٩٩٣، والذي أعاد من جديد جملة «مصلحة الدولة الهامَّة والضرورية» كمعيار لا بد على مؤسسات الحكومة الفدرالية أن تلبِّيه قبل أن تتمكَّن من التدخُّل في الشؤون الدينية في الولايات. وتنفَّسَت الطوائف الصعداء عند صدور ذلك القانون، إلا أن هذه الفرحة لم تدم سوى ثلاث سنوات فقط، لأنه في عام ١٩٩٧ أنهت المحكمة الفدرالية العليا العمل بذلك القانون على أساس أن الكونجرس تجاوز صلاحياته الدستورية في إصداره.

تهميش الدين

أعود إلى «ستيفن كارتر». إن المشهد القانوني ليس لا أحادي اللون ولا ثابتاً غير متغيِّر، لذا (كما هو متوقَّع) كان هناك انحرافاتٌ عن خطّ السير العام الذي تتبّعناه حتى الآن.

ولكن، إجمالاً، كتب «ستيفن كارتر» يقول: **«لقد كانت المحاكم حتى الآن تحوِّل بند «تأسيس الدين» في القانون المعدَّل الأوّل (والذي نؤكد ثانية أنه ينص على أنه "لن يصدر الكونجرس أي قانون يتعلق بتأسيس دين") من قانون حارس للحرية الدينية إلى قانون ضامن للعلمانية العامة».** أبدى أحد علماء القانون ملاحظته قائلاً: **«لقد أوصَلنا ذلك إلى نقطة لم يعد بإمكان أحدنا فيها أن يصلي بصوت مسموع – خاصة في الشمال – دون أن يجلب ذلك انتباه خمسة أنواع من العلماء و واحداً أو اثنين من الساخرين تجاه هذا العمل الغريب!».**

يُقرُّ «ستيفن كارتر» بأن الليبراليين على حق في اعتبارهم أن المثال الأمريكي في الحكم يتهدَّد عندما تختلط القوة الدينية بشكل وثيق أكثر من اللازم بالسلطة السياسية، إلا أنَّه يردف ذلك بالقول:

«إن هناك تهديداً أكبر ينجم عندما لا يقتصر الأمر على مجرد إبقاء الكنيسة منفصلة عن الدولة، بل يتحول إلى إجبار الكنيسة على الوقوف في موقف متذلل بشكلٍ كامل، ويتم تجاهل صوتها تماماً في المناقشات والقضايا العامة المصيرية، لا بل حتى يُطرد صوتها ولا يعتبر أهلاً للمشاركة فيها من الأساس.». ويضيف «ستيفن كارتر»: **«إن الليبرالية الأمريكية تبدي عداوةً للدين بنحو متزايد. وثقافة الإلحاد التي ستنتج عن ذلك تهدد المجتمع على نحوٍ أكبر بكثير مما تهدده به بعض الفرق الدينية الخاصة مثل جماعة «المونيين»[1] Moonies أو**

---

(١) المونيون Moonies = أتباع كنيسة توحيد المسيحية في العالم Unification Church التي أسسها الأسقف الكوري «سَنْ ميونغ مون)) Sun Myung Moon وتحمل كنيسته أفكاراً خاصة أبرزها ادعاء مؤسسها أنه رب المجيء الثاني (أي التجسد الجديد للذات الإلهية) ومؤسس الحكومة الإلهية على الأرض.

«الهوتيريين»[١] Hutterites. إن الخطر الحقيقي هو أن يتقبَّل المواطنون، بشكل عام، الافتراض الثقافي الذي يرى أن الإيمان الديني ليس له أي تأثير حقيقيّ على المسؤولية المدنيّة، وإذا حدث ذلك، فإن الأعراف الثقافية السائدة سيكون لها تأثير أكبر علينا مما تفعله القناعات الدينية الخاصة التي يتم الاحتفاظ بها في نفوس الأفراد مهما كانت تلك القناعات.».

إن مسيرتنا السياسية تكيِّف وتقَوْلب نفسها مع هذا الجدار الفاصل. ولا يظنَّن ظانٌّ أن الدِّين المدني (مثل غناء ترتيلة معركة الجمهورية في مراسم الافتتاح، وجملة «**نثق بالله**» المكتوبة على عملتنا الدولار) يدحض نقطة «ستيفن كارتر» لأن تلك المظاهر تقوّي نقطته أكثر مما تدحضها، ذلك أن الاحترام السطحيّ للأشكال الدينيَّة إنّما يعمل على تبسيط وتدجين الإيمان الأصيل الحقيقي. وبدلاً من رفع السياسات إلى مستوى الدين «دع العدالة تتدفّق كالمياه، والاستقامة تسير كالجدول الكبير» يتم تسخير الدين وجعله مجرّد وسيلة للأغراض السياسية.

يصبح «ستيفن كارتر» هنا لاهوتياً ما وراء طبيعي، وحسناً يفعل، لأن هذا هو العرض الأساسي الذي تم دفعه للوراء لفترة. إن لبّ الدليل الذي يجادل به «ستيفن كارتر» هو أن الشعور القوي الذي يوجد وراء الفهم والإدراك البشري يستتبع معه بالضرورة روح المعارضة للثقافة السائدة، وهذا يجعل التوتُّر بين الكنيسة والدولة أمراً حتميّاً غير قابل للاجتناب.

لقد كان الإخوة «بيريغان»[٢] Berrigan brothers على حق، كما كان

---

(١) الهوتيريون Hutterites = طائفة مسيحية بروتستانتية الأصل أهم ما يميز أتباعها ممارستهم حياةً ريفيةً محافظةً، ورفضهم كل شكل من أشكال الحرب.

(٢) الأخوان "بيريغان" Berrigan Brothers هما الأب «فيليب بريغان» وأخوه «دانييل بريغان»، أبوان كاثوليكيان أمريكيان من نشطاء السلام الفعَّالين الذين قاما بحركة نشطة في مقاومة حرب فيتنام وإدانتها، وقد حكم عليهما بالسجن عدة سنوات بتهمة محاولة خطف مستشار رئيس الجمهورية «هنري كيسنجر».

«ذوريو»[(١)] Thoreau و«مارتن لوثر كينغ»[(٢)] و«المهاتما غاندي» و«الأميشيين»[(٣)] Amish و«الهوتيريين» Hutterites و(بطرقهم الأكثر احتكاكاً بالثقافات الأخرى): «المينونيّون»[(٤)] Mennonites و«الكويكرز أو الأصدقاء»[(٥)] Quakers، كانوا على حق في **مقاومتهم الشديدة التي لا مساومة فيها للحرب**. يقتبس «ستيفن كارتر» قولاً لـ

(١) «ذوريو» Thoreau, Henry David (١٨١٧ – ١٨٦٢): كاتب وفيلسوف أمريكي من أتباع المذهب الطبيعي الذي يرى أن الله كامنٌ في الطبيعة، ومن المؤكدين على أهمية الفرد والفردانية، والرافضين للعنف والحرب بشكل مطلق، وقد دخل السجن لرفضه دفع الضرائب لدعم حرب المكسيك.

(٢) مارتن لوثر كينغ Martin Luther King (١٩٢٩ – ١٩٦٨) قس أمريكي أسود حائز على جائزة نوبل للسلام، ويعتبر أحد ابرز زعماء حركة الحقوق المدنية في أمريكا وناشط بارز في مظاهرات رفض الحرب والعنف. وقد ناضل بشدة ضد قوانين الفصل العنصري التي كانت لا تزال تمارس في الولايات المتحدة الأمريكية في الخمسينات والستينات من القرن الماضي، وقد اغتيل على أثر ذلك عام ١٩٦٨ فتحول إلى رمز للنضال ضد التمييز العنصري.

(٣) الأميشيون Amish جماعة بروتستانتية في أمريكا الشمالية وكندا منقسمة إلى عدة مجموعات. أهم ما يميز أتباع مجموعة «النظام القديم» منها أنهم يعيشون حياةً ريفيةً زراعيةً بسيطةً بعيدةً عن كل مظاهر التمدُّن، حتى في الملبس والمركب، وأنهم محافظون جداً ويرفضون الحرب بأشكالها، ومنعزلون عن المجتمع الواسع حولهم.

(٤) المينونيُّون فرقة من البروتستانت الأنابابْتيسْت وهي حركة حركة تجديد المعمودية التي نشأت في فترة الإصلاح البروتستانتي في القرن السادس عشر. أهم ما يميز المينونيون أنهم مسالمون يرفضون كل شكل من أشكال الحرب وبالتالي يحرِّمون الالتحاق بخدمة العلم، وأنهم محبون للعمل متمسكون بأهداب الأخلاق والفضيلة، نبراسهم في ذلك خطبة موعظة الجبل المعروفة للسيد المسيح. كما يتجنبون المرافعات وأداء القسم في المحاكم، وكانوا من أبرز أنصار حركة تحرير العبيد في أمريكا.

(٥) «الكويكرز» Quakers أو الجمعية المسيحية للأصدقاء Society of Friends فرقة مسيحية إنكليزية انشقّت عن الكنيسة الأنجليكانيّة في منتصف القرن السابع عشر. أسسها البريطاني جورج فوكس George Fox المولود عام ١٦٢٤، الذي نادى بالعودة إلى المسيحيّة في بساطتها الأصلية، مطالبا بإزالة الطقوس الاحتفالية ونبذ الألقاب، والمساواة في كلّ شيء. بعد تعرض أتباعه للاضطهاد هاجر العديد منهم إلى بنسلفانيا في الولايات المتحدة الأمريكية حيث عرفوا هناك باسم «الهزّازين» shakers وكان لهم تأثير هام في أمريكا إذ طالبوا بالتسامح الديني، وفصل الدين عن الدولة، وتحرير العبيد، والمساواة السياسية بين الرجل والمرأة، وكانوا يعيشون في مجتمعات اشتراكية، ويحافظون على عزوبتهم فلا يتزوجون. كما رفضوا كل قَسَم (حلف اليمين)، وحرَّموا الغناء والرقص والألعاب والتدخين، ورفضوا حمل السلاح لتحريمهم الحرب بكل أشكالها، واعتنوا بالمحرومين، وبكل عرق أو لون، فكان لهم تعامل أخوي مميز مع السكان الأصليين من الهنود الحمر ومع السود.

«ديفيد تريسي» David Tracy يقول فيه: «**إن الأديان في أفضل حالاتها تحمل قوى مقاومة استثنائية. وهي عندما لا يتم تدجينها بوصفها مجرَّد ستائر مقدسة للحفاظ على الوضع الراهن ولا يتم هدر طاقاتها بنزاعات داخلية على السلطة، فإنها تعيش بواسطة المقاومة**». ويضيف «جيمس كارول» James Carroll: «**والدولة تعيش بوصفها كياناً تتمّ مقاومته**». إن إبداع النظام الأمريكي هو أن بنود (فقرات) الفصل بين الكنيسة والدولة في الدستور صبغت هذه الإمكانية بصبغة المجتمع الأمريكي، وهذا يفسر لماذا ازدهر التغيير في هذا البلد أكثر من قرنين.

ولما كان منظور الدين متجذِّراً، ليس فقط خارج مؤسساته، وخارج الرمز الوطني، بل أيضاً خارج التاريخ وخارج الزمن نفسه، فإن المواطنين الذين يعني لهم الدين الشيء الكثير، يقدِّمون مصدراً للطاقة لا ينفذ ولا ينضب، تحتاجه البشرية لأجل التجديد الإنساني. كيف؟ عن طريق إعمال جملة «ستيفن كارتر»: «**دور الناقد الأخلاقي الخارجي، ومصدر بديل للقيم والمعنى**».

«**لم يكن لحركة الحقوق المدنية في الستينات أن تُكَلَّل بالنجاح لولا الدعم القوي والمصمِّم للكنائس، ولولا معارضة تلك الكنائس القوية أيضاً والشديدة لحروب أمريكا في بلدان أمريكا اللاتينية لرأينا جنودنا الأمريكيين يبقون في غواتيمالا والسلفادور عشر سنوات إضافية**» يذكِّرنا بذلك «روبرت بيللاه» Robert Bellah.

وهذا في أساسه يوضح لنا لماذا يستهجن «ستيفن كارتر» ثقافة الإلحاد، والتشريعات القانونية التي تساهم في إيجادها.

التعامل مع عقيدة الخَلْق

بدأ هذا الفصل بدراسة قضية قضائية هي قرار المحكمة العليا بشأن المرافعة القضائية بين «قسم التوظيف والسيِّد سميث»، وفي ختامي لهذا الفصل سوف أبتعد أيضاً عن التجريد وآتي بمثال واقعي ملموسٍ آخر.

لم يحدث أن اصطدمت الرؤيا الدينية التقليدية للكون بالرؤية المادية للكون بنحو أقوى من اصطدام الرؤيتين في قضية المصدر الذي جاء منه الإنسان إلى هذا العالم؟. وهذا يفسِّر لماذا تكرَّر الكلام عن «الداروينية» في هذا الكتاب. لقد أشرت في الفصل الماضي إلى كيفية تعامل وسائل الإعلام مع ذلك الموضوع، وسأبيِّن هنا كيفية تعامل القانون معه.

مبدئياً تطالب المحاكم بوجوب ذهاب جميع الأطفال إلى المدارس. ومن جهة أخرى لا يُسْمَح – في المدارس الحكوميَّة – إلا بتدريس إجابة العلم فقط عن مسألة المصدر الذي جاء منه الإنسان إلى هذا العالم. لقد جرت محاولات عديدة: من ولاية تينيسِّي (عام ١٩٢٥)، مروراً بولاية آركانساس (عام ١٩٨٢)، إلى ولاية لويزيانا (عام ١٩٨٧)، للإتيان بالله إلى الصورة في هذا الموضوع (سواءٌ تصريحاً أم تلميحاً)، ولكن المحاكم – استناداً إلى أسس دستورية مزعومة – رفضت بشكل متواصل إفساح ذلك المجال. أنا لا أقول إن المحاكم أخطأت في الحكم الذي أصدرته (إذا أخذنا بعين الاعتبار الطريقة التي تمَّ بها تأطير القضايا المشار إليها). إن النقطة التي أريد توصيفها، بدلاً من ذلك، هي أن أجزاء الصورة لم يتم وضعها أمامنا في أماكنها الصحيحة. أما أنه كيف يجب وضع أجزاء الصورة في أماكنها الصحيحة، فهذا ما سأرجئ الحديث عنه إلى ما بعد، وأكتفي هنا بالإشارة إلى أنه من الواضح تماماً أن هناك شيئاً خطأ في الإعداد الحالي.

إذا أردنا تلخيص القضيَّة إلى أبسط العبارات نقول: «إنَّ المحاكمَ محقَّةٌ في اعتبارها الإيمانَ بالله موقفاً دينيّاً، ولكنها مخطئةٌ في اعتبارها أن الإلحاد ليس موقفاً دينياً أيضاً. قد يقول قائل «إن الإلحاد لا يتم تعليمه في المدارس الحكومية». هذا القول صحيحٌ إذا قُصد منه التعليم الواضح والصريح، أما إذا قُصد منه التعليم بالتلميح أو التضمُّن فهو قولٌ غيرُ صحيح، فلا يوجد منظِّرٌ تربويٌّ تعليميٌّ يعتقد أن كلا الشكلين من التعليم يمكن فصلهما عن بعضهما بشكل كامل. إذا حُذِفَ «الله» من الحساب في موضوع أصل الإنسان فإن الطلاب سيعتبرون هذا الغياب إشارة ضمنية إلى أن الله ليس له مكان في الصورة مطلقاً.

ويظهر هذا بشكل خاص في إبطال المحكمة العليا للولايات المتحدة الأمريكية عام

١٩٨٧ قانون ولاية «لويزيانا» الذي كان يتطلّب أن يتمّ تدريس علم الخَلْق إلى جانب علم التطوُّر، إذْ استدل قاضي المحكمة العليا في رفضه لقانون الولاية ذاك في قضية المرافعة بين «إدوارز ضدّ أغيلارد» (Edwards v. Aguillard) أن قانون الولاية غير دستوري لأنه يعارض مادة «تأسيس الدين» في الدستور، معتبراً أن هدف المجلس التشريعي للولاية «كان بشكل واضح أن يدفع إلى الأمام بوجهة النظر الدينية التي ترى أنّ هناك كائناً ما وراء طبيعيٍّ خلق البشريَّةَ». وتعكِّر عبارة (علم الخلق) المياه بعدم تمييزها بين الخلق الإلهي في ستَّة أيَّام والخلق الإلهي على مدى زمن طويلٍ جداً (نتكلم عن ملايين السنين هنا). ولكن قرار القاضي «برنان» Brennan تمّ بيانه بعبارات عامّة تغطّي كلا القراءتين: «لا يُسْمَح للمدارس أن تُعَلِّم أن كائناً فوق طبيعيٍّ مفترضاً لعب دوراً في وجودنا نحن هنا على هذه الأرض.». وهذا مثالٌ واضحٌ على تهميش الدين، إذْ لا تتم مواجهة الادعاء الديني مباشرةً، حتى يتبين الإنسان حقيقته من زيفه، بل يتم استبعاده كلياً من الصورة انطلاقاً من تصنيف محدَّد له، إذْ يُصَنَّف الإيمان بالله - في حالتنا هذه - على أنّه أمرٌ دينيٌّ، أمَّا الإلحاد فليس دينياً، مع أنه من المفتَرَض أن يعكس قرار المحكمة العليا سياسةً قوميَّةً تقوم على الحياد، في حين أن قرارها يمكن أن نطلق عليه أيَّ اسمٍ سوى الحياد، لأن آثاره ستكون استبعاد الأفكار المهمَّة والسياسات العامَّة من الفحص والدراسة القومية والنقاش القومي. لو قالت المحكمة العليا إن النظرة الكونية الماديَّة هي الحقيقة، و(نتيجةً منطقيةً لذلك) الإيمان بالله خطأ، لكان سيتم التعريض بهذا الحكم على أنه مناقض لمادة «تأسيس الدين» في الدستور. إن الذي فعله القانون بدلاً من ذلك هو أنه وضع تصنيفاً قانونياً تمكّن بواسطته من احتواء النظرة الكونية الإلهية (أي المؤمنة بالله) ومنعها من أن تدخل مجال النقاش العام وأقصاها ونفاها بشكلٍ تامٍّ إلى المجال الخاصّ. وهذا يشابه ما إذا قرَّر القاضي في مناقشة قضائيَّة أن يعطي رأياً سلبياً لا لأن حجة وأدلة الرأي السلبي أقوى ولكن لأن أدلة وحجج الرأي الإيجابي تمّ اعتبارها غير واردة أصلاً ولا مجال للبحث فيها (أي ساقطة من الاعتبار من الأساس). إن آثار هذا الأمر بعيدة المدى جداً.

يكتب «إدوارد نورمان» Edward Norman في مجلة «المسيحية والنظام العالمي» *Christianity and the World Order*: **«ليس هناك من شك في أن التعليم في المجتمعات المتطورة ساهم في هبوط وانحدار الإيمان الديني»**؛ ويشير «مارتين لينغز» Martin Lings إلى السبب الرئيس لهذا الأمر بقوله: **«إن أكثر حالات ضياع الإيمان الديني وفقدانه تنشأ من نظرية التطور أكثر من نشأتها من أي نظرية أخرى»**.

الخاتمة

كان شعارنا أثناء كفاحنا ومقاومتنا: **«من أجل الله والوطن»**. هذه الصلة بين الاثنين ملائمة. إن المقاومة لا تفترض وجود فصلٍ جذريٍّ بين الكنيسة والدولة أكثر من الفصل الذي يفترضه التعريف اللغوي لكل منهما. ولكن النصف الأخير من القرن العشرين أظهر كم هو قليل ما نعرفه عن التماسّ الحقيقي الذي وقع بين الاثنين في أي مجابهة معيّنة. لقد بدّل الصالحون والسيئون مواقعهم بشكل غير متوقّع، ويمكننا أن نكون متأكدين أنهم سيواصلون ذلك الموقف. تدّعي الدولة أن امتيازات الكنيسة تهددها بالخطر وكذلك العكس صحيحٌ أيضاً؛ علينا فقط أن نستدعي إلى ذهننا المؤتمر الشبيه بالإحيائي للحزب الجمهوري عام ١٩٩٢ الذي بعث برسائل تحذيريّة بتبنّيه في أرضيته الفكرية أموراً هي من المبادئ الدينية[1].

لا أحد من الطرفين يدخل هذا الشجار من موقع التفوّق. إذا كان الدِّين يمكّن المواطنين المتديّنين بشكلٍ صحيح أن يقاوموا السياسات الظالمة للحكومة، فإنه يفعل ذلك بسبب كونه مكّن منذ البداية أولئك المواطنين من أن يقاوموا الجوانب المظلمة في ذواتهم وأنفسهم.

---

(١) كان لا بد للحزب الجمهوري - لاعتماده على ناخبيه من الشريحة الدينية الذين تزايد عددهم - أن يتبنى بعض مطالبهم مثل تبنّيه السماح بإقامة الصلاة في المدارس الحكومية، وتحريم الإجهاض، ورفض منح حقوق خاصة للشواذ جنسياً ونحو ذلك، رغم كونها قضايا خلافيّة ومثيرة للجدل في الولايات المتحدة، لأنه لو رفضها لكان ذلك بمثابة انتحار سياسي له، يفسح المجال بالتأكيد أمام فوز منافسيه الديموقراطيين.

الجزء الثاني

الضوء في نهاية النفق

بعد أن كرّسنا النصف الأوّل من هذا الكتاب لوصف النفق الذي رمتنا فيه «الحداثة» بخلطها «العلمويّة» بـ «العلم»، أتحوّل، في هذا الجزء الثاني من كتابي نحو المستقبل. هل هناك ضوءٌ يظهر في نهاية النفق؟ هل توقفنا في سكة منحرفة عن الخط الأساسي؟ هل نواصل تحركنا إلى نقطة أعمق داخل النفق - وهذا ما لا أعتقده - لكوننا لم نصل إلى مركزه بعد؟

هذه أسئلة مهمّة، والفصول التالية ستأخذ على عاتقها الإجابة عنها ولو لم يكن لذلك من سبب سوى كون اهتمامنا بالمستقبل جزءٌ مما يهتم به البشر عادةً. ومع ذلك فلا تمثل تلك الأسئلة الموضوع الرئيسي لبقية هذا الكتاب. بعد أن يتم ملامسة تلك الأسئلة والإلمام بها، سوف تبدأ الفصول الختامية لهذا الكتاب و التي تبدأ من الفصل ١٣ فيه، بيان أكثر الطرق فائدةً للاستعداد للمستقبل، والتي تتمثّل بأن نكون واضحين بشأن سِمَات وملامح البانوراما الدينية التي لا تتبدّل و لا تتغيّر. إن التاريخ متقلّب و لا يمكن التنبُّؤ بأحداثه - الكرات البللورية ملغزة دائماً - لكن الخريطة التي تسجّل السمات الثابتة غير المتغيِّرة للتضاريس يمكنها أن توجّهنا إلى الطريق الصحيح مهما اعترضنا في طريقنا. في أثناء هذه العملية سيظهر لنا واضحاً لماذا الدِّين مهمٌّ وضرورةٌ.

الفصل ٨

النُّـور *Light*

لا يمكن للعلم أن يثبتَ شيئاً عن «الله»، لأن «الله» خارج نطاقه. لكـن، كما كرّست فصلاً في كتابي «الحقيقة المنسية» The Forgotten Truth للبرهنة على أن «العلم» يملك مصادر غنية لا تنضب تفيد في تعميق البصائر الدينية وإغناء الفكر الديني، أكرر هنا الفكرة لأهميتها البالغة.

أبدأ **بالنُّور** أو **الضوء**. يوجد في النور مثالٌ واستعارة رائعة عن «الله». يساعدنا ما اكتشفه العلم حول طبيعة الضوء الفيزيائية على فهم لماذا كان الضوء مناسباً جداً للعب هذا الدور (بنحو أعمق بكثير مما كان بإمكان حتى العمالقة الروحيين في الماضي أن يفعلوه).

إذا أمكن لـ «آينشتاين» في مرحلة من مراحل سيرته العلمية أن يقول إنه كان يودّ لو أنفق بقيّة حياته كلّها للتأمّل والتفكير في طبيعة الضوء، فإن هذه المسألة تستأهل بالتأكيد أن نخصص لها فصلاً قصيراً نطلق من خلاله حركة النصف الثاني من كتابنا هذا.

"**النُّور**" مختلفٌ. ومختلفٌ بنحو غريب جداً. ومختلفٌ بنحو متناقض (يحمل مفارقة عجيبة). وكلّ واحد من تلك التأكيدات الثلاثة ينطبق تماماً على «الله»، كما تنطبق عليه الحقيقة الرابعة أيضاً وهي: "**النُّور**" **يَخْلُقُ**.

فيزياء النُّور

رغم غرابتها وغموضها، وجدت المعالم الرئيسية لنظرية آينشتاين الخاصة عن «النسبية» طريقها إلى مخزوننا العادي من المعرفة. إنّ سرعة الضوء، التي تساوي ١٨٦٠٠٠ ميلاً في الثانية، رقمٌ ثابتٌ، وكلُّ شيء آخر في الكون الطبيعي يغيِّر نفسه على هذه السرعة.

إذ كان سائقو السيارات العجولين الذين ينتظرون بفارغ الصبر عبورَ قطارٍ يمرُّ من أمامهم بسرعة، عند تقاطع سكّة حديد تعترض طريقهم، فيرون القطار يندفع بأزيزٍ عالٍ ويتجاوزهم، فإن راكبي القطار الذين ينظرون من نوافذهم، سيرون السيارات المنتظرة تطير من أمامهم بالاتجاه المعاكس تماماً. تلك النسبية تتعلّق بالمكان؛ لكن الفيزياء تجمع بين المكان والزمان والمادة في كينونةٍ واحدةٍ كالقطع المتعرِّجة للعبة قطع الصور التركيبية «البزل» puzzle التي يتم تجميعها في صورة واحدة، لذا فإن النسبية المكانية التي أشير إليها تنطبق على الزمن والمادة أيضاً. عندما تندفع مكانياً خلال الفضاء، فإن الزمن (ساعتك) يتباطأ. إذا كان اندفاعك على دراجة هوائيّة فإن هذا التباطؤ لا يمكن ملاحظته، لكنك لو طرت في الفضاء لمسافة تريليون (ألف مليار) ميلٍ في طائرة مقاتلة مثلاً وهبطت في الساعة السادسة مساءً طبقاً لساعتك، فإن الساعات في المطار الذي انطلقت منه ستشير إلى الساعة السابعة فقط. وكلما اقتربت سرعة طائرتك من سرعة الضوء - ١٨٦،٠٠٠ ميلاً في الثانية -، تباطأت حركة عقارب ساعتك أكثر حتى (إذا وصلت سرعة الطيارة إلى سرعة الضوء نفسها) توقفت الساعة في طائرتك عن الدوران. أما بالنسبة إلى المادة، فإن كتلة الجسم المتحرِّك تزداد مع ازدياد سرعته حتى تصل إلى كتلة لامتناهية، في نظر مراقب غير متحرِّك، عندما تصل سرعة حركة الجسم إلى سرعة الضوء.

الآن دعنا نسرِّع كلّ هذا وننظر إليه من وجهة نظر النور. تخيّل نفسك جالساً على جزيئة (من جزيئات النور)، أي على "القطعة" الواحدة (أو الكم[1] Quantum) للنور. في

(١) الكمّ: Quantum = أصغر مقدار من الطاقة يمكن أن يوجد مستقلاً.

هذه الحالة فإنك لا تتحرك إلى أي مكان. وتكون عديم الوزن. كما أنه لن يكون هناك وقت ولا فضاء، ولن توجد ثمّة أيَّةُ أحداث منفصلة عن بعضها.

إذا كانت المسافة الفاصلة بين الأرض وكوكب ما مئة سنة ضوئية، فمن موقعك على جزئيّة (كمّ) الضوء، لا يكون النجم منفصلاً عن الأرض مطلقاً. علاوة على ذلك، سيبدو كما لو أنّ العالم يخرج منك، منك ومن الفوتونات من زملائك، لأن النور يخلق. إنه يضخّ الطاقة في عالم الفضاء المؤقت. هذا واضحٌ جداً في عملية التركيب الضوئي، حيث يتحوّل النور غير الماديّ المتدفّق من الشمس إلى سجادة الأرض الخضراء، أي النباتات. تمتصّ النباتات طاقة النور غير الماديّة وتخزّنها على شكل طاقة مودعة كيميائياً. إذا نظرنا تحت سطح الكيمياء الحيوية في أساس الطبيعة، لرأينا أن خلاقيّة النور "تظهر للنور" هناك من خلال ظهور النور المبكّر في السلسلة التي أنتجت المادة في مراحلها المتعاقبة. (ليست عبارة "تظهر للنور" مجرد جنَاس بلاغيّ. في كل مكان في التاريخ المسجّل استخدمت لفظة النور بديلاً مرادفاً للوضوح والإدراك والفهم، وكل ما يقع تحت عنوان الوعي. ولذلك فإن هذا الاستعمال المجازي للنور يكشف عن قوّته المتلوّنة). إن الفوتونات التي تقع على الخط الفاصل بين حقلي المادّة و اللامادة (كما أشرنا إليه للتو) لا تخضع لطرقنا العادية في فهم الكون الطبيعي (الفيزيائي).

لا شك أن الأفكار التي ضغطناها في تلك الفقرة السابقة غريبةٌ، لذا لن يضيرنا أن نعيد صياغة ما ذُكر. الفضاء؟ تذكّر بأنّك عندما تكون جالساً على فوتون النور لا تكون ذاهباً إلى أي مكانَ. الزمن؟ عدّاد الزمن لا يعمل على الفوتونات بالطريقة التي يدور فيها على سائر الأشياء؛ وكيف يمر الزمن مع أن عقارب الساعة تتوقف عن الدوران عندما نتحرك بسرعة الضوء؟ أما بالنسبة للمادة فإن الفوتونات ليست لها كتلة سائر الأجسام المادية ولا الشحنة الكهربائية التي تمتلكها جزيئات المادة. في اللغة العاميّة (التي لا تستطيع الدخول إلى عالم الجزيئات والفوتونات وأمور الذرَّة الأخرى التي تبدو بالنسبة إليها مثل سكان غرباء جاؤوا في رحلة إلى الأرض من كوكب آخر!) هذه الجزيئات المادية مشتَقّةٌ من الطاقة، التي - باستخدام الكلمة بمعناها الواسع - ندعوها «النور». علاوة على امتلاك جزيئات النور تلك كتلة مادية وشحنة كهربائية، فإن تلك الجزيئات القابلة للاشتقاق

خاضعة للزمن أيضاً، لذا فهي مادية بشكل واضح من جميع الجهات. ولكنها، رغم ذلك، ليست مادية بنحو كامل، لأنه لا يمكن تخصيص موقع محدد في الفضاء لها. فالذرات Atoms أكثر ماديَّةً من جزيئات النور Photons لأن الذرّات مقيدة بكلا المكان والزمن، هذا على الرغم من أنها ليست "صريعة" كالجزيئات المتكونة من اتحاد الذرّات Molecules، لأن الذرّات المعزولة حرَّة في امتصاص الطاقة وإصدارها إلى مدى أكبر بكثير من الذرّات التي تجمعت لتشكِّل الجزيئات Molecules، والتي أصبحت بذلك سجينة بشكل كامل تقريباً في حتميَّة العالم الكبير غير الحي (غير المتحرك).

إذا كان النور (على نحو قريب مما وصفته الآن) ينتج الكون الفيزيائي (الطبيعي)، فإنه هو المسؤول أيضاً عن تحولاته وتقلّباته. تخبرنا «ميكانيكا الكمّ» بأنّ جوهر كلّ تفاعل في الكون ما هو إلا تبادل لكمية من الطاقة. يمثِّل ال «كَمُّ» الواحد Single Quantum أصغر حزمة من الطاقة يمكن أن يتمّ تبادلها على الإطلاق؛ وقياسها هو ثابت «بلانك»[1]. إن «كمّ» الفوتونات هو الذي يغيِّر الجزيئات في فعل التركيب الضوئي وهو الذي يثير ويحرِّض الذرّات في شبكيّة أعيننا لتمكيننا من الرؤية. يحافظ تبادل النور على كوننا (عالمنا) ويبقيه بدءاً من مستوى الذرّات Atoms ثم الجزيئات Molecules فما فوق.

ونتيجة كل ما ذكر، هي أن كلا التغييرين التاريخيّين العظيمين في القرن العشرين – النظرية النسبية المسؤولة عن التغير الواسع والسريع جداً وميكانيكا الكمّ المسؤولة عن التغير الصغير جداً – يتعلّقان بـ «النور». كلّ شيء مخلوق من النور، وكلّ التفاعلات التي تتلو ذلك بعد أن أخذت تلك الأشياء المخلوقة مكانها، إنّما تحصل وتتقدَّم بواسطة «النور». أما بالنسبة إلى "**النور**" نفسه، دعنا نسمع للمرة الثالثة والأخيرة أنّه يقف خارج رحم الفضاء (المكان) والزمان والمادة، تلك الأمور الثلاثة التي تخضع لها كلّ **مخلوقات "النور"**!

---

(١) نسبةً لعالم الفيزياء النظرية الألماني بلانك (ماكس كارل إيرنست لودفيغ Max Karl Ernst Ludwig Planck (١٨٥٨-١٩٤٧)، الذي يعتبر أحد أعظم الفيزيائيين النظريين في العصر الحديث. وضع نظرية الكمّ، أي أن الإشعاع الكهرومغناطيسي الصادر من الأجسام الساخنة لا ينبعث كتدفّق مستمر بل يتكوَّن من وحدات منفصلة أو كمّ من الطاقة quanta of energy وحدتها ثابت فيزيائي أساسي دعي بـ ((ثابت بلانك)) (Planck's constant)، وفاز بلانك بجائزة نوبل للفيزياء عام ١٩١٨.

إذا ساورك الشكّ بأنّي أسير بك لأوصلك إلى القول بأنّ الفيزياء تخبرنا بأنّ النور هو «الله» فأنت على خطأ، لأن أوّل عبارة بدأت بها هذا الفصل هي قولي إنّ العلم لا يستطيع مسّ ذلك الموضوع. ولكن الدّعم الذي قدّمته الفيزياء للنور كاستعارة تشبيهيّة للّه دعمٌ مبدعٌ رائعٌ. إذا كان الله (وأؤكّد على الجملة الشرطية هنا) خالقاً لكونٍ طبيعيٍّ (ماديٍّ)، فإن ما يصفه علماء الفيزياء عن عمل الضوء يبدو مشابها لكيفية قيام الله بتلك المهمَّة.

قاربَتْ الفقرةُ السابقةُ "**النورَ**" بنحوٍ موضوعيٍّ، كسمة للعالم الخارجي. وننتقل الآن إلى طريقة اختبارنا (مواجهتنا) للنور على نحوٍ شخصيٍّ مباشر.

النور الذي نختبره بنحو شخصي

من الواضح أنه إذا كان "**النور**" يمثّل الوضوح والبيان والفهم، فإن "**الظلام**" يمثل عكس تلك الأمور تماماً. وكيف يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك مع أننا عندما نكون في الظلام نتلمّس طريقنا ونترنّح ونتعثَّر، ونسقط! وقد انعكس ضلالنا في الظلام إلى أشعارنا فافتتح أحد الشعراء المعاصرين قصيدته قائلاً: «لا أحد يشعر بالارتياح في الرابعة صباحاً».

كل هذا واضحٌ تماماً. الآن امضِ معي إلى الشيء الغريب، والعجيب في مجاله الخاص كغرابة اكتشافات «آينشتاين» المتعلّقة بالنور. تتعلّق القصّة بفرنسي يُدعَى «جاك لوسيران» Jacques Lusseyran، كما يخبرنا بنفسه في سيرته الذاتية: «لِيَكُنْ هناك نورٌ» وهو كتاب غير مشهور، لذا سألخص خطوطه العريضة.

حياة «لوسيران» Lusseyran يجب أن تُعدّ بالتأكيد من أكثر نماذج حياة الناس روعة في سجلّها. في عمر التاسعة عشرة عمل في مهمّة اتصال حيويّة في حركة المقاومة الفرنسية في باريس ضد الاحتلال النازي لها خلال الحرب العالمية الثانية، وفي الوقت ذاته كان يستعدّ للالتحاق بالكلية العليا في جامعة باريس: Ecole Normale Supérieure. عندما وشى خائن بالأحرار المتطوعين تم توقيف «لوسيران» مِنْ قِبَلِ الجستابو (شرطة المخابرات

النازية) وسجن لمدة سنتين تقريباً. عندما وصل الجيش الأمريكي الثالث في أبريل/ نيسان، ١٩٤٥، كان «لوسيران» واحداً من جملة ثلاثين أسيراً تم إنقاذهم، إذ كانوا لا يزالون على قيد الحياة في دفعة مرسلة من ألفين رجل في طريقهم إلى معسكر «بوتشنوالد» Buchenwald. يخبرنا «لوسيران» أن هؤلاء الأسرى ذهلوا عندما نجوا ولم يكادوا يصدقون نجاتهم من الموت المحقق ويبتهجون باستعادة حريّتهم.

لكن رغم استعادته لحريته حدث لـــ «لوسيران» أمر غريب. على الرغم من تألُّقه في كلا الصعيدين العلمي والوطني، رفضت الكلية العليا في جامعة باريس قبول طلبه الالتحاق فيها بسبب مرسوم صادقت عليه حكومة «فيشي» Vichy يمنع "المعاقين" من الدراسة في تلك الكليّة. وكان «لوسيران» ضريراً بشكلٍ كاملٍ منذ الثمانية من عمره. أثناء شجار خشن وصاخب في عطلة مدرسيّة، ضربه أحد أصدقائه عرضياً ضربةً دفعت رأسه إلى زاوية حادّة لمنضدة المعلّم، فأدّت قوّة الضربة إلى تحطّم حافّة نظّاراته ودخولها داخل عينيه فأعطبتهما وتركته يعيش بقيّة حياته في ظلام دامسٍ كليٍّ. أو هكذا نحن نفترض. ولم أكن لأخبر بهذه القصة هنا لولا إخبار «لوسيران» لنا أنه في الواقع حدث شيء يشبه العكس تماماً لما افترضناه. يخبرنا عن نفسه فيقول: «لم يكن العمى أو فقدان البصر كما كنت أتصوره مطلقاً. ولا كان العمى مثلما يبدو أن الناس حولي يتصورونه. كانوا يقولون لي إن الإنسان عندما يكون أعمى فمعنى ذلك أنه لا يرى، ولكن كيف كان يمكنني أن أصدقهم مع أنني كنت أرى؟»

يعترف «لوسيران» أن هذا الشعور لم يبدأ معه منذ البداية. لفترة من الزمن بعد إصابته بالعمى كان يحاول استخدام عينيه بالطريقة العادية، أي يوجّه انتباهه نحو الخارج، ولكن فيما بعد، ثمّة غريزة ما جعلته يعكس خط السير، وإليك ما قاله بعباراته الخاصة:

«لقد بدأت بالتوجه إلى الداخل، والنظر من الداخل إلى مكان أكثر عمقاً، حيث الكون أعاد تعريف نفسه بالنسبة لي، وملأ وجوده بالأشياء بنحو جديد. كنت أدرك إشعاعاً منبثقاً من مكان لم أعلم عنه شيئاً. مكانٌ ربما هو خارجٌ عني كما هو بداخلي، ولكن الإشعاع كان هناك، أو بدقة أكثر "النور" كان هناك. لقد سبحْتُ فيه

كعنصر جلبني نحوه العمى وجعلني فجأة أكثر قرباً منه. كنت أستطيع أن أشعر بالنور متصاعداً منتشراً يحط على الأشياء و يعطيها الشكل ثم يدعها، أو على العكس ينسحب ويتضاءل، وذلك لأن عكس النور لم يكن له وجود هناك أبداً. كان النور، من دون عينيَّ، أكثر ثباتاً بكثير مما كان مع عينيَّ!».

يزوِّدنا كتاب «أرثور زاجونك» Arthur Zajonc: «التقاط النور: التاريخ المتضافر للعقل والحياة» *Catching the Light: The Entwined History of Mind and Life* بمسحٍ شاملٍ لموضوع هذا الفصل، ولكن رواية «لوسيران» كانت أقرب رواية رأيتها في وصف ما يمكن أن يكون عليه نور «بلانك» و«آينشتاين» إذا استطعنا أن نختبره ونواجهه بنحوٍ مباشر. وأضيف على ما أخبرنا به «لوسيران» – مما ذكرته أعلاه – روايته فقط للحقيقتين والميزتين اللتين رافقتا "النور" الذي أعاد تكوين نفسه فيه.

الحقيقة الرائعة الأولى هي «البهجة». كتب يقول: «لقد وجدت النور والبهجة سوياً في اللحظة نفسها. كان النور الذي أشرق في رأسي كالبهجة المصفَّاة. ومنذ اكتشافي لهذا النور لم ينفصل النور عن البهجة مطلقاً في تجربتي». كان هذا الارتباط ذا جهتين. عندما كانت المشاعر السلبية تعترض تلك البهجة، كان النور يصبح قاسياً متكسِّراً مثلَّماً خشناً ومتشابكاً. بهذا الإحساس كانت «*مشاعر الخوف والغضب والجزع تجعلني أعمى فعلاً. قبل ذلك الإحساس بدقيقة كنت أعلم بالضبط أين يوجد كل شيء في العالم، ولكن عندما كنت أغضب فإن الأشياء كانت تصبح أشد غضباً منِّي! كانت تخلط بعضها ببعض، وتصبح عكرةً، وتهمس كالمجانين وتبدو بريَّة متوحشَّة. ولم أكن أعلم أين أضع يدي أو رجلي، وكان كل شيء يؤذيني*».

الحقيقة الرائعة الثانية كانت أن قواه الحَدْسيَّة قويت جداً: «*كان رفاقي البصيرون فطنين بشأن حركات جسمية كنت أتردَّد بشأنها. ولكن حالما كان الأمر يتعلق بالأمور غير الملموسة* (أي التي لا تلاحظ ولا يمكن لمسها) *كان يأتي دورهم للتردُّد بشأنها لمدة أطول بكثير مما كنت أتردَّد أنا*».

كانت هذه القفزة النوعيـة في الحُكـم الحَدْسي هي التي قذفت بـــ «لوسيران» إلى منصب القيادة في حركة المقاومة. لقد كانت قدرته على سبر حقيقة صفة وخُلُق الناس، والنفوذ إلى شخصيتهم من الظاهر الـذي كـانوا يظهرونـه قـدرةً فائقـةً ودقيقـةً جداً، جعلت حركة المقاومة تعهد إليه بالمهمَّة الحسَّاسة والخطرة لتجنيد المقاومين. فكان كل شخص يتقدم بطلب للانضمام إلى المقاومـة السريَّة، يُرْسَلُ إليـه أولاً لكي يتـم رفضـه أو قبولـه. وكـانت قراراتُهُ صائبةً دائماً ولا تخطئ، أو كانت قريباً من ذلك كما اعترف بنفسه حين قال إنـه كـان هناك رجلٌ واحدٌ قَبِلَ بانضمامه إلى الحركة رغم أنه لـم يكـن مطمئنّـاً إليـه كثيراً، وكـان هـو الذي خانهم و وشى بهم إلى الألمان.

اعترض «لوسريان» على رفض قبولـه بالكلية العليا في جامعـة باريس بحجـة أنـه مصاب بالعمى، فتم قبول اعتراضه وقبلتـه الكليـة، وبعـد أن تخـرَّج فيـها بدرجـة الشرف، أصبح أستاذاً جامعيّاً في فرنسـا ثـم انتقـل إلى الولايات المتحـدة ودرَّس فـي عـدَّة جامعـات آخرها جامعة «هاواي»، ثم توفي بنحوٍ مأساوي بحادث سيارةٍ عام ١٩٧١.

الخاتمة

أُنهي هذا الفصل كما بدأتُه: «لا يمكن إثبات "الله" (بأدلّة العلم)». هناك نصوص في العلم بالغة الدلالة (على الله)، ولكنـها ليسـت برهانـاً، ونفـس الأمر ينطبـق علـى التقـارير الفينومينولوجية (الظواهريَّة)، كتقريـر «لوسيران» الـذي مـرّ معنـا. ولكـن لا أحـد يستطيع إنكار قوة تلك النصوص. لمّا كان اللون بكلّ جماله إنَّما يعـرض النـور النقي للفـراغ، دعـاه غوته[1] Goethe «معاناة النور» وهو أمر يستوقف الإنسان ويلفت نظره.

---

(١) غوته، جوهان فولفغانغ فون Johann Wolfgang von Goethe (١٧٤٩ - ١٨٣٢): كبير شعراء الألمان وأحد عمالقة الأدب العالمي. تميز بتعـدد المواهب. فكـان شـاعراً، وناقـداً، وروائيـاً، وكـاتبـاً مسـرحيـاً، ورسّـامـاً، وعالماً، وفيلسـوفاً، وصحفياً. أعطى اللغـة الألمانية رشـاقة كـانت تعوزهـا وحررهـا مـن سـلطان الآداب الأجنبية الطاغي عليها، وذلك بقصائده الغنائية المتسمة باليسر والذاتية.

هل يمكن للمسيحي (أو على الأقل المسيحي الذي يملك أقل مقدار من الأذن الميتافيزيقية) أن يتلو العقيدة النيقاوية[1] القائلة: «.. **نورٌ من نورٍ، إلهٌ حقٌّ من إله حقٍّ..**» دون فهم جديد بعد التأمّل في الأمور التي لمسها هذا الفصل؟ هل يمكن لليهودي والمسيحي أن يقرأ أول ما تكلّم به الله حين قال: «**ليكن نورٌ**» دون فهمٍ جديدٍ مشابهٍ أيضاً؟ ليس المسلمون وحدهم الذين يحركهم بيت الشعر الجميل للشاعر الصوفي «الرومي» الذي قال فيه: «**ألا تعلم أن الشمس التي تراها ليست سوى انعكاسٍ للشمس الكائنة وراء الحجاب؟؟**»[2].

وبالنسبة لي، أضيف إلى ما ذكر أعلاه ما قاله لي «راؤبين سنيك» مرّةً:

«**عندما نخرج من دارنا نحن الهنود (الحمر)، في الصباح، نرفع ساعدينا لتحية الشمس المشرقة، صائحين صيحة الحمد والثناء، قائلين: هو!**»

---

(١) العقيدة النيقاوية هي نص الإيمان المسيحي كما تقرر في مجمع نيقية المسكوني للأساقفة الذي عقد عام ٣٢٥م.

(٢) بل الأكثر وضوحاً في استعارة النور لله عز وجل ما جاء في القرآن الحكيم من قوله تعالى: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِه كَمِشْكَاة فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَة الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَة مُّبَارَكَة زَيْتُونَة لا شَرْقِيَّة وَلا غَرْبِيَّة يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُور يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِه مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} سورة النور / ٣٥

الفصل ٩

هل النور في ازدياد؟ سيناريُوهان

يخبرنا العالم الفيزيائي «نيلز بور»[1] Niels Bohr: «التنبُّؤ أمرٌ صعبٌ، خاصَّة بشأن المستقبل». عندما وقعتُ على ملاحظته أوَّلَ مرَّة اعتقدت أنها دعابة، لكنني أدركت فيما بعد أنّه - احتمالاً - كان يميِّز التنبؤات بشأن المستقبل عن التنبُّؤات بشأن نتائج تجارب المختبر. على أيَّة حال، فإن مقولته لا جدال فيها: إن التنبُّؤ عن المستقبل صعبٌ إلى حدّ كونه تهوُّراً. حتى تقليل التنبؤ إلى مثل اهتمام هذا الكتاب - بشأن المصير المستقبلي للروح الإنسانية - لا يساعد إلا قليلاً. ولكن رغم ذلك فإن التطلع إلى الأمام والوراء، والتوق الشديد لمعرفة المخبَّأ أمرٌ فطريٌ جُبِلَ عليه الإنسان، لذا ليس أمامنا من خيار. لقد نظر الجزء الأول من هذا الكتاب إلى الوراء، وسينظر هذا الجزء الثاني منه إلى الأمام. صحة التوقع، تقع تحت رحمة الآلهة، خاصة "كرونوس" Chronos (إله الزمن). الأيام والزمن سيخبراننا عن مدى صحة توقعنا أو خطئه.

آخذ نموذجي من تقارير حالة الطقس، وأعرض في هذا الفصل تقريرين متضاربين نلتقطهما من محطتين إذاعيتين مختلفتين. يخبرنا التقرير الأول أن السماء تصبح الآن صافية

---

(١) بور، نيلز Niels Bohr (١٨٨٥ - ١٩٦٢): فيزيائي دانمركي. يعتبر أحد مؤسسي الفيزياء النووية في العصر الحديث. وضع عام ١٩١٣ نظرية الذرة المؤلفة من نواة يدور حولها عدد من الإلكترونات في عدة مسارات. .الخ ساعد على تطوير القنبلة الذرّية في بريطانيا أولاً ثم بعد ذلك في أمريكا. منح جائزة نوبل للفيزياء لعام ١٩٢٢.

بعد عاصفة هوجاء وأن مستقبل الدِّين يبدو مشرقاً، وأن هذا ليس مجرد تنبُّؤ بل هو أمرٌ أكيدٌ: «الجو صاف والرؤية غير محدودة» تقريرٌ نسمعه أحياناً نادرة من أبراج مراقبة الملاحة الجويَّة ولكنه موجودٌ على الكتب. في هذه الأثناء نسمع من محطة أرصاد جويَّة أخرى عكس ذلك التقرير. هناك إعصارٌ يقترب يمكن أن يسوِّي الدِّين بالأرض إلى الأبد. سأبدأ بالتحذير من العاصفة أو الإعصار وسوف أوضح المقصود من ذينك التقريرين ثم أرتِّبهما بطريقة عمل الرؤية بعينين.

الله مات (١)

في القرنين السادس عشر والسابع عشر، حلَّ «المنهج العلميّ» محلَّ سلفه «الوحي»، بوصفه الطريق الرئيسي والأساسي للمعرفة. أنتج هذا المنهج العلميّ، فكرياً: «التصوُّر العلمي للعالم»، وأنتج تكنولوجياً: «عالمنا الحديث». شكَّل سكَّان هاتين البيئتين: الطبيعيَّة والتصوُّريَّة، جيلاً إنسانياً جديداً لا تتطابق اعتقاداته إلا بمقدار ضئيل جداً مع التراث الإنساني. وكنتيجة لذلك تمَّ تهميش الدِّين - بوصفه حامل ذلك التراث التقليدي - ثقافيَّاً وسياسيَّاً. أولاً سياسيَّاً: لقد أنتجت سهولة السفر والهجرات الجماعيَّة ظاهرةً جديدةً في التاريخ هي التعدديَّة الثقافيَّة، وكانت النتيجة إزاحة الدِّين من الحياة العامَّة لأن الدِّين يقسِّم، في حين تعمل السياسات على أرضيَّة مشتركة يمكن للمواطنين، المختلفين في أديانهم، أن يحلُّوا من خلالها اختلافاتهم. وفي الوقت نفسه لا يمنح العلم أيَّ مكانة للوحي كمصدر للمعرفة، ولمَّا كان الحداثيُّون يميلون إلى التفكير علمياً في قضايا الحقيقة فإن الثقة بالوحي تضاءلت إلى حدٍّ كبير. اعتبر «كارل ماركس»[1] الدِّينَ: «نحيب البشرية المظلومة»، ورأى «فرويد» في الدِّين «علامة على عدم النضج». الأطفال الذين لا

---

(١) ماركس، كارل Karl Marx (١٨١٨ - ١٨٨٣): عالم اقتصاد وفيلسوف اجتماعي ألماني. نشر مع صديقه فريدريك أنجلز (البيان الشيوعي) Communist Manifesto (عام ١٨٤٨). أبعد عن ألمانيا وفرنسا فذهب إلى لندن عام ١٨٤٩ حيث انكب على الدرس في المتحف البريطاني. أشهر آثاره: (رأس المال) في ٣ مجلدات.

يستطيعون أن يقبلوا بحدود أبويهم الحقيقيَّة يحلمون بأب في السماء حرٍّ من تلك القيود والحدود. الإيمان بالله إشباعٌ لأمنيةٍ وتلبيةٌ لـ «**أكثر الرغبات الإنسانية قِدَماً وقوَّةً واستعجالاً**». والتجربة الدينية «الشعور الأوقيانوسي الواسع والعظيم» **ارتدادٌ نحو رحم الأم**!

لم يكن تهميش الدِّين اجتماعياً، وإزاحته نحو الجدار، ثقافياً، حدثاً صغيراً. بعضهم يرى هذا الحدَث هاماً وكبيراً إلى درجة تُسَوِّغُ له الإعلان بأن «الله مات». ويأتي (الملحدون من) علماء الاجتماع ليجمعوا لنا إحصائيَّات عديدة تؤكِّد هذا التغيير، ولكن بالنسبة للمؤرخين الثقافيين يكفي تطوُّران اثنان. أوَّلاً، في مسألة وجود الله، انتقل عبء البرهان إلى المؤمنين بالله؛ ولَمَّا كانت البراهين على أمر «ما وراء طبيعي» على وجود الله، في أي حال من الأحوال، صعبةٌ، فإن البراهين التقليديَّة الكلاسيكيَّة على وجود الله انهارت تقريباً. العلامة الثانية والأكثر دلالةً تمَّت الإشارة إليها سابقاً، فبينما اعتاد سابقاً كل من المؤمنين بالله والملحدين، الاتفاقَ على أن موضوع وجود الله قضية مهمة تستأهل البحث، تلاشت اليوم حتى هذه الأرضية المشتركة البسيطة. لقد خفَّ التوتُّر بين الإيمان والإلحاد، ولم يعد يترك أثراً على المثقَّفين اليوم، وشهدنا تضاؤل إلحاح وأهمِّيَّة النقاش في هذا الموضوع من أساسه.

هكذا أصبح القدر المشترك لمعظم المثقفين. لقد أثار عددٌ منهم تمييزاً بين العَلْمَنَة، والعلمَانيَّة. فكَلِمَةُ العَلْمَنَة تُستخدَم اليوم نمطيَّاً للإشارة إلى العمليَّة الثقافيَّة التي يتمُّ من خلالها الإنقاص التدريجي والمتواصل للمساحة التي تُعطى للمقدَّس، في حين تدلُّ العلمانية على الموقف الفكريّ الذي يشجِّع هذا الانحياز ويدعمه. وهو موقفٌ يدافع عن هذه العمليَّة على أسسٍ معرفيَّة وأخلاقيَّة أو كليهما قائلاً إنَّ إزالة المقدَّس من العالم أمرٌ جيدٌ ومفيدٌ.

كيف يمكن، أمام تلك العلامات، التي لا يمكن إنكارها، على ما يبدو أنه انحدار وهبوط للإيمان، أن نستدلَّ على أن مستقبل الدِّين مستقبلٌ مشرقٌ واعدٌ؟!

عيون الإيمان

أحد التطوّرات الأخيرة المثيرة في الفيزياء، إدراك العلماء أنه يجب أن يتمّ تضمين حالة المراقب في التجارب في ذلك الحقل الدقيق. إن الأمر لا يقتصر على أنه لا يمكننا معرفة أين توجد الجزيئة حتى نُنْجز تجربة تحدِّد لنا مكانها، بل الجزيئة (من جانبنا) ليست في أي مكان، حرفياً وبكلّ معنى الكلمة، إلى أن نقوم (بتحطيم حزمة موجتها) عندئذ فقط تعطينا التجربة موقعها. يُبْرز هذا الأمر أهميَّة "العنصر الفاعل" في المعرفة The active component of Knowing. إن الإدراك ليس فعلاً سلبياً. إذا كانت الرؤية هي الاعتقاد، فبنفس المقدار الاعتقادُ هو الرؤيةُ أيضاً، لأنه يكشف الأشياء التي كانت لولاه ستمرُّ دون ملاحظة[١].

وبتعبير «وليم بليك» William Blake:

نوافذ الحياة الباهتة والخافتة، هذه، للروح
تشوِّه السماوات من القطب إلى القطب
وتقودك للاعتقاد بكذبةٍ
عندما ترى بواسطة العين، وليس من خلالها[٢]

كيف يؤثِّر هذا على مسألة مستقبل الدِّين. إن التنبُّؤ بزوال الدين ونهايته الذي تمَّ التعبير عنه بعبارة «موت الله»، تمَّت روايته من خلال أعين سجَّلت معطيات متوفِّرة ومتاحة لكل شخص. أمَّا الدِّين فإنه يُنظر إليه من خلال عيون الإيمان، وهو يرى بذلك عالماً

---

(١) ما يرمي إليه المؤلف هنا هو أن حالة الإنسان نفسه، مثل: مستواه الروحي مثلا أو عمق نظرته، لها دور هام في المعرفة، فما يدركه ويستنبطه شخصٌ عند النظر إلى شيء، ربما لا يدركه آخر عند النظر إلى الشيء نفسه، لكون الأول يملك وعياً ومفهوماً لا يملكه الثاني. وفي القرآن الكريم آيات تشير إلى هذه الحقيقة كقوله سبحانه: ((... لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)) سورة الأعراف/ ١٧٩.

(٢) أي عندما تقتصر في رؤيتك الكون على الرؤية بحاسّة العين فقط ولا ترى بعين البصيرة والفهم. ويذكّرنا هذا بقوله تعالى في الذكر الحكيم: ((أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)) سورة الحج/ ٤٦.

مختلفاً، أو بتعبير أفضل يرى العالم ذاته في ضوء مختلف. تبدو الأشياء في هذا الضوء الجديد مختلفةً بطرق مُقْنِعَة بشكل كبير جداً. هنا الحجج والبراهين لا معنى لها، كما لا يكون لها معنى عندما ندرك أن الحبل، الذي كنّا نشتبه خطأ بأنه ثعبان، هو حبلٌ في الحقيقة. إن العالَمَ المقدَّس هو الأكثرُ حقيقةً والأكثرُ صدقاً، جزئياً لأنه يتضمَّن العالم الدنيوي، وفي اشتماله على العالم الدنيوي يصلح هذا العالم بوضعه في إطار ذا معنى ومغزى في كافَّة أنحائه. وبتعبير معلِّم بوذيَّة الزِّن «هاكين» Haquin: «هذه الأرض التي أقف عليها أنا / هي أرض اللوتس المشرقة، / وهذا الجسم هو جسم البوذا».

عندما ننظر من خلال عيون الإيمان فإن مستقبل الدِّين يظهر مضموناً أكيداً. ما دام هناك بشرٌ فسيكون هناك دينٌ، لسبب كاف هو أن النَّفس Self مخلوقٌ خُلِقَتْ على شكل الله theomorphic creature - أيَ أنَّ هيئتها morphe هيئة إلهية theos - أي أن الله مغلَّفٌ ضمنها باطنياً (داخل بنيتها) God encased within it. ولَمَّا كان الإنسان خُلِقَ على صورة الله، فإن جميع البشر يملكون في داخلهم وفي أعماق قلوبهم فراغاً على هيئة الله God_Shaped Vacuum. ولما كانت الطبيعة تمقت الفراغ، فإن النَّاس يواصلون مسعاهم لملء هذا الفراغ داخلهم. لذا تراهم يبحثون عن صورة للإلهي ملائمة لوضعها في هذا المكان ويتشبَّثون بخيارات متعدِّدة يشبه كلٌّ منها القطعة المتعرِّجة في لعبة قطع الصور التركيبية (البزل Puzzle) التي يحاولون تجربتها الواحدة تلو الأخرى ليجدوا فيما إذا كان يمكنها ملء هذه الفجوة أو الفراغ في مركز لوحة صورة «البزل Puzle». هنا نتذكَّر ما قلناه في الفصل ٢ عن النساء اللواتي ينكببن منذ الصباح الباكر على كومة الملابس الداخلية في مركز التسوق الذي أعلن عن تنزيلات في الأسعار (أي يحاولن ملء الفراغ داخلهنَّ بهذا العمل). وشبَّه «كالفن»[1] قلب الإنسان **بمصنع للمعبودات** (الأصنام). ويواصل الناس

---

(١) كالفن، جون John Calvin: (١٥٠٩ - ١٥٦٤) لاهوتي فرنسي. نشر راية الإصلاح البروتستانتي في فرنسا ثم في سويسرا حيث أنشأ حكومة دينية صارمة في جنيف. أسس المذهب البروتستانتي الكالفني الذي انطلق، بعد، من فرنسا وسويسرا إلى هولندا واسكتلندا، وكان له أثر كبير في جماعة البيوريتان (التطهريين).

فعل ذلك إلى أن يجدوا القطعة الصحيحة، وعندما تقع تلك القطعة في المكان وتتناسب معه، فإن لغز صورة الحياة ينحلّ. كيف ذلك؟ لأنَّ منظر الصورة الذي يبرز عندئذ يكون قوياً وآسراً يشدّ انتباه الإنسان من انتباهه إلى النفس، التي ترى الصورة، إلى الانتباه إلى الصورة ذاتها. هذا الحدث العظيم أو التجلّي – إذا أردنا القول – بما يترافق معه من تضاؤل «الأنا»، يُطلَقُ عليه في الغرب اسم "**الخلاص**"، ويُسَمّى في الشرق بـ "**الاستنارة**". إنَّ النسيان المقدَّس للذات الذي يتمّ إنجازه، هو بمثابة ترقّي للإنسان فوق الحالة الإنسانيَّة، ولكن هذا الإنجاز لا يهدِّد مستقبل الإنسان على أيِّ شكل من الأشكال. تنتظر أجيال أخرى في الصفّ وهي متعطِّشةٌ ومتلهِّفةٌ للدخول إلى امتحان الحياة هذا. قلنا أنه حتى يكون الإنسان دينياً «ذا أذن موسيقيَّة!» (كما اعترف «ماكس ويبر» متهكِّماً أنه ليس كذلك) ينبغي أن يمتلك حساسيَّةً وشعوراً سأسميه «الإحساس أو الشعور الديني».

إن الفجوة التي تفصل هذا العرض – الموجَّه بالإيمان – لمستقبل الدِّين، عن العرض المعاكس الذي تم وصفه قبله، فجوةٌ كبيرةٌ، ولكننا نعيش في الكون Uni-Verse (أي توحيد-الرواية)، لذلك لا بد لنا بطريقة ما أن نحاول جمع الاثنين سويَّةً. إذا كنّا دينيّاً «لا نملك أذناً موسيقيةً للدِّين» (حسب تعبير ماكس ويبر)، والروايات الدينية لا تؤثر فينا بل نشعر بالبرودة نحوها، فإن الوضع الأحادي المعنى: «إعلان موت الله» يخبرنا بالحكاية، ولكن أولئك الذين لديهم الإحساس والشعور الدينيّ، لديهم مشكلة أساسية في ذلك. إن التوقُّع الدينيّ يحمل وزناً مثله مثل الوزن الذي يحمله التكهُّن والتنبُّؤ العلماني. هنا تأتي أهميَّة الرؤية من خلال العينين كليهما. إذا أردنا أن نستشرف مستقبل الدِّين علينا أن نأخذ بعين الاعتبار ما يخبرنا به المحللون الاجتماعيون – السيناريو الأول – وكذلك ما تسجِّله عيون الإيمان – السيناريو الثاني –، كليهما.

ولكي نجمع بين تينك الرؤيتين، نحتاج إلى أن نرصد ثانيةً التطوّرات التاريخيّة للقرن العشرين، ولكن هذه المرَّة بعيون متيقِّظة ترى العلامات والإشارات التي تحمل وزناً دينياً.

تنظيف الساحة

تتّضح تلك الإشارات وتظهر للعيان عندما نجد أن لا واحدة من القطع التركيبيّة لصورة "البزل" لعلمانية القرن العشرين كانت مناسبة لملء ذلك المكان الفارغ في مركز قلب الإنسان. كانت أهم قطعتين هما "**الماركسيّة**" في الشرق و"**التقدُّم**" في الغرب. (تؤمنُ الماركسية بتقدم صغير الحجم، لكنها تؤكد على برنامج إيديولوجي محدَّد لتحقيقه. أما بالنسبة إلى الشرق والغرب، فإنني أستخدم تلك الكلمات للإشارة إلى العقائد (الإيديولوجيات) التي استقطبت القرن العشرين سياسياً.)

عد إلى النقطة التي بدأت بها هذا الفصل أي قولي إن المنهج العلمي أسقط التصور التقليدي (الديني) للعالم. أنتجت قدرة ذلك المنهج على تمييز الفرضيات الصادقة من الخاطئة معرفةً مُثبَتَةً (تقوم على الدليل والبرهان)، والمعرفة المُثبَتَة تضَاعَفَ حجمها ككرة الثلج. أسّست الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر تلك النقاط تاريخيّاً، لأنه من خلال تطبيق تلك المعرفة الصحيحة المُثبَتَة التي كانت تتوسع يوماً بعد يوم، حصل تقدّمٌ صناعيٌّ هائلٌ رفع مستوى المعيشة في أوروبا بشكل كبير. ثم أنتجت الثورة العلمية والثورة الصناعية مع بعضهما تغييراً نفسياً ثالثاً هو ثورة التوقّعات الصاعدة.

تضمّنت هذه الثورة الثالثة عدّة أحلام مندفعة التّآمَتْ مع بعضها لتشكّل حركة التنوير Enlightenment: (١) بفضل المنهج العلمي الموثوق للمعرفة، تمَّ التخلُّص من الجهل وطرده إلى غير رجعة؛ (٢) معرفتنا بالطبيعة التي قدَّمها لنا العالم ستمكننا من التخلص إلى الأبد من القلّة والنقص (في الموارد) (٣) التصور العلمي للعالم سيخلّصنا مرَّة وللأبد من الخرافة.

طبعاً الخرافة التي كانت تقصدها حركة التنوير هي أساساً: عقائد الكنيسة. وبإزاحة الكنيسة جانباً، فُتِحَ الطريق أمام البشرية التي أصبحت جاهزة للتقدُّم نحو عصر **العقل**. وهذا **العقل** أنتج **التقدُّم** وهو الأمل الذي شغل **العالَم الحديث**.

بالنسبة إلى أوروبا الشرقية، وبعد ذلك الصين، تمثّلت نسخة أمل القرن العشرين ذاك في الماركسيَّة، ولكي نضع هذا الأمل في المنظور علينا فقط أن نعود إلى ثورة التوقعات الصاعدة التي أنتجتها الثورتان العلمية والصناعية. استفاد «**هيغل**» Hegel من الموقف الذي بدا تقدُّمياً لتينك الثورتين ليصمِّم «**تصوراً للعالم**» Worldview. استنبط «هيغل» من الحقيقة الظاهرة التي تفيد في ظاهرها أن الأمور تسير نحو الأحسن دائماً وتتمتع بفرصة جيِّدة لمواصلة هذا التحسُّن على الدوام، فرجع باستنباطه إلى الوراء ليستنتج أن الأمور كانت دائماً تسير على هذا النحو أي تتقدَّم وتتحسَّن. إن التقدُّم هو اسم المباراة المكتوب على طبيعة الأشياء. وبعبارات «هيغل»: «كل كائن بحد ذاته، يتضمن التجلي الضروري لفكرته في وعيٍ وحريَّة متزايدة باستمرار». جاء الترحيب بدعم ذلك السيناريو المندفع، من كل مكان. فظهر «داروين» ليزوِّدَ ذلك الاندفاع بالعلم. رسم – مستلهماً من أفكار «هيغل» – التاريخ الطبيعي للحياة على الأرض، في ضربات ريشة تلاءمت بشكل مثالي مع صورة «هيغل» ورؤيته لتطوّرٍ، كونيٍّ في امتداده ومداه.

إلى حدّ الآن كل شيء على ما يرام. ولكن عندما نأتي إلى تاريخ البشرية، نجد أن محرِّك «داروين» للرقي والتحسُّن – الاصطفاء الطبيعيّ الذي يعمل على أساس التغيرات التي تحدث مصادفةً – يتقدّم ببطء أكثر مما يمكن تفسيره. كانت هناك حاجةٌ إلى مبدأ يُفَسِّرُ التطوّر والتقدُّم خلال "قرون" لا خلال "حقَب". هنا جاء «كارل ماركس» ليزوِّدَنا باكتشافه لنظرية «الصراع الطبقي». قال «إنجلز»[1] Engels وهو واقف على قبر ماركس في مقبرة البوّابة الكبيرة: «كما اكتشف داروين قانون تطوُّر الطبيعة العضوية، اكتشف ماركس كذلك قانون التطوُّر البشري».

---

(١) إنجلز، فريدريك Friedrich Engels (١٨٢٠ - ١٨٩٥): فيلسوف اشتراكي ألماني. يعتبر أقرب رفاق كارل ماركس إليه وأبرز المساهمين معه في تأسيس الشيوعية الحديثة. قضى شطراً كبيراً من حياته في إنكلترا. التقى بماركس عام ١٨٤٤ وأسهم معه في وضع (البيان الشيوعي). وبعد وفاة ماركس نشر المجلدين الثاني والثالث من كتاب ماركس (رأس المال) Das Kapital (عام ١٨٨٥ وعام ١٨٩٤).

وكانت هناك حاجةٌ لخطوة أخيرة، ورغم أن «ماركس» أخذ على عاتقه القيام بتلك الخطوة، إلا أن «إنجلز» (بدعم من لينين) كان هو الذي أوضحها وشرحها بشكل جليّ. لأجل أن تلهم ليس أملاً فحسب بل اعتقاداً يقينياً، احتاجت النهاية السعيدة التي تبشر بها الشيوعية – أي المجتمع اللاطبقي – إلى ما يضمن تحقّقها، وهذا احتاج إلى الميتافيزيقيات، ذلك لأن العلم لم يكن كافياً أبداً، ولا حتى اجتماع العلم الطبيعي مع العلم الاجتماعي. لكي يستطيع الأمل أن يلهم إيماناً راسخاً وقناعةً، لا بد له من أن يستند إلى الطبيعة الذاتيّة للأشياء، لذلك تم التأكيد من جديد على تصور العالم لهيغل ولكن مع تغيير هام. بقيت سمات ذلك التصور والرؤية الشمولية والتقدُّمية (المتطلعة للتقدم)، لكن مفرداتها احتاجت إلى أن تتحوَّل من المثالية إلى المادية. وكان لهذا ميِّزة مضاعفة: أولهما أن نجعل النظرية تبدو علميَّةً، وفي الوقت نفسه، أن نوجه الانتباه إلى السياسي_ الاقتصادي، خاصة إلى وسائل الإنتاج، على أنها المكان الذي يتمّ فيه دوران مسننات التاريخ بشكلٍ حاسم.

هذه هي الحزمة التي أقنعت، في القرن العشرين، النصف الشرقي للبشرية – أكبر دولة في العالم من حيث المساحة: أي الاتحاد السوفيتي، وأكبر دولة في العالم من حيث السكان: أي جمهورية الصين الشعبية –.

بعد أن وضعنا القطعة التركيبية لصورة "البزل" Puzzle التي اقتنع بها الشرق أي "الشيوعية" إلى جانب القطعة التركيبية لصورة "البزل" التي توصل لها الغرب أي **"التقدُّم"**، يمكننا أن نمضي الآن نحو النقطة التي من أجلها عرَّفت بهاتين القطعتين، فنقول: **إنَّ أيّاً من تلك القطعتين التركيبيتين لم يمكنه أن يملأ ذلك الفراغ الروحي في بنية الإنسان.**

أما بالنسبة للغرب فإن **"التقدُّم"** تحوَّل إلى شيء يشبه الكابوس. لقد وسَّعَتْ الحملة ضدّ الجهل معرفتنا بالطبيعة، **ولكن العلم لا يمكنه أن يخبرنا شيئاً عن الهدف الذي يجب أن نعيش له ونهب حياتنا لأجله.** وهذا محبطٌ ومخيِّبٌ للأمل، وهو مثبِّط للعزيمة كذلك. إنه لمثبِّطٌ للعزيمة أن نكتشف أننا لسنا أكثر حكمةً (لا أقول أكثر معرفةً، وينبغي أن نميِّز بين الاثنين بدقَّة) من أسلافنا وأجدادنا. ليس هذا فحسب، بل قد نكون أقل حكمةً منهم

أيضاً، لأننا أثناء إخضاعنا للطبيعة وسيطرتنا عليها، أهملنا «**القيم والمُثُل**»، وهذه الإمكانيةُ (إمكانية أن نكون أقل حكمة من أسلافنا) مخيفةٌ، لأن سيطرتنا وقدرتنا المتّسعة بشكل متزايد على الطبيعة تستدعي مقداراً أكبر من الحكمة لاستخدامها وليس أقلّ. إن الأمل الثاني لحركة التنوير والنهضة Enlightenment كان إزالة الفقر ومحوه، ولكن هذا الأمل أصبح عليه أن يواجه حقيقة أن هناك اليوم جائعين على وجه الأرض أكثر بكثير مما كان في أي وقت مضى!. أمّا بالنسبة إلى الاعتقاد بأن عصر العقل سيجعل الناس أكثر عقلاً، فإن هذا يمكن أن نقرأه اليوم كطُرْفَةٌ (نكتةٌ) قاسيةٌ. لقد شهد القرن العشرون - بسبب الأسطورة النازيّة حول تفوّق العرق الأسمى (الذي أنتج هول المحرقة) والأسطورة الماركسيّة حول يوطوبيا اللاطبقيّة (التي أنتجت الإرهاب الستاليني[(١)] وثورة ماو تسي تونغ[(٢)] الثقافية[(٣)]) - انحداراً إلى أكثر الخرافات بشاعةً ولا عقلانيّةً اعتنقها العقل الإنساني في كل حياته.

بهذه النقطة الأخيرة نكون قد انتقلنا إلى النصف الشرقي للقرن العشرين، حيث لم تتضاءل الآمال الماركسية فحسب، بل انهارت تماماً. لقد أصبح الاتحاد السوفييتي أشلاء

---

(١) ستالين، جوزيف Joseph Stalin (١٨٧٩ - ١٩٥٣): الأمين العام للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي (١٩٢٢ - ١٩٥٣). رئيس الحكومة والقائد الأعلى للجيش (١٩٤١ - ١٩٥٣). حكم الاتحاد السوفيتي حكماً ديكتاتورياً دموياً رهيباً، قُدِّر عدد الذين تم إيقافهم وإعدامهم خلال حملة التطهير التي قام بها في الفترة بين ١٩٣٦ -١٩٣٨ بـ ١,٥ مليون إلى ٧ ملايين إنسان!، عدا عن ملايين المبعدين إلى سيبيريا.

(٢) ماو تسي تونغ Mao Tse-tung (١٨٩٣ - ١٩٧٦): زعيم ومنظر سياسي صيني. نظم قوات (حرب العصابات) الشيوعية الصينية المؤلفة في المقام الأول من فلاحين جندوا بوصفهم نواة القوات الثورية الصينية (١٩٢٤ - ١٩٢٥). قاد مسيرة النضال الطويلة في الصين بين ١٩٣٤ و ١٩٣٥ حتى انتصر على قوات شيانغ كاي شيك. أسس جمهورية الصين الشعبية (عام ١٩٤٩) وقد عُدَّ منذئذ حاكم هذه الدولة الفعلي بوصفه زعيم الحزب الشيوعي الصيني.

(٣) الثورة الثقافية (١٩٦٦-١٩٧٦)، حملة سياسية في الصين، انطلقت في ١٩٦٦ من قبل رئيس الحزب الشيوعي الصيني ماو تسي تونغ لإزالة منافسيه السياسيين وتثوير المجتمع الصيني، فأدى ذلك إلى فوضى اجتماعية واضطهاد سياسي تم خلالهما إعدام الآلاف وسجن الملايين أو نفيهم.

ممزقة مخضبة بالدماء. في حين أن الماويّة - رغم بقائها اسمياً في الصين -لم يعد هناك أحدٌ يؤمن بها، والرأسمالية تتقدّم هناك بأسرع مما تتقدّم به في أيّ مكان آخر على وجه الأرض. ألهمت الماركسية في أوج عنفوانها تعهُّداً بادعائها أن مثاليّتها (هدفها الأسمى الذي تنوي الوصول إليه) تملك أساسها في ذات الحقيقة. وهذا هو في الواقع الصيغة الرابحة التي أكسبت الماركسية زخماً لدى الناس، ولكن القرن العشرين أثبت زيف وكذب شقّي الرؤية الماركسيّة كليهما. كل التنبُّؤات الماركسية الأساسية ظهر خطؤها: (١) لم ينتشر النموذج الأوروبي للإنتاج في أنحاء العالم كافّة. (٢) لم تصبح الطبقة العاملة أكثر بؤساً وأكثر راديكاليَّةً (جذريَّةً) على نحو تدريجيّ في العالم الغربي(٣) لم ينحسر الحماس القومي والدينيّ (٤) لم تنتج الشيوعية السلع بنحو أكثر كفاءةً وفعاليَّةً مما قامت به مشاريع الاقتصاد الحرّ، كما لم توزِّعها على نحو أكثر إنصافاً، (٥) لم تُظهِر الدولةُ في الدول الشيوعية أي علامات على التقلُّص والتضاؤل.

ينتقل المدافعون عن الشيوعية، عندما يواجهون هذا السجلّ التنبُّئيّ البائس، من الحقيقة نحو العدالة: هل ننسى معاناة الجماهير الكادحة المقهورة؟ ولكن سجل الماركسية على صعيد الشفقة والرحمة لم يكن بأفضل من سجله على صعيد الحقيقة. في مسوّغاته لوسائل الشيوعية (التي غالباً ما كانت شيطانية) على أساس الغايات الإنسانية التي كان من المفترض أن تقود الشيوعية الناس نحوها، صبغَ ماركس حركته بعقليَّة دمويَّة لم يشهد لها التاريخ نظيراً إلا فيما ندر.

إن اكتشاف الحداثة للصورة الحقيقيَّة لآلهتها - التي عبدتها بكل حماس - بوصفها أصناماً فشلت وثبت بطلانها، أهمُّ حدث دينيّ في القرن العشرين.

بعد أن نظّفنا الساحة من تلك الأوهام، يمكننا أن نسبر الآن الأرض المحروقة لنرى فيما إذا كانت تُبدي لنا أيّ علامات على حياة جديدة.

الفصل ١٠

تمييز علامات الأزمنة

Discerning The Signs of The Times

على الأقل يمكننا القول إن الدِّين صمدَ أمام العاصفة وتجاوز محنته.

في عيد ميلاده الخامس والسبعين، نظر «مالكولم موغريدج» Malcolm Muggeridge إلى الوراء، إلى الزمن الطويل من عمره الذي أمضاه مراقباً للعالم بوصفه مدير تحرير صحيفة «مانشستر غارديان»، واستنتج أن الواقعة السياسية الواحدة الأكثر أهميَّةً في القرن العشرين كانت أنَّ الاتحاد السوفييتي، رغم استخدامه، مدة سبعين سنة كاملة، كل وسيلة متاحة وممكنة لإخماد الدين واستئصاله، لم يقدر على تحطيم الكنيسة الروسية الأرثوذكسية.

ويمكنني أن أضيف على ملاحظة «موغريدج»، بقاءَ الكنيسة المسيحية في الصين حيَّةً رغم مرورها بظروف مشابهة. فعندما غادر والدايَ المبشِّران الصينَ عام ١٩٥١ بعد أن أجبرا على الإقامة مدة تسعة شهور في بيتهم إقامةً جبريَّةً تحت سلطة الشيوعيين، اعتقدا أنَّ عملهما الذي صرفا حياتهما لأجله ذهب أدراج الرياح وأصبح بلا جدوى. لكن بعد ثلاثين سنة، عندما عدت لأزور أماكن طفولتي (في الصين)، وكان مَنْعُ الدِّين المنظَّم قد رُفِعَ هناك منذ عهد قريب، كانت الحيوية التي احتفظت بها الكنيسة سرِّياً تحت الأرض قد فاجأت الجميع. ولكي أتأكّد من ذلك، استطعت أن أحدِّد مكان الكنيسة الكبيرة التي اعتدنا على

الحضور فيها عندما كنا نمرّ من مدينة «شنغهاي»، و وصلت إلى هناك قبل أربعين دقيقة من خدمة صباح الأحد، فلم أجد مكاناً إلا غرفة الوقوف فقط. وكانت غرف مدرسة الأحد الستَّ عشرةَ التي أُوصلَتْ إليها أسلاك الصوت ممتلئةً جميعها أيضاً، وخلال فترة الإعلان في الخدمة، كان القسُّ يرجو جموع المصلين أن لا يحضروا إلى الكنيسة أكثرَ من مرَّة واحدة كلَّ يوم أحدٍ كي يعطوا مجالاً للآخرين أيضاً أن يستفيدوا من هذه المناسبة (منذ فترة وجيزة سمعت نفس هذا الالتماس في كنيستي أيضاً). بعد خدمة القدّاس وبينما كنت أتناول طعام الغذاء مع القسّ المتقاعد للكنيسة (الذي كان قد تعلَّم الإنجليزية من أبي)، سمعت قصصاً من أصحابها المباشرين تحكي ما كان على المسيحيين أن يعانوه ويتحمَّلوه أثناء الثورة الثقافية لـــ «مَاو»، مثلا كانوا يُجبَرون على لبس قبَّعات الأغبياء والسجود لمدة ساعتين على زجاج مكسَّر أمام جموع الغوغاء المستهزئين، وما شابه ذلك. تلك القصص كانت تتعلق بالمسيحية التي يُنْظَر إليه على أنهاً «دين الأجانب»، ولكن المسلمين والبوذيين عانوا أيضاً وكان عليهم أن يتحمَّلوا أصنافاً مشابهةً من الاضطهاد.

شَجَبَ «مَاوْ» كونفوشيوسَ واصفاً إياه بأنَّه كان برجوازيّاً، ومع ذلك فإن الأخلاق الكونفوشوية ما لبثت أن عادت بقوَّة إلى المدارس مرَّةً ثانيةً.

مثل هذه القدرة على المقاومة والتكيُّف وفقاً لتغير الطوارئ ثم استعادة الحيوية كاملةً، أجبرت حتى أولئك الذين ليسوا بمؤمنين على الاعتراف، المتَّسم بالاحترام، بقوَّة الدِّين وديمومته وقدرته على البقاء. لَمَّا لم يكتشف علماء الإنسان (الأنثروبولوجيا) أي مجتمع في تاريخ الإنسان دون ديْنٍ (واستناداً إلى مذهبهم العَمَليّ أو النفعي Functionalism الذي يرى أن المؤسسات التي لا تؤدِّي غرضاً سرعان ما تسقط وتزول)، أصبحوا يعتبرون الدِّينَ اليوم تكيُّفياً (قابلاً للتكيُّف). والأخصَّائيون في الأعصاب تتبَّعوا نفع وفائدة الدِّين حتى في بنية دماغ الإنسان نفسها؛ فَهُمْ يخبروننا أنه عندما يكون مترجم الدِّماغ الأيسر عاملاً بشكل صحيح، ونشطاً بنحوٍ انعكاسيّ في البحث عن الاتساق والفهم، فإن المعتقدات الدينية تكون أمراً حتميّاً لا يمكن اجتنابه.

لا شكَّ أن كاتباً مثل «ألكس كومفور» Alex Comfort الذي ألّف كتاباً بعنوان: «بهجة الجنس» *The Joy of Sex* هو أبعد ما يكون عن اتهامه بالتقوى المفرطة! ومع ذلك فإن حكم هذا الكاتب والعالم المتخصِّص بالشيخوخة Gerontologist يشابه الحكم الذي تمّ إعطاؤه للتوّ: «**إن السلوك الدِّينيّ مكاملٌ ضروريٌّ لتكامل رؤية الإنسان الذاتية الكليّة للعالَم**». ووصل عالم النفس «كارل يونغ» Carl Jung إلى استنتاجه الذي عبَّر عنه بعبارات واضحة قاطعة، انطلاقاً من ممارساته في التحليل النفسي فقال: «**يوجد في أعماق بنية الإنسان حاجةٌ دينيَّةٌ راسخةٌ**». وأما «فيليب ريف» Philip Rieff، العالم البارز والقيادي في علم نفس «فرويد»، فقد لفت الانتباه إلى هذه الجملة إلى جانب تشبيهه الإيمان بالصَّمغ الذي يمسك المجتمعات بعضها إلى بعض، مضيفاً أن إضعاف هذا الصَّمغ في القرن العشرين غيَّر سؤال «دوستويفسكي»[1] من «هل يمكن للإنسان المتحضِّر أن يؤمن؟» إلى: «**هل يمكن لغير المؤمنين أن يكونوا متحضّرين؟**». والقول المأثور الأكثر شهرة لـ«أندريه ميرو» André Mairaux هو «**إن القرن الواحد والعشرين سيكون دينياً أو لن يكون على الإطلاق**»[2].

كانت تلك الاقتباسات إشاراتٍ واضحةً إلى أن المفكرين المثقفين عادوا ثانيةً إلى أخذ الدِّين بكل جديَّة. لكن هذا مع ذلك، لا يمسُّ موضوع حقيقة الدِّين. إن المفكِّرين المطّلعين يؤمنون اليوم بالدِّين، ولكنهم هل يؤمنون بالله؟ بالطبع، بعضهم يؤمن وبعضهم لا يؤمن، وفيما يلي تقييمٌ للشعور العام مع انتباهٍ خاصٍّ للتغيُّرات التي يبدو أنها جارية.

---

(١) دوستويفسكي Dostoevsky (١٨٢١ – ١٨٨١): كاتبٌ روائيٌّ روسيٌّ. حكم عليه بالإعدام بسبب نشاطه الاجتماعي الإنساني ثم أوقف الحكم ونفي إلى سيبيريا (١٨٤٩ – ١٨٥٤) حيث عانى الكثير من الآلام الجسمية والنفسية. بدأ منذ عام ١٨٨٠ بتأليف القصص التي أكسبته شهرة عالمية مثل: الجريمة والعقاب (١٨٦٦) والأبله (١٨٦٨) والأخوة كارامازوف (١٨٨٠)، وهي تعكس بصيرة دوستويفسكي النفسية المتوقدة الذكاء، ودعابته المرة، واهتمامه بالمسائل الدينية والسياسية والأخلاقية، لاسيما تلك التي تتعلق بالمعاناة النفسية للإنسان.

(٢) أي إن التقدّم الهائل الذي أحرزه الإنسان في العلم، وسيطرته الفائقة على قوانين الطبيعة، إن لم تترافق مع إيمان ومُثُل فإنه سيستخدم تلك القوة في التنافس والسيطرة مما سيؤدي إلى دمار العالم.

ملاحظة اتجاه الرّياح

قبل عدة سنوات أشارت «مجلّة نيويورك لمراجعة الكتب»، إلى أنه: «يبدو أن هناك انبعاثاً للإيمان بالله أخذ يشغل حَيِّزاً بين المثقّفين». ونموذجٌ مهمٌّ واحدٌ من البراهين والأدلة على هذا الاتجاه، نجده في تأسيس «جمعية الفلاسفة المسيحيين» Society of Christian Philosophers. عندما أشرتُ إلى هذه الجمعية في موضع سابق من كتابي هذا، ذكرت هنالك أن المؤسَّسة الفلسفية لا تنظر بعين الرِّضا إلى فلسفة الدِّين بشكل عام (لا نتكلم هنا عن الفلسفة المسيحية). ورغم ذلك، فإن ظهور مثل هذه الجمعيَّة بحدّ ذاته، في الربع الأخير من القرن العشرين، يدلّ على حصول تغيُّرٍ هامٍّ. تشتمل هذه الجمعيَّة في عضويّتها على ألف وستمائة من العشرة آلاف عضو المنضوين تحت المنظّمة الشاملة والأوسع: أي الجمعية الفلسفية الأمريكية The American Philosophical Association، أغلبهم من الشباب، وتنشر مجلةً من الدرجة الأولى عنوانها: «الإيمان والفلسفة» التي شعارها في أعلى صفحتها الأولى قول «ترتوليان»[1] Tertullian المشهور: «إيمانٌ يطلبُ فهماً» *Faith seeking understanding*. حتى فلاسفة مثل «ليفيناس»[2] Levinas و«هايدغر»[3] Heidegger و«دريدا» Derrida مع أنّهم غير مسيحيين، وليس هذا فحسب، بل حتى من الذين يقاومون أن يُنعتوا بأنهم يؤمنون بالله، نجد كتاباتهم الأخيرة تبدو بنحو مفاجئ مشابهة لما نسميه «اللاهوت السلبي» للصوفيين الباطنيين الذين إلههم مخفيٌّ في «غيمة اللامعرفة (الذي لا سبيل إلى معرفته)».

---

(١) ترتوليان Tertullian (١٦٠؟ - ٢٣٠؟م.): لاهوتي مسيحي قرطاجي. يعتبر أحد أعمدة الكنيسة الإفريقية. دافع عن المسيحية وحمل على الهراطقة بقوة. كان يقول إن الإيمان الأعمى هو السبيل الأوحد إلى اليقين والخلاص.

(٢) ليفيناس، عمانوئيل Emmanuel Levinas (١٩٠٥ - ١٩٩٥) فيلسوف فرنسي معاصر من أصل ليتوانيّ.

(٣) هايديغر، مارتن Martin Heidegger (١٨٨٩ - ١٩٧٦): فيلسوف ألماني. يعتبر أحد أبرز ممثلي الفلسفة الوجودية. طوَّر الفيلسوف الفرنسي: "جان بول سارتر" بعض أفكاره. أشهر آثاره وأهمها كتاب (الوجود والزمن) Sein Und Zeit (عام ١٩٢٧)، وهو بحث فلسفي في معنى الوجود.

تحتلّ الفلسفة مكاناً خاصاً في كتابٍ عن تصورات العالم Worldviews مما يفسِّر السبب الذي جعلني أعطي الفلسفة هذه اللمحة الأوليَّة. وبعد أن قمت بذلك أعود الآن إلى المعنى الأوسع. وللبَدء سوف أشير بأصبعي إلى الرياح، محاولاً الحصول على شعور انطباعيّ عن الاتجاه الذي تهبُّ نحوَهُ:

- واصل «أندرو ديكسون وايت»[1] Andrew Dickson White في كتابه الذي عنونه بـــ «تاريخ المعركة بين العلم واللاهوت» *A History of the Warfare Between Science and Theology* نظرة أواخر القرن التاسع عشر التي ترى أن العلم و الدِّين واقعان في معركة متواصلة سينتصر فيها العلم في النهاية بكل تأكيد. وقد انضم المثقفون إليه في هذه الرؤية في معظم القرن العشرين، ففي عام ١٩٦٥ كتب المؤرخ «بروس مازليش» Bruce Mazlish (وكان حينذاك زميلي أثناء التدريس في معهد ماساتشوسيت للتكنولوجيا): «إنه مما لا ريب فيه أن هذا النموذج من المعركة سيواصل بقاءه متحصّناً بشكل صَلْب كمعركة مهيمنة». اليوم تغيَّر هذا كله، فقد بلغ الانتصار العلمي ذروته، وازداد أمل تعايشه السلمي مع الدِّين.
- ظهر مؤخَّراً كتابٌ أحدث اختراقاً مفاجئاً وتقدّماً معرفياً كبيراً في حقل الدراسة الأكاديمية للدِّين، وكان على تباين حادٍّ جداً مع العداء الشديد الذي كان يظهره علماء الاجتماع في القرنين التاسع عشر والعشرين ضدّ الدِّين. ففي نهاية القرن العشرين أثبت الآنثروبولوجي «روي رابابورت» Roy Rappaport (الرئيس

---

(١) أندرو ديكسون وايت Andrew Dickson White (١٨٣٢ - ١٩١٨) عالم تربية وتاريخ ودبلوماسي أمريكي. تخرّج من جامعة ييل عام ١٨٥٣ ثم أكمل دراسته في باريس وبرلين. أصبح ملحقاً ثقافياً في سفارة الولايات المتحدة في مدينة (سان بيتر بورغ) في روسيا، من ١٨٥٤ إلى ١٨٥٥، ثم أستاذاً للتاريخ في جامعة مشيغان حتى ١٨٦٣، وفي عام ١٨٦٧ أصبح رئيس جامعة كورنيل Cornell University، ثم عمل سفيراً للولايات المتحدة في ألمانيا وروسيا في عدة فترات. ترأس عام ١٨٩٩ الوفد الأمريكي إلى مؤتمر سلام لاهاي، الذي أسّس محكمة لاهاي الدولية لتحكيم النزاعات بين الأمم. انتُخب عام ١٨٨٤ أول رئيسٍ للجمعية التاريخية الأمريكية.

السابق للجمعية الآنثروبولوجية الأمريكية) في كتابه «الطقوس والدين في صناعة البشرية» *Ritual and Religion in the Making of Humanity* أن الدِّين كان ذا مقام مركزيٍّ في التطور منذ أن ظهر النوع الإنسانيّ، وسيستمرّ في بقائه في مركز أي تقدّم ثقافي قد نحقّقُهُ بعد الآن وفي المستقبل.

- تنبّأ رئيس جامعة ماساتشوسيت «ديفيد ك. سكوت» David K. Scott – عالم فيزياء متمرّن – بعودة الدِّين إلى الجامعة، ليس في أقسام الدراسات الدِّينيّة فحسبْ (الذي يترك سائر الأقسام تتجاهل الموضوع)، بل في طرق ستمكّن الطلاب من التصارع خلال كل فترة دراستهم الجامعيّة مع الأفكار والقضايا المتعلّقة بالقيم النهائية المطلقة، والمعاني والأهداف. ويضيف قائلاً إن هذا ليس عودةً إلى جامعة القرون الوسطى، لكنّه مواجهةٌ لحقيقة أنّ البندول كان قد تأرجح بعيداً جداً في الاتّجاه المعاكس.
- لقد تصوَّرَ «سكوت» Scott: «جامعةً تكامليّةً» تكون الروحانية فيها حليفاً للعلم بدلاً من كونها عدواً له، ويتمّ تعليم الطلاب فيها كي يكونوا مواطنين صالحين ملتزمين في مجتمعٍ ديمقراطيٍّ منوّرٍ مثقّف. وهو يرى أن الدستور لا يشكّل عقبةً في هذا الأمر، وأن الجامعة كانت تتحجّج به سابقاً كمانعٍ رأته مناسباً ضدَّ أخذ الدِّين بجديّة.
- ارتفعت مبيعات الكتب الدينيّة بنحوٍ مدهشٍ (بنسبة ٥٠ ٪ في السنوات العشر الأخيرة)، ودخل الدِّين إلى مضمون كتابات بعض كتّابنا الأكثر احتراماً. حملت الكاتبة «فلانري أوكونور»[(١)] Flannery O'Connor والكاتب «واكر برسي»[(٢)] Walker Percy المشعل خلال السنوات الصعبة التي تَلَتْ كُتّاباً

---

(١) فلانري أوكونور Flannery O'Connor (١٩٢٥ – ١٩٦٤) كاتبة قصصية أمريكية، ركّزت في رواياتها وقصصها القصيرة على الفساد والانحراف الروحي والهروب من التصالح مع الله في المجتمع الأمريكي، واتّسمت رواياتها بالطابع الديني العميق والمقنع، مما أكسبها مكانة فريدةً بين كتاب القصص القصيرة في القرن العشرين.

(٢) واكر برسي Walker Percy (١٩١٦-١٩٩٠)، كاتب وروائي أمريكي معاصر اشتهر بسبب روايته المعروفة («الشخص المرتاد للسينما» The Moviegoer (١٩٦١)، التي نال بها الجائزة الوطنية لكتابة القصّة عام ١٩٦٢.

أمثال: «ت. أس إليوت» T. S. Eliot، و«غراهام غرين»[١] Graham Greene و«دبليو إتش أودين»[٢] W. H. Auden. ويُعتَبَرُ «شاول بيلو»[٣] Saul Bellow و«توم وولف»[٤] Tom Wolfe و«جون أبدايك»[٥] John Updike، ثلاثة كتّاب مرموقين ذوي حساسيَّة مرهفة تجاه المواضع الهامة والدقيقة على الخطّ الذي يفصل هذا العالم عن العالم الآخر. وصف «أبدايك» Updike قصَّة الكاتب «توم وولف» Tom Wolfe: «رجل بالكامل» *A Man in Full* أنها رواية تحكي «كل شيء عن الدين». وخلافاً للكاتبَين الآخرَين المذكورَين، فإن الكاتب «أبدايك» صريح وواضح بشأن وجهة نظره الدينيَّة، إنه يقول: «إذا كان هذا العالم الطبيعي كلَّ شيء، إذن سيكون عبارة عن جحيم مغلقة حُبسنا فيها سجناء مقيَّدين بالأغلال، ومحكوم علينا أن نشاهد السجناء الآخرين يذبحون الواحد تلو الآخر.».

---

(١) غراهام غرين Graham Greene (١٩٠٤-١٩٩١)، روائي إنجليزي، اهتم في كتاباته بالكفاح الروحي في عالم فاسد منهار أخلاقياً. عالجت كتاباته بنحو جدّيّ المشاكل الاجتماعية والأخلاقية والدينية لعصره.

(٢) دبليو إتش أودين W. H. Auden شاعر وكاتب مسرحي وناقد أدبي أمريكي بريطاني الأصل (١٩٠٧-١٩٧٣)، اعتبره الكثيرون أهم شاعر معاصر باللغة الإنجليزية بعد ((تي. إس. إيليوت» T. S. Eliot. كان شاعراً يسارياً ريادياً، دعم الجمهوريين في الحرب الأهلية الإسبانية (بين الجمهوريين والملكيين) وكتب في ذلك روايته (إسبانيا) (١٩٣٧). بعد هجرته إلى أمريكا، واصل نشر دواوين شعره وكان من أشهرها ديوان ((عصر القلق» The Age of Anxiety (١٩٤٧) الذي نال عليه جائزة بوليتزر Pulitzer Prize.

(٣) شاول بيللو Saul Bellow (١٩١٥ -)، روائي أمريكي معاصر، فائز بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٧٦. تصوّر رواياته كفاح الأفراد المهاجرين لأمريكا للحفاظ على هويّاتهم الشخصية في مجتمع اللامبالاة الأمريكي.

(٤) توم وولف Tom Wolfe (١٩٠٠-١٩٣٨)، كاتب أمريكي، كان لرواياته تأثير هائل على قرّاء عصره. اتَّسمت رواياته بالحماس والعاطفة الجيَّاشة، ويدور محورها حول الإيمان بالمثل والقيم الدائمة وأنه رغم الفساد في مجتمعه إلا أنه يحتفظ بإيمانه الشاعري الحنون بالطيبة الجوهرية للشعب الأمريكي وعظمة أرضه.

(٥) ((جون أبدياك» John Updike (١٩٣٢ -)، كاتب أمريكي معاصر، عرف بكتاباته حول مشهد سكان ضواحي المدن الأمريكية. اشتهر بنثره الممتاز الذي يستكشف التوتّرات المخفية لحياة الطبقة المتوسطة الأمريكية. تواجه شخصياته عادةً اضطرابات شخصية كثيرة ويتوجَّب عليها أن تستجيب لأزمات تتعلق بالدِّين والالتزامات العائلية والخيانة الزوجية. نال أكثر من مرة جائزة بوليتزر الأمريكية على قصصه، كما نال عام ١٩٦٣ الجائزة الوطنية الأمريكية لكتابة القصَّة.

• يطالب شعار «التمسُّك بالحقائق، والحقائق فقط» الصحفيين أن يرووا الوقائع كما هي بعيداً عن آرائهم ومعتقداتهم الشخصيَّة. لكن لم يعد غائباً عنهم أن الدِّين أصبح رائجاً وأصبح له راغبون ومشترون كثيرون. وكل صحفيٍّ قدير وكفيٍّ، كما يقول «بيل مويرز»[1] Bill Moyers، يعرف أن السؤال المهمّ والكبير في يومنا هذا هو: «ما هي الروح الإنسانية؟»، وأن هذا السؤال تم توجيهه على عدة جبهات. كانت قصة غلاف مجلَّة «النيوزويك» Newsweek لعام ١٩٩٨، ذلك الشعار القائل: «**العلم يجد الله**». وقد لحقت العديد من المجلات المنافسة الأخرى بها وقلدتها في طرح هذه الفكرة. على سبيل المثال خصَّصت مجلَّة «بيزنس ويك» Business Week قصة غلافها لطبعة عام ١٩٩٩ التي مثَّلت عيدها السبعين لموضوع: «الدِّين في موقع العمل: الحضور المتزايد للروحانية في الشركات الأمريكية».

• أحد أكثر العلامات تأكيداً على أن هناك أمراً ما دخل الوعي العام، هو التقاط رسامي الكرتون لهذا الأمر في أفلامهم. سيتذكَّر بضعة قرَّاء فيلم كرتون «نيويوركر» The New Yorker الذي صوَّر صورة مدير تنفيذي يجلس القرفصاء على مكتبه بينما كانت سكرتيرته توقف زائراً وتمنعه من الدخول قائلة: «آسفة، ولكن السيد "ماسون" الآن في وحدة مع الكلِّيّ في هذه اللحظة». ويأتي الوعَّاظ التلفزيونيُّون اليوم في المرتبة الثانية بعد المسلسلات ذات النسبة الأعلى من المشاهدين مثل مسلسل «ممسوس مِنْ قِبَل ملاك» *Touched By an Angel*؛ ولأكثر من خمسين سنة بعد أول إرسال إذاعي له لا يزال البرنامج الإذاعي المسيحي «المحرَّر من الأغلال، مولود من جديد» لا يزال مستمراً بكلّ قوَّة تدعمه ١٢٠٠ محطَّة في أكثر من ١٤٠ بلداً.

---

(١) مويرز، بيل Bill Moyers (١٩٣٤ -)، ناشر أمريكي معاصر، ومحرِّر، ومنتج أفلام وثائقية، وصحفي إذاعي، عرف بمهارته في إجراء المقابلات. بدأ منذ ١٩٨٨ بإنتاج أفلام وثائقية عديدة، صوَّرها في أنحاء العالم كافة، كما نشر سلسلة: "عالم الأفكار" A World of Ideas التي تتحدث عن العديد من الشخصيات الأدبية والسياسية.

• لم تعد الإنسانية[١] Humanism العلمانية نداء أو صرخة المعركة الموثوقة مثلما كانت يوم تجمَّع المثقَّفون عام ١٩٣٣ حول «جون ديوي» John Dewey ليدوِّنوا المانيفستو (أي البيان الرسميّ العام) الإنسانيّ، وبقي ذلك المانفستو الأوَّليّ سائداً دائماً على نحوٍ صلب. واشتمل الموقِّعون عليه بدءاً من «ديوي» نفسه على أسماءَ لامعةٍ في كلِّ حقلٍ من حقول الثقافة، من بينها: (الكاتب والروائي المتخصص بقصص الخيال العلمي): «إسحق آسيموف» Isaac Asimov، و(الشاعر و الناقد الأدبي): «جون تشاردي»[٢] John Ciardi، و(عالم النفس) «بي إف سكينر» B. F. Skinner. ولكن المانيفستو الثاني المُجَدَّد الذي صدر عام ١٩٧٣ بدا دفاعياً أكثر منه واثقاً. أما المانيفستو الثالث عام ١٩٩٩ فإنه اقترب من القراءة بصوت خافت يشبه صوت إغلاق الباب، ولم يكن من بين الموقِّعين عليه أيُّ اسمٍ لامع.

• يتمّ البحث اليوم عن المصادر الروحانيَّة للصحَّة واستكشافها بنحوٍ جدِّي. لقد طُلِبَ منِّي، خلال الأشهر الثلاثة الماضية، خمس مرات، من «سياتل» إلى «جامعة فلوريدا» أن ألقي محاضرات على مستمعين يتألفون حصراً من علماء نفس وأطباء نفسانيين، وموظفين يعملون أخصائيين اجتماعيين نفسيين، حول العلاقة المتبادلة بين عملهم - في حقل علم النفس - وبين اختصاصي (في موضوع الدين). ويبدو أن هناك شبكة من المجموعات من أمثال أولئك الذين دعوني يشتدّ عزمها وتزداد قوَّةً.

---

(١) الإنسانية Humanism وجهة نظر أو فلسفة تهتم حصراً بالإنسان بدلاً من الاهتمام بأمور دينية قدسية أو ما وراء طبيعيَّة، وتؤكّد على قيمة الإنسان وعلى الحاجات الإنسانيَّة الدنيويَّة المشتركة وتبحث عن حل لها باتباع طرق عقلانية محضة بعيداً عن أي تعويل على تعاليم دينية أو غيبية حيث تؤمن بقدرة الإنسان على تحقيق الذات من طريق العقل والمسؤولية والتفكير.

(٢) جون تشاردي (١٩١٦-١٩٨٦)، شاعر أمريكي وأستاذ جامعي وناقد أدبي، عمل في الفترة من ١٩٥٦ وإلى ١٩٧٢ محرِّراً للشعر في مجلة السبت الأسبوعية (العالَم) مع تدريسه في جامعة هارفرد. ترك حوالي ٤٠ مجلدا من الشعر والنقد الأدبي. اهتم بشكل خاص منذ ١٩٨٠ بعلم أصل الكلمة الإنجليزية English etymology، فكان يقدم برنامجاً إذاعياً أسبوعياً قوياً عن الموضوع عنوانه: "كلمة في أذنك" A Word in Your Ear.

كم من الورود والعصافير نحتاج لنقول إن الربيع قد بدأ. يمكن أن نوسع القائمة أعلاه إلى حد كبير، لكن من السهل أيضاً الإتيان بقائمة من الأمثلة المعاكسة لا تقل عنها طولاً. ويبقى على القرّاء أن يقرّروا بأنفسهم أي القائمتين يجدونها أكثر دلالة.

كتاب 'الثقافة المضادّة' و'حركة العصر الجديد'

أعتقد أن «ناثان بزي» Nathan Pusey هو الذي ميّز جامعة «هارفرد» بجعلها تجمُّعاً لأقسام مستقلّة ذاتياً لا يوحّدها إلا مركز تدفئة مركزي، وهو وضع غريب وطريف!. مجموعات من الأساتذة والعلماء يشكّلون شيئاً من الماضي، ولكني شهدتُ استثناءً واحداً. أثناء السنتين اللتين درّستُ خلالهما في معهد ماساتشوسيت للتكنولوجيا، حدثَتْ معجزة. تكاتف القساوسة الملحقون بالمعهد مع بعضهم وبدأوا سلسلة ندوات شهريّة حول موضوع: **«التقنيّة والثقافة»** لَقيَتْ نجاحاً كبيراً. في كلّ شهر كانوا يدعون عضواً بارزاً من الكليّة لكي يلقي محاضرةً يعبِّرُ فيها عن آرائه بشأن قضيّة اجتماعيّة أهمّتْهُ (أو أهمّتها)، ثم تتلو ذلك مناقشة عامّة. كنّا نملأ المدرَّج (قاعة المحاضرات) كلّ مرّة وبهذا اختبرنا معهدنا بشكل جديد. أذكر ذلك لأصل إلى الندوة – التي أتذكّرها ضمن تلك السلسلة– والتي لا يمكنني الآن تذكُّر اسم المحاضر فيها، ولكنني أتذكّر جيّداً كيف بدأ محاضرته. أخبرنا وهو يرفع بيده كتاب «صناعة ثقافة مضادّة» *The Making of a Counter Culture* لـــ «تيودور روسزاك» Theodore Roszak، الذي كان قد صدر حديثاً، كم أزعجه ذلك الكتاب! وقال إنه قرأه بتمامه مرّتين محاولاً أن يفهم لماذا يريد بعض الشباب أن يكونوا عدائيين للعلم محبوبه الأول طيلة حياته.

أصغيتُ حينها إلى كلامه بانتباه شديد، لأنني كنت قد كتبت للتوّ مقالاً ذا عنوان كبير هو: «"طاو"[1] الآن» Tao Now، أثبتُّ فيه أنّ وجهتي النظر الآسيويّة والغربيّة حول

---

(١) يشير إلى المعلم الصوفي الصيني «طاو» Tao الذي كان من جملة تعاليمه التقديس الهائل للطبيعة بوصفها مظهر «الطاو» سرّ الوجود الساري في كل شيء.

الطبيعة، اصطدمتا حول فونيمة[(١)] phoneme واحدة: «طاو» Tao و«داو» Dow اللتين تلفظان على نحو متطابق، وكنّا في ذلك الوقت في ذروة الاحتجاجات ضد حرب فيتنام التي حوّلت شركة المنتجات الكيميائية «داو» Dow إلى رمز للبتاغون من خلال صناعتها لقنابل «النابالم». وسألتُ في المقالة: أيٌّ من الخيارَين اللغويَّين نريد أن نعهد إليه بمستقبل البشرية، هل الأول: **البيئي** (الذي يحترم الطبيعة ويحافظ على البيئة) بنحوٍ عميق، أم الثاني: **التدميري** بنحوٍ عنيف؟؟

غنيٌّ عن القول أن المحاضر عاد بقوّة بعد الظهر ليتكلم عن ضرورة التمييز والفصل بين العلم بحدّ ذاته، والاستخدام الخاطئ له، ولكن لن تفوتنا (أتكلّم الآن إلى نفسي) الحقائق الواضحة والأكيدة لهذا الوضع: (١) أعطانا العلم قوّةً غير متوقَّعة على الطبيعة، و(٢) لا يملك البشر اليوم حكمة وفضيلة الامتناع عن استخدام تلك القوة لتحقيق المكاسب الشخصية التي تعمل ضد الصالح العامّ. وبالتالي فإن «**العِلْم**» Science لم يَعُدْ يُنظَر إليه بوصفه المسيح المنتظر الذي سينقذنا.

إن غضب «روسزاك» Roszak في كتابه «**الثقافة المضادّة**» كان مُنصَبّاً بشكل أوّليّ وأساسيّ على الاستخدامات التدميريّة للتقنيّة، في حين أن خليفته «**حركة العصر الجديد**» ثارت ضدّ الجانب الآخر لقصّة «**العِلْم**»: أي **التصوُّر العلميّ** للعالم والقيود التي يضعها على إنسانيتنا الكاملة. إن مؤيّدي كتاب «**الثقافة المضادّة**» يريدون الخروج إلى الخارج، أي خارج سجن **ذلك التصور العلمي للعالم**. ولأنهم يفتقرون إلى المرشدين المحنّكين، فإنّ حماسهم للعصر المائي مال بهم على نحو مجنون، ومن الناحية المفاهيمية كانت "**حركة العصر الجديد**" فوضى حقيقيّة. الأهرامات، البندولات، علم التنجيم، علم البيئة، النباتية[(٢)] والمهدِّئات (نعود إلى الدين كقيود غذائيّة)؛ التعاويذ، الطب البديل، العقاقير

---

(١) الفونيمة: إحدى وحدات الكلام الصغرى التي تساعد على تمييز نطق لفظة ما عن نطق لفظة أخرى في لغة أو لهجة (مثلاً: الـ p. في pin والـ f في fin هما فونيمتان مختلفتان).

(٢) النباتية: نظرية العيش على الخضروات و الحبوب و الفاكهة فقط.

المخدِّرة، المخلوقات الموجودة خارج الأرض، تجارب الاقتراب من الموت، إحياء الأمور العتيقة، الوثنية الجديدة، الشامانيَّة[١]، كل هذه وغيرها يدفع بعضها الآخر بخشونة وحماس وبنحوٍ مختلطٍ مشوَّش. وعندما ننظر فيها نجدها جميعاً «غايا» Gaia [٢]. إن "حركة العصر الجديد" بوصفها ساذجة إلى حدٍّ مفرط – العقل المنفتح شيء جيد بشرط ألا يبلغ بانفتاحه حد فقدان مفاصل الباب نهائياً (!) – صعبةٌ ومثيرةٌ للكثير من المشكلات، الأمر الذي يجعلني أتركها وحدَها بسرور ومن دون تدخُّل سوى أن أذكر أن لديها شيئين صحيحين تماماً: الأول أنَّها متفائلة، ونحن نحتاج إلى كل أملٍ يمكننا الحصول عليه، والثاني: أنَّها ترفض بإصرارٍ أن ترضخ للتصور العلمي للعالم لأنها بغريزتها الفطريَّة تعرف أن الروح الإنسانية أوسع من أن تقبل **القفصَ** بيتاً ومسكناً لها.

زيارة من جديد لعمالقة الحداثة الأربعة

بعد «كانط» و«هيغل»، كان المهندسون الرئيسيون للعقل الحديث هم: «تشارلز داروين» و«كارل ماركس» و«نيتشه» و«فرويد» و«آينشتاين». أمّا «آينشتاين» فلم يهدِّد الدِّين، وعندما سُئِل هل تؤمن بالله؟ قال: «نعم إله سبينوزا». ومع أن إله سبينوزا ليس إله إبراهيم وإسحق ويعقوب، إلا أنه إلهٌ قديرٌ على كل حال[٣]. أما الأشخاص الأربعة الآخرون فقد أتعبوا الدِّين وأرهقوه. وإذا لخَّصنا دعاويهم بالشعارات التي رفعوها فإن تهممهم للدِّين تتلخص فيما يلي: الدِّين أفيون الشعوب، والدِّين وهمٌ، والدِّين يربِّي فينا

---

(١) الشامان عرّاف ومداوي ومرشد أرواح يستمد قوته من اتصاله في حالة الوجد بالآلهة والأرواح – سواء أرواح الأحياء أم أرواح الحيوانات أم النباتات – ويصبح الشامان قادراً على العلم بأشياء بعيدة، وصنع خوارق باهرة (أي نوع من السحر). وجدت الشامانية لدى المغول في منغوليا وفي سيبيريا وسائر الشعوب القطبية مثل قبائل الإسكيمو والشوكتي، كما وجدت في ديانات كثيرة في أفريقيا وإندونيسيا وإسرائيل القديمة واليابان.

(٢) غايا Gaia: اسم الأرض باللغة الإغريقية وهي اسم لنظرية تعتبر الأرض نظاماً قائماً بذاته ينظم ذاته بذاته وتتشكل فيه المادة الحية بنحو تجمُّعي وتحافظ ذاتياً على الظروف اللازمة لاستمرار الحياة.

(٣) كان سبينوزا (الفيلسوف الهولندي في القرن السابع عشر) يؤمن بوحدة الوجود وأنه لا يوجد سوى الله ولا يوجد شيء غير الله، بل كل ما يوجد فهو الله نفسه في امتداداته المختلفة.

عقليّة العبوديّة، والدِّين شيء زائدٌ (لا ضرورة له). وهي شعارات تمّ ترديدها مثل الكليشهات في العقل الحديث. يشكّل مؤلفوها الأربعة مع بعضهم كتيبة هائلة ينبغي على الروح الإنسانية أن تواجهها. إلا أنه من العلامات ذات الدلالة و المغزى أن نظرياتهم تمّ تحدّيها. ليس كل شيء في نظرياتهم تمّ تحدِّيه. سيحتفظ الأربعة جميعهم بمكانهم في التاريخ، ولكنه سيتمّ تذكرهم بتحفُّظٍ كبيرٍ خلافاً للصورة التي حظوا بها في البداية.

تشارلز داروين

كون الحياة بدأت على هذا الكوكب في رواسب طينية أساسية قبل حوالي ثلاث ونصف بليون سنة، وتطورت شيئاً فشيئاً إلى التركيبة البشريّة المعقّدة أمرٌ يبدو صحيحاً ولا يزال يحتفظ بقوّته، مثله مثل اكتشاف داروين أن الاصطفاء الطبيعي الذي يعمل على الطفرات والتغيّرات التصادفيّة، يلعب دوراً في تلك العمليّة. ولكن حتى عندما يتم إضافة أسباب وعلل أخرى جديرة بالملاحظة (مثل الظروف التاريخية الطارئة والتغيرات البيئيّة) إلى الصورة، لا يظهر الاصطفاء الطبيعي ممتلكاً للكثير من القدرة على تفسير ما توقّعه مخترعه منه. إذا أخذت نظرية الاصطفاء الطبيعي كتفسير كاملٍ للأصول الإنسانيّة فإن هذه النظريّة بدأت تشابه النظريّة البطليموسيّة[1] عندما أصبحت على شفير الإفلاس: إذْ كلّما واجهت النظريّة صعوبات، كان يُضاف تعديلٌ جديدٌ لإنقاذها من الانهيار. مثلاً عندما وجد أصحاب النظرية أن الأشكال الانتقالية مفقودةٌ وناقصةٌ بشكل صارخ في بعض مراحل سجلّ المستحثّات، طرحوا مبدأ التوازن التأكيدي ليملؤوا به الفجوة قائلين: لقد حدثَ الأمرُ على نحوٍ سريعٍ جداً (ثلاثون مليون سنة أو نحوها فقط!) أكثر مما يمكنه أن يترك ترسُّبات كافية لملاحظتها. وهنا يهيج النقاش بسرعة كهيجان النار، ولكن تبرز نقطة بشكلٍ

---

(١) البَطليموسيّة: نسبةً إلى بطليموس عالم الفَلك والجغرافيا الذي سطع نجمه في الاسكندرية (١٢٧ - ١٥١ ب. م) ويشير بالنظرية البطليموسيّة إلى نظام بطليموس في الفلك القائل بأن الأرض هي مركز الكون الثابت، وأن الشمس والقمر والكواكب السيارة كلها تدور حول الأرض (!).

واضح (طبعا لكل الناس ما عدا الذين سبق أن أخذوا قرارهم من قبل وعزموا على عدم التزحزح عنه): الداروينية لم تدفع اللهَ خارج العلميّة التطوُّريّة كما اعتقد داروين أنها ستفعل.

أواصل الآن كلامي بشكلٍ قصصيٍّ. في صيف عام ١٩٩٧ دُعيتُ لإلقاء سلسلة من المحاضرات على مدى أسبوع في معهد «تشوتاكوا» شمال نيويورك، واخترتُ لإحدى المحاضرات موضوعَ التطوُّر، وخلال تعقيبي على إحدى المحاضرات قرأت على المستمعين رسالةً مفتوحةً كنت قد كتبتها و وجَّهتها إلى "**الجمعيّة الوطنيّة لمعلمي علم الأحياء**". في تلك الرسالة طلبتُ من الجمعيّة أن تنظر في إسقاط كلمتين تحريضيّتين من تعريفها الرسمي للتطوُّر. ثم نقلتُ ذلك التعريف وأشرتُ إلى الكلمتين المطلوب حذفهما: «التطوُّر عمليّةٌ طبيعيّةٌ "*غير مُشْرَف عليها*" و"*غير شخصية*" ذات طبيعة زمنيّة من خلال تغيرات جينية (في المورِّثات) تأثَّرت بالاصطفاء الطبيعي والصدفة والظروف التاريخية الطارئة والبيئات المتغيرة»، ثم أردفت في رسالتي متسائلاً: «هل اكتشف علماء الأحياء أية حقائق تثبت أن عمليّة التطور تمَّت فعلاً بنحو «*غير مُشْرَف عليه*»، و«*غير شخصي*»؟. إن لم تكتشف ذلك فهل يمكن لجمعيّتكم أن تنظر في حذف تينك العبارتين اللتين يراهما كثيرٌ من الأمريكيين مهدِّدتين لإيمانهم بأن الله له يدٌ في تلك العمليَّة؟.

وفعلاً وضعت الرسالة في الظرف و أغلقته و لصقته وذهبت إلى صندوق البريد في «تشوتاكوا» ورميت الرسالة.

بعد عشرة أيام، وقد عدت إلى بيتي، استلمت رسالة من المدير التنفيذي للجمعيّة الوطنيّة لمعلمي علم الأحياء، بدأت بشكري على اللهجة المتحضِّرة و المؤدبة لرسالتي. وذكر المدير في رسالته أن أغلب الرسائل التي تستلمها جمعيتهم تصمهم بأنهم عملاء للشيطان وأنهم سيذهبون إلى الجحيم مباشرة. أمّا رسالتي فكانت على الأقل مهذَّبة. وبعد تلك المقدمة واصل كلامه قائلاً إن هيئة الجمعيَّة سوف تجتمع في آخر ذلك الشهر وأنها تنوي أن تضع رسالتي ضمن جدول أعمالها.

وجدتُ هذا الأمر مثيراً للاهتمام وأطلعت محطة الأخبار الدِّينيّة عمّا حدث. القصّة التي تمَّ الإخبار بها عند نهاية المسلسل تضمَّنت هذه الحقائق:

تجتمع هيئة "**الجمعيّة الوطنيّة لمعلمي علم الأحياء**" مدّة أربعة أيام في كل سنة. في اليوم الأول لاجتماعهم السنوي تلك السنة، نظر المجتمعون في رسالتي لمدَّة عشر دقائق وصوَّتوا بالإجماع على رفض الاقتراح الذي تقدَّمْتُ به. ولكن القضية لم تنته عند ذلك. لقد علمت أن أعضاء اللجنة واصلوا مناقشاتهم ومداولاتهم فيما بينهم بشأن موضوع تلك الرسالة في المصاعد، والممرات، وأثناء ساعات الكوكتيل، وفي اللقاءات الفرديَّة على مدار الأسبوع. وفي آخر بندٍ من أعمال اجتماعهم السنوي أعادوا رسالتي إلى طاولة البحث، وهذه المرة تناقشوا حولها مدة أربعين دقيقة، ثم صوتوا بالإجماع على قرارٍ مناقضٍ تماماً لقرارهم السابق: لقد قبلوا فعلاً بحذف تينك العبارتين من نصّ تعريفهم الرسمي للتطوُّر.

ولكن القصة لم تنته أيضاً بذلك. وأذكِّر هنا بـأنني أنقل هذه الواقعة لأبين ما يجب التخلِّي عنه في «الداروينية». في الواقع، بعد سنتين، دخلتُ في جولة نِزَالٍ ثانيةٍ مع هذا الخصم.

مبتهجاً بنجاحي في الجولة الأولى، عندما علت الضوضاء وثار اللغط حول تدريس موضوع التطوُّر في ولاية "كانساس" عام ١٩٩٩، قرَّرْتُ أن أجرِّب حظِّي مرة ثانية وأرسل اقتراحاً ثانياً للجمعيّة الوطنيّة لمعلِّمي علم الأحياء. اقترحتُ هذه المرَّة أن تنظر الجمعية إلى توصية جديدة أقترحها لحلّ المشكلة وهي أنه في كل وقت يبدأ فيه تدريس المقرَّر التعليمي لموضوع التطوُّر، يقوم أستاذ المادَّة بتوزيع ورقة تنصُّ على شيء يشبه ما يلي:

> ما سندرسه الآن هو مقرَّرٌ تعليميٌّ في "العِلم"، وبوصفي معلِّمكم، فإنَّ من مسؤوليتي أن أعلِّمكم ما اكتشفه العلم في التجارب والمختبرات حول الآليّة التي برزت فيها الحياة و تطوَّرت على هذه الكرة الأرضية. نحن العلماء مقتنعون أننا نعلم جزءاً هامّاً من هذه القصة، وسوف أبذل قصارى جهدي لأشرح لكم هذا الجزء.

ولكن رغم ذلك، هناك الكثير مما لا نزال نجهله، مّما يدع أمامكم مجالاً واسعاً لتملؤوا تلك الفجوة كلٌّ حسب قناعاته الفلسفية أو الدينية.

وأضفت في رسالتي أن جملة: «هناك الكثير مما لا نزال نجهله» نصٌّ مقتبس بحروفه من كلام بروفسور علم الأحياء والنصير القويّ لنظريّة التطوُّر: «ستيفن جاي غاولد»[1].

أشعرني المدير التنفيذي للجمعية باستلامه لرسالتي وعبَّر عن شكره عليها، مع إشارته إلى أنه يشكُّ أن ينال هذا الاقتراح الثاني القبول. وكان هذا آخر ما سمعته في القضية.

عندما أنظر الآن إلى الوراء إلى هذه المحاولة الثانية، أعترف أن التكتيك الذي اقترحته قد لا يكون التكتيك الصحيح، ولكنني مع ذلك لا أدري لماذا لا يكون تقديم مثل غصن الزيتون هذا (بادرة سلميّة ليس فيها أي أذى للعلم بأي نحوٍ من الأنحاء) لماذا لا يكون فيه خيرٌ لنا جميعاً. وعلى كلّ حال سوف أعود إلى موضوع التطوُّر مرة ثانية في الفصل القادم. ولكني أريد أن ألخص فكرتي هنا:

حتى الآن توفر النظرية «الداروينية» تفسيراً جزئياً لكيفية مجيئنا نحن البشر إلى هذه الأرض، وهذا الجزء من «الداروينية» ينبغي تعليمه، كما أنه من الجهة الأخرى يجب بذل الجهود لملء الفجوات التي لا تزال موجودة في تلك النظرية. أمّا الادّعاءات العريضة التي تصل إلى حدّ اعتبار النظريّة «الداروينية» نظريّة كاملة تمثّل قمّة القصّة إلى درجة تسمح لها بأن تدّعي أنه لا يوجد سبب للتفكير بأن تكون أي عللٍ أخرى أيضاً لعبت دوراً في تكوُّن الإنسان (بعض تلك العلل قد لا يكون تجريبيًّا)، فهذا ما يجب الكفّ عنه.

---

(١) ستيفن جاي غاولد Stephen Jay Gould (١٩٤١ - ٢٠٠٢) عالم أحياء أمريكي من أنصار نظرية التطور وعالم بالمستحثات الجيولوجية، ومؤلف لعدد من الكتب الشعبية في العلوم وكاتب لعديد من المقالات التي تبسط المعطيات العلمية في علم الأحياء للجمهور العام. ولد في نيويورك ونال الدكتوراه في عالم المستحثات من جامعة كولومبيا، وأمضى كل حياته المهنية أستاذاً للجيولوجيا ثم علم المستحثات في جامعة هارفرد.

كارل ماركس

ينبغي أن لا ننسى أبداً شفقة ماركس على المظلومين المسحوقين، لا سيما كما تظهر في كتاباته المبكرة، فعاطفته تلك تنافس في قوة تأثيرها وتحفيزها صيحات الأنبياء العبرانيين. لا شك أن صرف أربعين سنة في المتحف البريطاني لأجل الخروج بقراءة للتاريخ تقدِّم أملاً للجماهير يُعْتَبَرُ تفانياً وإخلاصاً كبيراً لقضية، لا يقل عن تفاني «الأم تيريزا». أما صحة برنامجه الذي اقترحه لتحقيق رؤيته فهي مسألة أخرى.

لقد سبق و أشرنا في الفصل السابق إلى أنَّ أياً من تنبُّؤات "ماركس" لم يتحقَّق. ولكنني لست بالتأكيد في موقع تخطئته لأجل هذا الأمر، خاصَّة أن كتابي أيضاً يتنبَّأ للمستقبل. إن الأمر الذي يجب انتقاده وتخطئته هو خطأ "ماركس" القاتل في إيمانه بما يُسَمَّى «**هندسة المجتمع**». إذا كانت طبقات الجماهير المضطهدة والمظلومة **تَنْحِبُ** (كلمة ماركس المؤثِّرة) قبل الثورة البلشفية، فإن تلك الجماهير كانت تتلوّى من اليأس والإحباط في معسكرات العمل الشيوعية الـــ «الغولاك»[1] gulag في عهد ما بعد الثورة. وسواء بلغ عدد الخسائر في الأرواح بسبب الإعدامات والتصفيات في الاتحاد السوفييتي مائة مليون نسمة من أفراد شعبه نفسه (وهو عدد راجح)، أو اقتصر على عشرة ملايين فقط (وهو عدد لا يمكن تصديقه)، فإن إرهاب السنوات الثمانين من حكم السوفييت إرهاب لا يمكن غفرانه. قد يعترض معترضٌ قائلاً إن تلك التصفيات كانت خيانة لرؤية ماركس، وهذا أمر حقيقيٌّ إذا احترمنا التفاصيل. ولكنني هنا لا أتكلَّم عن التفاصيل والجزئيات. لقد كان إيمان ماركس بهندسة المجتمع ورغبته بالتضحية بكل شيء في سبيل تحقيق هذا الغرض هو السبب الكامن وراء تلك التصفيات.

---

(١) الغولاك gulag قسم الشرطة السرية السوفييتية الذي كان يدير معسكرات العمل والسجون التصحيحية في الاتحاد السوفييتي في الفترة بين ١٩٣٤ إلى ١٩٥٥.

يخبرنا الذين عرفوا «كارل بوبر»[1] Karl Popper جيداً أن طرق تعامله الدكتاتوريَّة لم تقدِّم نموذجاً جيداً للمجتمع الذي كان يدافع عنه في كتابه «المجتمع المفتوح وأعداؤه» *The Open Society and Its Enemies*، ولكننا جميعاً نعظ ونبشِّر بأفضل مما نمارسه في الواقع، لذا يجب أن لا نجعل ذلك ممسكاً وحجَّةً لرفض الحقيقة التي بيَّنها في كتابه. إن محاولات تثوير العالم لجعله متطابقاً مع إيديولوجية تمَّ اعتناقها لا يمكن أن يؤدِّي إلا إلى حكمٍ توتاليتاريٍّ (أي حكومة الحزب الواحد الاستبدادية) لأن التاريخ أعقَدُ من أن نتعامل معه بنفس طريقة تصميم الأجسام المادية لتنطبق مع أهدافنا العقائدية والتصورية. بدلاً من محاولة "الهندسة الشموليَّة" للمجتمع (عبارة بوبر) علينا أن نتعامل مع الأشياء على نحوٍ تدريجيٍّ - بكلِّ حذرٍ وبشكلٍ تزايديٍّ - مع مراقبتنا عن كثب للإشارات العائدة من مبادراتنا في كلِّ خطوة. نبذل قصارى جهدنا لإنجاز السياسات التي ثبتت فعَّاليّتها وتأثيرها، بينما نكون حذرين تجاه الصيغ التي تفترض أننا نفهم كيف يعمل التاريخ. وقبل كل شيء، يجب عدم إيقاع معاناة حقيقيَّة بالناس بهدف الوصول إلى غايات افتراضية حاسمة. إن الغايات لا تبرِّر الوسائل، خلافاً لما اعتقده ماركس في أغلب أفكاره.

إلا أن ماركس كان على حقٍّ في توثيقه لمدى تأثير مصالح الطبقة في الطرق التي يرى فيها أبناء تلك الطبقة، العالَمَ. (لم يكن ليفاجئ ماركس أن يعلم أنه عندما نطلب من الأطفال الفقراء رسم "نكلة" (قطعة نقدية قيمتها خمس سنتات) فإنهم يرسمونها بحجمٍ أكبر مما يرسمه الأطفال الأغنياء. لأنها تلوح أكبر في عالمهم).

---

(١) كارل ريموند بوبر Sir Karl Raimund Popper (١٩٠٢ - ١٩٢٤) فيلسوف بريطاني من أصل نمساوي، أهم منجزاته كتاباته في فلسفة العلم ونظريته حول المنهج العلمي، ونقده للحتمية التاريخية والنظريات التاريخية الاجتماعية لأفلاطون وهيغل وماركس، كما جاء مثلاً في كتابه ((المجتمع المفتوح وأعدائه» (١٩٤٥) الذي دافع فيه عن الديمقراطية.

كان عالم الدِّين «راينولد نيبور» Reinhold Niebuhr[(١)] متأثّراً جداً بماركس في هذا الأمر؛ وفي قصَّته الكلاسيكية «الرجل الأخلاقيّ والمجتمع اللاأخلاقيّ» *Moral Man and Immoral Society* (التي كان يقرؤها كل من "جون إف كندي"[(٢)] و"تشي غيفارا"[(٣)] في الوقت نفسه) وثَّقَ موارد تحقُّق هذه النقطة في أمريكا القرن العشرين.

لقد غربل «راينولد نيبور» أفكار "ماركس" غربلةً جيِّدةً ودقيقةً، حيث شهد أنه كان محقّاً بشأن «المصالح الطبقيّة»، ولكنه كان مخطئاً في دفاعه عن «هندسة المجتمع».

وقد سبق كتاب «نيبور» Niebuhr في تلك النقطة الأخيرة، كتاب «بوبر» Popper (هذا على الرغم من أنه لا يوجد دليل على أنَّ "بوبر" قرأ "نيبور")، وأعطى قضية «الهندسة الاجتماعية» غطاءً لاهوتياً لم يعطه إيَّاها «بوبر». إن الاعتقاد بأننا يمكننا أن نتغلب بالحيلة والمراوغة على قلب الإنسان في مواجهة تذمُّراته وصيحات غضبه غير المُجَدَّدة وأن نحقِّقَ له السعادة الأرضية (الجنَّة الأرضية) عبر تجديد المؤسّسات الاجتماعيّة، تجاوزٌ لحقيقة أن هذه الجنَّة هي أوَّلاً وقبل كل شيء قضيّةٌ باطنيَّة (تتحقَّق في داخل الإنسان). أقلّ قليلاً من الإسكاتون *eschaton* (نهاية التاريخ)، وصولها إلى العالم سيكون بمقدار وصولها إلى قلوب الناس.

---

(١) راينولد نيبور Reinhold Niebuhr (١٨٩٢-١٩٧١)، عالم دين لاهوتي بروتستانتي أمريكي، كان لأفكاره الاجتماعية تأثير كبير على الفكر اللاهوتي والفكر السياسي الأمريكي. اهتم بدراسته العلاقات المتبادلة بين الدين والأفراد والمجتمع الحديث. وكان له اهتمام كبير - خارج علم اللاهوت - في اتحاد العمال والشؤون السياسية، كما كان عضواً عاملاً في الحزب الاشتراكي في الثلاثينات، وشن معركة نشطة ضدَّ الانعزالية والسلميَّة قبل الحرب العالمية الثانية وأثناءها، نال الوسام الرئاسي الأمريكي للحرية عام ١٩٦٤.

(٢) كندي، جون إف (١٩١٧-١٩٦٣)، الرئيس الخامس والثلاثون للولايات المتحدة (١٩٦١-١٩٦٣)، وأصغر رؤساء أمريكا المنتخبين سنًّا وأوَّل رئيس أمريكي كاثوليكي. اغتيل قبل أن يكمل سنته الرئاسيَّة الثالثة.

(٣) تشي غيفارا (١٩٢٨-١٩٦٧)، قائد الثوار الفدائيين في أمريكا اللاتينية ومنظِّرٌ ثوري، أرجنتيني الأصل، أصبح بطل ورمز الثوار اليساريين الجدد في الستّينات. انضم في المكسيك إلى حركة الثوار الكوبيين بقيادة فيدل كاسترو، واستمر في النضال معه حتى انتصرت الثورة في كوبا، فعيّنه كاسترو وزيراً للصناعة فبقي في المنصب حتى ١٩٦٥، ثم غادره لينضمّ إلى الثوار في بوليفيا عام ١٩٦٥، حتى قبض عليه وأعدم عام ١٩٦٧.

وهذا لا يناقض أهمية العمل الاجتماعي. (كان "نيبور" ناشطاً فعَّالاً جداً. ولأجل معارضة «الجبهة المتحدة» بعد الحرب العالمية الثانية انضم مع «إيلينور روزفلت»[1] Eleanor Roosevelt ليؤسس: "أمريكيون لأجل العمل الديمقراطي"). ولكنه لا يصر على أنه إذا كان لابد لمثل هذا العمل الاجتماعي من أن يكون مثمراً، فينبغي أن يتقدم حتى يصل إلى درجة أن يفهم أنه "لم يكن هناك مطلقاً حربٌ لم تكن في البداية حرباً داخليَّة" كما تقول «ماريان مور»[2] Marianne Moore.

وماذا عن الدين بوصفه أفيون الشعوب؟ إن هذه الإدانة تذكيرٌ مفيدٌ بالخطر الذي يمكن أن يقع الدِّين فيه ويستسلم إليه. ولكنها تشكِّل نصف الحقيقة فقط. إذا شكَّلَ الدِّين مراراً قوةً محافظة، فإنَّه كان أيضاً وفي مرات عديدة ثوريّاً، سواءٌ على صعيد الأهداف أم الإنجازات. وإذا صار الدِّين أفيوناً أحياناً، فإنه كثيراً ما كان محفِّزاً ومحرِّكاً أيضاً. وإذا تمت مطابقة الدِّين بشكلٍ وثيق على ثقافات راهنة، فإنَّه تحدَّى مراراً كثيرةً الوضع الراهن. وإذا اهتمَّ الدِّين برفع ميزانيات الكنيسة، فإنه كثيراً ما شغل نفسه برفع حال المضطهدين أيضاً. لقد صَنَعَ السلام عبر الظلم أحياناً، وحاول أحيانا أخرى أن يصلح شأن العالم ويصحِّحه.

وأخيراً هناك قول مأثور يقول إنَّ "ماركس" وجد "هيغل" واقفاً على رأسه فأوقفه على قدميه! والذي ترجمته أن ماركس قَبِلَ حتميَّة "هيغل" التاريخيَّة مع استبداله مثالية "هيغل" بالمادية. واليوم تمّ نبذ الحتمية التاريخيّة إلى غير رجعة، ولكن الماديَّة بقيت خياراً فلسفياً.

---

(١) إلينور روزفلت Eleanor Roosevelt (١٨٨٤-١٩٦٢)، ناشطة إنسانية أمريكية ودبلوماسية. وزوجة فرانكلين روزفيلت (الرئيس ٣٢ للولايات المتحدة). شاركت في أنواع مختلفة من النشاطات التحرّرية كنضالها لأجل الحقوق المدنية وحقوق المرأة. أصبحت بعد موت زوجها عام ١٩٤٥ مندوبة أمريكا في الأمم المتّحدة، حيث لعبت، بوصفها رئيس لجنة حقوق الإنسان فيها، دوراً رئيسيّاً في صياغة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان (١٩٤٨).

(٢) ماريان مور Marianne Moore (١٨٨٧-١٩٧٢)، شاعرة أمريكية، اشتهرت باستعمال المقطع الشعري كوحدة أساسية في شعرها.

الذين لا يزالون مقتنعين بها هم أحرارٌ في قناعتهم، بيد أنه لا يحق لهم أن يفرضوا قناعتهم هذه على أولئك الذين يجدون المادية نظريَّةً ضعيفةً وغيرَ كفوءة.

فريديريك نيتشه

في أحد الأيام، أثناء دراستنا للفيلسوف «نيتشه» ضمن تدريسي لمادة «تاريخ الفلسفة» في جامعة واشنطن، لاحظت غياب أحد الطلاب الذي كان معروفاً بمشاركته الفعّالة واهتمامه الاستثنائي. ولما استمر غياب الطالب إلى حدٍّ لافت للانتباه، ذهب أحد أصدقائه ليبحث عنه في بيت الطلبة، فإذا به يجده في غرفته مستلقياً على سريره يقرأ في كتاب «نيتشه»: «هكذا تكلم زرادشت»!، فسأله: «هل أنت مريض؟». أجاب: «لا». فجاء السؤال الطبيعي: «إذن لماذا لا تحضر المحاضرات في الصف؟» فكان جوابه: «أنتم أيها الفتيان لا تزالون تبحثون عنه. أما أنا فقد وجدته!».

كثيرٌ من الناس سيردِّد صدى هذا الجواب نفسه، لأنَّهم قليلون الذين لم يقعوا مرَّة أو أخرى تحت التأثير الأخَّاذ و المغنطيسيّ لنيتشه. إنه مثيرٌ يصيب الإنسان بما يشبه الصدمة الكهربائيَّة. ولكن ماذا يمكننا أن نقول عن درجة الحقيقة التي تحملها كلماته؟.

إن نهاية قصة ذلك الطالب لا تزوِّدنا بإجابة مشجِّعة. كان ذلك الطالب إلى حدٍّ كبير رياضيّاً، لقد أخذ عقيدة «نيتشه» عن الإنسان الفائق القوة (السوبرمان) ليجعلها تشمل القوة الجسميَّة لديه. ولما كان قد تشبَّع بهذه الفكرة تماماً فإنه أخذ يحثّ زميله في الغرفة على المصارعة التي كان دائماً يخسر فيها بنحوٍ كارثيٍّ. كان زميله يطرحه أرضاً ويهزمه هزيمة منكرة في كلّ مرَّة، فأصيب الطالب بالإحباط وشعر بالخزي والعار إلى درجة جعلته يترك الجامعة كلها إلى غير رجعة، وكان هذا آخر ما رأيناه وسمعناه عنه.

إذا مثَّل ذلك قراءةً خاطئةً لنيتشه، فإن «نيتشه» نفسه ترك الباب مفتوحاً لمثل هذا الاستنباط. ربما يكون من الخطأ أن نضع لوم «النازيَّة» على «نيتشه» مباشرةً، رَغم أن كثيراً من أفكاره ساهم في إيجاد ذلك الجنون. وعلى أية حال، فإن اهتمامنا المباشر هنا سينصب

على زعم آخر لنيتشه هو تصويره الخاص للمسيحية. هنا، كما هو حال «نيتشه» في أغلب الأحيان، يعطينا «نيتشه» نصف الحقيقة فقط. لا شكَّ أن الامتعاض وعقلية العبودية كانت موجودة لدى الكثيرين في طول التاريخ المسيحي، لكنَّ الشجاعة والشفقة والرحمة وجدت كذلك بأشد درجاتها. ليت شعري! هل سنعتبر «مارتن لوثر كينغ» (القس الأمريكي الأسود الذي أمضى حياته في محاربة العبودية والتمييز العنصري واستشهد في هذا السبيل) عبداً؟! أم سنعتبر «ديتريخ بونهوفر» Dietrich Bonhoeffer الذي سجنه النازيُّون ثمَّ أعدموه لأنه كان يساعد اليهود، جباناً؟! تمثل هاتان الشخصيتان الملايين ممن خاطروا بحياتهم بكل جرأة وبطولة (لأجل الحرية والعدالة).

إن «ديتريخ بونهوفر» Dietrich Bonhoeffer يستحقّ منّا كلمة أخرى هنا. لمّا كان أساتذة الجامعات أوَّل من غذَّى فكرة «نيتشه» بأن المسيحية تجسيد لعقليَّة العبوديَّة، يجدر بنا أن نشير إلى أن الكنائس الألمانية قاومت النازيَّة، (ليس بالقدر الذي كان التاريخ يريده منها، لكن من السهل أن نُدين الآخرين من بعيد ونحن جالسون في مكان آمن) في حين أن الجامعات لم تفعل ذلك. إذا كان «بونهوفر» يمثِّل المعسكر الأول فإن «هايدغر» يرمز للمعسكر الثاني.

أما بالنسبة إلى رجل «نيتشه» المجنون الذي طفق يجوب الشوارع وهو ينحب ويبكي قائلاً «الله مات» فإن هذه القصَّة تقف، مثلها مثل استعارة «أفلاطون» للكهف، كسنَّادة ثانية (كما رأينا في الفصل ٣) بوصفها الحكاية الثانية الكبيرة التي تؤطِّر الحضارة الغربية كسنَّاداتين كبيرتين في بداية ونهاية صف كتب تلك الحضارة.

إن تنبُّؤات «نيتشه» ملهمة، ولا أتجاوز إذا قلت إن النفق في النصف الأول من كتابي هذا لا يزيد عن تفصيل الرسالة التي أراد رجل «نيتشه» المجنون توضيحها للمتفرّجين عليه الغافلين من عابري الطريق.

الأمر الذي اتضح أخيراً من خلال نشر بعض المحادثات التي جرت بين «نيتشه» وعدد من أصدقائه المقرَّبين هو كيفية استجابة «نيتشه» نفسه لخبر موت الله!. ولعل الرواية

القصيرة التالية لـــ «إيدا أوفر بيك» Ida Overbeck في كتابها «محادثات مع نيتشه» *Conversations with Nietzsche* أفضل من يبين لنا ذلك:

لقد أخبرت "نيتشه" أن الدِّين المسيحي لم يكن قادراً على منحي السلوان والعزاء والإشباع. وتجرَّأت وقلت له، إن فكرة الله لا تحتوي إلا على مقدار ضئيل جداً من الحقيقة بالنسبة لي. أجاب "نيتشه" وقد أثيرت مشاعره بشكلٍ عميق: "إنك تقولين لي ذلك لأجل أن تساعديني فقط: فلا تتخلي أبداً عن هذه الفكرة (فكرة الله)! إنَّك تملكين هذه الفكرة بشكل غير واعٍ. هناك فكرةٌ كبيرةٌ تهيمن على حياتك هي فكرة الله". وبلع ريقه متألماً، وكانت قسمات وجهه تتلوى بنحوٍ كبير بالعاطفة والإحساس إلى أن هدأت بعد ذلك هدوءاً تاماً وقال: "لقد تخليتُ عن تلك الفكرة وأريد أن آتي بشيء جديد، ولن أعود للوراء ولا ينبغي لي فعل ذلك. وسوف أهلك بسبب عواطفي فإنها ترميني للأمام والوراء جيئةً وإياباً وأشعر بأنني أتقطَّع بشكلٍ متواصلٍ ". كانت تلك كلماته الخاصة منذ خريف عام ١٨٨٢.

إلى أقصى ما يمكننا أن نشهده من المستقبل، سيواصل النقَّاد جدالهم حول ما قصد «نيتشه» قوله حقّاً. وهذا لا يمنع أن عظمته لن تقلّ حتى لو لم يكن من سبب لذلك سوى أنه (كما عبر عن ذلك "وليم غاس") : «لقد عضَّ قِيَمَنا ومُثُلَنا كما لو أنها عملات معدنية مُرِيبَة (مشكوك بها) وترك على كلٍّ منها تثلُّماً من أثر أسنانه».

سيغموند فرويد

ذكّرتني زوجتي مؤخراً بشيء كنت قد نسيته. في حفل عشاء قدمناه للروائي والكاتب «ألدوس هوكسلي» الذي قدم لزيارتنا في جامعة واشنطن، سألته إذا كان هناك أيّ كتاب وجد نفسه يعود لقراءته مرة ثانية؟. فأجاب أنهما في الحقيقة كتابان: أولّهما كتاب: «الفنّ و التعليم» للسّير هيربيرت ريد Sir Herbert Read، والثاني كان كتاباً لم يسمع به أحد ممن كان على المائدة، وهو كتاب «مصادر الحب والكراهية» *The Origins of Love and Hate* لعالم النفس: «إيان سوتي» Ian Suttie. ولما كانت زوجتي «كيندرا» دكتورة في علم النفس، فإنها تابعت ذلك الكتاب الثاني، وإليكم ما وجدته:

مؤلفه، طبيب نفساني اسكتلندي، رجل غامض أشبه باللغز. مات في وسط حياته المهنية في الثلاثينات (من القرن العشرين) وبقي تأليفه مجهولاً مهملاً حتى جاء أخذ طلابه ويُدْعى جون باولبي John Bowlby (والذي أصبح فيما بعد علماً بارزاً في علم نفس تطوّر الطفل) فالتقطه وأصدر طبعةً جديدةً لذلك الكتاب المنسيّ.

اعتقد «سوتي» Suttie ، مثل فرويد وسائر علماء النفس، أنّ الناس يتعاملون مع القلق بدفعهم الأفكار والمشاعر القلقة إلى العقل الباطن (الخافية أو ما وراء الوعي). لكنه خلافاً للمحللين النفسانيين، أصبح مقتنعاً (من خلال أبحاثه) أنّ القمع والكبت الرئيسي الذي نعاني منه ليس كبت الدوافع الجنسيَّة والعدوانيّة، بل كبت دافع المودَّة والانفتاح. هذا الكبت يتمثَّل - لدى الأفراد - بمجموعة من المحرَّمات ضدّ الرقّة والشفقة في ثقافتنا.

البداية في البداية. رأى «سوتي» Suttie أن الأطفال يولدون حاملين لنزعتين مستقلّتين. الأولى والأساسيَّة هي رغبة الطفل بالأخذ والعطاء الاجتماعي، أي العلاقة المتبادلة التجاوبية التي ندعوها «الحب». أما الجنس Sexuality فيوجد، في نظريته هذه، كدافع منفصل ومستقل.

وهنا ابتعاد جذري عن "فرويد"، الذي افترض أيضاً وجود دافعين مستقلين يولد الطفل بهما وهما: الجنس (الغريزة الجنسية)، و العدوانيَّة (غريزة الموت). وصف فرويد حالة أبكر وعي لدى الرضيع بأنها الوعي الجنسي_الذاتي والنرجسية. وعلى النقيض من ذلك، وصف «سوتي» Suttie أول حالة وعي (قبل أن يميّز الطفل الرضيع نفسه من الآخرين) بأنها حالة مشاركة تعايشيّة.

من وجهة النظر الفرويدية، يعتقد الرضيع أنه قويٌّ قادرٌ، لأنه يقدر على استدعاء الأمّ بطريقة سحرية من خلال صراخه (بكائه). إنه يركّز كل طاقته النَّفسيَّة على الأم لأنها تنقذه من توتراته الجسديَّة. بالنسبة لسوتي يُعْتَبَرُ هذا رأياً غير معقول مشابهاً للقول بأنّ الأمّ إنما تحب الطفل الرضيع لأنه يخفف عنها ألم الصدر عندما يصرّف الطفل الرضيع الحليب من غددها الثدية المنتفخة!.

في سنواته التي أمضاها في فحصٍ دقيق، أعجب «سوتي» بالمفاتحات المبكّرة التي يقوم بها الطفل الرضيع لاستدعاء استجابةٍ من أمّه. إنّه يثبّت نظرته بنحوٍ جذلٍ ومنتشٍ على وجه أمّه بينما تقوم بالعناية به وإرضاعه، وغالباً ما تنال نظرته هذه نظرةً جوابيّةً محبّةً بالمقابل. وسرعان ما يبدأ الطفل الرضيع بالابتسام حول حلمة الثدي التي يمصّها مسقطاً في أغلب الأحيان الحلمة ليغرغر ببهجة لتلقّيه مثل تلك الاستجابة المحبّة. إنها نمطٌ من المغازلة. في التبادل المنسجم بين الأمّ والطفل، يقدّم الطفل الرضيع الشيء الوحيد الذي يمكنه إعطاؤه: حبّه وجسمه بوصفهما المشترك أوّلاً في اللعبة. إنها بداية الحيويّة والإبداع التي يراها «سوتي» عاملةً، والتي هي في الواقع (كما يقول) أمّ الاختراع، لا الحاجة.

ثمّ تأتي فترةٌ حرجةٌ عندما يصبح الطفل الرضيع قادراً على تمييز نفسه من أمّه، وتمييز أمّه من الأشخاص الآخرين. في ذلك الحين فقط يمكن للطفل الرضيع أن يعرف انفصاله عن أمّه، وهذا الانفصال أو الافتراق هو المصدر الرئيسي للقلق الإنساني أي الخوف من الترك (أي من ترك الآخرين له وتخلّيهم عنه). وفي نفس الوقت تقريباً يشعر أن تقبُّل الناس له لم يعد غير مشروط، حيث أن بعض وظائف الطفل الرضيع الجسميّة ونشاطاته قد لا يُرحَّب بها أو لا يجد الموافقة عليها.

سواء لدى الطفل الرضيع أم البالغ، فإن الألم والغضب الناتجان عن الحب الذي يتم رفضه من قِبَل الآخرين لا يعدله حتى ألم الجحيم. هنا نجد فهم «سوتي» Suttie لمصدر الغضب، الذي رآه ناتجاً عن جهود الطفل الرضيع اليائسة والمستميتة لاستعادة الانسجام المفقود. اعتماداً على درجة الألم واليأس التي يمرّ بها الطفل الصغير، قد يتخلّى عن الألفة ليبدأ مسعاه للبحث عن الاكتفاء الذاتي (أو القوّة) اللذان سيحلان محل الألفة؛ وهو الطريق النمطيّ الذي يتم سلوكه في غربنا الذي سيطرت فيه النّزعة الفرديّة، كما يعتقد «سوتي».

يقدّم «بيتر كوستنباوم» Koestenbaum الذي يجري حلقات دراسية للزعماء الصناعيين الكبار، هذه القطعة من التوثيق. في إحدى مجموعات نقاشه توقّف قليلاً

وقال: «أحياناً يكون من الضروري أن يتكلم الإنسان من القلب.». فتذمَّر ملكٌ من ملوك المال قائلاً: «القلب مجرَّد مضخَّة»! و لاحقاً عندما ليَّن «بيتر كوستنباوم» دفاعات ملك المال ذاك، أظهر الأخير له شعراً صادقاً كان قد كتبه من قلبه وأقفل عليه في درج منضدته وقال إنّه لم يسبق أن أطلع أحداً عليه، خوفاً من أنه لو فعل ذلك لفقد سلطته.

هذا مثال يوثق ما قاله «سوتي»: الرقَّةُ كبحٌ (كبتٌ) ثقافي. يعتبر «سوتي» الجنس الاستحواذي والقاهر نتيجةً محتملة أخرى لهذه العاطفة والرقَّة المكبوتة، وذلك لأنه (كما يقول المثل) لا يمكنك أن تحصل على ما يشبعكَ، مما لا تريده حقّاً. إن ما نحتاجه و نرغب به هو القرب العاطفي (ولكن ثقافتنا تمنعنا إيَّاه، كما يثبت سوتي). لا الجنس ولا الطعام ولا القوَّة ولا أيّ بديلٍ آخر يمكنه أن يشبع تلك الحاجة.

لقد استنزفتُ تقريباً المساحة التي خصَّصْتُها لفرويد مع أنني لم أكد أذكر نظرياته.

ربّما ذهب «بي. بي. ميداوار» P.B.Medawar بعيداً جداً في تلقيبه «الفرويديَّة» بالخدعة الأعظم للقرن العشرين، لكن إذا كان «أدولف غرونباوم» Adolf Grunbaum و«فريدريك كروز» Frederick Crews لم يبينا لنا كم هو قليل جداً تطلُّب العقلُ قبولَ وجهة نظره الفاقدة للحبّ loveless للطبيعة البشرية، وأن نصيبها من الأدلة المحكمة فقيرٌ جداً، فإنني لن أنجز هذه المهمّة هنا. إنّ جمعية المحللين النفسيين الأمريكية (المتعصبة لفرويد) جاهزة دائماً للعودة بتهمتها بأن كل هذه الانتقادات لن تصل إلى نتيجة، هذا على الرغم من أنه كلما مرَّ عقدٌ من السنين، بدا لحن تلك الجمعيَّة دفاعياً أكثر.

لا شك أننا نحتاج إلى بديل. وتظهر إستراتيجيّتي – في تقديم بديل لنظريات فرويد بدلاً من دحضها والاستدلال على بطلانها – من خلال تذكُّري لإحدى المواعظ الأكثر تفضيلاً لديَّ في كل الأوقات. في القرن التاسع عشر كان للمواعظ عناوين متينة، وهذه الموعظة لـــ «توماس تشالمرز» Thomas Chalmers كان عنوانها «القوّة الطاردة للمودّة الجديدة» *The Expulsive Power of a New Affection*. يخبرنا «تشالمرز» أن فكرة هذه الخطبة أتَتْهُ عندما كان على متن عربة خيول تسير بهم في طريق جبليّ. عندما وصلت

العربة إلى طريق ضيق على حافَّة منحدر شديد، بدأ الحوذيُّ (سائق العربة) يضرب خيوله بالسوط بشدَّة، الأمر الذي بدا لـ «تشالمرز» عملاً خطيراً، لكن قائد العربة أوضح له أنه كان عليه فعل ذلك ليصرف انتباه الخيول عن الخطر المحدِق في ذلك الطريق. إن لدغةَ السياط جعلتهم ينشغلون بشيءٍ آخر يفكِّرون به.

ومضى «تشالمرز» يقول في عظته: إن الأمر لا يختلف بالنسبة للبشر. إن الناس لا يتخلَّوْن عن عاداتهم المألوفة (السيِّئة) بقوّة العقل ولا بقوّة الإرادة. إنَّهم يحتاجون إلى شيء جديد يفكِّرون به ويستجيبون له. آمل أن يزوِّد «إيان سوتي» لدغة السوط التي تكون المحفِّز المطلوب هنا[1].

---

(١) ما يرمي إليه المؤلف في هذا المثال: أنه بدلا من تضييع الوقت في تفنيد نظريات فرويد فإن في فهم روعة البديل الآخر (وهو مدى ما للمحبة من تأثير في تفتيق إبداعيَّة الإنسان و تحويله إلى كائن سعيد خيِّر خال من التوترات، باعتبار أن التوتر الأساسي هو فقدان وكبح وكبت تلك المحبة)، ما يغنينا عن ذلك، تماماً كما أن لدغة السياط شغلت الخيول عن الشعور بالتوتر والخوف عند نظرهم للمنحدر والهاوية إلى جانب الطريق.

الفصل ١١

ثلاثة علوم والطريق الذي أمامها

يقدِّم "**التصوُّر العلميُّ للكون**" نفسه بوصفه اكتشافاً مذهلاً. لقد رَسَمْتُ خطوطه العريضةَ في الفصل ٢ من هذا الكتاب، ولكننا إذا تأمَّلناه عن كَثَب بدا لنا ثلاثَ حكايات متوالية قصيرة تربطها ثلاثة أسئلة متعاقبة هي: كيف وُجد الكون؟ كيف جاءت الحياة إلى الأرض؟ وكيف جئنا نحن البشر إلى هذا العالَم؟ تقدِّم **الفيزياء** الإجابة عن السؤال الأول، ويقدِّم **علم الأحياء** الإجابة عن السؤال الثاني، في حين يقدم **علم الأحياء مقترناً مع علم الإدراك** إجابتهما عن السؤال الثالث. تلك هي العلوم الثلاثة ذات الآثار والانعكاسات الميتافيزيقيَّة الأكبر، فإذا كانت تتحرك في اتجاه رؤية أقلَّ نفقيَّةً، فإنَّ هذا أفضل دليلٍ وعلامةٍ على أننا نسير في الاتجاه الصحيح (خارج النفق) وأن الهواء الطلق يقترب شيئاً فشيئاً[1].

الفيزياء

أخذ علم الفيزياء يبدو كما لو أنه سبقَ وأصبح خارج النفق.

أقول هذا الكلام استناداً إلى تجارب الثلاثي (آ. ب. ر.) (آينشتاين – بودولسكي

---

(١) يؤكد القرآن الكريم هذه الرؤية في قوله تعالى: ((سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)) (٥٣) سورة فصلت

Podolsky – روزن Rosen) التـي تقـرِّر حقيقـة أن الكـون **غير موضعيّ** أو **لا ظَرفِيّ Nonlocal** (أي ليس له مكان وزمان محدَّد). إنَّ أجزاء الكون – مهما كان مقدار انفصالها وتباعدها عن بعضها؛ حتى لو بلغ هـذا التباعد من هنا إلى حافة الكون – يتَّصل بعضها ببعض بنحو متزامن. وبعبارة سهلة لفهم العاميّ نقول إن ما تبرهن عليه تجارب الثلاثي (آ. ب. ر.) هو أنك لو فصلت جُزَيْئَيْن متفاعلتين، وأعطيت إحداهما مساراً أدنى فإن الجُزَيْئَةَ الثانيةَ ستصعد فوراً إلى مسارٍ أعلى.

إنَّ النتائج النظريَّة لهذا الاكتشاف ثوريَّةٌ – وثوريَّةٌ لدرجـة كانت كافيـةً بالنسبة لـهنري ستاب Henry Stapp مـن جامعـة كاليفورنيا/ بركلي أن يدعوهـا: «**أهم اكتشاف علميٍّ على الإطلاق**»، ذلـك لأنه اكتشـافٌ يُنْـزِلُ مـن مرتبـة **المكان والزمان والمادة** (بنية ونسيج العالَم، كما نعرفه عادة) إلـى مَنْـزِلة الأمـور "**المؤقَّتة**" أو **الشرطيَّة** provisional. لـو نظرنا إلى العالم من خلال نافذة ذات تسعة ألواحٍ زجاجيَّة مثلاً، موضوعـة ضمـن تعريشـة، فإننا سنجد الفضاءَ الخارجيَّ أو الهواءَ الطلقَ في الخارج مُقَسَّماً بواسـطة هـذه التعريشـة إلى تسعة أقسام، (وهي تقسيماتٌ لا توجد بالطبع في المنظر الطبيعي الـذي ننظر إليـه). شـيءٌ مـا مثل هذا يوجد هنا في عالمنا.

ما هي آثار وتَبِعَات كل ذلك؟ دعنا نلقي نظرة:

كلُّ شيءٍ ندركه بحواسنا (ونحلله ونصنِّفـه إلى قوانين وعلاقـات متبادلـة) ذو ارتبـاط بالعالم النسبيّ الذي هو نوعٌ من لعبة أشباحٍ مـن أسـماء وقوى تجري بشكلٍ مؤقَّت في تيَّار المكان والزمان. في هذا العالَم النسبيّ لا يوجد مطلقٌ؛ الزمان والتغيُّر يحكمـان كـل شـيء. في هـذه اللحظـة وهـذا المكـان، لدينـا ثلاثـة أطـر ثابتـة مرجعيَّـة، إنـهـا **أشياء_هذه اللحظة_**(الموجودة) **في هذا المكان**، التي يمكن اعتبارها مستقلَّة عـن الأشـخاص الملاحظيـن لها. لا يمكن مطلقاً أن يكون هناك أيُّ حدَثٍ يدركه جميع المراقبين بنفس الطريقـة، وهنـاك شكٌّ وحيرةٌ لا تقبل النقصَ تَحُوْلُ مطلقـاً دون إمكانيَّة التعرُّف على جميـع الخصـائص الأساسيَّة للظواهر التي نختبرها ونبحثها. وهذه الحيرةُ أو عدمُ اليقين داخلةٌ في بنية ونسيج

الكون بذاته، لذا لا شيء يمكنه أن يهرب منها أو يتملّص. لا يمكن اختزال الكلّ إلى مجموعة أحجار بناء أساسيَّة، وذلك لأنه في المقياس الكونيّ، يمكن للمادَّة أن تختفي متحوِّلةً إلى طاقة صافية وأن تظهر من جديد بمظهرٍ مختلفٍ. ولم يكن هذا ليفاجئ القدماء أو يدهشهم. (كان شعار البوذية أن كل شيء في الكون صفته المتأصِّلة هي: "آنيكا.. آنيكا" Anicca: "**المؤقّتيَّة واللادواميَّة**" Impermanence. (وفي الهندوسية) تسود "مايا"[1] Maya (**الوهم**) ويتسمرُّ رقص شيفا[2] Shiva على الدوام بلا كَلَل أو توقُّف.

ولكن هذا نصف الصورة فقط: إن ما يضع فيزياء ما بعد الثلاثي (آ. ب. ر.) خارج النفق المجازي، تقريباً، الذي يدور حوله هذا الكتاب، أمورٌ أصبح في الإمكان بيانها الآن بألفاظ صريحة واضحة لا لبس فيها. إن لحظة الحقيقة في تجارب الثلاثي (آ. ب. ر.) تفتح شقّاً في غيمة الجهل يمكن من خلالها لعلماء الفيزياء أن يستشرفوا رؤيةً لعالم آخر، أو على الأقل لحقيقة أخرى. مرَّةً ثانية سأدع «هنري ستاب» Henry Stapp يتكلَّم: «كل ما نعرفه [الآن] عن الطبيعة يتَّفق مع فكرة أن العمليَّة الأساسيَّة للطبيعة تقع خارج إطار الزمان/ المكان، ولكنَّها تولِّد الأحداث التي يمكن تحديدها زمانيّاً ومكانيّاً». لا يذكر «ستاب» المادة ولكن عبارة: "المكان/ الزمان" تدلُّ عليها، لأن الفيزياء تربط الثلاثة (المكان والزمان والمادة) بعضها ببعض. بل إن زميل «ستاب» المقرَّب «جفري تشو» Geoffrey Chew أطلق تلك العبارة بشكل واضحٍ وصريحٍ عندما قال لي (أثناء حفل عشاء اغتنمتُ

---

(١) ((مايا)) Maya: لفظة سنسكريتية تترجم غالباً بـ"الوهم"، وهي لفظة تطلقها الهندوسية على ((العالم)) الذي تراه ((وهماً)) بمعنى أن هناك شيء خادع للنظر، فيه. وتكمن الخدعة في الطريقة التي يقدم فيها العالم ماديته وكثرته الزائفة موهماً أنها حقائق مستقلة منفصلة عن حالة العقل الذي يراها ويدركها في حين أن الحقيقة نفسها غير متميزة عن براهمان (الله) في أي شيء، تماماً مثلما أن الحبل المنغمس في التراب يبقى حبلاً حتى عندما نحسبه ثعباناً. ولتفصيل ذلك راجع فصل الهندوسية من كتاب ((أديان العالم)) لنفس المؤلف.

(٢) شيفا Shiva الإله الثالث من الثالوث الإلهي في الهندوسية المتألف من "براهما" (الخالق) و"فيشنو" (الحافظ) و"شيفا" المدمِّر الذي سيَحُل كل الأشكال المتناهية المحدودة ويعيدها ثانية إلى الطبيعة البدائية الأولى التي انبثقت منها.

خلاله فرصة الجلوس إلى جانبه): «**إذا بدأتَ بالمادة بوصفها شيئاً مُحَدَّداً مُعَيَّناً فإنك تكون ضائعاً.**»

إنَّ متحمِّسي العصر الجديد سريعون في القفز هنا لإعلانهم أنَّ علماء الفيزياء اكتشفوا الله، مع أنَّ الأمر ليس كذلك بالطبع. إنَّ كل ما وجده علماء الفيزياء هو أنَّ الذي يدير العرض (أي يدير ويشغِّل الكون المكانيّ_الزمانيّ_الماديّ Spatio-Temporal-Material Universe) يقع خارج هذا العرض. ولكن تأكيد وجود "**شيء**" (فقط بشرط أن لا يوصف بأنه "س" مجهولٌ آخر) خارج العالم المكانيّ الزمنيّ الماديّ، يجعل **اللاظَرفيَّة** تزوِّدنا بأرضيَّة من المستوى الأوَّل، منذ أن برز العلم الحديث، يمكن للعلماء (الكونيين) واللاهوتيين أن يواصلوا نقاشاتهم بشأنها. ذلك لأن الله أيضاً يقع خارج تلك الأطر الثلاثة أيضاً.

هناك البعض ممن سيفكّرون أنني لو توقَّفت عند «**لا ظَرْفيَّة**» الكون، ولم أضفْ إليها «**تصميمه الذكي**» فسأكون قد تجاوزت سبباً ثانياً مهماً للقول إن الفيزياء أصبحت خارج النفق، لذا سأتكلم عن هذا الموضوع، رغم أنني في النهاية لن أعتمد عليه.

يوماً بعد يومٍ يكتشف العلماء أكثرَ فأكثرَ أن النسب الرياضية في الطبيعة لو اختلفت اختلافاً ضئيلاً عما هي عليه الآن، لما كان ممكناً أبداً أن تظهر الحياةُ على وجه البسيطة. مثلاً لو كانت قوة الجاذبية أكثر بمقدارٍ قليلٍ جداً مما هي عليه الآن، لصارت كل النجوم كواكب عملاقة زرقاء، بينما لو كانت قوَّتها أقلّ بمقدارٍ قليلٍ جداً فإن كل الكواكب ستكون قزمةً حمراء، وفي كلتا الحالتين لن تكون الكواكب قريبةً من كونها صالحة للسكن. كذلك لو كانت الأرض تدور على مسارٍ أقربَ بمقدار ٥ ٪ فقط بعدها الحاليّ عن الشمس، لعانت من نفس تأثير البيوت الزجاجية (التي تستخدم لزراعة النباتات الرَّخصة أو لوقايتها) موجدةً مستوىً من درجة الحرارة لا يمكن تحمله، يؤدي إلى تبخر كل المحيطات، في حين أنه من الجهة الأخرى لو ابتعد مدار الأرض عن الشمس بمقدار ١ ٪ فقط من مسافته الحالية، لتجمَّدت الأرض وتحوَّلت جميع مياهها إلى جليدٍ دائمٍ. ويمكننا أن نستمرَّ بتعداد مثل هذه النِّسَب بلا توقُّف.

إن علماء الفيزياء الكبار - ومنهم أشخاص بمنزلة ومكانة «جون بولكينغورن» الرفيعة - يجدون أنه من المستحيل الاعتقاد بأن مثل هذا التعيير الدقيق جداً (والتواتر الظاهر الذي يتكرَّر به) يمكنه أن يكون وليد مصادفة. إنَّهم يطرحون أرقاماً حولَ عدم احتماليَّة هذا الأمر برتبة واحد من عشر أمثال يعقبها أربعون صفراً!! بالنسبة إليهم، لا احتمالية بهذا المقدار تتطلب منا ضرورة الاعتقاد بأن الكون تمَّ تصميمه عمداً لأجل جعل الحياة البشريَّة ممكنة، ويضيفون على ذلك أن هذا التصميم يتضمَّن بالضرورة وجود مصمِّمٍ ذكيٍّ ذي قصدٍ وإرادة (الله). إنَّهم لا يمزحون عندما يكتب زميلٌ لهم «دال كوهلر» Dale Kohler قائلاً: «كنا نقشط الحقيقة الطبيعية الفيزيائية كل تلك القرون، والآن الطبقة القليلة التي بقيت، والتي لا نفهمها، رقيقةٌ جداً **بحيث أنَّ وجه الله غدا يحدِّق إلينا مباشرةً**.».

أنا نفسي لست عالماً كونياً، ولكنني بالطبع أرجِّح نظريّة **التصميم الذكي الهادف**. ببحرٍ ذي أعداد أعلى من "الأشياء العشرة آلاف" (التعبير الصيني القديم عن السماء والأرض: أي الكون) فإن العشرة التي يتلوها أربعون صفراً تهرب منِّي بالكامل. ومع ذلك فإن هناك حقيقةً واحدةً يمكنها أن تحملني على النتيجة التي تقترحها النسب الرياضيَّة التي ذكرتها. لو أن مجرّات «الأندروميدا»[1] Andromeda لم تكن هناك، ولم نكن نحن هنا - نحن حرفيّاً مصنوعون من تراب الكوكب - لكان ذلك كافياً تماماً ليرميني في لحظة من الوجد والنشوة الصوفية. وعلى أي حال، هذا بالنسبة لي، أنا وزملائي العلماء ذوي المراتب العالية الذين يشاركونني في إحساسي وإدراكي الروحيّ. ولكن المشكلة التي تواجهنا عندما نعتبر أن إثباتَ الفيزياء الحديثة حاجةَ الكون القاطعةَ لمصمِّمٍ عاقل، مؤشِّرٌ إضافيٌّ على أن الفيزياء أصبحت خارج النفق، تكمن في أن عدداً مساوياً من العلماء الكبار -

---

(١) مجرة الأندروميدا Andromeda جزء من المجموعة المحلية التي ينتمي إليها درب التبَّان. تقع على مسافة ٢،٢ مليون سنة ضوئية من الأرض وتعتبر أقرب المجرات الحلزونية إلى الأرض وبنفس الوقت أبعد مجرة يمكن رؤيتها بالعين المجرَّدة.

وأحدهم «ستيفن هوكينغ»[1] Stephen Hawking – لا يوافق على هذه القراءة للمادَّة. أما أنه هل يرجع عدم الموافقة هذا إلى الدليل نفسه، أم يستند إلى العدسات الفلسفيَّة التي يتمّ النظر من خلالها إلى الدليل؟ فهو أمرٌ يقع في قلب هذا الخلاف في الرأي. وبما أن الدليل العلميّ هنا يقع خارج نطاق قدرتي وأهليَّتي العلميَّة، فكلُّ رأيٍ أدلي به في هذا النقاش لن يعكس سوى عقائدي الخاصَّة وإدراكي للموضوع، مما ليس له وزن علمي. وعلى كل حال، إنه أمرٌ جيِّدٌ أن تُناقَش القضيَّة اليوم بكل نشاط وقوَّة، ولا أحد يمكنه أن يخطِّئ المؤمنين عندما يجدون في "**التصميم الذكي**" مصدراً مؤيداً بقوَّة لإيمانهم، ولكن هذا أقصى ما يمكن قوله في هذه النقطة من النزاع.

بينما أتراجع، عليَّ أن أعود ثانية إلى اللاظرفيَّة (أو اللاموضعية) Nonlocality للكون، وأن أقرّ أن علماء الفيزياء يختلفون حول نتائج هذا الاكتشاف أيضاً. عندما سألت «جفري تشو» Geoffrey Chew عما إذا كان هو و«ستاب» Stapp علماء فيزياء من الخط العام، أو علماء منفردين، واستثناء عن غيرهم، أجاب بكل بهجة وفرح: «أوه! نحن استثناء تماماً، ولكنَّ عددَنا يزيد كل سنة». إن ما يقودني لإعلان أن الفيزياء تقريباً خارج النفق إيماني بأن هذه الزيادة ستتواصل.

علم الأحياء

لن أعالج هنا علم الأحياء الجزيئي: أي حمض الدنا DNA والثلاثة بلايين رسالة كيميائية التي صُنِعَت منها مورِّثات (جينات) الإنسان. إن الإمكانيَّات التقنيَّة للهندسة الوراثية Bioengineering، سواء لما هو جيدٌ أم لما هو مَرَضيٌّ، إمكانياتٌ هائلةٌ، ولكنَّ

---

(١) ستيفن هوكينغ Stephen Hawking (١٩٤٢ -)، عالم فيزياء بريطاني معاصر وعالم رياضيات نظرية، اهتم بشكل خاص في البحث في طبيعة الفضاء والزمان، بما في ذلك الحالات الشاذة الفريدة في الفضاء الزمان المعروفة بـsingularities. كرّس معظم حياته أيضا لجعل نظرياته سهلة الوصول إلى الجمهور من خلال المحاضرات، والكتب، والأفلام.

تبعاتها الميتافيزيقية متواضعةٌ، لذا سوف أمرُّ على ذلك الجانب من علم الأحياء مرور الكرام، لأتجه إلى آثار نظرية «تشارلز داروين».

عندما جلست أكتب هذا الفصل، وقعت عيني على إعلان عن كتاب «ديفيد والـش» David Walsh عن «الألفيَّة الثالثة» *The Third Millennium*، ومرَّةً ثانيةً (كما حصل لي في فصل "القانون") لا يمكنني أن أعزو هذا التوقيت إلا إلى العناية الإلـهية، سواء اعتبر بعضهم ذلك خرافة أم لا. يتميَّز نقد «والـش» للداروينيّة ببصائر ممتازة تحملني على أن أقتبسه هنا بالكامل:

«إنه مؤشرٌ خطرٌ، دائماً، أن تلعب نظريَّةٌ علميَّةٌ دوراً أعظم خارج نطاقها التطبيقي، مما تلعبه ضمن ذلك النطاق. المساهمة الحقيقيَّة لرواية "داروين" الساحرة عن أصل الأنواع *The Origin of Species* (١٨٥٩)، تقع خارج المرجعيَّة الواضحة لتلك الدراسة. إن القضيَّة الأكثر أهميَّةً من فهم الترتيب الطبقي لظهور أنواع (الكائنات الحيَّة) بل حتى الأكثر أهميَّةً من فهم الآليَّة التطوريَّة التي اقتُرِحَت لتوضيح هذا الظهور، إنما هي الدَّور الذي لعبته نظريَّة داروين في **تشكيل تصوُّر للعالَم**. لقد تمَّ إما الترحيب بهذه النظرية أو رفضها للسبب ذاته تماماً. فقد أظهر ((داروين)) كيف يمكن لـ"**الخَلْق**" أن يستغني عن "**الخالِق**".

لقد أمكن لعالَم من التطوُّرات التصادفية خلال فترة زمنيّة طويلة جداً إلى حدٍّ كافٍ، أن يتطوَّر إلى عالَم منظَّم مرتَّب. لم يكن اقتراح تطوُّر الإنسان ونشأته من القرود، هو الإدراك الأكثر تحطيماً (للأفكار التقليدية)، بل كان فكرة أن كل شيء قد تولَّد ونشأ من خلال بقاء السلالات التي حملت الطفرات التصادفية (العشوائية) الأكثر تكيُّفاً. وذلك لأن أكثر المؤشِّرات الطبيعيَّة إقناعاً وإلزاماً للاعتقاد بوجود ذكاء أسمى وفائق – أي الدليل على وجود تصميم ذكيٍّ وراء نشأة الإنسان – قد تمَّ إضعافه بنحو حاسم عن طريق طرح هذه الفكرة؛ ولأجل مثل هذه الانعكاسات اللاهوتية الخطيرة، لا عجب أن نرى ((نظرية داروين)) تتلقَّى انتباهاً أقلَّ بشأن حقيقتها العلمية ومدى وزنها العلميّ (من الاهتمام الذي حظيت به بسبب آثارها الميتافيزيقية). وهو وضع شاذٌ بقي سائداً عمليَّاً حتى وقتنا الحاضر.

إن تأثير نظرية التطوُّر الداروينيَّة الذي اتسع مداه إلى حدِّ صياغته **"تصوُّر العالَم" الخاص بعصر الحداثة** Worldview of Modernity، جعل مجرَّد إخضاع هذه النظريَّة للتحليل والفحص العلميّ، يُنْظَر إليه بكثير من الشكّ والريب. كل شخص يشعر أكثر بحريَّته في مثل هذا الفحص العلميّ يتمّ اختزال جهده إلى ((المعارضة النمطيَّة بين نظريَّة التطوُّر ونظريَّة الخَلْق)). وبهذا النحو لم يبذل أحدٌ انتباهاً جدياً إلى أنَّ أيّاً من النظريتين لا يمكن أخذهما بجدِّيَّة بوصفهما نظريات علميَّة. كما لا يمكن تفنيدهما علميّاً لأن النظريات العلميّة إنما تتمّ صياغتها لأجل أن تستوعب كل الشواهد المضادّة أو الأدلّة الناقصة والمفقودة ضدَّها.

كنَّا لن نعتبر ذلك أكثر من فرط حساسية ثقافية غير مؤذية، لو لم يكن لها مثل تلك العواقب الوخيمة على العلم. ولكن المشكلة هي أنه، تماماً كما يحصل عند تزييف العُمْلَة، يقوم المزوِّر بطرد الحقيقيّ. حتى في يومنا هذا، من المستحيل عَمَلِيّاً لعلماء الأحياء الواعين (ذوي الضمير الحيّ) أن يقرُّوا بأن الدليل على التطوُّر دليلٌ ضعيفٌ جداً ورقيقٌ لأبعد الحدود. إننا بكل بساطة لا نكاد نملك أي برهانٍ ملموسٍ على أن نوعاً محدَّداً ما تطوَّر إلى نوع آخر. وكما اعترف ((داروين)): إنَّ سجلَّ المستحثّات، الذي هو في النهاية المؤشّر الحاسِم الوحيد، هو أضعفُ مصدرٍ لدعم هذه القضيَّة. إننا لا نملك اختباراً ولا دليلاً للأشكال الوسيطة. ومن الواضح أن أنواعاً مختلفةً ظهرت واختفت في أوقات مختلفة، تماماً كما هو واضحٌ أنَّ الاستمرارية الكيميائية والوراثية (الجينية) حاضرة خلال كل الأنواع. ولكنَّ استحواذ نظريَّة التطوُّر أصبح يضغط بوزن هائل على العقليَّة العلميَّة، إلى درجة جعلت حتى أفضل الجهود لإعادة النظر في تلك النظرية تواجه مستويات من المقاومة لا تتناسب لا من قريب ولا من بعيد مع مضمونها. لا أحد يجرؤ على محاولة إزالة جثّة الميتة الإيديولوجية خوفاً من نتائج الرفض الشامل. في كثير من الأحيان تنبعث أصوات المعارضة من خارج دوائر مجتمع علماء الأحياء. إن أحدنا ليعجب من هذه القوَّة التي تمسك وتحافظ على إبقاء مثل هذه الشكليَّة الارتدادية (الانكفائية). الاقتراح الوحيد الذي يمكن أن يفسر هذا هو أنَّ الأهميَّة ضدّ اللاهوتيَّة التي تحملها نظرية التطوُّر بوصفها تقدّم مفهوماً لا إيمانيَّاً للعالم، هي التي تواصل ترجيح كفّتها على كفّة قيمة النظريَّة العلميَّة حقيقةً. إننا عندما نشكّك بالكون الدارويني فإننا نقوم بنحو متزامن بإحياء الانفتاح نحو الخالِق المتعالي. وبعبارة أخرى إن الخوف من عودة ((الله)) إلى المشهد هو

الذي يحول بين مجتمع علماء الأحياء وبين رفضهم النظريَّة بشكل مفتوح جداً، نظريَّةٌ هم أنفسهم توقَّفوا منذ مدَّة طويلة عن احترامها عَمَلياً».

أعتقد أن كلمات «والش» الحكيمة تلك واضحة بما فيه الكفاية مما يغنيني عن أي تعليق إضافي، لذا سأنتقل فوراً إلى الأمر الثاني الذي أريد طرحه في هذا المقطع.

إن كتاباً يقوم بدعوى عريضة بهذا الحجم الكبير، مثل كتابي، لا بد له من أن يعطي ناصية الكلام في المواضع الحساسة والساخنة إلى أصحاب الاختصاص في الموضوع، ولذا فإن كلامي هنا حول النظريَّة الداروينيَّة سينتقل إلى الدكتور «جوناثان ويلز».

نال «ويلز» شهادة الدكتوراه في علم اللاهوت من جامعة «ييل» Yale، وكان موضوع أطروحته: الجدل واختلاف الآراء الذي أوجدته "النظريَّة الداروينيَّة" في القرن التاسع عشر. لقد أقنعه بحثه أن الصراع بين المسيحية والداروينيَّة تمحور حول موضوع "التصميم الهادف" (أي التخطيط المقصود). تؤكِّد المسيحية على أن الإنسان خُلقَ على صورة الله. في حين تدَّعي الداروينيَّة أن الإنسان حصيلة عرضيَّة نتجت بالمصادفة من عمليَّة غير موجَّهة للطبيعة (أي لم يكن فيها أي توجيه وهداية).

ولأن «ويلز» لم يقتنع بمجرَّد تشخيص مصدر النزاع، فإنَّه قرَّر أن يتابع دراسته في علم الأحياء، لذا فقد حصل على شهادة دكتوراه ثانية من جامعة كاليفورنيا/ بركلي متخصِّصاً في «علم الأجنَّة والتطوُّر». وبهذا أصبح في إمكانه أن يفحص علميّاً الدلائل التي تستند إليها "النظريَّة الداروينيَّة"، فأصبح ناقداً صريحاً لها. ونتيجةً لذلك وقع تحت هجوم الداوروينيِّين الكاسح، ولكنَّه أصبح معتاداً على النزاعات والاختلافات الفكريَّة. ففي الستينات (من القرن العشرين) أمضى «ويلز» سنة ونصف في السجن، لرفضه التعاون مع الجيش الأمريكي أثناء حرب فيتنام.

اهتماماً منه بوجوب الحفاظ على المعايير العلميَّة في العلم بشكل عام وفي علم الأحياء

بشكل خاص، ألّف «ويلز» كتابا أسماه: «أيقونات[1] التطوُّر» *Icons of Evolution*، عرض فيه عمليَّة الخداع والاحتيال الكبيرة في مواصلة تضمين كتب علم الأحياء المدرسيَّة صوراً تتعارض مع الأدلَّة التي نشرها علماء الأحياء أنفسهم وعرفوها منذ سنوات عديدة، دون أن يُعْطَى الطلاب أيَّة إشارة لكون تلك الصور غير حقيقية ولا أساس علميٍّ لها.

إحدى تلك الأيقونات تجربة «ميللر - أوري» Miller-Urey Experiment عام ١٩٥٣، التي استخدَمَتْ محاكاةً للجوِّ البدائي على الأرض، لأجل إنتاج بعض جزيئات الحياة. ولكن علماء الكيمياء الجيولوجيَّة Geochemists كانوا مقتنعين منذ عقود أن جو الأرض الابتدائي لم يكن مطابقاً ولا مشابهاً لتجربة «ميللر - أوري»، وأنَّ نتائج تلك التجربة ليس لها أيَّة صلة أو علاقة بموضوع أصل نشأة الحياة.

الصورة المشهورة الأخرى هي الشجرة الداروينيَّة للحياة، التي طبقاً لها، تطورت كل الأنواع الحديثة من الكائنات الحية تدريجيًا من سلف واحد عامٍّ مشترك. ولكن سجل المستحثَّات يُظْهِر أن المجموعات الرئيسية للحيوانات ظهرت مع بعضها في وقتٍ واحدٍ متشكِّلةً بشكلها الكامل من أوَّل لحظة، دون وجود أيِّ دليلٍ على سلفٍ مشتركٍ، وهو أمرٌ معارضٌ تماماً لتوقُّع داروين.

كذلك هناك مجموعةٌ من الرسومات التي رسمها «إيرنست هيكل» Ernst Haeckel والتي تبيِّن التشابهات بين أجنَّة الفقريَّات التي يُفْتَرَض أنها تشير إلى سلفٍ مشترك. ولكنَّ علماء الأحياء عرفوا منذ أكثر من قرن أن «هيكل» اخترع وزوَّر تلك التشابهات المزيَّفة وأنَّ أجنَّة الفقريَّات البدائيَّة الأولى مختلفةٌ تماماً عن بعضها البعض.

إن هذه التشويهات للحقائق تلقي بظلال قاتمة من الشكّ على ما يدَّعيه الداروينيُّون من أدلَّة على نظريتهم. يعترف «ويلز» أن التطوُّر الداروينيّ يعمل في بعض المستويات، مثل

---

(١) الأيقونة في الأصل الصورة لكنها في اللغة المسيحية أخذت مجازياً معنى الصورة التي **صار لها صفة قداسة**، وكأنها صنم يعبد، وهذا هو مراد المؤلف من هذه الاستعارة هنا.

مقاومة المضاد الحيوي في البكتريا، والتغيُّرات الطفيفة والثانويّة في مناقير طائر البرقش. ولكنّه يشير إلى أنَّه لا يوجد دليلٌ على الادعاءات العريضة والواسعة لتلك النظريَّة: ويصرُّ «ويلز» بنحوٍ خاص على أن ادِّعاء الداروينيَّة بأن البشر نتاجٌ عرضيٌّ وثانويٌّ لعمليةٍ طبيعيَّةٍ وغير موجَّهةٍ ليس قطعاً استدلالاً علمياً ولكنَّه وجهة نظرٍ فلسفية فحسب.

علم النفس الإدراكي Cognitive Psychology

إذا كان علم الفيزياء هو العلم الأساس والأقدم، فإن «علم النفس الإدراكي» هو أكثر العلوم حداثةً. إنَّه يبدو لأوَّل وهلة ارتداداً نحو الماديَّة الخامة، وذلك لأن «علم الأعصاب» – وهو حجر الزاوية في علم النفس الإدراكي – ما يزال في مرحلة المراهقة. وهذا الحقل يبدو مزهواً بنموِّه السريع جداً وتوقُّعات آفاقه اللامحدودة. (في اليوم الذي أكتب فيه هذه الكلمات أعلن زوجٌ من الخرِّيجين أنهما كانا يعطيان "معهد ماساتشوسيت للتكنولوجيا" ٦٥ مليون دولار للأبحاث حول الدِّماغ!). جلب هذا الحقل معه عودة **"ماديَّة العقل"** Mental Materialism، وإنها لم تعُدْ فحسب، بل عادت بروحٍ ثأرٍ انتقاميَّةٍ، وعلى نحوٍ غير اعتذاريٍّ وبشكلٍ علنيٍّ مفضوحٍ.

إن ما يجعل «علم النفس الإدراكي» شيئاً مثيراً ومهماً هو ما يحدث في الطرف الآخر، أي **"مشكلة العقل-الجسم"**. يقدِّم كتاب «كولن ماك غين» Colin McGinn: «اللهب الغامض» *Mysterious Flame* بشكل جذَّاب جداً ما سأقوم بوصفه، لذا سأستخدمه وكتابه كنقاط مرجعيَّة. لقد أدخلَتْ **"مشكلة العقل-الجسم"** في العالم مِنْ قِبَلِ الفيلسوف الفرنسي «رينيه ديكارت» الذي قسَّم العالم إلى عقلٍ ومادَّةٍ، واسْتَخْدَمَ «اللهَ» لتجسير هذين النصفين، ولكن هذا الجسر لم يَعُد متاحاً للعلماء (والفلاسفة)، وأصبحت الفجوة غير المردومة بين العقل والدِّماغ تشكِّل: **"مشكلة العقل-الجسم"**.

يمكن وصف هذه المشكلة بسهولة. لدينا العقل (الوعي)، ولدينا الأجسام أو الأعضاء الجسميَّة (وهي في سياقنا هنا: الدماغ)، ولا يمكن لأيٍّ منهما أن يتحوَّل إلى الآخر. كما أن

العلاقة المزدوجة المتبادلة بينهما في اتجاهين، واضحةٌ بنفس الدرجة. عندما يأمر "**عقلي**" سبّابتي اليمنى أن تطبع حرف "ج" مثلاً فإن السبّابة تطيع أمره، ومن الناحية الأخرى إذا تعب "**دماغي**" من مواصلة طاعته لمثل تلك الأوامر لعدّة ساعات، فإنني أشعر بالتعب. المشكلة هي: كيف يمكن لوقود الخلايا العصبية في دماغي أن يكون سبباً في ظهور أشياء تختلف تماماً عن تلك الخلايا العصبية، مثل أفكاري ومشاعري، والعكس بالعكس. إن العلماء والفلاسفة الذين أخذتُهم بعين الاعتبار – وعليّ هنا أن أضيف إلى اسم "ماك غين" اسمَيْ «توماس ناغيل»[١] Thomas Nagel من جامعة نيويورك، و«ستيفن بينكر»[٢] Steven Pinker اللذين يرأسان برنامج علم الإدراك في معهد ماساتشوسيت للتكنولوجيا – يطلقون على موقفهم من "**مشكلة العقل-الجسم**" لقب (مذهب الخفاء المُلغز والغموض المكتنف بالأسرار) Mysterianism، ويعكس هذا اللقب إقرارهم الصريح أنه في القرون الثلاثة منذ أن طرح «ديكارت» المشكلة، لم تحدث ذرّة تقدُّم باتجاه حلّها. يعرض «ماك غين» – (الذي يقول مثل قول "ستيفن بينكر" بنحوٍ صحيح: «فكّر مثل الليزر، واكتب مثل الحُلُم» – هذا المأزق على شكل قصة مقتطفة اقتطافاً ذكياً من قصّة خيالٍ علميٍّ لـ«تيري بيسّون» Terry Bisson يروي فيها أن مستكشفاً من الكائنات الأجنبيّة (التي تعيش في الكواكب الأخرى) عاد لتوّه من زيارة قام بها إلى الأرض، وجاء ليعطي قائده تقريره عن الزيارة:

« إنهم مصنوعون من اللحم »

« اللحم؟» . . .

« لا شكَّ في ذلك. لقد التقطنا عدّةً منهم من أجزاء مختلفة من الكوكب، فأخذناهم على متن مركبتنا، وفحصناهم وسبرنا غورهم طوال الطريق. إنّهم لحمٌ بالكامل»

« هذا مستحيل! وماذا عن الإشارات الإذاعية والرسائل المرسلة نحو النجوم؟؟»

---

(١) توماس ناغيل Thomas Nagel (١٩٣٧ -) فيلسوف وعالم تربية أمريكي معاصر من أصل يوغسلافي.

(٢) ستيفن بينكر: Steven Pinker عالم أمريكي معاصر (١٩٥٤ -) متخصص بعلم النفس الإدراكي.

«إنهم يستخدمون موجات الراديو للتكلُّم فيما بينهم، ولكنَّ الإشارات لا تأتي منهم، بل الإشارات تأتي من الآلات.»

«إذن من الذي صنع هذه الآلات؟ هذا الذي نريد الاتصال به.»

«إنهم هم الذين صنعوا الآلات، هذا ما أحاول إخبارك به. اللحم صنع الآلات.»

«هذا سُخْفٌ محضٌ!. كيف يمكن للحم أن يصنع آلات؟! إنك تريد مني أن أصدِّقَ بلحمٍ حسَّاسٍ ذي شعور!»

«أنا لا أطلب منك. أنا أخبرك!. هذه المخلوقات هي الجنس الحسَّاس الوحيد في هذا القطاع (من الكون) وهم مصنوعون من اللحم.»

«ربَّما يكونون مثل «أورفولي»، كما تعرف، إنه ذكاء مرتكز على الكربون يمرُّ بمرحلة من اللحم..»

«كلا، ليس الأمر كذلك، إنهم يولدون لحماً ويموتون لحماً. لقد درسناهم في عدة فتراتٍ من حياتهم، تلك الحياة التي لم تستغرق وقتاً طويلاً. هل لديك أيَّة فكرةٍ عن فترة حياة اللحم؟»

«دعني من هذا، حسناً، ربما هم جزؤهم من اللحم، يعني كما تعلم مثل «ويديلي». رأسٌ من اللحم ذو دماغ من البلاسما الإلكترونية داخله.»

«كلا، لقد فكَّرنا في ذلك، لأنهم يملكون رؤوساً من اللحم مثل الـ «ويديلي»، ولكنني أخبرتك أننا سبرنا غورهم وفحصناهم. إنَّهم لحمٌ في كل أجزائهم.»

«ألا يوجد دماغٌ؟؟»

«أوه! أجل، يوجد دماغ، ولكن القضيَّة أن هذا الدِّماغ مصنوعٌ من اللحم فقط!»

«إذن ماذا عن التفكير؟؟»

«إنك لا تفهم، أليس كذلك؟؟ إن الدِّماغ هو الذي يقوم بالتفكير!. اللحم!.»

«لحمٌ يفكِّر؟؟ إنك تطلب منِّي أن أصدِّق بلحمٍ يفكِّر؟؟»

«نعم، لحمٌ يفكِّر! لحمٌ واعٍ ومدركٌ! لحمٌ يحبُّ! لحمٌ يحلم. إن اللحم يقوم بكلِّ شيء وبكلِّ الأمور من أوّلها لآخرها!» [١].

بعد أن أوصلنا الغُمُوضيُّون (أصحاب مذهب الغموض واللغزية) إلى حيث أرادونا أن نصل - وهو أن نرى أن العلم لم يقم بأي تقدُّم مطلقاً في تهدئة وتخفيف سُخفْ وعدم معقوليَّة المفهوم بأن مادَّةً ناعمةً سنجابيَّة اللون في رؤوسنا ("اللحم المفكِّر") يمكن أن تسبِّبَ حياةً عقليَّةً، بينما لحمٌ كلحم الكَبِد، الذي لا يختلف منظره عن منظر لحم الدماغ، لا يمكنه أن يفعل ذلك، - فإنّهم يهبطون علينا بمفاجئتهم. إننا قد نظلُّ عالقين بهذه المشكلة طالما كنَّا نحن البشر نسعى لسَبْر غورها وتأمُّلها. وذلك لأنّهم يسألون: ماذا نظنُّ بأنفسنا؟ هل نحن نعلم كلَّ شيء؟ كيف ذلك مع أننا نكتشف كل يوم أن العالم أكثر غرابةً وأكثر تعقيداً وأكثر غموضاً واكتنافاً بالألغاز مما كنَّا نظن. وهذا يقود "الغموضيِّين" إلى أن "**مشكلة العقل-الجسم**" قد تكون أكبر بكثير منَّا ومن القدرة المحدودة لعقولنا على الإحاطة بها. وهذه ملحوظة جديدة نسمعها أوَّل مرَّة من العلم. إنها لا تعطينا إجابة غير مسبوقة فحسب، عن مشكلة، ولكنها تعطينا إجابة من نمط جديد لا سابق له - وهو نمطٌ مختلف عن الإجابة التقليدية التي تقول: «أعطنا الوقت والمال ونسلِّمك البضاعة».

يجب أن أذهب بعيداً جداً في تقليص الاختلاف. إن «ماك غين» وزملاءه لا ينفضون أيديهم يائسين من الموضوع تماماً. إن ما يقصدون فعله هو الكشف عن الأسباب العميقة لحيرتنا وارتباكنا بخصوص المشكلة موضع البحث.

عندما صادفت لأوَّل مرَّة الخط الفكري لـ «ماك غين» أدركت أنني سبق وسمعت شيئاً مثله قبل ذلك، وتتبعت الخيط بسرعة فأوصلني إلى محاضرة كنت قد سمعتها لـ «نعوم

---

(١) يذكِّرنا هذا بآية قرآنية تلخص لنا كل ذلك وتقول: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ} سورة الروم/ آية ٢٠.

تشومسكي»[(١)] Noam Chomsky ألقاها في أواخر سنوات تدريسي في معهد ماساتشوسيت للتكنولوجيا. (بالمناسبة يعترف "ماك غين" بتأثره بتشومسكي وآخرين).
يقول نعُّوم تشومسكي: «*لا يملك أيُّ نوع آخر من الكائنات الحيَّة موهبةَ اللغة التي يمتلكها البشر، ولكن كلّ نوع يبدو ممتلكاً لطرق متميِّزة، بالمقارنة، لفهم العالم والقدرة على الارتباط به. تُولدُ الطيور حاملةً لموهبة فطريَّة تمكِّنها من معرفة كيف تبني أعشاشها، وهي طريقةٌ فريدةٌ ربما لا نستطيع أن نجاريها حتى لو صرفنا كلَّ حياتنا لهذا المشروع! . كما يملك النمل غريزيّاً موهبة العمل الجماعي لبناء مستعمراته في الطرق، حيث تتعاون كلُّ نملة وتنسِّق نشاطاتها مع نشاطات النملات الأخرى في مستعمرتها، بطرق تجعل لجان العمل البشرية شيئاً تافهاً أمامها*»[(٢)]. ويكْمل "تشومسكي" كلامه في محاضرته قائلاً: «*أما بالنسبة إلينا معشر البشر فمن الواضح أننا جيِّدون جداً في "اللغة" و"العلم" Science، فلا يمكن لأيِّ صنف آخر من الكائنات الحيَّة أن ينافسنا على هاتين الجبهتين. بيد أنَّ الجانب السلبي لكلّ ذلك هو أنه بينما يكون كل صنف من الكائنات الحية ممتازاً في بعض الأمور فإنه يكون ضعيفاً في أمور أخرى*». وجاء "الغُمُوضيُّون" بعد سنوات، ليواصلوا هذه النقطة.

إنّ السؤال هنا هو فيما إذا كانت أطروحة "الغُمُوضيِّين" على علاقة بقضية الضوء في نهاية النفق. يقول «ماك غين» في أواخر كتابه «اللهب السرِّيَ الغامض» إن كتابه لا يمكنه أن يهرب من استنتاج أن «إبداعاً تصوريّاً جذريّاً هو الشرط الأساسي لحلّ "**مشكلة العقل-**

---

(١) نعوم تشومسكي Noam Chomsky (١٩٢٨ -) عالم لغويات أمريكي معاصر، وأستاذ تربوي وناشط سياسي. أسس قواعد اللغة التحويلية المنتجة transformational-generative grammar، وهو نظام لغويٌّ أحدث ثورة في علم اللغويات الحديث. كما كتب تشومسكي في السياسة خاصةً في الستِّينات ردّاً على السياسات الأمريكية الظالمة والإجرامية في جنوب شرق آسيا (فيتنام) منبِّهاً إلى الآثار السلبية للسياسة الخارجية الأمريكية اللاأخلاقية خاصة في أمريكا اللاتينية ومحمِّلاً المثقفين مسؤولية استخدام المنهج العلمي في نقد ورفض تلك السياسات وتطوير إستراتيجيات عملية لمحاربتها.

(٢) يذكّرنا هذا بقوله تعالى في القرآن الحكيم: {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} سورة طه/ آية ٥٠، وقوله سبحانه: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} سورة الأعلى/ ١-٣.

الجسم". . . . إن حل هذه المشكلة يتطلّب مفهومين جديدين، واحداً للعقل وآخر للدماغ.» وأنا أضيف إليه أنه كما أن الأجزاء تعكس الكلّ الذي تنتمي إليه، فإن هذين المفهومين الجديدين يتطلبان "**تصوراً جديداً للعالم**" أي تصوّر يختلف عن "**التصوُّر العلميّ للعالم**" الذي نمتلكه الآن.

وذهب «توماس نيغل» Thomas Nagel نفسه إلى هذا البُعْد حين قال في مساهمته في المؤتمر الذي عقدته سيبا CIBA في لندن عام ١٩٩٢ :

((إن الاستحالة الظاهرة لاكتشاف ارتباطٍ بين الجسمي المادي (الفيزيائي) والعقل، يجب أن تعطينا أملاً، وذلك لأن الاستحالات الظاهريَّة محفّزاتٌ رائعةٌ للتصوُّر والخيال النظريّ. أعتقد أن البحث في الرابطة بين العقل والدماغ سيؤدي إلى نتيجة لا يمكن اجتنابها وهي تعديل مفهومنا عن العالم الطبيعيّ (الماديّ). ولذلك يجب على علم النَّفس الفيزيولوجيّ أن يتوقّع، في المدى البعيد، نتائج كوزمولوجيّة (كونيَّة). والعلم الطبيعيّ لم يحاول حتى الآن أن يواجه مسألة الوعي. أمَا وقد بدأ الآن بفعل ذلك، فإن محاولته هذه ستحوّل العلم بشكلٍ جذريّ.)).

أميل هنا إلى إنهاء هذا الموضوع، وأسأل في النهاية: كيف ستبدو الأمور لو قلنا إن الوعي لم يحاول حتى الآن أن يواجه العلم الفيزيائيّ؟ مع أنَّ هذه هي الإمكانيَّة المنطقيَّة الوحيدة التي لم يأخذها "الغموضيُّون" بعين الاعتبار، أو بالأحرى لم يأخذوها كذلك على نحوٍ جدّيٍّ، لأن «ماك غين» مسَّ هذه المسألة ولكن ليستبعدها فقط.

سوف نسمع أكثر عن هذه الإمكانية في الفصل النهائي من كتابي هذا. هنا أريد أن أبرز فقط إمكانيَّةً ثانيةً يبدو أنَّها لم تظهر للغموضيين. إذا كان العقل الإنساني قد وُهبَ بنحوٍ غامضٍ ومُلْغز بموهبة فطريَّة للعلم (حقل واختصاص الغموضيين) فما الدليل على استبعاد إمكانيَّة أن يكون قد وُهِبَ بنحوٍ غامضٍ ومُلْغزٍ بنفس الدرجة أيضاً بموهبة معرفة "**الصورة الكليَّة**" The Big Picture (حقلي واختصاصي). هذه الصورة الكليَّة هي موضوع الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب.

الفصل ١٢

شروط الانفراج

عندما أعود بتفكيري إلى العقدين الماضيين، أجد أنني حظيت برفقة استثنائية لأربعة من العلماء من المستوى العالمي هم: «ديفيد بوم» David Bohm في ميكانيك الكم، و«كارل سيجن» Carl Sagan في الكوزمولوجيا (علم الكون)، و«إيليا بريغوجين» Ilya Prigogene في الكيمياء، و«كارل بريبرام» Carl Pribram في علم الأعصاب. لا أحد من الأربعة (ولا حتى "ديفيد بوم") وافقني وسلّم لي بأن **"المنهج العلمي"** محدودٌ.

هذه القراءة الخاطئة للعلم هي المسؤول الأول والرئيس عن إدخالنا في النفق، لأنها تقلّل من شأن الفن والدِّين والحبّ ومعظم الحياة التي نعيشها على نحوٍ مباشرٍ عندما تنكر قدرة تلك العناصر على أن تعطينا أية بصائر، نحتاج إليها لإكمال ما يمدّنا به العلم. هذا الموقف يشبه أن نقول إن أهم ما في الإنسان هيكله العظمي كما يظهر على لوحة الأشعّة السينيّة!. إن خروجنا من النفق يتطلّب من العلم أن يشارك في مشروع المعرفة مع سائر المناهج والطرق المعرفيّة الأخرى **بدرجة متساوية** لا سيما مشاركته (كما في هذا الكتاب) منهجَ المعرفة الذي يتّبعه **"طالبو الله"**.

ما المقصود بعبارة **"يشارك بدرجة متساوية"**؟ هذا ما سأوضّحه في هذا الفصل، وأبدأ بحقيقة مسلّمة تقول إن العلم انتهت رئاسته وعليه أن يفسح المجال لمناهج المعرفة الأخرى،

وفي النهاية كل إمبراطورية لها وقت تغرب فيه شمسها، وقد حان زمن غروب شمس إمبراطوريَّة العلم. أنَّ العلم يجب أن يبقى شريكاً محترماً في مسعى المعرفة، أمرٌ لا جدال فيه. وسأكون صريحاً في ذكر أسبابي الشخصية التي تدعوني لاحترام العلم.

قبل سبع سنوات اكتشف طبيبي بأنّ ال PSA لديّ خرج عن الخط البياني، وهو مؤشِّرٌ أكيدٌ على وجود سرطان في البروستاتا، فانضمَّ أخصَّائيٌّ بالمسالك البولية إلى طبيب أخصَّائيٍّ بالأورام، لتمنحني خدماتهما المشتركة خمس سنوات أخرى من نعمة الحياة. لو لم أشكر العلم بصدق وأحترمه بإخلاص على تلك الهدية لكنتُ ناكراً كبيراً للجميل.

بعد أن ذكرت ذلك، أقول: لكي نفهم إلى أيّ مدىً يجب على العلم أن يتنحَّى ويفسح الطريق، لا بدَّ أن نفهم أوّلاً ما هو العلم؟. لقد عرَّفت الكلمة باختصار في الفصل الذي تحدثت فيه عن «**مذهب العلمويَّة**» Scientism، ولكن الوقت حان الآن لذكر تعريفٍ أكثر دقَّةً.

يقول لنا علماء دلالات الألفاظ وتطورها Semanticists إننا نستطيع أن نستخدم أيَّة كلمة في أيِّ معنىً نريده شرطَ أن نكون واضحين في تعريفنا لهذا المعنى الذي نقصده وأن نلتزم به دائماً، ولم يتمّ استغلال هذه الحرية التي يمنحنا إياها علماء دلالات الألفاظ كما استُغلَّت في إطلاق كلمة «**العلم**» في عصرنا العلميّ هذا. لقد أُدُّعيَتْ ادعاءاتٌ غريبةٌ حقاً باسم هذا «**الإله**»، لكن تلك الادّعاءات كان يمكن أن تكون معقولة تماماً (منطقيَّة)، لو أن العالم كان فعلاً مطابقاً لأقوال أصحاب تلك الادعاءات. يزوِّدني «ديفيد بوم» David Bohm – المذكور آنفاً – بمثال جيّد لهذا الأمر. عندما فاجأني بإنكاره أن العلم محدود، سألته ما تعريفك للعلم؟ فأجاب: «إنه الانفتاح على الدليل». وعندما قلت له إنّ هذا التعريف يجعلني أنا أيضا عالماً، رجع وقال: «ربما تكون كذلك!». إنّها إجابةٌ تخرِّب اللغة وتعطِّلها عن العمل.

لا أود أن أترك «ديفيد بوم» محمَّلاً بالمسؤولية بما قلته للتوّ، لأنه أحد الأبطال في نظري، علاوة على كونه صديقي الشخصي، وقد أتيت به إلى جامعة "سيراكيوز"

Syracuse لثلاثة أسابيع أثناء تدريسي هناك، وكنت مضيفه خلال تلك الأسابيع الثلاثة.
لو اقتصر الأمر على توضيح أن إدراجه لي في صنف العلماء أقل غرابة مما قد يبدو عليه، لما خصَّصْتُ المقطع التالي كله للحديث عن هذا الرجل؛ لكنني خلال إنجازي هذا الهدف، سأحكي قصَّةً، ستدفع إلى الأمام، بطرقٍ إضافيةٍ، مسعى هذا الفصل لمعرفة ماهيَّة "العلم"؟.

لمحة عن 'ديفيد بوم' David Bohm

في مرحلة ما خلال السنوات العشر التي قضيتها أستاذاً في جامعة "سيراكيوز" Syracuse، أدخَلَتْ إدارة الجامعة في ميزانيّتها بنداً تمكّن من خلاله كليَّة العلوم الإنسانية أن تدعو - مرَّةً في السنة - أحد أساتذة العلوم الإنسانية البارزين الكبار لزيارة الجامعة مدة ثلاثة أسابيع. وقد عُيِّنْتُ رئيساً للجنة الاختيار، التي اشتملت على عضوٍ واحدٍ من كلِّ قسمٍ من أقسام الكليّة الخمسة.

كان اختيار «شاول بيللو» Saul Bellow لقسم اللغة الإنجليزية اختياراً سهلاً، مثلما كان اختيار «نعوم تشومسكي» لقسم الفلسفة. وجاء الدور إلى قسم الدين الذي كنت أمثِّله، فطرحت دعوة «ديفيد بوم» David Bohm. وثارت الضوضاء! واحتجوا قائلين: «أنت تعلم أنّ الإدارة أعطتنا هذه الفرصة رشوةً ترضينا بها لتريح ضميرها من ذنب قلة اهتمامها بقسم العلوم الإنسانية، ثم تأتي أنت وتقترح علينا أن نعطي هذه الأجاصة إلى عالمٍ (طبيعيٍّ)؟! Scientist (أي ليس عالماً بالعلوم الإنسانية). فلمَّا هدأ الضجيج، وأصبح بإمكانهم أن يسمعوني، اعترفتُ لهم بأنّني تعمَّدتُ في الحقيقة فعل ذلك، وأن لي أسبابي التي حملتني عليه. إن اعتقاد «ديفيد بوم» بوجود "**نظامٍ كامنٍ ضمن الكون يتفوق ويتسامى على المكان والزمان**" يتضمَّن نتائج أكثر أهميّة للدِّين من أيّ شيء آخر قد يطرحه أي بروفيسور في الدراسات الدينية. لكن هذا الكلام لم يخفِّف اعتراض اللجنة، ولكن بما أنني كنت قد صوّتُّ من قبل لصالح مرشّحيهم، لم يكن أمامَهم خيارٌ سوى

الإذعان والتصويت لصالح مرشّحي.

يتطلّب النظام الأكاديمي أنك عندما تدعو رسمياً شخصاً ما إلى حرمك الجامعي ينتمي لحقل آخر غير حقلك العلمي، فعليك أن تطلع القسم المختص بذلك الحقل في جامعتك على هذه الدعوة؛ لذا قبل أن أدعو «ديفيد بوم»، ذهبتُ إلى رئيس قسم الفيزياء في جامعتنا للحصول على موافقته، فأبدى سروره البالغ بهذا الأمر قائلاً: «كلّ شخصٍ في قسمنا إنما اكتسب الحكمة من دراسته المعمَّقة لكتاب «بوم» العلميّ حول "**ميكانيكا الكمّ**"، فكم سيكون زملاؤنا مسرورين عندما يرون هذا العالم الكبير بينهم في حرمهم الجامعي. هل سيكون بإمكانهم أن يحظوا به في إحدى حلقات البحث في قسمهم؟»، وعندما غادرت مكتبه لحق بي إلى القاعة ليؤكد لي أنني إن احتجت إلى مزيدٍ من المخصَّصات الماليّة لهذا الغرض فما عليّ إلا أن أخبره بذلك.

قَبِلَ «ديفيد بوم» دعوتَنا، و زارنا في الوقت المحدَّد. وافتتح إقامته التي ستستغرق ثلاثة أسابيع بمحاضرة عامة مساء الاثنين. وكان قسم الفيزياء خارج القاعة بالقوَّة.

عقدت حلقة الفيزياء الدراسية بعد يومين. ولمّا وصلنا أنا و«بوم» إلى المكتب الإداري، رحّب رئيس القسم به ثمّ أوكله إلى عدّة أساتذة كبار، كي يأخذني إلى القاعة قائلاً: «هوستن! أريد أن أعلمك أنّه لن يلقى جمهوراً صديقاً»؛ فالأشياء التي قالها «بوم» في محاضرة الاثنين العامة لم تَرُقْ للفيزيائيين!

عندما حان وقت المضي إلى الحلقة الدراسية، وجدنا طريقنا مسدوداً مِنْ قِبَلِ جماهير الناس في الكليّة والطلاب في الممرّات. وقرَّرنا أن ننقل ورشة العمل إلى قاعة أكبر لكن هذا لم يسعفنا، وفي النهاية، تحوَّل ما كان من المفترض أن يكون ورشة عمل دراسيّة، إلى محاضرة في المدرَّج الكبير في مبنى قسم الفيزياء. ورغم ذلك، لم يجد بعض الطلاب مكاناً للجلوس واضطروا إلى الوقوف على أقدامهم طيلة المحاضرة.

بعد أن تم تقديمه، صعد «ديفيد بوم» إلى المنصة الكبيرة، وتكلم دون توقف مدةَ ساعة

وربع، دون أن يلقي أية نظرة على ورقة أو ملحوظات مكتوبة بين يديه، وكان يخطو ذهاباً وإياباً، وقد ملأ السبورة بأقسامها الثلاثة بالمعادلات المعقَّدة، وكان يتنقَّل في القاعة من مكان إلى آخر، حتى أنني تصوَّرت أنه خلال عشر دقائق فقط سيفقد انتباه كل شخص عدا بضعة أساتذة كبار، لكنه واصل الكلام، كما واصل الجمهور إصغاءه، ربما لا لسبب سوى أن يتذكروا بقيَّةَ حياتهم تجربة اطلاعهم المباشر على أفكار ونظريات رجلٍ عمل مع آينشتاين مباشرةً، وحافظت نظريته حول «المتغيرات-الخفيَّة» على تأكيد أن آينشتاين كان محقَّاً في تفكيره أن الله لا يلعب النَّرد[1].

وأخيراً عندما توقَّف «بوم» عن الكلام فجأةً، كما بدأ، أتاح رئيس القسم المجالَ لتوجيه الأسئلة. وفوراً رفع بروفيسور كبير كان جالساً في الصف الأمامي يده وسأل قائلاً: «بروفيسور «بوم»! إن كل ما ذكرته فلسفةٌ جذّابةٌ ومثيرةٌ للاهتمام جداً. لكن ما علاقة الفلسفة بالفيزياء؟». عندها ألقيتُ نظرةً سريعةً على هذا الكمّ من المعادلات التي كانت تملأ السبُّورة وحاولت عبثاً أن أجد كلمةً واحدةً بين هذه الصيغ والأرقام. وأجاب «بوم» بسرعة ودون تردُّد: **«أنا لا أؤمن بمثل هذا التمييز»**.

وخيَّم صمتٌ مهيبٌ على القاعة. ثم طُرِحَ سؤالٌ أو سؤالان مؤدَّبان، وانتهت بذلك تلك المحاضرة المثيرة.

لقد قلتُ إنني سردت هذه الحادثة لأبرِّر ما بدا من سذاجته في تعريفه الواسع جداً للعلم إلى درجة أنه شملني فيه، وتحقَّق مطلبي بنقلي ذلك الردّ السريع على أوَّلِ سؤالٍ وُجِّه إليه؛ لأنَّك لو لم تفصل العلم عن الفلسفة، فإن هذا لا يستتبع أن يكون العلم غير محدودٍ. وثمَّةَ سؤالٌ يطرح نفسَه: هل من الممكن، في النهاية، الفصلُ بين الاثنين؟ سؤالٌ كبيرٌ جداً أكبر

---

(١) أي لم يخلق الكون بشكل عشوائيٍ كالذي يلعب بالنرد معتمداً على مجرد الصدفة، بل خلقه على أسسٍ وقوانينَ محكمةٍ دقيقةٍ متقنة كما قال تعالى ((إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)) القمر/ ٤٩، وقال: ((لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)) غافر/ ٥٧، وقوله تعالى: ((وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ. مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ)) الدخان/ ٣٨- ٣٩.

من أن نعالجه هنا، لذا سأعود الآن لأجيب عن سؤال طرحته في بداية هذا الفصل، قبل أن يُخرجني «ديفيد بوم» عن الموضوع: كيف يمكننا أن نقدِّم أفضل تعريف للعلم، يفي بغرض المحاضرات العامة اليوم؟

العلم معرَّفٌ بشكل صحيح

عرضتُ في الفصل الذي عقدتُه حول **«العلموِيَّة»** تعريفي للعلم، بعيداً عن التفصيلات، كما يلي: **إن العلم هو الشيء الذي حوَّل "المجتمعات التقليدية" إلى العالَم الصناعي التكنولوجي الحديث. والتجربة التي نتحكَّم فيها** Controlled Experiment هي التي أنجزت هذا التحوُّل الكبير. فالعلم هو ذلك الكيان من الحقائق والوقائع عن العالم الطبيعي التي تطالبنا "التجربة التي نتحكَّم فيها" بالإيمان بها، إلى جانب الاستنباطات المنطقية التي يمكن استخراجها من تلك الحقائق، والأشياء الإضافية التي مكَّنتنا الأجهزة والأدوات العلميَّة من رؤيتها بالعين المجرَّدة.

لطالما وجدتُ هذا التعريفَ مُنْتَقَداً لأنه يعرِّف العلم بأضيق معانيه وأكثرها تصلُّباً، وهذا هو بالضبط قصدي ومبتغاي، لأن أيَّ تعريفٍ رخوٍ مطَّاطٍ سينحدر بنا إلى النَّفق. فهذا التعريف الضيِّق والمحدَّد للعلم يبين لنا ما يجب الإيمان به. إن كل توسعة لهذا التعريف ستحدث شقوقاً وتصدُّعاتٍ يمكن للفلسفة أن تتسرَّب من خلالها مضعفةً الادعاءات التي يقدِّمها العلم.

لما كانت الفلسفة تسمح دائماً بالاختلافات المعقولة، فإن الادعاءات والمطالبات التي تقدِّمها النظرية العلمية تَضْعُفُ بتناسبٍ مطَّردٍ مباشرٍ مع زيادة نسبة الفلسفة في المزيج (أي بمقدار ما تدخل الفلسفة في مزيج العلم، يُفسح المجال لإضعاف ادعاءات الأخير). وهذا يضعنا أمام خيارين، إما أن نضيِّق تعريف كلمة العلم ونحصرها في الأمور التي يجب أن نعتقد بها (وهو ما يتطلَّب تعريفي الضيِّق)، أو أن نريح التعريف ونجعله رخواً واسعاً ونخفِّض من مرتبة "حقائق_مطالبات" العلم إلى مرتبة الاقتراحات المدعومة بمنطقيَّة ذات

ميزانٍ منزلقٍ. ولأنَّ الخيار الثاني – أي العلم بوصفه اقتراحاتٍ – يتنافى مع فهمنا العامّ للمشروع العلميّ (الذي يضع الفهم على المسار الصحيح، لأن الاقتراحات لم يكن بإمكانها أن تخلق عالمنا الصناعي التكنولوجيّ)، فإنَّه يعزِّز التشويش الذي يحدق بنا من كل جانب. إن تعريفي الضيِّق للعلم هو الخيار الذي يجعل التفكير الواضح بشأن العلم ممكناً.

إن هذه الفقرة أساسيَّةٌ جداً بالنسبة لحجج هذا الكتاب لدرجة أنني أشجِّع القارئ على إعادة قراءتها بتأنٍّ ثانيةً.

حدود العلم

كان البرنامج التلفزيوني الذي بثَّته قناة هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) بمناسبة مرور مئة عام على ولادة آينشتاين رائعاً بتمامه من جميع الجوانب، لكن لا شيء فيه كان متَّفقاً مع الجملتين اللتين افتتحت المحطَّةُ بهما البرنامجَ: ((كان آينشتاين يريدنا أن نقولها بأفضل طريقة ممكنة: «إن المكان (الحيِّز) يقول للمادَّة كيف تتحرك، والمادَّة تقول للمكان كيف ينحني ويتشوّه (بفعل المادة)»)). إنه استهلال أكثر من رائع، ففي طريق شائك يمرُّ من خلال تفاصيل وتقنيَّاتٍ معقَّدة، من المساعد جداً – كي نصل إلى النقطة – أن نعبِّر بمثل هذه الجمل البسيطة.

لقد أعجبتني هذه الطريقة في الافتتاح وتعلمت منها درساً أستخدمه هنا في كتابي هذا، مفتتحاً موضوعي هنا بجملتين:

الجملة الأولى: هناك تصوّران للعالَم يتنافسان على عقل إنسان الألفيَّة الثالثة: التصوُّرُ التقليديُّ (الدينيُّ) والتصوُّرُ العلميُّ. (وبتعبير إ. أو. ويلسون E. 0. Wilson: **«إن الخيار بين مذهب التسامي[1] والمذهب التجريبي سيكون نسخة القرن القادم لكفاح**

---

(١) مذهب التسامي transcendentalism كل فلسفة تقول إن اكتشاف الحقيقة يكون بدراسة عمليَّات الفكر لا من طريق الخبرة أو التجربة الماديَّة.

عقل الإنسان»). لو كان الخيار لنا لرجَّحنا التصورُ التقليدي للعالم؛ ونحن نملك فعلاً هذا الخيار، طالما أنَّ أيّاً من التصوُّرَين لا يمكنه إثبات أنه أكثر صحةً وحقاً من الآخر.

الجملة الثانية: إن الشيء الذي يدعم ويؤيِّد هذا التأكيد الأخير، هو فهمنا الجيِّد لحدود العلم، لأنه فقط عندما تكون تلك الحدود واضحةً في أذهاننا، يمكننا أن نرى أن العلم لا يملك حق منع وجهة النظر التقليدية. لا شكَّ أن العلم صاحب السيادة والأولوية في فهم السمات الحسابية للكون الماديّ (الطبيعيّ)، ولكن هل تشتمل هذه السمات على كل ما هو موجود؟ إنّها قضيّةٌ لا يمكن تقريرها علميّاً (أي لا يستطيع العلم أن يفصل بشأنها لا إثباتاً ولا نفياً لأنها تقع خارج نطاقه).

لقد أوضحتُ في الفصل ٣ من هذا الكتاب الخطوط العريضة لهذه القضيَّة، ولكن بسبب إيماءات ثقافتنا (في الشعور الثنائي بـ"الموافقة على الشيء" وبعد ذلك "الغفلة عن ذلك الشيء" ونسيان ما تمَّت الموافقة عليه قبل لحظات) أقترح هنا أن نمعن النظر بهذه القضيَّة مرَّةً ثانيةً من خلال صورةٍ، وحكايةٍ، ثم تحليلٍ شاملٍ.

الصورة. تصوَّر نفسك في بيتٍ شعبيٍّ (من طابق واحد) في شمال الهند، وأنت تقف أمام شباكِ زينة يطلُّ على منظرٍ مدهشٍ لجبال الهيمالايا؛ إن ما فَعَلَتْهُ الحداثةُ، في الواقع، مشابهٌ تماماً لكونك تقوم بإسدال ستارة أمام تلك النافذة حتى مقدار بوصتين فقط فوق عتبتها (أرضيَّتها)!. عندما أميلَتْ أعْيُنَنَا نحو الأسفل أصبح كل ما يمكننا أن نراه الآن من الفضاء الخارجي هو الأرض التي بني فيها البيت!. في تشبيهنا هذا تمثِّل الأرضُ العالَمَ الماديَّ، ولكي نعطي الأمورَ حقَّها عندما تستحق ذلك بكل جدارة، نقول: إن العِلْمَ قد أظهر لنا أن العالَمَ رائعٌ جداً بشكلٍ لا يُصَدَّق. ولكن مع ذلك فإن هذا العالَم الذي يظهر لنا، ليس هو جبل إيفريست.

الحكاية. يخبرنا "إي إف سكيوماخر" E. F. Schumacher في كتابه: «دليل الحائر» *Guide for the Perplexed* عن تيهه وضلاله الطريق بينما كان يشاهد معالم مدينة موسكو في العهد الستاليني. وبينما كان يبحث مرتبكاً ومحتاراً في خريطته، اقترب منه

مرشدٌ سياحيٌّ وأشار بإصبعه على الخريطة ليبين له المكان الذي كانا يقفان فيه، فاعترض "سكيوماخر" قائلاً:

- «ولكن أين تلك الكنائس الكبيرة التي نراها حولنا؟؟»

- أجابه المرشد السياحيّ بكل جفاف: «إنها ليست مُبَيَّنَةٌ على هذه الخريطة، نحن لا نُظْهِرُ مواضعَ الكنائس على خرائطنا».

- «ولكن هذا غير صحيح، إن الكنيسة الموجودة هناك في زاوية الشارع، نجدها مُشاراً إليها في الخريطة!» أصرَّ "سكيوماخر" معترضاً!

- أجابه المرشد السياحيّ: «أوه! هذه كانت كنيسة فيما سبق، أما الآن فهي متحفٌ».

ويواصل "سكيوماخر" قائلاً: حالتنا تشابه هذه القصَّة تماماً. إن أغلب الأشياء التي اعتَقَدَ بها معظم البشريَّة، لا تظهر على خريطة الحقيقة التي حصلتُ عليها من تعليمي في جامعة أكسفورد، أو لو ظهر شيء من تلك العقائد على الخريطة فإنه يظهر كإشارات إلى متاحف، أي إلى أشياء اعتقد بها الجنس البشري في عهد طفولته (قبل أن ينضج)، ثم عندما بلغت البشريَّة سنَّ الرشد، لم يعد الناس يؤمنون بها (صاروا ينظرون إليها كآثار الأسلاف كما ينظرون لآثار القدماء في المتاحف)!.

إن الغرض من هذه الحكاية، ومن الصورة التي سبقتها، أن نستحضِر في أذهاننا حقيقة أن العلم «في عملية إمطارنا بالمنافع الماديَّة والمعرفة الهائلة بالكون الماديّ الطبيعيّ» محا وأزال الأمور الفائقة على المادة والسامية، من خريطتنا للحقيقة. (تذكَّر التصريح الواضح الذي اقتبسناه في خاتمة الفصل ٢ من كتابنا هذا، عن قسم مراجعة الكتب في نشرة "تاريخ أحداث التعليم العالي" *Chronicle of Higher Education* والذي افتتحه بقوله: «**إذا كان هناك شيءٌ يميز عصر "الحداثة" فإنه فقدان الإيمان بالتسامي (أي بالفائق المتعالي على المادة) Transcendence، أي بالحقيقة التي تشمل شؤوننا اليومية وتتعالى عليها وتسمو فوقها**». والآن أتقدَّم لأبيِّن كيف حصلت هذه الإزالة. وهذا يتطلَّب منَّا أن ننتقل من التلميحات إلى الأدلَّة والبراهين.

التحليل. سأقدِّم دليلي على حدود "**العلم**" هنا على شكل قياسٍ منطقيٍّ[1] مؤلَّف من مقدِّمتين ونتيجة ؛ تتضمـن كل مقدِّمة ستَّة نقاط تعطينا مظهر القياس المنطقي المتطاوِل. المقدمة الأولى كما يلي :

١ - لقد أصبح العلم (كما اقتبست سابقاً من كلام "ألِكْس كومفور") طريقتنا "**المقدَّسة**" للوصول إلى المعرفة ، وأصبح العلم اليومَ يحتلّ ، بشكلٍ متماثلٍ في الشكل تماماً ، المكان نفسه الذي كان يتمتّع به الوحيُ في العصور الوسطى . كتب مؤرِّخٌ ثقافيٌ أنَّه قبل مئة سنة ، وصل الغربيون إلى حالة جعلت إيمانهم بالجدول الدوري للعناصر الكيميائية أقوى من اعتقادهم بأي شيء من الأمور المتميِّزة التي يتحدَّث عنها الكتاب المقدَّس مثل الملائكة والمعجزات ، وما شابههما .

٢ . إنّ جوهر ولبّ العلم الحديث هو التجربة التي نتحكَّم فيها Controlled Experiment . وهذا يفسِّر ثقتنا في العلم (كما هو مذكور في النقطة ١) ، لأن هذه التجارب تغربل الفرضيات الصادقة وتميزها عن الخاطئة وبذلك تقدِّم لنا "**البرهان**" .

الآن لاحظ النقطة القادمة ، لأنها ستكون - ضمن سياق النقطتين السابقتين - إحدى الأفكار الأصليَّة (الجديدة المبتكرة) القليلة في هذا الكتاب . (ذلك ، على الأقل ، ما يبدو لي . فأغلب الكتاب يتعامل مع أشياء نعرفها لحدّ الآن ، وإن كنَّا لم نتعلَّمها قطّ ، لكن عندما قفزت الفكرة التالية إلى ذهني أوّل مرة أعطتني شعوراً يشبه شعور أرخميدس عندما صاح قائلاً : وجدتها ! وجدتها ! شعوراً يحصل للإنسان عندما تأتيه بصائر جديدة تماماً) .

٣- يمكننا أن نسيطر ونتحكَّم بالأشياء التي هي أدنى منَّا مرتبةً فقط . ولتوضيح هذه النقطة ، علي أن أشحذ كلماتي لأجعلها أكثر تحديداً . أقصد بالتحكُّم والسيطرة تلك

(١) القياس المنطقي أحد أنواع الاستدلال والبرهان القطعي وقد عرَّفه المناطقة أنه : ((قولٌ مؤلفٌ من قضايا متى سُلِّمَت لزم عنه لذاته قولٌ آخر)) . وأشهر صورة أن يتألف من قضيتين مسلّمتين موجبتين واحدة كبرى وأخرى صغرى ثم نتيجة تنتج عنهما كقولنا : كل إنسان فان ، سقراط إنسان ، إذن سقراط فان .

المقصودة والمتعمَّدة، فلو حبست نفسي خارج المنزل مثلاً فإن جدرانه ستحبط أمنيتي في الدخول دون أن تقصد ذلك (لأن الجدران لا تتحكَّم في بإرادتها بل هي جماد لا إرادة له). كما أتكلَّم عن سيطرةٍ وتحكُّمٍ ضمن خطوطٍ خاصَّة، لأنَّه ضمن النوع الواحد يمكن للمتغيِّرات أن تُحْدِث استثناءات (مثلاً النازيون سيطروا على اليهود وتحكَّموا فيهم دون أن يكونوا أعلى منهم رتبةً). وأقصد بالأعلى رتبةً والأدنى رتبةً كل معيار ممكن من معايير الجدارة والاستحقاق وربَّما بعض ما لا نعرفه منها. المجرَّات أكبر منَّا، والزلازل أشدُّ قوَّةً، ولكنَّنا لا نعرف شيئاً (أتكلم علميًا وتجريبيًا) أكثر ذكاءً وحريَّةً منَّا نحن معشر البشر، أو أكثر شفقةً ورحمةً مما يمكننا أن نكونه. يبدو واضحاً تماماً أن الإنسان هو الذي يتحكَّم بالجاموس الأمريكي مثلاً، أكثر من العكس! إنَّه هذا النوع من الارتباط والعلاقة بين التحكُّم والمنزلة أو الرتبة الوجوديَّة، الذي تريد هذه النقطة الثالثة أن تلفت الانتباه إليه.

إذا اتَّضحتْ هذه النقاط الثلاث، تبعتها تلقائيّاً النقطة الرابعة التالية:

٤- إن العلم يمكنه أن يسجِّل ما هو أدنى منَّا فقط. اسأل نفسك: هل سبق أن اطلعت مطلقاً، في أيَّة دورة دراسيَّة أخذتَها أو أيِّ كتابٍ دراسيٍّ علميٍّ وجب عليك دراسته أو اطلعت عليه، على أيِّ وصفٍ بشكلٍ واضحٍ لأشياء تتجاوزنا وتسمو علينا في خواصنا الإنسانيَّة المميَّزة؟. إن الذين يرفضون الإقرار بالإجابة السلبيَّة عن هذا السؤال، سيحاولون أن يحوِّلوا كلمة «لا» الواضحة، إلى عبارة «ليس بعد» المتملِّصة، ولكنَّ قوَّة النقطة السابقة هي أن تبيِّن لنا بشكلٍ منطقيٍّ - أي من الناحية المبدئيَّة - لماذا لا يمكن لتلك الإجابة البديلة (المتملِّصة) أن تفيد. حاول أن تتصوَّر للحظة واحدة ماذا يمكن أن تكون الكائنات الأعلى منَّا؟ أرواح بلا أجسام؟ ملائكة؟ "الله"؟ إذا وُجِدَتْ مثل هذه الكائنات، فإنَّ العلم - العلم الذي يمكنه أن يثبت اقتراحاته من خلال التجربة الواقعة تحت السيطرة فقط - لن يمكنه أن يأتي بمثلها أبداً إلى المشهد المحسوس، لسببٍ واضحٍ هو أنَّها لو وُجِدَتْ، ستكون هي التي تتحكَّم بنا، لا نحن. ولكونها تعلم أكثر مما نعلم، فإنَّها ستدخل إلى تجربتنا إذا اختارت هي ذلك، وإلا فلن تدخل. أخبرني «كارل بريبرام» Karl Pribram (الذي بذل جهداً أكبر مما

بذله أيُّ شخصٍ آخر لنشر فكرة "الصورة ثلاثيّة الأبعاد" hologram) أنه استغرق إلى الآن حوالي سبع سنوات للقيام بتجربة هامّة على الدماغ، واستغرق الأمر كلَّ هذه المدّة لكي نتمكّن من أن نقرِّر ما هي المتغيِّرات ذات العلاقة. فكيف سيكون الوضع بالنسبة لمحاولة فهم الكائنات الأذكى منّا؟! إننا لا نملك أي دليلٍ مفتاحيٍّ يدلُّنا على كيفيّة عمل عقولها. لذا لا يوجد أيُّ سبيل لاكتشاف ما هي المتغيّرات المطلوبة للقيام بتجربةٍ عليها.

ولأن مقاومة هذه النقطة تتناسب طرداً مع أهميّتها - وأكرِّر أنها تقول: **إنّ العلم لا يمكنه أن يكتشف إلا الأشياء التي هي أدنى منّا رتبةً** - فسوف أبقى في هذه النقطة لعدّة فقراتٍ تالية.

لو شبَّهنا الطريقة العلميَّة بمصباح كاشفٍ (بيل)، فعندما نوجِّه ضوءه إلى الأسفل نحو الطريق والمسار الذي نمشي عليه فإن شعاع ضوئه يكون واضحاً قويّاً. ولكن افرض أنّنا سمعنا وقع خطوات وأردنا معرفة مَنْ يقترب منا فسنرفع المصباح الكاشف إلى موضعٍ أفقيٍّ (هذا يمثِّل تحويل الطريقة العلميَّة باتِّجاه الكائنات المساوية لنا في الرتبة، أي زملائنا البشر، والانتقال من العلوم الطبيعيَّة إلى العلوم الاجتماعيَّة) فماذا يحصل؟ إن المصباح الكاشف سيلقي ضوءاً خفيفاً، وسيكون ضوءه مرتجفاً لا يتيح لنا الحصول على صورةٍ واضحة. إن حريَّة البشر تجعل من الصَّعب أن نحصرهم تجريبيّاً. لا أحدَ يعلم على وجه اليقين (كما كتب أحد علماء الاجتماع) لماذا تحدث الجريمة؟ أو لماذا تنتهي بعض الزيجات بالفشل؟ ولماذا تشتعل الحروب؟ ولماذا يحدث الانهيار الاقتصادي؟ ولماذا لا يمكن للحكومات أن تستأصل الفساد؟

أما بالنسبة لعلم النَّفس فبإمكانه أن يخبرنا بضعة أشياء عن النّاس إجمالاً، ولكن لا يمكنه أن يصل إلى عمق الأفراد في تفرّدهم الوجودي (هذا دون أن نتكلّم عن أنفسهم وأرواحهم إذا كان لها وجود)، وإذا أردنا أن نحصر هذا الأمر بالنقطة الحاضرة (والتي هي - أكرر ثانية - أن العلم لا يمكنه إلا أن يكتشف الأمور التي هي أدنى منّا رتبة)، فإنَّه من البديهي، في العلوم الاجتماعية، أنه في التجارب التي تجرى على أشخاص من البشر،

يجب عدم إعلام أولئك الأشخاص بالمخطط التجريبي الذي ننوي إجراءه عليهم، مما يضعهم بالطبع في مرتبة أدنى من الذي يقوم بالتجربة، لأنه يعرف ماذا يجري.

وأخيراً (لإكمال هذا التشبيه) لو وجّهنا مصباحنا الكاشف نحو السماء أو نحو السماوات (كما يمكننا القول على نحو ملائم هنا) فإن بطاريات آلتنا الضعيفة ستهبط إلى قاع الغلاف وسيتوقف الضوء وينطفئ تماماً. هذا، بالطبع، لا يُثبِتُ أن هناك أشياء موجودة في السموات، ولكنه يُثْبتُ أنه لو كانت موجودةً فإن العلم لن يكتشفها.

النقطتان الأخيرتان في هذه المقدّمة الأولى يجتمعان معاً لأن أولاهما لا تعدو أن تكون تلخيصاً وزبدة ما سبق ذكره، لتهيئ الطريق للنقطة الختاميّة:

٥- بما أننا نأخذ أفكارنا ودلائلنا من "**العلم**" لنعلم **ماذا يوجد** (النقطة ١) وبما أن العلم لا يمكنه إلا أن يكشف عما هو أدنى منا رتبةً (النقطة ٣) فإن الذي يترتب على ذلك هو:

٦- إننا نحاول أن نعيش حياةً رفيعة المنزلة (بأفضل ما يمكننا أن نجعلها كذلك) في عالَمٍ متدنٍّي المنزلة. أو إذا فضَّلْتَ، نريد أن نكمِّل "الحياة" في "عالمٍ ناقصٍ".

أوضحت المقدِّمة الأولى بنقاطها الستّ أحد حدود العلم والنتائج التي تترتَّب على استسلامنا له، أما المقدِّمة الثانية فإنها تتضمَّن قائمةً كاملةً. ثمَّة ستَّة أشياء ليست في متناول العلم هي التالية:

١- **القِيَم بمعناها الحقيقيّ والنهائيّ**: إن كل من "برتراند راسل" و"لودفيغ فيتكنشتاين"[1] Ludwig Wittgenstein، اللذين بدأا صديقين لكنهما وصلا إلى نتيجتين متعارضتين (متعاكستين) في الطيف الفلسفي، بقيا متفقين تماماً حول نقطة واحدة هي أنَّه: «**لا يستطيع العلم أن يتعامل مع القِيَم**». وقد اقترح «برتراند راسل» استثناء "القيمة"

(١) لودفيغ فيتكنشتاين Ludwig Wittgenstein (١٨٨٩-١٩٥١)، فيلسوف نمساوي بريطاني، كان أحد أكثر المفكّرين تأثيراً في القرن العشرين، واشتهر بنحوٍ خاصٍّ بمساهمته في الحركة المعروفة بالفلسفة التحليلية واللغوية Analytic and Linguistic Philosophy.

المتمثِّلة بإصرار العلـم حتى الآن على متابعة المعرفة، ولكن الواقع أن هـذه القيمـة ليست استثناءً، لأنه رغم إيمان العلماء بها إلا أنـها بحدّ ذاتها ليست مشتقّة مـن العلـم. إن العلـم يمكنه أن يتعامل مع **قِيَم أداتيَّة** (ذات دور نافع وفـعَّال) *Instrumental Values*، ولكنـه لا يملك التعامل مع **قِيَم جوهريَّة ذاتيَّة** *Intrinsic Values*. "**إذا**" أُعْتُبِرَت "الصحَّة" ذات قيمة أعلى من إرضاء الجسد الفوري فإن التدخين سيِّئٌ، أما القيمة الجوهريَّة لتفضيل الصحة على اللذة، عندما تتعارضان، فـلا يمكـن للعلـم أن يزنـها (أي أن الـ "**إذا**" تلك، بحد ذاتـها، لا يمكن للعلـم أن يحكـم ويفصـل بشـأنها، بمعنى أن العلـم وظيفتـه أن يبين أن الدخـان مضر بالصحة، أما أنه لماذا يجب عليَّ أن أهتـم بصحتي أكثر من اهتمامي بلذتـي؟ فـهذا مبدأ أخلاقي قِيَمـي لا يملـك العلـم أن يفصـل بشأنه). وأيضـاً يمكـن للعلـم أن يتعامل مع **القِيَم الوصفيَّة** (ماذا يحبّ الناس؟ بماذا يرغب الناس؟) ولكنه لا يمكنه التعامل مع **القِيَم المعياريَّة** (مـاذا عليـهم أن يحبُّـوا؟). تدخـل الدراسـات التسـويقيَّة واسـتطلاعات الـرأي في حقـل «**العلم**»، حقيقةً، وعندما يتمّ تحليل هوامش الخطأ فإنها تصبح قريبـةً مـن أن تكون علمـاً محضاً، وبهذا يمكنها أن تخبرنـا فيمـا إذا كـان النـاس يفضّلـون (فلانـاً) على (فلان) أو مَـن الذي يُحتمل فوزه في الانتخابات. أما من الذي يجدر به أن يفوز؟ فـهذه قضيَّةٌ أخـرى. **لن يكون هناك أبداً علمٌ عن "الخير الأسمى" أو "المبدأ الحاسم" في النظام الأخلاقي.**

٢. **المعاني الوجوديّة والشاملة** (الكليَّة). العلم نفسـه مليءٌ بالمعـاني في كافّة أنحائه، ولكنه صامتٌ بالنسبة للمعـاني الوجوديـة والمعـاني الشـاملة (الكليَّـة). أمـا **المعاني الوجودية** فهي التي تتعلق بنا وبوجودنا، إنها تتعلق بما نجده ذا مغزى و معنى (meaning-full مليء بالمعنى). يمكن للعلماء أن يعرضوا أمامنا أغنى منتجات التكنولوجيا، ولكن إذا كان المشاهد حزيناً قد دس رأسه بين ذراعيه فلا يمكنهم أن يجبروه على الاهتمام! (لعل عقار "البروزاك" المضاد للاكتئاب يعترض على كلامنا هنا لذا سأدعه يكذب). وأمـا **المعاني الشاملة** (الكليَّة) فـهي مـن قبيـل: ***ما معنى الحياة؟*** أو ***ما معنى القضيَّة كلّها من أوّلها إلى آخرها؟***. يمكـن للعلماء، بوصفهم بشراً أيضاً كسائر البشر، أن يدلوا برأيهم في مثل هـذه المسائل، لكن

علمهم بحدّ ذاته لن يساعدهم في العثور على أجوبة عليها.

٣. **العلل الغائيّة**. حتى يستطيع العلم أن يمضي في عمله، كان لزاماً عليه أن يسقط من حسابه شيئاً اسمه **علّة** أرسطو **الغائيّة**، أي الغاية والهدف من وجود الأشياء، ويبقي الميدان متروكاً للعلل الفاعليّة فقط. ويجب أن نضيف هنا أن العلم فعل ذلك إلا في علم الأحياء. تبحث الكائنات الحيّة عن الطعام والجنس لإشباع جوعها وإشباع دافع الشهوة الجنسية لديها، وبالتالي قيامها بالصيد له علّة غائية هي إشباع تلك **الدوافع**. (كان كتاب "تولمان" Tolman حول "السلوك الهادف لدى الحيوانات والإنسان" *Purposive Behavior in Animals and Men* كتاباً معتبراً ومحترماً جداً لدى العلماء في أيام دراستي الجامعيّة)؛ لذا إذا كان الحديث عن نظام من النواميس الغائية في حقل بعينه teleonomy: فنَعَمْ، هذا مقبول، أما الحديث عن **الغائيّة** (بمعناها الشامل) teleology [1] فليس مقبولاً. وسواء كانت القضية صخور "غاليليو" Galileo المتساقطة، أم نور "كيبلر" Kepler، لقد حدث الانتقال من علم الميكانيك الكلاسيكي إلى الميكانيكا الحديثة عندما تمّ فصل الخواص الأوّلية عن الخواص الثانوية، أي فصل الأمور الكميّة للطبيعة عن سمات الطبيعة المحسوس بها كيفياً. لقد أزيل أيُّ كلام عن قصد وإرادة لوجود الأشياء، ليُفْسَحَ المجالُ فقط أمام سيطرة الكلام عن قوانين الحركة اللاشخصيّة. قُبيل بداية عصر "العلم الحديث"، ذكر "فرانسيز بيكون" Francis Bacon هذا بكل حيويّة و زهو، حين شبّه التفسيرات الغائية في العلم بأبكار العذارى المخصّصة للّه فقط، لأنها «عقيمة (عاقر) عن إعطاء أي ثمرة عمليّة لمصلحة الإنسان.».

٤. **الأشياء غير المرئيّة** Invisibles. هنا أيضاً لا بد من إضافة توضيح. يمكن للعلم أن يتعامل مع الأشياء غير المرئية التي يمكن استنتاج وجودها منطقيّاً انطلاقاً من تأثيراتها القابلة للملاحظة، مثل اكتشاف «ميخائيل فاراداي» Michael Faraday، في أوائل القرن

---

(١) teleology = مبدأ العلّة الغائية الذي يحكم كل شيء موجود ويرى أن كل شيء (وخاصة الطبيعة أو عملياتها) وُجِدَ أو قُصِدُ به تحقيق غاية معيّنة أي غاية نهائية خارج العالَم المتحرّك.

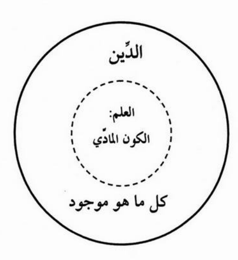
العشرين، "الحقول المغناطيسية" باتّباع هذا المنهج، وذلك عندما وضع برادة حديدية على قطعة ورق، ثم وضع مغناطيساً تحتها؛ فلمّا هزّ الورقة هزّاً خفيفاً، ظهرت خطوط القوة المغناطيسية، إذ انتظمت البرادة، التي كانت متناثرة بشكل عشوائي ضمن خطوط مرتّبة كصفوف الجنود الذين اصطفّوا أمام ضابطهم، فاكتشف بذلك نمط الحقل المغناطيسي. لكن إن كان هنالك أشياء غير مرئية لا تؤثّر على المادّة بمثل هذا النّحوِ الواضح، فإن العلم (بوسائله العلمية المادية) ليس بإمكانه أن يمدّنا بأية معلومات عنها.

٥. **الكيفيّة** (أي الخواص المميزة) Quality. خلافاً للأمور الأربعة السابقة، هذا الأمر لا يحتاج أن يُقَيَّد أو يُحدَّد. وهو أساسيٌّ بالنسبة لهذه المجموعة، **لأن العنصر الكيفي** لكل ما ذكر: أي للقيم والمعاني والغايات والأشياء غير المرئية وغير القابلة للاستنتاج، هو الذي يعطيها قوّتها. بعض الكيفيات (كالألوان) ذات ارتباط، في الواقع، بأسس كمّية (موجات نور ذات أطوال محدَّدة)، لكن **الكيفيّة** بحد ذاتها ليست قابلة للقياس (بالوسائل العلميَّة).

٦. الكائنات الأعلى والأسمى منا Our superiors. وقد تحدَّثت مفصَّلاً عن هذه المسألة في المقدمة الأولى (ذات النقاط الست).

تقسيم العمل

عندما نضع الأشياء الستّة التي لا يستطيع العلم أن يتعامل معها - وألخّصها هنا لتبقى في الذهن: **القيم، المعاني الكليَّة، العلل الغائية، الأشياء غير المرئيَّة، الكيفيات، الكائنات الأعلى والأسمى منا** إلى جانب بعضها، نرى أنّ العلم يترك معظم العالم دون أن يمسّه. لذا يطرحُ تقسيمٌ للعملِ هنا نفسه. **يتعامل "العلم" مع العالَم الطبيعي في حين يتعامل "الدِّين" مع كلّ الأشياء**، مثلما يقترحه الشكل التالي:



الشكل رقم ١

كأن تمثيل الدين بالدائرة الأكبر يمنحه تميُّزاً، ولكن ذلك الانطباع يُصحَّح عندما نلاحظ أنّ العلم يعمل على نحوٍ أكثر فعَّاليَّةً في قسمه الخاص، من عمل الدِّين في قسمه. ينطوي العلم على حسابات دقيقة، وبراهين حاسمة نهائيّة، وعجائب تكنولوجيَّة، بينما يتكلّم الدين في العموميات والكليَّات، مثل: «في البدء خلق الله السماوات والأرض»، أو «تعلن السماوات مجد الله»، أو «كلّ الأشياء طبيعة البوذا» أو «العالم "مايا" maya (أي وهمٌ)» أو «السماء وحدها عظيمةٌ». إن طريقة "أوليفير ويندل هولمز"[1] Oliver Wendell Holmes لتأسيس هذا التعادل شيِّقةٌ: **«العلم يعطينا أجوبة رئيسية على الأسئلة الصغيرة، بينما يعطينا الدِّين أجوبة صغيرة على الأسئلة الكبرى الرئيسيّة»**.

إذا قُبلتْ هذه الطريقة في تقسيم الكعكة، ترتَّب على ذلك وجوب أن يحترم كلٌّ من الطرفين مجال اختصاص الطرف الآخر وأهليَّته فيه. طبعاً، لن نكون واقعيين إذا توقعنا

(١) هولمز، أوليفير ويندل Oliver Wendell Holmes (١٨٠٩-١٨٩٤)، كاتب وطبيب أمريكي، مثَّل ذكاؤه وحيويته الثقافية مجتمع بوسطن المثقَّف في عصره. اشتهر ككاتب روائي وشاعر تميَّزت أشعاره بالذكاء والخفَّة، وقد هاجم في كتاباته العقائد الكالفينية الصارمة.

عدم بروز خلافات حدودية بين الطرفين؛ لكن هذه الخلافات يجب أن يتمَّ حلُّها بحُسْن نيَّة، ودون التغاضي عن شروط الاتفاقية. عندما ينكر العلماء – الماديون المقتنعون بالماديَّة – وجود أي شيء سوى الأشياء التي يمكنهم أن يشغِّلوا أدواتهم العلميَّة عليها، يجب أن يوضِّحوا أنهم إنَّما يعبِّرون في هذا الأمر عن آرائهم الشخصية كأيِّ شخصٍ آخر، ولا يدّعون حجيَّة العلم في رأيهم هذا. ومن جهة أخرى، يجب على المتديِّنين ألا يتدخَّلوا في العلم طالما كان عِلماً أصيلاً لم يُنمَّق ويُزَخْرَف بالآراء الفلسفية، التي هي من حقِّ كل شخص. كلُّ المواطنين المسؤولين لديهم الحقّ في معارضة النتائج الضارّة التي يمكن أن تقود إليها بعض الأبحاث العلميَّة مثل: الحرب الجرثومية والاستنساخ ونحوهما، لكن هذه المعارضة مسألة أخلاقية، وليست مسألة ترتبط بالعلم بمعناه الصحيح.

لست ساذجاً جداً إلى حدِّ الاعتقاد أنّه إذا قُبِلَ اقتراحي هذا فإن السلام العادل والدائم سيسود. بيد أنني أعتقد أن اقتراحي هذا يشير إلى الاتّجاه الصحيح. والأكثر صحَّةً فيه أنه يخصِّص للدِّين مجالاً علم_وجودياً (أنطولوجياً ontological) خاصّاً به. إنه يقترح احترام حقِّ الدِّين بافتراض وجود أشياء وانشغاله بالتعامل معها، أشياء توجد موضوعيّاً في العالَم، وإن كان العِلْم لا يستطيع أن يكشفها. إنَّني أجد أن هذا الأمر لا تتم مراعاته كما يجب في الحوار الجاري حالياً، حيث يَقْبَل علماء الدِّين (اللاهوتيون)، في أغلب الأحيان، مخزون العلم وموارده من العالَم، بوصفها شاملة كاملة (تشمل كلَّ شيء موجود)، ويقْنَعون بمجرَّد التعرُّف على المعنى واكتشاف المغزى في ما تذكره تقارير العلم.

البقرة الواقفة على ثلاث قوائم

في اختتام هذا الفصل سأتَّبع «بيتر داكر» Peter Drucker في فصل سابق وأترك لنفسي عنان الخيال حرّاً. في منطقة خليج كاليفورنيا، سكنتُ بجانب حاملٍ ذي ثلاث دعائم، أي ثلاث مؤسسات كرّست لقضية "الدِّين_العلم". يوجد في مركز "اتحاد الخريجين اللاهوتيين" في بيركلي Graduate Theological Union in Berkeley «مركزُ روبرت

راسل" لـ"علم اللاهوت والعلوم الطبيعية"»؛ كما يوجد في معهد كاليفورنيا للدراسات التكاملية في سان فرانسيسكو: «مركز "براين سويم" لـ"قصّة الكون"»؛ ويوجد في مدينة "سوساليتو"[1] Sausalito «معهد "ويليس هارمون" -الذي توفي مؤخّراً- لـ"العلوم العقلية"». وقد أسّسها كلّها علماء (طبيعيون) - و(كما أقول في أغلب الأحيان مع نفسي بشكلٍ فظّ) - كلها تعمل بنحو خاطئ. وما أقصده بالطبع هو أنها لا تقارب قضية "**العلم_الدِّين**" بالطريقة الصحيحة تماماً التي أعتقد أنه يجب معالجتها بها. ثمَّة حالة كلاسيكية لمقوله فرويد عن «نرجسيَّة الاختلافات الصغيرة». (بالمناسبة كتب فرويد عنها جيداً).

القضية تجعلني أفكّر بنظرية الهندوسية حول أنماط اليوغا الأربعة - كأربعة عصور تسير نحو الانحطاط بثبات، وتظهر في كلّ دورة كونية. تشبّه الهند هذا الانحطاط ببقرة تقف في المرحلة الأولى من عمرها بصلابة على كلّ قوائمها الأربع، ثم في عَرَج المرحلة الثانية تقف على ثلاث قوائم، ثم في تذبذب المرحلة الثالثة تقف على قائمتين، وفي التأرجح الأخير تقف على قائمة واحدة قبل أن تنهار، عند ذلك تبدأ الدورة من جديد. معيشتي على بعد رمية حجر من تلك المؤسسات الثلاث المذكورة أعلاه، تجعلني أشعر كما لو أنّني أعيش في التريتا يوغا treta yuga ذات القوائم الثلاث.

«**مركز قصّة الكون**» (المشار إليه آنفاً) يريد إيقاظ الناس على حقيقة كيف أن الكون هائلٌ بشكلٍ مذهل، وممجّدٌ ورهيبٌ وثمينٌ. أما «**معهد العلوم العقلية**» فيريد توسيع العلم بتسليط ضوئه على قضايا (مثل الطبّ البديل) الذي لم يُبْحَث به حتى الآن بما فيه الكفاية. وأخيراً يسعى «**مركز علم اللاهوت والعلوم الطبيعية**» لإجراء حوار دائم بين علماء اللاهوت وعلماء الطبيعة بهدف اكتشاف طرق يمكن من خلالها لكل فريق أن يتعلّم من الفريق الآخر.

---

(١) ميناء يقع في الجهة المقابلة لمدينة سان فرانسيسكو، في ولاية كاليفورنيا.

المشاريع الثلاثة كلها مهمّة، فما الذي يمكن أن يكون سيئاً فيها إلى ذلك الحد؟ ما الذي يجعلني نَزِقاً عصبياً جداً؟ السبب هو أن ثلاث قوائم تعمل جيداً لا تعطينا بقرةً قويّةً.

إذا كنتُ محقاً في اعتقادي بأن أكبر وأعظم مشكلة تواجهها الروح الإنسانية في وقتنا الراهن هي اضطرارها للعيش في قفص **"التصور العلمَويّ للكون"** Scientistic Worldview الذي هو تصورٌ بروكْرَسْتزيٌّ[1] يسيطر بقوّة على ثقافتنا، فثمّة حاجة مستعجلة لمركزٍ رابعٍ يكرّس نفسه لمهمّة تخليص الروح من ذلك القفص. لعلّ اسمه يكون «**مركز الفرصة المتساوية للعلم والدِّين**» The Equal Opportunity Center for Science and Religion، وسيكون فيه قسمان رئيسيّان.

القسم الأول سيعمل مراقباً **للعلمَويّة** Scientism. سيبقي عينيه يقظتين على الأماكن التي يتحوّل فيها العلم إلى **"علمويّة"**، إذ سيشير إلى تلك الحركات غير المبرَّرة، شهرياً، من خلال نشرة خبريّة مكوّنة من أربع صفحات، تشير بأصابع الاتهام إلى أمثال تلك الحركات، مع إعطاء مساحة مساوية لردود "الذين وجِّهت إليهم التهمة". مثلاً عندما اتحد مؤخراً «ريتشارد دوكينز» Richard Dawkins و«ستيفن بينكر» Steven Pinker معاً وأثارا نقاشاً حول سؤال: «هل قتلَ العلمُ الروحَ؟» واستنتجا أنّ الجواب هو «لا» إذا كان المقصود من الروح «المتعة والحيويّة»، وأنّه «نعم» إذا كان المقصود من الروح «كائنٌ قزميٌّ معيَّنٌ في الرأس»!، فإن على نشرة لجنة الرقابة في هذا القسم أن تشير إلى تلك الطعنة الرخيصة حول الـ«الكائن القزميّ المعيَّن في الرأس» وتمضي في إيضاح أن الدراسات التجريبية عاجزةٌ منهجياً عن تقرير وجود أو عدم وجود ظواهر مصاحبة إضافية غير مرئية في أعمال الدماغ. وعندما أجاب «دوكينز» - خلال فترة توجيه الأسئلة في ذلك الحدث الضخم في لندن/ باريس - على من اتهمه بأن موقفه كان اختزاليّاً (تخفيضيّاً) بقوله: «إن

---

(١) بروكْرَسْتزيّ: »أ« منسوب إلى بروكْرَسْتز Procrustes أو إلى فرَاشه (وكان بروكْرَسْتز هذا لصاً إغريقياً خرافياً يَمُدّ أرجلَ ضحاياه أو يقطعها لكي يجعلَ طولها منسجماً مع فرَاشه!). وصار مثلاً لكل ما يميل إلى إحداث التناسب أو التجانس مع حاجته الشخصية بوسائل عنيفة أو اعتباطيّة.

الاختزالية تجعلني أرغب بالوصول إلى مسدّسي، لأنه ليس هناك شيءٌ كهذا»!، فإن على النشرة الخبرية أن تشير إلى أن هذا يشبه من يقول: «أنا لا أخفـض الطوابـق العلوية لناطحة سحاب إلى طابقها الأرضي لأنَّه ليس هناك طوابق علوية أساساً!».

الجناح الآخر «لمركز الفرصة المتساوية للعلم والدين» سيقيم سلسلة نقاشات شهريَّة مستمرّة حول القضايـا التي يبـدو فيها الفهمُ الدينيُّ متعارضاً مع الفهـم العلمـيِّ، والمثال الواضح على ذلك في الوقت الحاضر هو النظريَّة «الداروينية» ومبدأ «التصميم العـاقل» (في تفسير آلية تطور الإنسان). وبما أن هذه الموضوعات تم النقـاش بشـأنها مراراً وبنحو مكثَّف لذا فإن ما سيقدمه «مركـز الفرصـة المتسـاوية للعلـم والديـن» في هـذا المجـال سيكون طريقـةً وصيغةً مختلفـةً. الأوراق العلميـة الأكاديميـة (إذا جلبها المحاضرون) ستكون جاهزة على المنضدة لمن يرغب بأخذها معه إلى البيت، لكـن البرامج ستأخذ شكل مناقشات يرأسها قاضٍ منصفٌ وكفءٌ ومتَّقد الحماس، يجبر المتكلمين (الذيـن يجب ألا يزيد عددهـم على اثنين في كل عشيَّة) على الالتزام بكلمات لا تزيد مدّتها على عشر دقائق بشكل متناوب، حتى، بعد أربعين دقيقة، يتـم إفساح المجال للجمهور ليوجهوا أسئلتهم. وسيتم تشجيع المتكلمين على توجيه أيّ سؤال يرغبون به إلى مخالفيهم بقـدر مـا يعبرون بـه عـن مواقفهـم الخاصَّة. وإذا انحرف النقاش عن الموضوع الأساسي فإن رئيس الجلسة سيعيده إليـه سائلاً: «ما هي القضية؟». وسـيتم السـماح لكـامل طيف المواقـف المختلفـة بشـأن القضيّـة موضـع النقاش أن تعبِّر عن نفسها، حتى المعتقدين بالخلق في فترة قصيرة (في موضوع التطوُّر) يجب أن يعطوا فرصتهم لبيان دلائلهم. والتأكيد سيكون خلال كلِّ هذه الجلسات علـى التواصـل الفعّال الذي يهدف إلى تثقيف وتعليم الجمهور المهتمّ بهذه القضايـا. وسـيتمّ التعـامل بشـدّة مع المتكلمين الذين يقومون بحركات مبهرجة لإثبات سعة اطلاعهم لا أكثر.

وسيكون جيداً أن يعقد «مركز الفرصة المتساوية للعلم والدِّين» تلك الجلسات في كليَّة لاهوتيَّة، لأنه لا شيء أكثر أهمية لمستقبل الكنيسة من أن يكـون في خدمتهـا أنـاسٌ راسـخون بصلابة في هذه القضية – أي العلم في مقابل الدِّين – التي ستحدِّد مصير الكنيسة المستقبليّ.

الفصل ١٣

هذا العالَم الغامض

THIS AMBIGUOUS WORLD

الإدراك، كما نعرفه اليوم، عمليّة مزدوجة ذات اتجاهين. العالم يأتي إلينا، ونحن نذهب إليه - عبر حواس، ومفاهيم، واعتقادات، ورغبات، مغروسة في بنيتنا الداخلية، تقوم بترشيح إشاراته القادمة إلينا بطرق تختلف لدى كلّ نوع (من الكائنات الحيَّة)، وكلّ طبقة اجتماعية، وكلّ فرد. بطريقة ما، نشترك بالعالم ذاته مع الطيور، ونتكلّم ببهجة عن رؤية العالم بعين الطيور، لكن ليست لدينا أيّة فكرة كيف يبدو العالم بعين الطير!.

ما يهمُّنا هنا هو كيفية تأثير مفاهيمنا واعتقاداتنا ورغباتنا على **"تصوراتنا للعالم"** Worldviews. كما يعلن عنوان هذا الفصل: **"العالم غامض"**. لا يأتي العالَم إلينا حاملاً بطاقة تعريف مثبَّتة عليه كُتبَ عليها: «هذا عالَمُ أبي» أو «الحياة قصةٌ أخبرنا بها شخصٌ أبلهٌ». إنه يأتينا مثل «بقع حبر» **"رورشاخ"**[1] Rorschach inkblot عملاقة. يستخدم علماء النفس مثل هذه البقع للصيد في المياه الجوفيَّة لعقول مرضاهم. إنّ المعاني المستترة في

---

(١) بقع حبر رورشاخ: Rorschach inkblot وسيلة من وسائل اختبار الشخصية يتم خلالها تقديم عشر بطاقات من الورق المقوّى، وعلى كل بطاقة بقعة حبر لا معنى لها، يطلب من الفرد أن يذكر ما يراه في كل بطاقة. فكل مفحوص يرى فيها ما يتخيله مما يساعد على كشف مشكلاته النفسيَّة.

أشكال البقع على البطاقات العشر، ليست مسجَّلة على تلك البطاقات. تقترب «البقع» من المريض مثل دعوات تقول له: «**تعال. ماذا ترى هنا؟ ماذا تصنع من هذه المخططات؟**»

بقع حبر الحياة الكونيَّة

تؤيِّد عمليةُ مسحٍ للفلسفات، المكتوبة وغير المكتوبة، نظرية العالَم ذي «بقع الحبر» هذه بشكلٍ حاسم، فلم يتّفق الناس مطلقاً على معنى العالَم، و (يبدو من السليم القول) إنهم لن يتّفقوا أبداً. يخبرنا علماء الإنسانيات أنه حتى في قبائل صغيرة جداً ومعزولة إلى درجة قد تجعل أحدَنا يتوقّع أن يشترك أفرادُها جميعاً في نظرة ورؤية واحدة، نجد أن ملحد القرية لا يزال يطلّ علينا برأسه. قد يحتفظ بوجهة نظره المنشقّة لنفسه ويشترك في الطقوس حتى النهاية أو يتصرف بها بشكل روتيني غير مبالٍ، ولكنه موجود هناك، يقرأ «بقع حبر» الكون بطريقته الإلحادية الخاصَّة. نتكلّم عن الشرق الصوفي والهند الزاخرة بالروحانيات. ولكن الهند فيها أيضاً تقليد "شارفاكا" charvaka الإلحاديّ الماديّ المتعيّ الذي يعود إلى عهد سحيق، وشعاره: «الحياةُ قصيرةٌ، لذا سآكل الزبدة»، النظير الهندي لشعار: «كُلْ، اشربْ، وامرحْ وابتهجْ، لأننا سنموت غداً».

هناك شيء في تركيبة الإنسان وبنيته يستاء من هذه الحالة للأشياء. لماذا نُجبَرُ على عناء تلمّس طريقنا نحو معنى الحياة واكتشافه بأنفسنا؟ ألم يكن من الأفضل أن يتمّ إخبارنا من البداية بحقيقة القضيَّة وتنتهي المسألة؟ الفيلسوف «كيير كيغارد» Kierkegaard يفيدنا هنا. إنه يخبرنا أنّه على الرغم من أنّنا نعتقد أننا نحبّ أن نُخبَر بالحقيقة، لكن الواقع أننا إذا أخبرنا بها فإننا لن نحب الوضع الذي سيضعنا به ذلك الإخبار، لأنه سيحرمنا من حريتنا وبالتالي من منزلتنا (منصبنا الإنساني الرفيع)، إذْ سيحوِّلنا إلى أناس آليين مثل «الروبوت». وكلّ ما سيبقى علينا فعله هو أن نبحث عن الأجوبة في كتاب "الإجابات المحلولة للحياة" ثم نطبّقها بشكل آليٍّ على مشاكلنا.

إن حالتنا الفعلية هي عكس ذلك تماماً. بدلاً من أن نكون خدماً إمَّعةً، نحن أشخاصٌ أحرارٌ، نملك حريّة الاختيار والإرادة. وفي أحد أروع تعبيراته يقول "كيير كيغارد" Kierkegaard في إحدى كتاباته: إنّنا أُعطينا حرية «اختيار أنفسنا». يصرّ البوذيون كلَّ الإصرار أنه من بين جميع الأنواع الستّة للكائنات (الآلهة، الآلهة الغيورة (أو الحسودة). الأشباح الجائعة، كائنات الجحيم، الحيوانات، والبشر)، فإن البشر هم الأكثر حظّاً من الجميع، لأنهم وحدهم دون سواهم يمتلكون الشيء الوحيد الذي يمكن أن يحرِّر المخلوقات من دورة عالم السامسارا [١] samsaric world النسبيّ (أي عالم دورات الموت والولادة غير المنتهية)، ألا وهو: **الإرادة الحرّة**. إن كتاب الإجابات المحلولة سيحرمنا من أقوى قوّة نمتلكها في الحياة، ألا وهي قوّة أن نقرِّر ماذا نريد أن نفعله بحياتنا، وما هو الهدف الذي نريد أن نعيش من أجله. ذلك القرار يتمّ اتخاذه أحياناً مرّةً واحدةً وبشكلٍ حاسمٍ، و يتمّ اتخاذه أحياناً أخرى، على نحوٍ تدريجيٍّ متزايد (وغير ملحوظ تقريباً) من خلال القرارات الصغيرة اليوميَّة التي تتطلّب الحياة أن نتخذها. لأن الحياة تهاجمنا مباشرةً وكأنها طلقاتٌ تُطلَقُ علينا من مكان قريب كما في عبارات الفيلسوف «أورتيغا غاسّي» [٢] Ortega y Gasset، فالحياة لا تسألنا: هل أصبحت على استعداد للزواج؟ هل أصبحت عالماً بما فيه الكفاية ليكون لديك أطفال؟ إن الأمور تواجهنا هنا، سواء أكنا مستعدين أم لا، وتطلب منا أن نقرِّر:

---

(١) السمسارا Samsara (في الهندوسية والبوذية) هي دورة الموت والولادة من جديد اللانهائية التي تأسر العالم الماديّ كله.

(٢) أورتيغا واي غاسي، خوزيه Ortega y Gasset, José (١٨٨٣ – ١٩٥٥) كاتب وفيلسوف إسباني، اشتهر بنقده الإنساني للحضارة الحديثة. ساهمت مقالاته وكتاباته حول القضايا الفلسفية والسياسية في إيجاد نهضة ثقافية إسبانية في العقود الأولى من القرن العشرين. انعكست أفكاره حول مشكلات الحضارة الحديثة في كتابه ((انتفاضة الجماهير)) The Revolt of the Masses (١٩٣٠) الذي أكسبه شهرةً عالميَّة، إذ انتقد فيه التأثيرَ التدميريَّ للأشخاص الذين يحملون عقلية_ جماهيرية (شعبوية) من الطبقة المتوسطة الذين إذا لم يتم توجيههم أدبياً وثقافياً من قبل النخبة المتفوّقة فإنهم يصبحون عاملاً مساعداً على صعود التوتاليتارية (حكومة الحزب الواحد الاستبدادية).

نصيح "واو" لما مات مثلما نصيح "واو" عندما عاش،
ذهابٌ كضربة "هوب"! إلى المكتب وذهاب (كاللطمة) إلى البيت للنوم
"بيف" تزوج و"بام" أنجب أولاداً و "أوف" طُرِدَ من عمله
"زوي" عاش و"زوي" مات.[١]

هذه الأسطر لـ «كينيث فيرينغ»[٢] Kenneth Fearing تفصح بعبارات واضحة عن كيفيَّة شعورنا بالحياة في كثير من الأوقات. إننا لا نفهم بشكلٍ كاملٍ كيف قرأنا «بقع حبر» الحياة إلا بعد أن نعود بأنظارنا لنتتبع آثار خطواتنا التي مشيناها في حياتنا.

إلى جانب تعددية الثقافات، التي اختلطت فيها المعتقدات على نحو لا نظير له من قبل، يمكن لهذا الاعتراف بغموض العالم أن يساعد على تخفيف الاحتكاك الذي أربك العلاقات المتبادلة بين الأديان في الماضي. (يتردَّدُ دائماً في آذاننا صدى ذلك التفجُّع الحزين للكاردينال نيومان Newman[٣] الذي كان يقول: «آه! **كم أبغضنا بعضنا بعضاً، لوجه الله!!**»[٤]. إن طفولتي في الصين تزوّدني بنافذة حول هذه الإمكانية. من الناحية الكميَّة،

---

(١) يذكرني هذا بقصيدة أبي العلاء المعري الشهيرة التي يقول في بعض أبياتها:

غيرُ مجدٍ في ملتي واعتقادي	نَوحُ باكٍ ولا ترنُّمُ شادي
وشبيهٌ صوتُ النعي إذ قيـ	ـسَ بصوت البشير في كُلِّ نادي
أبكَتْ تلكمُ الحمامةُ أم غنَّـ	ـتْ على فَرْعِ غُصْنِها الميادِ؟
إن حُزْناً في ساعة الموت أضعا	فُ سرورٍ في ساعة الميلاد
تعبٌ كلها الحياة فما أعـ	ـجب إلا من راغب في ازدياد
واللبيبُ اللبيبُ من ليسَ يغـ	ـترُّ بكونٍ مصيرُه لفَسادِ

(٢) كينيث فيرينغ Kenneth Fearing = شاعر و روائي أمريكي معاصر.

(٣) نيومان جون هنري (الكاردينال) Newman, John Henry (١٨٠١-١٨٩٠)، رجل دين إنجليزي، ومفكّر وكاتب ديني بارز. كان زعيم حركة أكسفورد الإحيائية المسيحية التي أكدت على الأصول الكاثوليكية الرسولية المتواصلة لكنيسة إنجلترا، وأصبح كاردينالاً بعد تحوله إلى الكاثوليكية الرومانية.

(٤) أي ظانِّين أننا نفعل ذلك حباً في الله ولأجله، مع أن الله أمرنا أن نحب بعضنا بعضاً فيه لا أن نكره بعضنا بعضاً لأجله!!.

تُعْتَبَرُ الإمبراطوريَّة الصينيَّة أكبر المنظمات الاجتماعية وأكثرها روعةً، مما أوجده البشر على الإطلاق. عندما نضرب مدة استمرارها الزمنيّ (أكثر من ألفي عام) بالمعدَّل السنوي لعدد الناس الذين جمعتهم هذه الأمة، الأكثر سكاناً على وجه الأرض، تحت مظلَّة واحدة، فإن حاصل الضرب يعطينا رقماً يجعل إمبراطوريات مثل إمبراطورية الإسكندر المقدوني وقيصر ونابليون تبدو مجرَّد مرحلة عابرة استطرادية فحسب. [يفتخر (نظام «السانغها» Sangha البوذي، أو نظام الرهبانية البوذيَّة، بمدة حياة أطول تبلغ خمسة وعشرين قرناً، مقارنةً بعشرين قرناً من حياة الإمبراطورية الصينية (المنقرضة الآن)، لكن عدد أناسها قليل جداً مقارنةً بعدد الناس في الإمبراطورية الصينية]. جزء من السبب في نجاح الصين في هذا الأمر قد يكمن في طريقتها في جعل أتباع أديانها شركاء بدلاً من خصوم. في الصين التي عرفتُها، عندما تسأل الناس إلى أي طائفة ينتمون؟ فإن إجابتهم النمطيَّة تكون عادةً: «إلى الطائفة (أو الكنيسة) العظيمة لـ "تاي تشاو" (tai chao) بالطبع»، و هي اتحاد بين الكونفوشية والطاوية والبوذية التي نُسِجَتْ مع بعضها في نسيج واحد مثل حبات السُّبْحة التي انتظمت في سلك واحد. كما عبر عن ذلك المثل السائر هناك الذي يقول: «كلّ طفل ذي شعر أسود من شعب "الهان" يلبس قبَّعةً كونفوشيَّةً، وعباءةً طاويّةً، وصنادلَ بوذيةً.».

تلك كانت طفولتي. في السنوات الأخيرة من تدريسي لمادة "أديان العالم"، أبرز أحد الطلاب صباح يوم عموداً في صحيفة «سانت لويس بوست ديسباتش» St Louis Post-Dispatch تحت عنوان "عزيزتي آبي". ظهر العمود في يوم جلسة صفِّنا السابقة، التي قدَّمتُ فيها طريقة الصين المتميِّزة في وضعها لأديانها. وقد شرح العمود نقطتي بشكل واضح جداً جعلتني أستخدمه ثانيةً في كلّ مرّة يُطرح الموضوع في محاضراتي:

عزيزتي آبي،

أنا شابّةٌ، جذّابةٌ، مهتمّةٌ بالدين وأودّ الزواج. أنتمي إلى الكنيسة المشيخية الأولى، وكنيسة الملائكة المباركة الكاثوليكية، وكنيس بناي آمونا B'nai Amona Synagogue،

وأحضر محاضرات جماعة «العلم المسيحي» Christian Science رغم أنني أتناول "الأسبرين" منْ حينٍ لآخر!.

هلّ يمكنك أن تخبريني كيف يمكنني أن أجتمع برجلٍ يهتمّ بأيٍّ من تلك الأديان أو بجميعها؟

آيدا

إجابة آبي،

الغالية آيدا،

يبدو أن الأسس لديك غير واضحة. أنا لا أرى كيف يمكنك أن تنتمي إلى كلّ تلك الكنائس !....

وتستمرّ رسالة آبي لبضعة أسطر، لكن نقطتي التي أردت ذكرها اتّضحت. من الطبيعي أن «آبي» لم تكن قادرة على فهم الانتماءات المتعددة لـ «آيدا» لأنها سيدة غربيّة. أما لو كانت صينية فإنها لن تجد في ذلك أية غرابة. إنني أذكر هذا التبادل هنا لا لأقترح أن الألفية الثالثة ستصبح (أو يجب أن تصبح) توفيقيّةً[١] دينياً.

إن حضارة كاملة اندفعت كي تجعل الصيغة الشرق آسيوية تنجح، وعبارة الغرب القائلة: «اختر أو حدِّد من ستقوم اليوم بخدمته» تحمل أيضاً جدارتها الخاصّة، وهو ما سنتحدَّث عنه قليلاً في الفصل القادم. ولكننا إذا استفدنا من المثال الآسيوي الشرقي، ليس تعدُّدية الانتماءات، ولكن على الأقل الاحترام المتبادل، فإنه يبدو من المحتمل جداً أنّ تتجه الألفية الجديدة نحو ذلك الاتّجاه.

---

(١) يقصد بالتوفيقية syncretistic الحركة التي تسعى إلى التوفيق بين المعتقدات الدينية المتعارضة أو المتباينة.

نظرة جانبية إلى المشهد الاجتماعي

أحاول أن أبقي هذا الكتاب مركِّزاً على «الصورة الكليَّة»، لأنني لو سِرْتُ بعيداً عن ذلك الهدف، فإن الكتاب يمكنه أن يتحلّل بسهولة إلى مجموعة من الآراء حول كلّ الطرق المختلفة للأمور. لكنّ الروح الإنسانية، هي أيضاً، على نحوٍ متلازمٍ ومرتبطٍ، موضوع هذا الكتاب، وقد سبق وأن تعرَّضتُ في عدَّة مواضعَ من كتابي هذا للتطورات الاجتماعية التي تؤثّر على الروح بشكلٍ واضحٍ جداً بحيث كنت سأبدو متهرباً إذا تجنَّبت الحديث عنها. إنّ المثال الساطع على هذه النقطة هو الطريقة التي استقطبت فيها كل من الليبرالية والاتجاه المحافظ conservatism الحياة الدينية في أمريكا. العالم الإسلامي مستقطب أيضاً لكن على طول خطوطٍ مختلفةٍ لن أدخل فيها هنا.

بشكل عام، يَعْتَبِرُ المحافظون المتديِّنون الحقيقةَ التي يعيشونها حقيقةً مطلقةً وبالتالي فإنه يتمّ الاهتمام بها بشكلٍ ملائمٍ (يتناسب مع خطورتها)، في حين أن الليبراليين أكثر إحساساً بنسبيَّتها، أي الطريقة التي تشق فيها وجهات النظر المختلفة الحقيقةَ الواحدةَ الشاملةَ المهيمنةَ لتدعنا مع حقائق صغيرة لا تُعَدّ ولا تُحْصَى. كلٌّ من الموقفين له مزاياه وحدوده.

إنّ الجانب السلبي في تصوّر امتلاك الحقيقة المطلقة هو خطر أن يؤدّي ذلك إلى التعصّب. وبما أن الأمور المطلقة لا تستوعب البدائل، فإنّ إيمان المحافظين الجازم يُغْريهم بغزو الاستقلال الذاتي لجيرانهم ومحاولة فرض الحقيقة عليهم. أما الليبراليون فإنهم يواجهون مشكلة معاكسة، إذْ إن الخطر الذي يطارد النسبيَّة Relativism هو أن تصل في النهاية إلى العدميَّة (الإنكارية)[1] Nihilism. في تلك النهاية القصوى تنهار النسبويَّة إلى وجهة نظر ترى أن لا شيء أفضل من أيِّ شيءٍ آخر. وهذه فلسفة غير صالحة للعيش. رغم أن الدفاع العشوائي عن التسامح دفع مجتمعنا في هذا الاتجاه بينما خفّض معنى التسامح في

---

(١) العدميَّة Nihilism وجهة نظر تقول بأنّ القيَم والمعتقدات الدينية والتقليدية لا أساس لها من الصحة وأن الوجود لا معنى له ولا غَناء فيه، وبالتالي فهو مذهب ينكر أن يكون للمبادئ الأخلاقيّة أيّ أساس موضوعيّ.

الفعل. يشرح المقطع التالي هذه النقطة بشكل أوضح، لذا سأقتبسه (مع شكري لميخائيل نوفاك Michael Novak، زميلي السابق في جامعة "سيراكيوز" Syracuse، الذي صاغ عباراته):

((كان التسامح يستخدم بمعنى أن الناس الذين يحملون قناعات واعتقادات راسخة، يتحملون طواعيةً عبء الصبر السلمي على الناس الذين ينظر إليهم على أنهم في خطأ واضح.

أما اليوم فقد أصبح التسامح يستعمل بمعنى أن يوافق الأشخاص ذوو الاعتقادات الضعيفة (غير الراسخة)، بكل سهولة ويسر، على أنّ الآخرين أيضاً على حق فيما يعتقدون، وأن حقيقة الأشياء، في كل الأحوال، لا تعني فرقاً كبيراً ما دام كلّ شخص ((لطيفاً)). أنا لا أعرف ما إذا كانت كلمة "judgmentaphobic" ((الرهاب من إصدار حكم أو إدانة)) صحيحة لكنها يجب أن تكون كذلك (لأن معناها موجود). لقد أصبحت بلادنا تغصّ بالمصابين بالرهاب من إدانة أي شيء. حيثما اعتاد الضمير على الاعتراض على زلاتنا وسقطاتنا، فإننا نجد مذهب اللا إدانة non_judgmentalism يومض ويصفعنا على الظهر.

ولكن في غياب أي إدانةٍ (أي في تمييع كل شيء)، لا يمكن للحرية أن تزدهر. إذا لم يكن هناك أي شيءٍ مهمٍّ، فإن الحرية تصبح عديمة الجدوى. إذا كان اختيار كل شخص جيداً بقدر اختيار أي شخص آخر فإن الاختيار يغدو مجرَّد تفضيل. بل حتى رد الفعل الغريزي (الغُدَدي) سيؤدي المطلوب عندئذٍ. من دون معايير، لا أحد سيكون حرّاً، بل سيصبح الإنسان عبداً لدوافع يعرف المصدر الذي تأتي منه.))

بعد أن ذكرتُ ذلك، أنتقل إلى الجانب المشرق للصورة. إن لكلٍّ من الليبراليين والمحافظين إيجابياتهم. فمزيَّة الليبرالية هي التسامح (بالمعنى الأول الجيّد للكلمة كما ذكرنا أعلاه)، ومزيَّة المحافظين (عندما يتم تقديرها كما يجب) تتجلّى في الطاقة التي يمكنهم أن يصبّوها في الحياة من خلال شعورهم اليقينيّ بأن الكون يقف إلى جانبهم (معهم).

أحد أكثر الجُمَل روعةً واستيقافاً لي، هي التي صادفتها في السنوات الأخيرة مما جعلها تجلب لحظةً متميّزةً خاصةً من الزمن – لقد حلَّقت بي إلى درجة جعلتني أضع المجلّة جانباً

لعدّة دقائق لأتوقّف وأفكّر- كانت تلك الجملة التي تقول: «**لا يدرك الليبراليون الكمال الروحيّ الذي يمكن أن يجلبه الإحساس باليقين**». ربما يكون السبب الرئيسي لتراجع التيار العام للكنائس الليبرالية وخسارتها لأتباعها لصالح الكنائس المحافظة، هو المعنى الذي تتضمنه تلك الجملة. الليبراليون واقعون في جهلٍ إلى أسوأ حدّ في المقدار الكبير الذي يمكن للمطلق أن يساهم به في الحياة، كما أن الليبراليين جاهلون جداً كذلك عندما يفترضون أن الأمور المطلقة لا يمكن أن يتم الاعتقاد بها إلا بنحوٍ دوغماتيّ Dogmatism (أي عقائدي صلب متعصّب لعقيدته من غير بيِّنة أو دليلٍ) مع أن الأمر ليس كذلك. إن المطلقيَّة Absolutism (أي الإيمان بوجود حقائق مطلقة يقينيَّة)، والدوغماتيّة Dogmatism، موقفان يقعان على محورين مختلفين. الأول يتعلّق بالاعتقاد، بينما الثاني اختلالٌ في الشخصية. إن مقابل أو عكس المطلقيّة Absolutism ليس الانفتاح الذهني بل النسبويّة Relativism، كما أن عكس الدوغماتية ليس النسبويّة بل الانفتاح الذهني. يمكن أن يكون هناك نسبيين Relativists وأن يكونوا دوغماتيين في الوقت نفسه، بل إن أمثال هؤلاء موجودون فعلاً، مثلما يمكن أن يكون هناك أشخاصٌ منفتحو الذهن ومطلقيُّون (أي يؤمنون بوجود حقائق مطلقة) في الوقت ذاته.

أظهرت الفقرات السابقة أن الليبراليين أفضل من المحافظين في إدراك أخطار التعصّب ومزايا التسامح، وأن المحافظين أفضل من الليبراليين في إدراك أخطار العدميَّة ومزايا الإحساس بالحقيقة اليقينيَّة. تبقى فقط خطوة واحدة أكثر تجب إضافتها، وهي ذات أهمية بالغة.

كلا عنصري القوّة والخطر في الليبرالية ينتميان إلى البعد الأفقي للحياة، الذي يشمل العلاقات الإنسانية (أي: العلاقات بين النظائر والمتساوين)، بينما عنصرا القوة والخطر لدى المحافظين يخصّان العلاقة العمودية، غير متماثلة الطرفين، بين الله- والإنسان. والحقيقة الواقعيَّة التي تفسِّر خسارة المتدينين الليبراليين أتباعهم لصالح المحافظين هو أنه من بين البُعْدَيْن، فإنَّ العلاقة العموديّة هي الأكثر أهميّة. لا يقلِّل أبداً من شأن العدالة والرحمة أن

نقول إنّ هذه الفضائل (العدالة والرحمة) أقـل أهمـيّـةً مـن الله، لسـبب بسـيط هـو أن الله هـو الذي ثبّتَـها في طبيعـة الأشـياء. الأسـطر المعروفة للشـاعر «جيمـس روسـل لويـل» James Russell Lowell مخصّصة لبيان هذه النقطة:

الحقيقة إلى الأبد على المنصّة[1]، بل	*Truth forever on the scaffold, Wrong*
إلى الأبد على العرش،	*forever on the throne*
رغـم ذلـك فـإن المنصّـة تسـيطر على المستقبل، و	*Yet that scaffold sways the future, and*
وراء المجهول المُبْهَم،	*behind the dim unknown.*
يقف الله في الظلّ (أي في الخفاء)،	*Standeth God within the shadow*
مراقباً فوق ملكه الخاص به	*keeping watch above his own*

أكرّر هذه النقطة المهمة. القضية ليست حول «الرحمة والشفقة» أو بديلها من أي نوع كان، ولكنها حول مكانة «الرحمة والشـفقة» في طبيعـة الأشـياء. هـل «الرحمـة والشـفقة» متجذّرة في الحقيقة النهائية (تضرب بجذورها و تستمد أهميتها مـن نسـيج الحقيقـة ذاتـه)، أم أنها مجرَّد فضيلة إنسانية جديرة بالإعجاب؟ ذلك سؤال عمودي يخصّ تصورات العالَم.

ورث الليبراليون عاطفتهم وحماسهم النموذجي لتحقيق العدالة الاجتماعية من الآباء والأجـداد الذيـن (مـن أجـل اهتمامـهم الاجتمـاعي كلّـه) سـمّروا الـذراع الأفقيّـة للصليـب المسيحيّ على ذراعه العموديّة التي هي (في الحالة القياسـية) أطـول، رمـزاً إلـى أولويتـها. في الواقع، لقد حوّل المسيحيون الليبراليون، باهتمامـهم المتضـائل بعلـم اللاهـوت وبتصـورات العالم، الصليبَ إلى جانبه، وجعلوا ذراعه الأفقيّة أطول من العموديّة.

---

(١) أي هي صاحبة الكلمة.

الفصل ١٤

الصورة الكبرى الكليّة *The Big Picture*

تشمَلُ "بقع حبر" رورشاخ[١] الكونية، كلَّ شيء. وبما أن الخلفيّات backgrounds تؤثّر على الأماميّات foregrounds، فإن ما نعالجه أو نتعامل معه بؤرياً، يتأثر بشعورنا- في الخلفية – بمعنى كل شيء، أي بإحساسنا وفهمنا لمعنى "**الكلّ الكامل**" The Whole. أقول "**معنى الوحدة الكاملة**" لأنّ الخلفيّات لا تقع في مجال الرؤية المباشرة. فإذا أردنا أن نعي تلك الخلفيّات، يجب علينا أن نعيد توجيه نظرتنا، بتحويل الخلفيّات إلى أماميّات.

هذا ما سأفعله في بقية هذا الكتاب، أي تحويل الخلفيّة إلى أماميّة مصطحبة بـ "**الصورة الكبرى**" التقليديّة، أي تلك الخلفيّة التي عاشت عليها البشريّة حتى حلَّت محلَّها الخلفيّة العلميّة. أذكّر القارئ بأنني استخدمت الفصل الافتتاحي لهذا الكتاب لاقترح أن أحد الطرق المعقولة لدخول الألفية الثالثة هي أن نقوم بغربلة المراحل الثلاث لماضي البشرية فنأخذ أفضل ما تقدّمه كل مرحلة، وندع الباقي تاركين الأموات يدفنون موتاهم. إن أفضل ما قدّمه عصر الحداثة كان "**عِلْمُهُ**"، وأفضل ما قدّمه عصر ما بعد الحداثة كان ولا يزال "**اهتمامه بالعدالة**"، وأفضل شيء لدى العصر التقليدي كان ولا يزال "**تصوُّره للعالم**".

---

(١) راجع بداية الفصل الماضي (فصل ١٣) لمعرفة المقصود من «بقع حبر» رورشاخ.

ورغبةً مني في توضيح الأسباب التي دعتني للاهتمام بالفترة التقليديّة، أخَّرتُ شرحي الكامل لتلك الفترة حتى هذا الفصل. وحقيقةُ أنَّه من بَين جميع المجتمعات التي وُجِدَتْ في التاريخ، التي قُدِّرَ عددها بسبعين ألف، لا يوجد مجتمعان متطابقان أحدهما نسخة فوتوكوبي عن الآخر، لا تطرح أيّة مشكلة، لأنّني خصَّصْتُ كتاباً كاملاً لهذا الموضوع. لقد أخذ «دارول براينت» Darrol Bryant المقالتين الابتدائيتين اللتين كتبتهما حول الموضوع - "لهجات فلسفات العالم"، و"لهجات أديان العالم" - وأضاف إليهما مقالاتي الأربع عشرة حول الموضوع، وحرَّرها وأخرجها في كتاب واحد عنوانه: «هوستن سميث: مقالات عن دين العالم» *Huston Smith: Essays on World Religion*. لقد تمَّت معالجة الاختلافات هنالك، لذا أجدني حرّاً هنا في التركيز على العمود الفقريّ التصوريّ الواحد الذي يقع خلف تلك الاختلافات، وقد أوضحت في كتاب سابق لي عنوانه: «**الحقيقة المنسية: الرؤية المشتركة لأديان العالم**» *The Forgotten Truth: The Common Vision of the World's Religions*، هذا العمود الفقري بالتفصيل. هنا سأضغط النتائج الرئيسيّة التي وردت في ذلك الكتاب وأذكرها بطرقٍ آمل أن تكون سهلة الفهم لدى جمهور الناس.

يمكنك أن تعتبر هذا الفصل - إن شئت - مثل «القواعد النحويَّة المنتجة» generative grammar، التي أنتجت اللغات الطبيعيَّة المنوَّعة للروح الإنسانيَّة، أي التصوُّرات الدينيَّة للعالَم. "لغةُ العلم" ليست لغةً طبيعيّةً، وهي وإن أصبحت لُغَةَ تعارف[1] Lingua franca في عصرنا (أي لغة مشتركة بين جميع أفراد البشر) إلا أنَّها تبقى لغةً اصطناعيّةً لا يمكنها أن تستوعب الروح الإنسانيّة.

(١) لغة التعارف Lingua franca: لغة خليطةٌ من عدّة لغات تستعمل لتسهيل التخاطب بين ناس يتكلّمون لغات أمّ مختلفة، وأطلقت بشكل خاص على لغة استخدمها تجّارٌ من كافة موانئ البحر الأبيض المتوسط حتى القرن الثامن عشر، تضمّنت بشكل رئيسي مفردات من الإيطالية مطعَّمة بعناصر من التركيّة والعربيّة واليونانيّة والإسبانيّة والفرنسيّة.

التقسيم الكبير

عندما نظرت الشعوب التقليدية إلى عالمها قسَّمَتْهُ إلى: **"هذا العالَم"** و**"العالَم الآخر"**. الحيوانات الأخرى لم تقم بهذا التقسيم، وربما لم تقم به المجموعات البشرية القديمة الأولى أيضاً، لأننا نلاحظ موضوع الوحدة التمامية الأصلية في بداية الزمن (قصّة جنّة عَدَن بشكلٍ أو بآخر) يظهر أمامنا مراراً وتكراراً. وأيّاً كان الأمر، فإنّ أقدم عقليّة بشريّة بقيت حيّة حتى عصرنا هذا على سطح الأرض؛ أي السكان الأصليون لأستراليا الذين لم يختبروا العصر الحديدي، تُظْهِرُ هذا التقسيمَ الكبيرَ إلى **"هذا العالَم"** و**"العالَم الآخر"** مطَبَّقاً بشكلٍ راسخٍ.

يطلق السكّان الأصليّون على عالَمهم الآخر اسم **«الحُلُم»** Dreaming، ويجعلونه مقابلاً لعالم حياتهم اليوميّة ومختلفاً عنه تماماً لأنه محصَّنٌ ضدَّ الزّمن (أي أن الزمن لا يمرُّ عليه). الأشياء في هذا العالَم العاديّ تأتي وتذهب، على عكس **«الحُلُم»** لأنه لا يمسُّهُ الزمن. إنه عالمٌ عامرٌ بشخصيات أسطورية تشابهنا إلى حدٍّ كبيرٍ مع كونها في الوقت نفسه أكبر من الحياة. إنّ المنزلة الاستثنائيّة لتلك الشخصيّات الأسطوريّة تنشأ من حقيقة أنها بدأت نشاطات الحياة الأساسية لأوّل مرّة. قام بطلٌ بدائيٌّ أصليٌّ بالصيد، فأطلق بذلك هذا العمل أو هذه السنّة بشكل مستمرٍّ دائم. ونقّب بطلٌ بدائيٌّ آخر عن الجذور، وقام بطلٌ بدائيٌّ ثالثٌ أيضاً بنسج السِّلال، ومارس زوجان بدائيان الحبّ فأنجبا طفلاً، وهكذا.. حتى تتمّ تغطية كلّ الأنواع الأساسية لأفعال الإنسان.

قد يفترض المراقبون من الخارج أنه عندما يمارس الساكن الأصليّ عملاً ما، فإنه يعتبر نفسه محاكياً ومقلّداً البطل الذي بدأ هذا العمل أوّل مرّة، ولكن افتراضهم هذا أضعف من الحقيقة بكثير. في العقلية البدائية كان الخطّ الفاصل بين **"هذا العالَم"** و**"العالَم الآخر"** رقيقاً: كان الساكن الأصلي يطابق نفسه على البطل البادئ للعمل إلى النقطة التي يشعر فيها أنه **يصبح ذلك البطل نفسه** حينما يكون في (عالَم) **«الحُلُم»**. وهو بهذا يتبنّى خلود البطل وأبديّته، وذلك لأنّ الزمن، كما ذكرت قبل قليل، ليس له أيّ تدخُّل في **«الحُلُم»**.

لقد كان هدف حياة السكّان الأصليّين هو أن يعيشوا بأكمل قَدْر ممكن في «**الحُلُم**»، لأن هذه هي "**الحياة الحقيقيّة**" (كما نقول في لغتنا العامية). وكلّ ما عدا ذلك فلا أهميَّة له.

عندما نمضي من أبكر وأقدم تقسيم إلى "**هذا العالَم**"/ "**العالَم الآخر**"، ونتَّجه إلى التاريخ المسجَّل، نجد هذا التقسيم مستمراً متواصلاً. زوَّدت حكاية أفلاطون الرمزيّة عن الكهف، الحضارةَ الغربيةَ، باستعارتها الفلسفيّة الرئيسيّة بإعلانها عن "آخرَ" هائلاً عظيماً (الشمس ونورها)، وهو آخرٌ، كلُّ ما سواه لا يعدو بالنسبة إليه ظلالاً في كهف؛ وأضافت رؤية موسى للنار المشتعلة في جبل سيناء النظير الدّيني الواضح لتلك الاستعارة. كلُّ دينٍ – وكلُّ فلسفة تقليديّة أيضاً، لأن الاثنين كانا متلازمين – يطبِّقُ هذا التمييز ويُعْمِلُه – ولو على نحوٍ مفاهيميٍّ – إلى النقطة التي تجعل من الممكن القول أن حضور هذا التمييز هو الذي يجعل تصوراً ما للعالم «تصوراً دينياً» –. اعتبر «ميرسيا إيلياد»[1] Mircea Eliade هذا التمييز أمراً مسلَّماً به عندما عَنْوَنَ دراستَه الشاملة عن تاريخ الدِّين بعنوان: «**المقدَّس والمدنَّس**»، وأشار «كارلوس كاستانيدا» Carlos Castaneda إلى هذا عندما عَنْوَنَ أحد كتبه بـ: «حقيقةٌ منفصلةٌ» *A Separate Reality*. في الهند كان التمييز بين «**سامسارا**» و«**النيرفانا**». وفي شرق آسيا كان التقسيم بكل بساطة: بين «**الأرض**» و«**السماء**».

كلُّ واحدٍ من النصفين في التصوُّر التقليديّ للعالَم ينقسم انقساماً فرعيّاً آخر، مما يعطينا

---

(١) إيلياد ميرسيا Eliade, Mircea (١٩٠٧ – ١٩٨٦) فيلسوف وروائي وشاعر ومؤرخ ديني، روماني المولد، حصل على إجازة في الفلسفة من جامعة بوخارست عام ١٩٢٨. دَرَسَ اللغة السنسكريتية والفلسفة الهندية في جامعة كلكوتا في الهند، حتى ١٩٣٢، ثم أمضى ستة أشهر من الخلوة التأملية في دير هندوسي في جبال الهمالايا شمال الهند ليعود بعدها إلى التدريس في جامعة بوخارست. انتقل عام ١٩٤٥ إلى فرنسا أستاذاً زائراً في السوربون، ثم هاجر إلى أمريكا عام ١٩٥٦ ليعمل أستاذاً لتاريخ الأديان في جامعة شيكاغو، وبقي في الولايات المتحدة حتى وفاته. أهم إنجازاته الريادية تقليصه التنوع الهائل لأديان العالم إلى وحدة شاملة من خلال عدد من الرؤى والبصائر الرئيسية. كان لا يرى جدوى في البحث عن أصل الدين ويرى أن التركيز يجب أن ينصب على وظيفة الدين ودوره في حياة الناس. أهم أعماله "أسطورة العودة الأبدية" The Myth of the Eternal Return (١٩٥٤)، و"نماذج في مقارنة الأديان" Patterns in Comparative Religion (١٩٥٨)، وموسوعة تاريخ الأفكار الدينية في ثلاثة مجلدات (١٩٧٨-١٩٨٥).

أربعة مجالات في المجموع. ولكنني قبل أن أنتقل إلى التقسيمات الفرعيَّة، أودّ أن أبقى مع هذا التقسيم الأول لأدع آثاره وتَبعاته تظهر بوضوح كما في الشرح التالي:

١- كما رأينا فيما سبق، الاصطلاحات القياسيّة للتعبير عن نصفي العالم هما الظاهر الحاضر *immanence* **والتسامي** (التعالي) ***Transcendence*** مع تكبير الثاني للإشارة إلى علوه وسيادته. في استعارة النفق التي استخدمناها في هذا الكتاب، يُمثِّل الظلام داخل النفق: الظاهر الحاضر *immanence*، في حين أن «التسامي والتعالي» ***Transcendence*** هو الفضاءات الرحبة الكبيرة التي يسير النفق داخلها.

٢- لغرض التوضيح، تكلَّمت حتى الآن عن "**هذا العالَم**" و"**العالَم الآخر**" وكأنهما نصفا تفّاحة، ولكنّ هذا مُضلِّلٌ. إنّ حقيقة المادَّة محتواةٌ في الشكل رقم ١ (راجع الفصل ١٢)، الذي يُصوِّر الكونَ الماديَّ (الطبيعيَّ) بدائرةٍ صغيرةٍ ضمن دائرةٍ أكبرَ تتضمَّنه بالإضافة لتضمُّنها أشياء أخرى أكثر بكثير. وتصوير الأمور بهذا الشكل يتيح لصفات الدائرة الكبرى أن تتوغَّل داخل الدائرة الصغرى - إذ أن محيط الأخيرة يحتوي على ثقوب تسمح بمثل هذا التوغُّل - ولكن لا بدّ من توفُّر الإحساس الدينيّ (الشعور الديني الخاص) لاكتشاف تلك التوغُّلات، لأنها مختفية ضمن مظاهر الطبيعة الخارجية. لا يملك العلم سبباً يدعوه لأخذ مثل هذه الأمور في حُسبانه، ولكن هذه الأمور حياتيَّةٌ للدِّين. إن الحضور الشامل للّه في كلِّ مكان (الوجود الكلي لله) يعلن هذه النقطة تجريدياً، لكن التعبيرات العينيّة الملموسة، أكثرُ دلالةً بالنسبة إلينا، لذا سأتحدث عن أربعةٍ منها.

عندما استيقظ «البوذا» تحت شجرة ال «بو» كانت صيحته الأولى: «أعجوبة العجائب؛ كلّ الأشياء، جوهرياً وذاتياً، طبيعة البوذا». اللازمة (العبارة المتكرّرة) التي تدوّي خلال القلب «سوترا» The Heart Sutra مثل ضربة جرس إيقاعية: «الشكلُ فراغٌ، والفراغُ شكلٌ؛ ليس هناك شكلٌ بدون فراغٍ، ليس هناك فراغٌ بدون شكلٍ». ويعلن ناظم المزامير بأنّ «السماء والأرض مليئةٌ بمجدك». وأخيراً، يطمئننا القديس بولس أننا «به نحيا، وبه نتحرّك، وبه نوجد».

تُبرزُ هذه الشهادات حدود الاستعارات الفضائيَّة (الحيِّزيَّة) عند التعامل مع الروح. في الواقع، إن التمييز بين "هذا العالَم" و"العالَم الآخر" يُفْهَمُ بنحوٍ أكثرَ دقةً على أنّه مسألةُ إدراكٍ وفهمٍ، لا مسألة جغرافية. ما الذي نستطيع أن نراه بواسطة ما أسماه أفلاطون "عين الروح" أو ما أطلق عليه الصوفيّة (المسلمون) "عين القلب"؟ إنه حسب عبارة "بليك" Blake: «إذا تمّ تنظيف أبواب الإدراك، **فإننا سنرى كل شيءٍ على حقيقته: مطلقٌ لانهائيٌّ**».

٣- ميتافيزيقياً، لا توجدُ طريقةٌ أوضح لوصف الحداثة وما بعد الحداثة من القول إن عالمهما لا يشتمل إلا على "**هذا العالَم**" فقط. وأُكرِّر للمرّة الثالثة والأخيرة السطر العظيم الدلالة من قسم مراجعة الكتب من نشرة "تاريخ يوميات التعليم العالي" *Chronicle of Higher Education*: «**إذا كان هناك شيءٌ يُميِّز "الحداثة"، فإنه فقدان الإيمان بالمتعالي الفائق (المتسامي على المادة)، أي بالحقيقة التي تشمل كلّ شؤوننا اليومية ولكنّها تتجاوزها وتسمو عليها**».

٤- كوني مُعلماً، تعلَّمْتُ أن التكرار لا يضرُّ أبداً، لذا أعيد هنا في نقطتي الرابعة، الفكرة التي يثبتها هذا الكتاب، منذ البداية وفي كل أنحائه: لقد أسقطنا المتعالي الفائق من حسابنا لا لأننا اكتشفنا شيئاً يُثبت عدم وجوده. بل كلّ ما فعلناه هو أننا خفَّضنا رؤيتنا (أي هَبَطنا بمجال نظرنا إلى الأسفل). لقد أوضح النصف الأول من هذا الكتاب الثمن الباهظ الذي دفعناه بسبب هذا العمل.

٥- وعلى كلِّ حال، فإن «**العِلمَ**» يُبشِّر أيضاً بعالمَين خاصّين به يوازيان عالمَيْ الدِّين مع فارق أن "**العالَم الآخر**" للعِلم **كَمِّيٌّ**، في حين أن "**العالَم الآخر" للدِّين كيفيٌّ**. عالم الكمّ[1] quantum مثله مثل "العالَم الآخر" للدِّين عالَمٌ غيرُ مرئيٍّ للعين البشريَّة على الرغم من تحديده ما تدركه هذه العين[2]. وأيضاً عالم الكمّ مثله مثل "العالَم الآخر" للدِّين،

---

(١) الكمّ Quantum = أصغر مقدار من الطاقة يمكن أن يوجد مستقلاً.

(٢) في إشارة إلى الضوء المؤلف من فوتونات، فالضوء هو الذي يبين ماذا يمكننا أن نرى.

لا يوجد في مكان آخر، بل على أحدنا أن يُنقِّبَ في الداخل ليكتشفه. وكذلك، عـالَمُ الكمِّ غريبٌ أيضاً إلى حدّ أنه بالكاد يُمكِنُ فهمه بالعقل.

التقسيمات الفرعيّة

نأتي الآن إلى التقسيمات الفرعيَّة في كلٍّ من نصفَيْ "الصورة الكبيرة": ينقسم **"هذا العالَم"** إلى عنصره المرئيّ وعنصره غير المرئيّ، و**"العالَم الآخَر"** ينقسم إلى مظهريه: **«القابل للمعرفة»** و**«الذي يتجاوز إمكانية للوصف»** Ineffable. وأبدأ بهذا العالَم.

نصفا 'هذا العالَم'

قبل اختراع العدسة المكبِّرة، كان العالَم الطبيعيّ يتكوّن من ما يمكن لحواسِّنا الجسميَّة أن تخبرنا عنه، ولكنَّ طُرُقَ التكبير وسَّعت مجال عمل حواسِّنا إلى آفاقٍ أكثر عمقاً في الطبيعة. هذا يجعلنا نتصور العالم المرئي على نحوٍ أفضل، بوصفه الكون الفيزيائي (المادي) في مجموعه: أي كلُّ ما نلتقطه بحواسِّنا المجرَّدة، يزيد عليه كلّ ما أضافه «العِلم» إلى تقارير حواسِّنا.

وإذا التفتنا إلى النصف غير المرئي واللامادي من **"هذا العالَم"**، فإننا نجد أننا نصادفه مباشرةً في أفكارنا ومشاعرنا وأحاسيسنا، لكنّ وجهات النظر الحديثة والتقليدية تختلف بشكل جذريٍّ وأساسيٍّ حول مدى البُعْد في عالم الطبيعة، الذي تمتدُّ إليه الأشياء غير المرئية واللاماديَّة. يعتبر التقليديون أن الكائنات اللاجسديَّة (التي ليس لها جسم مادي) - مثل الملائكة والشياطين، والقدّيسين الشفعاء، والحلفاء الشامانيُّون، وأشباههم - تشكِّل جزءاً من أثاث عالمنا بالقدر نفسه الذي تمثله الجبال والأنهار، ولكن الحداثة سحبت الوعي conscience (أو بنحو أوسع: القدرة على الإحساس والشعور sentience) من العالَم بشكلٍ عامٍّ بجعله مجرَّد ظاهرة مصاحبة[1] epiphenomenon للكائنات الحيّة الحيويّة في

(١) الظاهرة المصاحبة epiphenomenon: ظاهرة ثانوية تصاحب ظاهرة أخرى وتنشأ عنها.

مستوى ما من تعقيدها. بما أن الحياة لا توجد إلا على كوكبنا فقط (كما يبدو)، فإنَّ الانكماش كليٌّ تقريباً. توجد "القدرة على الإحساس والشعور" فقط في ذرة الغبار أو الهباءة التي يشكلها كوكبنا (الأرض) في هذا الكون الفلكي - وهي ذرة غبار صغيرة جداً تكاد تتجاوز بصعوبة كونها مجرَّد نقطة رياضية - وهذه "القدرة على الإحساس والشعور" موجودة فقط في نُهَيْر الحياة على هذه الهباءة الصغيرة (الأرض). فلو أن كُوَيْكباً سيَّاراً كبيراً ارتطم بكوكب الأرض فحطَّمه تماماً، فلن يكون الكون عندئذٍ مكوّناً سوى من مادَّةٍ ميِّتة.

هدفي في هذا الفصل وصف الصورة الكبرى، وليس الاستدلال على وجودها، ولكني بوصفي شخصاً نشأ وتربَّى في ثقافة تقليديَّة (دينيَّة) وأمضى معظم حياته المهنية معلماً للصورة الكبيرة، كما هي مجمَّعةٌ في أديان العالم الكبرى، أجد أن قيام الحداثة بسَحْب «القدرة على الإحساس والشعور» Sentience من العالم بشكلٍ عامٍّ، عملاً اعتباطيّاً جداً لدرجة أنني سأقحمه في تجربة مباشرة واحدة حصلت عليها والتي ستقضي على ذلك العمل بشدَّة.

كان ذلك عام ١٩٥٩، وكنت أعمل بروفسوراً زائراً في كلية ستيفن في كولومبيا، ميسوري. وكانت محاضراتي التلفزيونية حول أديان العالم قد نالت نجاحاً كبيراً في مدينة سانت لويس الربيع الماضي، وهذا ما جعلني شخصيةً مشهورةً إلى حدٍّ ما، في كولومبيا، في ذلك الفصل الدراسي. لذلك دُعيت إلى لقاء «جون نيهارد» John Neihardt، مؤلف كتاب «الأيّل الأسود يتكلم» Black Elk Speaks، الذي كان النموذج الأدبي الرائع في جامعة ميسوري. ولكي أهيِّئ نفسي لهذا اللقاء، أعدت قراءة كتابه و وصلت إلى بيته جاهزاً لمناقشة «الأيّل الأسود»، لأجده غارقاً في أفكار وهواجس استحوذت عليه بسبب حادثة أخيرة، فلم نتطرّق في محادثتنا إلى كتابه إلا نادراً. وكانت القصّة التي حكاها لي هو وزوجته هي التالية:

حدث لعائلة "نيهارد" Neihardts حادث مروري بسيط في الأسبوع الماضي. لم تحدث أضرار فادحة - خدوش جلديّة، كسر بعض الأسنان، وأشياء من ذلك القبيل -، وفي تلك

الأيام كانت شركات التأمين تقوم بزيارات إلى البيوت لجمع التفاصيل. كان أفراد عائلة "نيهارد" جالسين إلى المائدة يشرحون الحادثة لوكيل شركة التأمين عندما قاطعهم فجأةً وقال: «هل تمانعون من إخراج كلبكم هذا؟ إنه يثير أعصابي».

- «كلبٌ؟ أيُّ كلبٍ؟». أرادت عائلة "نيهارد" أن تعرف!

- «أوه!، تعلمون، ذلك الكلب الصغير الأسود» وألقى نظرةً تحت الطاولة فلم يجد شيئاً، فأضاف: «لا بد أنه قد خرج».

نظر أفراد العائلة إلى بعضهم البعض بدهشة وتعجُّب. لقد كان لديهم فعلاً كلبٌ أسودُ صغيرٌ كان بهجة حياتهم، لكنه مات بعد شيخوخته في الأسبوع الماضي.

عند هذه النقطة انتهت قصتهم، ولكن بعد عدة سنوات علمت بخاتمة تلك القصّة. لقد رجعتُ إلى الحادثة في حوارٍ صحفيٍّ أجْرِيَ مع زوجين كانا صديقين شخصيَّين لعائلة "نيهارد". وقد كتبا لي ليخبراني بنهاية القصة. لقد كرَّس الأبوين "نيهارد" (اللذَيْن كانا على أبواب التقاعد عندما حدثت تلك الحادثة) بقيةَ حياتهما إلى دراسة الباراسايكولوجي[1] Parapsychology (علم خوارق اللاشعور) وأوصوا بما يملكون، لتأسيس مركز أبحاث لدراسة الظواهر الخارقة Paranormal (الخوارق التي يتعذَّر تعليلها علمياً).

هذا التأييد الصغير للفهم التقليديّ لهذا العالَم ليس حاسماً. ولا يتطلَّب استنتاج أن روح الكلب الصغير استمرّت بعد موته و واصلت تأثيرها على الحياة، لأنه من المُحتمل على حدٍّ سواء أن يكون وكيل شركة التأمين قد التقط تخاطُرياً telepathically ذكرياتهم عن كلبهم. ولكن، التخاطر أيضاً ليس جزءاً من التصور العلميّ القياسيّ للعالَم، لذا في كلا الحالتين، تبدو تلك الواقعة مُتحدِّيةً ذلك التصور بشكلٍ أو بآخر. سأدَعُ الأمور هنا وأمضي للحديث عن العالَم الآخر.

---

(١) باراسياكولوجي: فرع من علم النفس يبحث في خوارق اللاشعور مثل التخاطر telepathy وما أشبهه.

نصفا "العالَم الآخر

ينقسم ذلك العالم في كل مكان إلى سمات الله القابلة للمعرفة، من ناحية، ومن ناحية أخرى، إلى أعماق الله غير القابلة للإدراك، والتي دعاها يعقوب البوهمي Jacob Boehme "اللُجَّة الإلهية" Divine Abyss (أو الهاوية السحيقة الإلـهية)، في حين دعاها «مايستر إيكهارت» Meister Eckhart[1] "الألوهيّةَ المعمَّدة". (سنأتي إلى نظيرها الآسيويّ في الوقت المناسب).

كما يُمكن وصف هذا التمييز فلسفياً (كما يفعل الأفلاطونيّون الجدد والفيدانتيون الهندوس)، ولكني سأقصر كلماتي هنا على التعبيرات الإلهية. سأستخدم لفظي «الله» و«الألوهيّة» بوصفهما اسمي جنسٍ لقسمي **"العالَم الآخر"**، ولكن ثمَّة زوجين اصطلاحيين آخرين يُساعدان في فهم هذا التقسيم. سوف أُعطّي بالملاحظة ثلاثة تعبيرات: «الله» الذي يقبل المعرفة/ و«الله» الذي لا يقبل المعرفة، و«الله» ظاهراً جليّاً/ وباطناً مخفياً، و«الله» الشخصي personal / و«الله» ما وراء الشخصيّ transpersonal.

«الله» الذي يقبل المعرفة (أي معرفته ممكنة) و**«الله» الذي لا يقبل المعرفة** (أي الذي معرفته غير ممكنة): إذا كانت عبارة **«الذي لا يقبل المعرفة»** تَدلُّ على الجهل المحض، فهي عبارةٌ مُضلِّلةٌ هنا لأننا لا نريد هذا المعنى، إذْ إنّنا لا نجهل الألوهيّة بشكلٍ كامل. قصدنا من «المعرفة غير الممكنة» المعرفة التصوريّة للدماغ الأيسر فقط، أي المعرفة التي يُمكن تحويلها إلى كلمات. لا يُمكن وصف الألوهيّة عقلياً، ولكن (بطريقة تُشبه الرؤية أكثر مما تشبه التفكير) يُمكن حَدْسُها، أو بتعبير أفضل، يُمكن التعرّف إليها على نحوٍ حَدْسيٍ.

---

(١) مايستر إيكهارت Meister ، Eckhart، (١٢٦٠؟ - ١٣٢٨؟) صوفي ولاهوتي مسيحي ألماني من الرهبان الدومينكان، نال الماجستير في اللاهوت وصار مدرس اللاهوت في باريس و واعظاً في استراسبورغ وكولن حيث نال احتراما بالغاً لكفاءاته الوعظية والإدارية. تبع في لاهوته لاهوت القديس توما الأكويني، بيد أنّه أضاف إليه عناصر كثيرة من الأفلاطونية الجديدة. واتهم بالقول بوحدة الوجود pantheism بسبب تصريحه عن اتحاد الروح مع الله مما عرّضه لتهمة الهرطقة. أما العلماء المعاصرون فاعتبروا تصوف إيكهارت متطابقاً مع المسيحية القويمة.

تُعتَبَرُ جملة النبيّ «أيّوب» الذُّرَويّة بياناً نموذجيّاً هنا: **«لقد سمعت عنك بسمع الأذن، ولكن الآن عينيَ تَراكَ»**. إننا نشعر بهذه "الرؤية" أيضاً في الكلمة التي وضعتُ تحتها خطّاً في هذه القصيدة بلا عنوان لـ: «يونيس تيجنس» Eunice Tietjens، التي تظهر في كتاب صُوَر عنوانه: «إيفريست: حافّة الغرب» *Everest: The West Ridge*.

كبُرَتِ الحجارةُ في السنّ،
الخلود ليس للأحجار.
ولكنني سأهبط من هذا الفضاء ذي الهواء، وهذا السلام الأبيض السريع،
هذا الاغتباط والنشوة اللاذعة؛
وسيتوقف الزمان من المرور عليَّ، وتُثار روحي بإيقاع الدورة اليوميّة.
رُغْمَ ذلك، لأنني عَلِمْتُ، الحياة لن تُسرع قريباً جداً.
وسأشعر دائماً بالزمن ينتسل رقيقاً عليَّ.
لأنني وقفتُ مرّةً
في الحضور الأبيض العاصف للأبدية (الخلود)[1].

«الله» الظاهر و«الله» الباطن: "الظاهر" و"الباطن" اسمان من أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين. البشر يُشبهون الله أيضاً بامتلاكهم لمظهرين، باطنٌ خفيٌّ وظاهرٌ مرئيٌّ. إن صفاتنا الجسديّة الجسميّة مفتوحةٌ أمام العالَم، في حين أنه حتى أقرب أصدقائنا وأقربائنا إلينا، ليس لديهم أدنى اطلاع أو علم بحياتنا الداخلية في أعماقها الغامضة.

«الله» الشخصي personal **و«الله» ما وراء الشَخصيّ** transpersonal: قال مونتسكيو Montesquieu مرّةً على سبيل الطرفة والمزاح أنه لو كان للمُثلّثات آلهةٌ، لكان لهذه الآلهة ثلاثةُ جوانب! إنه قصد من ملاحظته مجرَّد الهجاء، ولكنها تضمَّنت حقيقةً هامّةً. إننا نفهم على نحو أفضل الأشياء التي تشبهنا. إذا دخلنا إلى عالم الله الشخصي،

(١) أي أن هذا العلم أو الشعور بالأزلية جاء إلى ذلك المتأمل من خلال نوع من الحدس حصل عليه وهو على أعالي جبال هيمالايا، فأدركه للحظات شعور الخلود ونشوة الأبدية وأنَّ الزمن لا يمر عليه.

الذي يتحلّى بصفات مثل صفاتنا (رغم أن صفات الله تتجاوز صفاتنا في إطلاقها وفي سموّها وعلوّها اللا محدود)، يبدو معقولاً تماماً أنه من بين الصفات المطلقة للّه فإن الإحساس البشري سيميّز على نحوٍ أيسر تلك الصفات التي يملكها الإنسان أيضاً مثل الطيبة، الرحمة، الحب، وأمثالها.

التكملة المنطقيّة للّه الشخصي هي «الله» **ما وراء الشخصي transpersonal**، ويجب أن نكون حذرين جداً هنا. إذ سيكون من الخطأ الكبير أن نخلط بين ما وراء الشخصي، واللا شخصي الذي لا يمكن أن يكون الله بالطبع. إن ما وراء الشخصي Transpersonal أكثر (شخصيّةً) من الشخصي، وليس أقل، وهذا ما يجعل المفهوم صعباً جداً: إذ ليس من السهل تصور أشياء تتجاوز مخيلتنا تماماً. إذا حصرنا معنى **«الشخصي»** بـ **«الذي يمتلك مركز وعيٍ ذاتيٍّ»** فإن هذا المعنى ينطبق تماماً على «الله»، لأن الله لا يمكن مطلقاً أن يكون مجرداً من مثل هذا الوعي؛ بيد أن المعنى الأولي والأساسي لكلمة **«الشخصي»** مشتقٌّ من الإنسان البشر أي الأشخاص الإنسانيين، ولمّا كان الأشخاص بحدّ ذاتهم محدودين (متناهين) بنحوٍ جذري، فإن صفة الشخصيّ صفةٌ حرجةٌ وحذرةٌ جداً عندما نصف الله بها. ومَنْ لديهم مشكلة مع فكرة الله الشخص – ويبدو أن عددهم يزداد – ينفرون من تلك الصفة لأنهم يرونها مفرطةً بالوصف لحدٍّ مُضْعِف، كونها تبدو تشبيهيّةً تجسيميّةً[1] anthropomorphic، (هكذا رأى سبينوزا وتلميذُه آينشتاين المسألةَ)، ويبدو أن هؤلاء لديهم وجهة نظر جيدة. بيد أنه لكي يكون «الله» متاحاً دينياً يجب عليه أن يشابهنا بشكلٍ ما وإلا لما كان بإمكاننا أن نرتبط ونتعلّق به. ولكن في الوقت نفسه، إذا كان «الله» مثلنا أكثر من اللازم، فإنه لن يلهمنا الوقار والخشية المطلوبين لعبادته. إذاً المشابهة والاختلاف كلاهما مطلوبٌ؛ وهما يعملان – في أفضل أحوالهما – معاً في مزج الألحان. ليس هناك من شكٍّ في أن الله واحدٌ لا ثانيَ له. إننا نتحدث عن درجات في فهم حقيقة واحدة مفردة (لا عن حقائقَ متعدِّدة).

---

(١) التشبيهي التجسيمي anthropomorphic خلع الصفات البشرية على غير الإنسان وبخاصة على الله.

بعد أن ميّزنا مفهوم «الله» عن مفهوم «الألوهية»، بقي أن نشير إلى عمومية هذا التقسيم وانتشاره في كل الأديان.

تطرح أديان شرق آسيا أهميّةً وجدارةً ليس للاختلافات في المصطلح فحسب، بل للاختلافات في الفروق الدقيقة أيضاً، حيث نجد في الكونفوشيّة: شانغ تي shang ti، السلف الأعلى، ووراءه "تي ين" Tien، أو السماء. وفي الطاوية، يوجد الطاو الذي يُمكننا أن نتكلم عنه، والطاو الذي يفوق الكلام.

في جنوب آسيا، تقدّم الهندوسية لنا: ساغونا براهمان *saguna brahman* - الله ذو الصفات والأسماء، التي أهمُّها: سات، شيت، وآناندا (الكائن المطلق «أي اللامحدود»، الوعي، والنعمة) - ونيرغونا براهمان *Nirguna Brahman*، الـ نيتي، نيتي (لا هذا، ولا هذا) لبراهمان الذي يتجاوز الوصف. وتُمثّل البوذية حالة متفرّدة بسبب موقفها الغامض تجاه «الله»، ولكن على الرغم من أن الله الشخصي غائب في البوذية المبكّرة، إلا أنه لم يكن من الممكن إقصاؤه إلى ما لا نهاية، بل عاد بكل قوة من خلال بوذية الماهايانا *Mahayana*. وقد نقَلَتْ مقالةٌ في صحيفة حديثة اقتباساً من كلام قاله رئيس دير معبدٍ في جنوب كاليفورنيا في الصلاة الصباحية: «في الصباح تحس أن قلبك يلمس قلب بوذا، وقلب بوذا سعيدٌ جداً، مليءٌ جداً بالشفقة». والله ما وراء الشخصي، بالطبع، مطروحٌ بشكلٍ قويٍّ جداً في "سوناياتا" sunyata - الفراغ - الخاصّ بالبوذيّة، و في النيرفانا.

وأخيراً (على عكس حالة البوذية)، تضع عائلة الأديان الإبراهيمية الغربيّة التأكيد الكامل على الله الشخص - إله إبراهيم وإسحق ويعقوب، وأب ربِّنا ومخلِّصنا يسوع المسيح، والله ذي الأسماء الحسنى التسعة والتسعين. ولكن حتى هنا، صورة الله ما وراء الشخصي ليست غائبةً. إننا نلمحها في اليهودية في مفهوم «عين صوف» 'ein sof (المطلق اللامحدود) لدى «الكابالا»[1] Kabbalah، ونجدها تطرح نفسها في المسيحية من خلال

(١) الكابالا أو القَبَلانية Kabbalah: (تعني بالعبرية: "التقليد المستلم")، اسم يطلق على الاتجاهات الصوفية

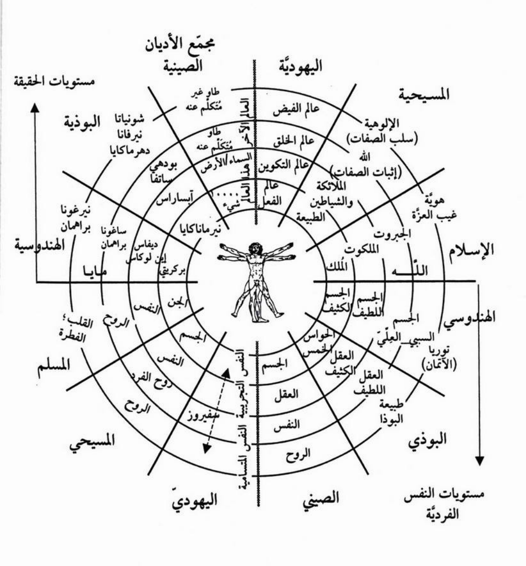
الألوهيّة التي يصفها «مايستر إيكهارت» Meister Eckhart بعبارة «**سحابة اللامعرفة**»، The Cloud of Unknowing، أو من خلال «الله» الذي ما وراء «الله» God-beyond-God كما عند «بول تيلّيخ»[١] Paul Tillich. وفي الإسلام هو الاسم المئة للّه، الذي (لكونه لا يوصف) يَغيب عن سُبْحَة الصوفيّ.

إن النفس الإنسانية هي المخلوق الوحيد الذي يتقاطع في كماله مع المناطق الأربعة للحقيقة التي تمّ توصيفها آنفاً. في لحظة صدمةٍ لا أنساها أبداً، ثبّتتني في مكاني بلا حراك، رأيتُ مرّةً بحيرة كريتر Crater وخلفها الجبال المتوّجة بقطع من السُّحب البيضاء قبل أن تنقشع أمام انتشار السماء الزرقاء حولها. كانت البحيرةُ شبيهةً جداً بالمرآة العاكسة، بحيث أن ما رأيته يرتفع فوقها، رأيته أيضاً معكوساً، في صورة مرآة كاملة تامة في أعماق البحيرة، لقد هزني هذا المنظر بوصفه نظيراً للطرق التي يتم بها انعكاس مستويات الحقيقة في النفس الإنسانية، فهناك أيضاً تكون الصورة مقلوبة ومعكوسة تصويرياً. في الشكل رقم ٢ رسمت شكلاً ومخططاً يُصوِّر مندالة[٢] تلخّص جميع المندالات mandala to end all mandalas، حيث نرى كيفيّة تقاطع مناطق الحقيقة الأربع (ومناطق النفس، التي أضفتها الآن)، بنحوٍ ثقافيٍّ مشترك.

الباطنية في اليهودية في كلّ أشكالها؛ وبشكل خاص على التصوّف الباطني (المستطيقي) اليهودي الذي تبلور في القرن الثالث عشر في إسبانيا وفرنسا، حول سفر زوهار Sefer zohar (أي كتاب العظمة)، وأنتج كلّ الحركات الصوفية الباطنية التالية في اليهودية التي اعتمدت فلسفة دينية سريّة مبنيّة على تفسير الكتاب المقدّس تفسيراً صوفياً.

(١) بول تيلليخ Paul Tillich (١٨٨٦-١٩٦٥)، فيلسوف أمريكي ألماني الأصل وعالم دين. هاجر إلى نيويورك وأصبح أستاذاً في كلية اللاهوت في جامعة هارفرد ثم في جامعة شيكاغو. ألف عديداً من الكتب تتعلّق بالقاعدة الدينية للحياة، وناقش غربة وعزلة الفرد في المجتمع واستدلّ على أن الوجود يستمد جذوره من الله الذي يشكل بذاته أرضية وجود كل الكائنات. رأى ((تيلليخ)) أن اللاهوت البروتستانتي يمكنه أن يندمج مع المفاهيم العلمية للفكر المعاصر (فكر الحداثة) دون أن يعرِّض إيمانه المسيحي للخطر.

(٢) المَنْدالة mandala: رمز الكون عند الهندوس والبوذيين وخاصة: دائرة تطوّق مربّعاً وعلى كل من جانبيها رسمُ إله.



الشــكل رقم ٢

حقيقة هرميّة

بعد أن تم إيضاح مناطق الحقيقة الأربع، أنتقل الآن إلى علاقاتها المتبادلة. النقطة المركزية أصبحت واضحة في كل أنحاء هذا الفصل، ولكنها تحتاج إلى التعبير عنها بعبارات مفهومة واضحة. إن المجالات الأربعة ليست متماثلةً في الأهميّة والمنزلة. لقد رأينا هذا في لمحتنا عن عالَم «الحُلُم» لدى السكان الأصليين (لأستراليا) المليء بالجدارة والأهمية بشكل لا يُقارن بالوجود الدنيوي، وعندما نفتح العالم إلى مناطقه الأربع، نجدها تتمثل أمامنا مع بعضها ضمن "**تصوُّر تسلسل مراتبي (هرمي) للعالَم**" *a hierarchical worldview*. لمّا كانت الألوهية وجوداً لا متناهياً أكمل من الله، الذي بدوره أكثر أهميّة من النصفين الآخرين الخاصين بهذا العالَم، (واللذين أُعتبرا متساويين هنا، لأنه لا أحد منهما يفوق الآخرَ شكلٍ واضحٍ). لسوء الحظ، لقد وقعت كلمة **التسلسل الهرميّ** ***hierarchy*** في مشاكل، الأمر الذي يتطلّب مني فقرة كاملة لإعادة تأهيلها قبل أن أُواصل كلامي في الموضوع الأساسي.

من ناحية الاشتقاق اللغوي (في اللغة اللاتينية) تقترب عبارة ***hierarchy*** من كونها كلمة ممتازة وتامة في ضم صفتي: القداسة holiness: ***heiros*** والقدرة المطلقة والمسيطرة sovereign power: ***arkhes***، اللتان باتحادهما ***heiros+arkhes*** تعلنان المبدأ والحقيقة المركزية في الدِّين، كما قال "وليم جيمز": «إن الدِّين يقول إن أفضل الأشياء هي الأكثر أبديّةً ودواماً، أي أشياء الكون التي ترمي الحجرة الأخيرة، كما يُقال، وصاحبة الكلمة النهائية فيه». على الرغم من أن الاعتداءات العنيفة على هذه كلمة «التسلسل الهرمي» *hierarchy* منْ قِبَل من وصفهم "فردريك كروز" باليسار الانتقائي أدّت إلى تخريبها تماماً تقريباً لإدخالها معنى **الظلم** في تعريفها ذاته. وهذا يحوِّل عبارة "*empowering hierarchy*" «الهرميَّة المانحة للقوّة» – تعريفياً – إلى تناقضٍ لفظيٍّ (أو إرْدافٍ خُلْفيٍّ[1])،

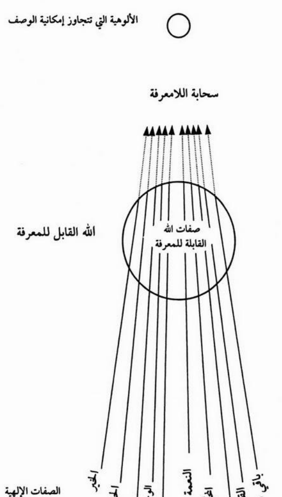
(١) الإرْداف الخُلْفيّ: اجتماع لفظتين متناقضتين كقولك a cheerful pessimist: أي متشائم مبتهج!!

ويترك الجمهور العام دون كلمة حول سلاسل القيادة الشرعيَّة التي تمنح القوَّة والتمكين. ومع ذلك فإن وجود مثل هذه السلاسل أمرٌ بديهيٌّ يظهر لنا بمجرد أن نفكّر لحظةً بالقضيَّة. عائلةٌ محبَّةٌ ذاتُ أولاد صغار هي «هرميَّة مانحة للقوَّة» "*empowering hierarchy*"، مثلها مثل قاعة صَفٍّ دراسيٍّ تتمّ إدارته بنحوٍ جيِّد. إن المثال الحاسم للهرميَّة الحميدة هو علاقة الله بهذا العالم، التي يضغطها المسيحيون إلى تلك الجملة التي جاء ذكرها في الفصل ٢: «الله أصبح إنساناً لكي يتاح للإنسان أن يصبح الله».

بعد أن أوضحت ذلك أمضي الآن إلى المفهوم التسلسلي الهرمي التقليدي للعالَم traditional hierarchical worldview. كل قيمة (أو فضيلة) virtue تزداد قوّةً كلّما ارتفعنا عن هذا العالم (بأخذ نصفيه مع بعضهما) نحو الله ثم إلى الألوهية، حيث تصل إلى حدودها المنطقية. لا يمكننا تصوُّر تلك الحدود بنحوٍ ملموسٍ عينيٍّ – الكمال المطلق، العلم المطلق بكل شيء، القدرة المطلقة على كل شيء، الحضور المطلق في كل زمان ومكان، وأمثالها مما تقع خارج قدرتنا على الفهم – بيد أنّنا نستطيع تتبُّع منطق القضيّة، ونحن نعلم على أي حالٍ ما هي "الفضائل" من خلال الشكل البدائي الذي تطفو به على السطح فينا. أول ما يأتي فوراً من "الفضائل" إلى الذهن: المفهوم الإغريقي الثلاثي: **الخير والحق والجمال**؛ وما ذكرته الهند في وقت أسبق، أعني فضائل: **الوجود والوعي والنعمة**؛ وفضيلتا **الإبداع والرحمة** المتمثِّلان في "يهوه" بكل قوة وثبات؛ **والأسماء الحسنى التسعة والتسعون** – ذات المدى الشمولي – للّه في الإسلام. كما لا ينبغي نسيان فضيلة: **"الحب المسيحي"**، ولا ينبغي إهمال: **"القدرة"** التي تبلغ ذروتها في الله كليّ القدرة (على كل شيء قدير). والشكل رقم ٣ التالي يوضح الموضوع بشكل تخطيطي.

تتمايز الفضائل فينا عن بعضها البعض، فالمعرفة ليست مماثلة للجمال، وكلاهما ليسا مرادفين للقدرة، أما الله فإن هذه الفضائل تتداخل في ذاته مع بقائها متمايزة، ولكن في نقطة الالتقاء الرياضية للألوهية في قمّة المخطط، تذوب الحدود بين الصفات والمزايا و يأخذ كلٌّ منها مزايا الآخر. فالألوهيَّة تَعلَمُ بحُبٍّ وَتُحبُّ بعِلْمٍ، وهكذا، حتى تتحد كل الفضائل

والصفات في وحدةٍ يطلقُ عليها العلماء المدرسيون عبارة «**البساطة الإلهية**» The Divine Simplicity.



الشكل رقم ٣

تسلسل العلل من الأعلى إلى الأسفل والدرجات المتعدِّدة للحقيقة

تماماً على عكس التصوُّر العلميّ للعالَم، الذي تصعد فيه العلل من البسيط إلى المعقَّد، فإن سلسلة العلل، في التصوُّر التقليديّ للعالم، تسير من الأعلى إلى الأسفل أو من القمَّة إلى القاعدة أو من الأرفع رتبةً إلى الأدنى رتبةً. سواءٌ تكلّمنا عن الله أم عن "آماتيراسو" (الإله السماوي المشرق في أسطورة الخلق اليابانية) الذي خلق العالم، أم عن العالم الذي انبثق عن الله ما وراء الشخصي (كما لدى الأفلاطونيين الجدد، والفيدانتيين وكما يفضل الفلاسفة الطّاويُّون القول)، فإنَّ المعلولات لا تساوي عللها أبداً.

الاستعارة المعبرة التي نستخدمها كثيراً هنا لإيصال هذه الفكرة هي استعارة الحجاب. لا يمكن للمطلق اللامتناهي (اللا محدود) أن يتخلّى عن عدم تناهيه وإلا لدخل في تناقضٍ ذاتيّ. ولكن في الوقت نفسه، ولأنَّه مطلقٌ، لا يمكنه استبعاد أيّ شيء، مما يعني أنه لا يمكنه إقصاء التناهي (المحدودية) أيضاً. وليس هذا فحسب، بل إن المطلق اللامحدود بالإضافة إلى ضرورة اشتماله على كل شيء بما في ذلك المحدوديَّة والتناهي، يجب أن يشتمل - انطلاقاً من نفس الخط المنطقي - على كل درجات المحدوديَّة degrees of finitude أيضاً. (أطلق فريمان دايسون Freeman Dyson، متأملاً لهذه الفكرة، عبارة «**مبدأ التنوع الأقصى**»، الذي يجعل الكون مثيراً ورائعاً بأقصى قَدْرٍ ممكنٍ). هناك حجاب واحدٌ فقط يخفي امتلاء المطلق اللامتناهي عن أقرب شيء إليه - أي الله الشخصيّ -، ولكن الحُجُب تزداد تدريجياً لتنتج كلّ درجات التناهي (المحدودية) حتى نصل في النهاية إلى أضعف أنماط الوجود (كما الخيوط في نظرية الخيوط الفيزيائية)، حيث يُحْجَبُ ويختفي المطلق اللامتناهي بشكلٍ كاملٍ تقريباً. إن قوّة استعارة «**الحُجُب**» هي أنها تعترف بوجود المطلق في كل مكان بينما تفسر في الوقت نفسه وجود درجات في إمكانية تمييزه.

إن جملة: «**درجات المحدوديَّة**» degrees of finitude تستحق التفكير والتأمّل ملياً، خاصة عندما تُقال بنحو إيجابي بوصفها «**درجات للحقيقة**» degrees of reality، وهنا أتذكر نقاشاً دار بيني و بين رئيس قسمي في جامعة "سيراكيوز" حول هذه النقطة: إذ قال لي

إنه عندما قرأ كتابي «الحقيقة المنسية» *The Forgotten Truth*، وجد نفسه مستثاراً جداً بحيث قرأ الكتاب كلّه من أوّله إلى آخره دون توقُّف و لم يأو إلى سريره قبل الثانية صباحاً. وقال إنه لم يصادف في عمره شيئاً كهذا: عالمٌ محترمٌ يدافع عن التصوُّر التقليديّ التسلسلي الهرميّ للعالَم traditional hierarchical worldview!؟، ويعتَبرُ هذا التصوُّرَ أرفع من الميتافيزيقيا المدعَّمة بالعلم الحديث!!. وظهر أن الشيء الذي حيّره أكثر هو ما يؤدي إليه مفهوم «التسلسل الهرمي» هذا من القول بـ «درجات للحقيقة» degrees of reality، فماذا يمكن أن يعني هذا؟؟ وكيف يكون للحقيقة درجات؟؟

وتناقشنا طويلاً بلا جدوى حتى رجعنا إلى تكرار حججنا عندما هدأ رئيس قسمي فجأةً وصمت هنيهةً. وبعد سكوت بدا مثل انتظارٍ طويلٍ، بدأ بالكلام ثانية، ولكن هذه المرّة بلهجة مختلفة. لقد تذكّر أمراً حصل له البارحة مساءً قبل أن يبدأ بقراءة كتابي. عندما دخل غرفة جلوسه، وجد ابنه البالغ من العمر ستّ سنوات يشاهد التلفاز، وكان الولد ثائراً مهتاجاً بسبب العنف الذي كان يُعْرَضُ على الشاشة في كل مكان من الفيلم؛ كان الناس يُقْتلون بأعدادٍ كبيرةٍ يميناً وشمالاً. في صوتٍ اقترب من الخوف الحقيقي، تحوّل ابنَه إليه ليسألَه «أبَت! هل هذا **حقيقيٌّ**؟». خذها من فم الطفل. إنه لزمنٌ عجيبٌ عندما يستطيع صبيّ عمره ست سنوات أن يفهم أن «**الحقيقي**» له درجات، بينما لا يمكن لأبيه المتمرِّن فلسفيّاً أن يفهم ذلك. وأضيف إلى رفقة الصبيّ الباعةَ المتجولين، فقد لفت نظري مؤخّراً صندوقٌ لطعام من الحبوب كُتِبَ عليه ما يطمئننا أنّه يحتوي على "**الشيء الحقيقي**". ونجد ما يؤيد هذا المعنى في كلامنا وتخاطبنا العادي أيضاً. كلُّنا وجدنا أنفسنا في وقت ما مغادرين حدثاً رياضيّاً يهتف بعضنا للآخر: «لقد كانت لعبةً **حقيقيةً** فعلاً». أخبرني طالبٌ مرّةً أنه لم يحدث أبداً أن سجّل نفسه لموادِّ أيِّ فصلٍ دراسيٍّ مُقَدَّماً، لأنه كان يُمْضي الأسبوعَ الأول من الفصل الدراسيّ متجوِّلاً للتبَضُّع (من الأساتذة) ليحدِّد أيّاً من الأساتذة هم – حسب تعبيره – أساتذة «**حقيقيون**» (أجد نفسي تطريني بالتفكير بأنه لمّا سجّل نفسه في «كورسي» (مادّتي) فمعناه أنّي نجحت في اختباره!).

ما كنت لأخصِّصَ كلَّ هذه المساحة لقضية «درجات الحقيقة» هذه لو لم تقترب المسألة من أن تشكِّل قلب المنافسة بين المفهوم التقليدي والمفهوم الحديث للعالَم. في عالَمٍ من طبقة واحدة فقط، حيث لا يوجد تسامٍ (تعالٍ على المادة) Transcendence، فإن تكبير الحقيقة وتضخيمها لن يعطي الكلمة أي معنى أو دلالة متميِّزة؛ كلُّ ما سيفعله هو أنه يضخُّ حماساً في الكلمة. كما عبَّر أحد الفلاسفة التحليليين البريطانيين (نسيتُ اسمَه) عن ذلك بقوله: «إن الحقيقة التي تضخَّم عندئذ لن تعني أكثر من "**الحقيقة، هتافات عالية**"».

أجد مشكلةً في وضع هذه القضية ورائي، ولكن هذا المدخل النهائي سيقوم بالغرض. تبنَّت كنيستي فكرة أن تقوم بدعاية أمام عنوانها، لذا وضعت في الزاوية العلوية اليسرى لظروفها البريدية اسم الكنيسة مُرْفقاً بعبارة: «الملتزمة بالعدالة الاجتماعية والنمو الروحي». وجدت نفسي تتخيل وهمياً (إلى حدٍّ ما فقط وليس تماماً) تعبيراً بديلاً يقول: «الملتزمة بأن تجعل الناس **حقيقيين**»، لأنه تعبيرٌ جيِّدٌ في نظري لشرح المشروع الديني برمَّته الذي هو: بذل الجهد لأجل التسامي والتفوّق على **الزَّيف**. **وبإمكاننا القول إن المشروعَ الديني كلَّه هو تمكينُ الناس من أن يصبحوا بأكبر قَدْرٍ ممكنٍ قريبين من الحقيقة المطلقة (اللانهائية) لِلّهِ**. ينبغي أن يكون ذلك سهلاً جداً، لأن الله حقيقيٌّ جداً إلى درجة أننا ينبغي أن نستجيب لذلك مثل برادة الحديد التي تنجذب بقوَّةٍ إلى قوَّة شدِّه المغناطيسية. لكن الواقع أن الأمر ليس كذلك، بل هو أمر صعبٌ، لأننا، نحن، غير واقعيِّين إلى درجة كبيرة فليس لدينا الشيء الكثير الذي يمكن لقوَّة السحب الإلهية أن تعمل عليه (تشدَّنا نحوه). ألن يكون مفيداً ومنعشاً أن نُخبِرَ عن عنوان الكنيسة أنها «**ملتزمة بجعل الناس أقل زيفاً وضحالةً**»؟.

عودة إلى بقع حبر رورشاخ

لقد بيَّنْتُ - بأبسط عبارات وطريقة ممكنة - الهيكل المفاهيمي للمفهوم التقليديّ للعالَم. ربما يبدو ذلك بالنسبة لآذان أهل الحداثة شيئاً عتيقاً إن لم يبدُ غامضاً غير مفهومٍ،

كما نجد ذلك في قول «إي أو ويلسون» E. 0. Wilson : «إن جميع الآراء التي قيلت حول العالَم، قبل عصر العلم خاطئةٌ، وخاطئةٌ دائماً». ولكنّي ذكرتُ سابقاً النقطة الحاسمة، وهي أن العلم لم يكتشف شيئاً من الحقائق الموضوعيّة ضد الميتافيزيقيا التقليديّة. إن «ويلسون» لا يذكر شيئاً من أمثال تلك الحقائق لأنه لا يفهم الاختلاف بين علم الكون (الكوزمولوجيا) (حيث يصدق زعمه) والميتافيزيقيا (حيث لا يصدق). يمكن للتصوُّر التقليديّ للعالَم أن يُدْخِل كلَّ شيء اكتشفه العلم في حسابه دون أيِّ تردُّد، لأنه سيوضع بكل ارتياح في مكانه الخاص به في الدائرة الأصغر للشكل رقم ١ (الفصل ١٢) المحتواة في الدائرة الأكبر. هذا لا يترك سوى "أساليب التفكير" بوصفها الشيء الوحيد الذي يحول بيننا وبين العودة من جديد إلى رؤية التصوُّر التقليديّ للعالَم، وأساليب التفكير هذه تأتي وتذهب.

إن زعم ويلسون Wilson، الذي اقتبسناه قبل قليل، خاطئٌ، ولكن هذا وحدَه لا يجعل التصوُّر التقليديّ للعالَم حقّاً. لن يكون هناك تراجعٌ عن خاتمة الفصل السابق، حيث ذكرتُ أن أياً من تصوُّرات العالَم لا يمكن البرهان عليه (علميّاً). بيد أن ثمّة أفكاراً تستحقُّ التأمّل فيها عندما نريد أن نقرِّر أياً من وجهات النظر أو تصوُّرات العالَم نريد أن نعيش به، وسأذكر هنا ثلاثةً منها:

١- هل من الممكن أن يأتي شيءٌ من لا شيء؟ هل من الممكن لِنَبْعٍ أو جدولٍ أن يرتفع أعلى من منبعه؟ حدسيّاً (استناداً لبديهيات العقل) لا يبدو هذا محتملاً قطّ، لكن الرؤية العلميّة تتطلّب أجوبة إيجابيّةً مؤيِّدةً، في حين أن التصوُّر التقليديّ للعالَم لا يتطلّب ذلك. بالنسبة إلى العلم نشأة الحياة من اللاحياة، ونشأة الإحساس والشعور من شيء لا إحساس ولا شعور فيه، ونشأة العقل من فاقد له، كلُّها نماذجٌ لنشأة الأكثر من الأقلّ!.

٢- أشرتُ قبل ثلاثة فصول إلى كتاب «كوليون مك غين» Colion McGinn «اللهب السرّيّ (الغامض)» *The Mysterious Flame* وأريد أن أسأل ثانية: هل هناك أيّ دليلٍ ضدّ فكرة أنّ البشر لديهم ثلاثة استعدادات فطرية، الاستعداد الفطري لمعرفة

الصورة الكبيرة، والاستعداد الفطريّ لتعلّم اللغة وتعلُّم العلم؟. وإذا اعترض أحدهم بإبراز تعدّد مثل تلك الصور الكبيرة - أي الاختلافات في الدِّين من ثقافة إلى أخرى - بوصفها دليلاً ضدّ الاستعداد الفطري الأول، فإنني سأكرّر هنا ما قلتُهُ عدّة مرّات: إنّ التعدّد يأتي إلينا كتنوُّعات لموضوع أساسيٍّ مشترك. وكما كتب «كين ويلدر» Ken Wilder عن مفهوم التصور التقليديّ التسلسلي الهرميّ للعالَم (بالخطوط العريضة التي أوضحتها في هذا الفصل) فقال: إنَّه تصوُّرٌ: «واسع الانتشار بشكلٍ كبيرٍ جداً إلى درجة أنه إما أن يكون الخطأ الفكري الوحيد الأكبر الذي عرفته البشرية في تاريخها - خطأٌ واسع الانتشار إلى درجة مذهلة يصعق لها العقل بكل ما في الكلمة من معنى - أو أنه التفكير الأكثر صحةً ودقةً بالحقيقة الذي ظهر عند الإنسان»

وأضيف إلى هذا، أن هذه الرؤية للحقيقة، تبرز - على الأقل - بوصفها الرؤية التي تتوافق مباشرةً مع المدى الكامل للحَدْس والفهم العقليّ لدى الإنسان. وكما ذكرت المسألة في كتابي (الحقيقة المنسية):

«إن ما جازفتُ بتسميته الإجماع الإنساني - وهي عبارة قد تتجاوز الواقع قليلاً لا كثيراً - الذي تكوَّن حتى عهد قريب، من خلال التاريخ المسجَّل والمتناقل شفهياً، يطرح نفسه بوصفه الرؤيا الطبيعية بالنسبة للموقف الإنساني، لأنها تنسجم مع التكملة التامَّة لمشاعر وإحساسات الإنسان. إنها الرؤية التي تصوَّرها الفلاسفة (بتفكيرهم العقلي)، ورآها الصوفيُّون (بعين بصيرتهم)، وأعلنها الأنبياء».

٣- إننا نفهم بشكلٍ كاملٍ الأشياء الماديّة مثل السيارات لأننا نستطيع أن نصنعها بأنفسنا. أما في الأماكن الأخرى فيصبح "التفسير أو التوضيح" عملاً صعباً. لم يجد الفلاسفة معياراً يحدد متى يمكن للشيء أن يقال عنه أنه شُرِحَ (فُسِّرَ) تفسيراً مقنعاً كافياً.

ويضيف رئيس الأساقفة واللاهوتي «وليم تيمبل»[1] William Temple أن الاقتناع المبحوث عنه يأتي عندما يُظهِر التفسير أننا نجد ما يتمّ تفسيره مطابقاً لما نعتقد أنه يجب أن يكون. إذا سعى شخصٌ ما إلى صنع مصيدةٍ للفئران أفضل من المصائد المتوفِّرة حاليّاً، فإن هدفه مفهومٌ ومحترمٌ ولا نملك إلا أن نتمنّى له التوفيق. ولكن إذا سعى أحدنا إلى صنع مصيدة للفئران أسوأ من الموجود حالياً، فإن مسعاه قد يحتاج إلى تفسير يقدّمه لنا طبيبٌ نفسانيٌّ. إذا نقلنا هذه الاستعارة إلى الميتافيزيقيا، فإن المعنى هو التالي: سواءٌ كان التصوُّر التقليديّ للعالَم حقّاً أم باطلاً فإنّه تصوُّرٌ واضحٌ وقابلٌ للفهم على نحوٍ شفّاف. أمّا التصوُّر العلميّ للعالَم فإنه ليس كذلك، لأنه طالما أقصى العلّة الأولى والنهائية من حسابه مطلقاً، فإنه يضعنا أمام طريقٍ مسدودٍ بشأن أسئلةٍ ليس لديه أي إجابةٍ عنها![2].

---

(١) وليم تمبل William Temple (١٨٨١ – ١٩٤٤) رئيس الأساقفة أو الأسقف الأعظم للكنيسة الأنجليكانية (١٩٤٢ – ١٩٤٤) وأحد الشخصيات البارزة في الحركة المسكونية التي تسعى لتوحيد الكنائس المسيحية، حيث أوفدته الحركة لكثير من المؤتمرات ممثلا عنها. كما كان أحد زعماء حركة الحياة والحرية في بريطانيا. انضم إلى حزب العمال. وشجع على تأسيس المجلس البريطاني للكنائس، والمجلس العالمي للكنائس World Council of Churches. ترك عدة مؤلفات منها: (العقل الخلاّق) (١٩١٧) و(مجموعة مقالاته تحت عنوان: الطبيعة والإنسان والله) (١٩٣٤).

(٢) لعل مثاله يحتاج إلى توضيح: لدينا تصور قديم للعالم يعطينا إجابة عن كل شيء. سواء آمن به العلميون أم لم يؤمنوا، لا يحق لهم أن يطالبونا باستبداله إلا إذا كانوا بصدد إعطائنا تصوراً أفضل منه، أما أن يخترعوا لنا تصوراً أسوأ وأضعف (التصور العلمي المادي القاصر للكون، الذي يترك كثيراً من الأمور بلا إجابة ولاتعليل) فهذا مثالٌ لمن يريد أن يخترع مصيدة فئران أسوأ من المصيدات الموجودة حالياً، ويدعونا لشرائها!؟

الفصل ١٥

أنماط الشخصية الروحية

كنت أعتقد أن أهم الاختلافات الدينية هي الاختلافات بين الأديان التاريخية الكبرى - والتي هي في يومنا: الهندوسية والبوذية واليهودية والمسيحية والإسلام وأشباهها (بما في ذلك الأديان القبائلية بين الأمريكيين الأصليين من الهنود الحمر وغيرهم) - . بيد أنني أصبحت مقتنعاً، بشكل متزايد، أن ثمَّةَ مجموعة من الاختلافات أكثر عمقاً تتقاطع مع تلك الخطوط المؤسَّساتية. في كل مجتمع كبير نجد ملاحدةً يعتقدون أنه لا وجود للَّه ونجد مشركين يؤمنون بآلهة متعددة، وموحِّدين يؤمنون بإلهٍ واحدٍ، وصوفيين يقولون إنه لا يوجد إلا الله وحده.

هذه الطرق الأربعة لتقطيع الكعكة الدينية (إذا جاز التعبير) لا يتم الإفصاح عنها بالطريقة التي يُفصح بها عن العقائد اللاهوتية. أغلبها يمرّ دون ملاحظة، لأنها لا تترك أثرَ مسيرٍ في التاريخ ولا تخلق عناوين بارزة، كما تفعل الأديان عندما يصطدم بعضها ببعض. رغم ذلك فإن الاختلافات بين أنماط الشخصية الروحية الأربعة (كما أسميها) أعمق من الاختلافات اللاهوتية، لأنها متجذِّرةٌ في طبيعة الإنسان، بينما الاختلافات اللاهوتية، لكونها تاريخية، تأتي وتذهب. إن الذي يُحدِّد حدود الأنماط الأربعة هو حجم العالم الذي تشْغَلُهُ كلٌّ منها. إذا بدأنا بالأصغر حجماً، فإن عالم الملحدين لا يشتمل على شيء سوى المادة والتجارب الشخصية للكائنات العُضوية الحية. يُضيف المشركون الأرواح إلى عالَم

النمط السابق، وهذا هو نمط الدين الشعبي الفولكلوريّ، والذي يتشابه تقريباً في جميع أنحاء العالَم. يضع الموحدون كل الكائنات المذكورة أعلاه تحت هيمنة كائن أعلى يَخلق ويُنظم ويقود مسيرة كل شيء. لما لم يبق شيء يُضاف إلى ما سبق، يعود الصوفيون إلى الوراء على ساحة العالَم كلّه ليجدوا الله في كل مكان.

هذه الطريقة لوضع الأشياء يبدو أنها تعطي كل نمط لاحق ميزة على ما يسبقه لأنه يملك عالَماً أكثر ملائمةً للعيش فيه، ولكن كل شيءٍ يعتمد على ما إذا كان للعوالِم الأوسع وجود. بالنسبة للملحدين لا توجد تلك العوالم؛ العوالم الأوسع - في نظرهم - ليست سوى إسقاطات للخيال الإنسانيّ. والأمر نفسه بالنسبة إلى المحطّات الأخرى. فعلى سبيل المثال بالنسبة للمشركين القائلين بآلهة متعددة، فكرة الله الفرد المسؤول عن كلّ شيء قد يوافَقُ عليها ولكن تأثيرها المباشر على حياتهم التي يعيشونها فعلاً ضئيلٌ جداً. إذا تصوّرنا العوالم الأربعة في الطريقة التي خطّطناها في الشكل رقم ٢ في الفصل ١٤، ورسمنا محوراً عمودياً يمتد من مركز الدائرة نحو الأعلى، فيُمكننا أن نُفكِّر بالخطوط التي تفصل المستويات الأربعة للحقيقة كمرايا ذات اتجاه واحد. بالنسبة إلى شخصٍ ينظر من المركز نحو الأعلى، تُمثِّل الخطوطُ مرايا، فالإنسان لا يرى شيئاً فوقها؛ وما يراه عند النظر إليها هو انعكاس الأشياء الموجودة على المستوى الخاص بالشخص الناظر. إلا أنه من الجهة الأخرى، بالنسبة للناظر من الأعلى نحو المركز تمثِّل الخطوط زجاجاً صفيحيّاً. الأشياء التي توجد في المستويات التي تقع تحت الزجاج مرئيةٌ له بنحو كامل. سأطوّر هذا التشبيه في الصفحات التالية، ولكن هنا، في بداية الفصل، دعني أقول إن هذا التشبيه مصمَّمٌ لإنتاج طريقة غير منحازة لرؤية أنماط الشخصية الأربعة بالنسبة لبعضها البعض. كل نمط يمكنه أن يستدل على أن العالَم ينتهي عند الحدّ الذي تقع فيه مرآته الكونية، وأن الأشخاص الذين يضعون أشياء وراء ذلك الحدّ لا يفعلون سوى عرض المعنى النفساني لعالَمهم ذاك. (هذا يتفق مع نتيجة اقتناع الفصل ١٣ بأن العالم غامضٌ دينياً). إلا أنه قبل التوسُّع في هذه الاستعارة، سأضع هذا الفصل في سياق الانشغال الإنساني الأول والدائم: علم الشخصية.

علم الشخصيةً Characterology

يقال لنا: اعرف نمط شخصيتك. وهناك عددٌ لا يحصى من الناس يمضون جزءاً كبيراً من حياتهم في محاولةٍ فعل ذلك بالضبط. في طقوس صحيفة صباح الأحد، ينافس القرّاء الذين يتَّجهون أولاً إلى قراءة طوالعهم، في عددهم، أولئك الذين يلقون أول نظرة على المسلسلات الكارتونية (التي تحكي الطُّرَف المضحكة) أو على الصفحات المالية.

أضف إلى هذا، الاهتمام بأنماط النفس اليونغية[1] الأربعة «التفكير، الشعور، الحدْس، الإحساس (الفهم)»-. فالموضوع ذو جذور عميقة. ومن هذا الباب يدخل التنجيم الذي هو ظاهرة عالميّة عريقة تعود إلى أبعد زمن يمكننا رؤيته، مع ما تم رفده به من أشكال ثقافية مختلفة. «الهند» المهووسة نفسياً لا تملك طريقة واحدة فقط بل ثلاثة طرق متكاملة لتصنيف الناس – تصنيفهم حسب أنواع اليوغا التي يمارسونها (الطريقة الأكثر فعّالية للاقتراب من الله وفهمه)، أو حسب الفارنات varnas التي ينتمون إليها (أي محطاتهم الاجتماعية)، أو حسب غوناتهم gunas (أي ميولهم ونزعاتهم النفسية السائدة).

أما التصنيف الغربي العريق في القدم والأكثر دواماً واستقراراً الذي يعود في تاريخه إلى "أمبادوقليس" و"أبُقْراط" و"جالينوس"، فإنه يربط الأنماط الأربعة للطباع أو الأمزجة الأساسية في الإنسان: [الدمويّ المزاج، وبارد الأعصاب (غير العاطفي الذي لا يستثار بسرعة)، وسريع الغضب، والميلانخولي أو السوداوي النظرة (أي منقبض النفس المتشائم)] بالعناصر الطبيعية الخاصة بكل منها (الهواء والماء والنار والأرض) وبأخلاط الجسم الأربعة (الدمّ والبلغم والصفراء والسوداء). حتى يومنا هذا لا نزال نستعمل بحق الأشخاص غير العاطفيين وباردي الأعصاب كلمة phlegmatic البلغميون (المليئون_بالبلغم)؛ ونسمي الشخص المبتهج بـ sanguine: أي الدموي المزاج (الذي يغلب الدمّ عليه)؛ ونطلق على

---

(١) أي أنماط النفس التي بينها و شرحها عالم التحليل النفسي السويسري **كارل يونغ**

حادّ الطبع سريع الاهتياج اسم choleric أي الصفراوي (من khole اليونانية التي تعني الصفراء)؛ ونستخدم بحق المكتئب المتجهّم كلمة السوداوي melancholic (من *melas* اليونانية التي تعني اللون الأسود، وكلمة: *khole* أي الصفراء، أي خلط الصفراء ذي اللون الأسود).

هدفي في هذا الفصل أن أضيف إلى مخزن العالم من علم "نماذج الشخصية" typologies تقسيماً جديداً يهتمّ اهتماماً رئيسياً بروح الإنسان. سأبيِّن في الفصل التالي والنهائي من هذا الكتاب أن الروح هي الشيء الذي يربطنا مباشرة بالصورة الكبرى، وأن أنماط الشخصية الروحية تتحدَّد بحجم رؤيتها وتصوُّرها للصورة الكبرى. بيَّنتُ في الفصل السابق الصُّوَر الكبرى الأربعة العظمى الرئيسية التي استنبطها الناس من بقع حبر رورشاخ الكونية. إنّ أنماط الشخصية الروحية الأربعة تُعرِّف بالعالم الذي تؤمن بوجوده كل واحدة من تلك الشخصيات.

الانتشار في كل الأمكنة والأزمنة

تظهر الأنماط الأربعة للشخصية الروحية ليس في كل مكان فحسب، بل في كل زمان، لأننا نستطيع أن نجدها في أقدم العصور التي يمكن للمؤرخين أن يصلوا إليها. بدلاً من تعداد الشواهد على هذا الادّعاء (الذي سيكون عملاً مُملاً)، سأقوم ببساطة بذكر الشواهد على وجود النمط في الأماكن التي قد نتوقع أن يكون مفقوداً فيها. في مناقشتي للطرق التي يمكن أن تُقرأ بها بقع الحبر الكونية، أشرتُ إلى أنّ المجتمعات القبليّة، التي نتوقَّعُ أن نجد فيها تماثلاً كاملاً في النظرة، نجد أن الأمر ليس كذلك، وأن ملحد القرية لا يزال يطل علينا برأسه!. وفي الطرف الآخر للطيف الدنيوي، قد نفترض أنّ الحداثة تعتبر الإيمان بتعدد الآلهة أمراً خرافياً، لكن الأمر ليس كذلك، والحكاية التالية تكشف هذه الحقيقة.

عندما زار الدكتور «روبرت غريف» Robert Graves معهد ماساتشوسيت للتكنولوجيا (م م ت) لمدة ثلاثة أسابيع، دُعِيَتْ الأقسام لاستضافته في وجبات العشاء،

وسررنا نحن أساتذة الفلسفة بتلك الفرصة، وعندما انتهينا من الطعام، أشعل «غريف» سيجاره، واسترخى مائلاً على كرسيه ثم خاطبنا مباشرةً قائلاً: «ماذا لديكم أيها السادة المحترمون ضدّ الإيمان بوجود الأرواح؟». اعتقدت أن رئيس قسمنا سيغشى عليه قبل أن يستعيد أنفاسه ويحوّل مجرى الحديث فوراً إلى الكلام عن الشعر اللطيف لـ «غريف»!.

لقد كان مفاجئاً أن نجد مؤيّدين لوجود الأرواح التي لا جسم لها، في اجتماع لأساتذة كلية من كليات (م م ت) - أما الطلاب فهم مجتمع آخر - إلا أنني سبق وأشرت عند حديثي عن «حركة العصر الحديث» إلى ظهور الآلهة والآلهات في كل مكان من أفكارها. توحيد الله غائبٌ رسمياً في البوذية المبكّرة والجنوبية - أقول رسمياً لأنني وجدت سائقي سيارات أجرة في سريلانكا يتوقفون قبل الشروع في قيادة سياراتهم إلى مشاوير طويلة ليشعلوا مجموعة من الأعواد أمام تماثيل للبوذا، لكنّ التوحيد يدخل بشكل جارف في بوذية الماهايانا Mahayana.

في أيام دراستي الجامعية العليا كان عليّ أن أفتّش عن التصوف mysticism في الأديان الإبراهيمية التوحيدية جدا، لكن اليوم أولئك الذين لم يعودوا يبرزون أي اهتمام بالدين يستثنون من ذلك اهتمامهم بالصوفيين mystics. هنا نلاحظ الاحترام البالغ الذين يوليه أمثال هؤلاء لشخص مثل الشاعر الصوفي الشهير **جلال الدين الرومي**. بالمناسبة نحن نمتلك جميعاً كلّ الأنماط الأربعة للشخصية الروحية بداخلنا؛ الاختلاف بيننا هو في الدرجة فقط. بعد أن انتهينا من التفتيش عن وجود تلك الأنماط، نأتي الآن إلى بحث الأنماط بحد ذاتها.

الملحد: ليس ثمّةَ 'الله'

الإلحاد Atheism ، كما يدل عليه اسمه، موقف سالبٌ (أي يتضمن نفياً). ففي اللغة اليونانية البادئة a تعني إنكاراً ونفياً لما بعدها، فمثلاً كلمة gnostic (العارف) تعني الذي يعلم، وكلمة agnostic (اللاأدري) تعني الذي لا يعلم.

ومن المهم أن نوضح أنه في علم دراسة أنماط الشخصية typology الحالي، السلب أو النفي يتعلّقان فقط بجحود تلك التصوّرات للعالم التي تُدْخِل "الله" في رؤيتها. وليس لهذا الموقف السالب أي علاقة بموقف الملحد من الحياة (والذي يبدو إيجابياً مثله مثل موقف أصحاب النظرات الأخرى) كما لا علاقة له بأي سمات شخصية معينة أخرى من أي نوع كانت. وهذا من الضروري أن يُذكر بشكلٍ واضحٍ، لأن ذكر كلمة الإلحاد Atheism يستدعي أحكاماً نابعةً من العواطف والاعتقادات والمشاعر لا أحكاما عقليةً صحيحةً، سواء كانت تلك الأحكام سلبيّة أم إيجابيّة، بالطريقة التي تستجرّ فيها الجثّةُ الذبابَ إليها.

في الفترة المكارثية[1] the McCarthy era عندما كانت الحرب الباردة في ذروتها، رُبطَ الإلحادُ بالشيوعية ربطاً وثيقاً إلى درجة أن الكلمتين أصبحتا مترادفتين وكأنهما كلمة واحدة. اليوم يحدث شيء معاكس. الاسم السيّئ الذي أعطته الحداثة للدِّين نقل الفضائل (في ثقافة المعرفة) من جانب الإيمان بالله إلى جانب الإلحاد. يقول «ألبير كامو» Albert Camus مدافعاً عن إلحاده وداعماً له، أنه منذ فترة مبكّرة من حياته، عقد العزم على أن يعيش بلا كذبٍ، وهو كلامٌ يلزم عنه بنحوٍ ضمنيٍّ أن المتدينين يعيشون بالأكاذيب. وفي نفس هذا الاتجاه يقول آينشتاين «إنّ على المعلّمين، في كدحهم نحو الخير الأخلاقي، أن يكون لديهم المكانة الرفيعة للتخلي عن الله الشخصي!».

إن المزيَّة الرئيسيّة لعلم الشخصية Typology الذي أطرحه، هي أنه يتجنّب كل نوع من أنواع الأحكام العاطفية أو الشخصية الأهوائية المعينة من أي نوع كان، ويقف حصراً عند حدود الصورة الكلية التي تدين بها الشخصية. وفي هذا الإطار فإن عالَمَ الملحدين يتوقف تماماً عند الدائرة الصغرى في الشكل ٢ في الفصل ١٤، مع اعتبار الإحساس والشعور مجرَّد ظاهرة مصاحبة epiphenomenon للكائنات العضوية الحيَّة. كل ما يوجد فعلاً - في تصوّره - هو الكون المادي كما يراه ويحدّده العلم وكما يراه الإنسان

---

(١) فترة في الخمسينات من القرن الماضي في أمريكا تميّزت بانتشار هاجس التخوّف من الشيوعية والعداء لها واتهمت خلالها عدة شخصيات حكومية بالميل للشيوعية وتمت إقالتهم ثم تبين أن التهمة كانت غير صادقة.

بحواسه العادية . وهو يتلخّص بخمسة عشر بليوناً من السنوات الضوئية من المادة الميّتة يضاف إليها التجارب الشخصية للكائنات العضوية الحية .

المشرك: ثمّةَ آلهةٌ عديدةٌ

عالَمُ المشركين هو "هذا_العالم" بكلّ ما يحتوي عليه حسب الرؤية التقليديّة له . في الرؤية التقليديّة يزخر "هذا_العالم" بآلهة ، وأرواح ، وكائنات لاجسمية (كالملائكة والشياطين . .) بنحوٍ أكيدٍ ومسلَّم به تماماً كاليقين بوجود الطاولات والكراسي فيه . إنها موجوداتٌ حقيقيّةٌ تماماً ، كما أنها عديدةٌ بالتأكيد . قبل قَرْن أو قَرْنين فقط كان الناس يؤمنون بالملائكة والشياطين وأرواح القدّيسين الشُفعاء ويعتقدون بأنهم موجودون في كل مكان ، وأنهم يتدخّلون بنحوٍ نشيطٍ في الحياة الإنسانية . أما اليوم ، فعندما نتكلّم عن السحرة والساحرات ، وعفاريت الغابة والحوريات والأشباح والجنّ و"الناس الصغار" الآيرلنديين ، فإننا نفترض أننا نتكلم عن فولكلور شعبي فحسب . فيما مضى ، كانت تلك الأمور في قلب الدين الشعبي . يتعامل (السحرة) الشامانيون مع الأرواح بشكل مباشر ، مثلما يعمل الوسطاء مع أدلائهم الغامضين و"وسائل التحكم لديهم" . لم يكن الإيمان بمثل هذه الأرواح محصوراً في الطبقات الدنيا فقط . في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، كان البلاط الملكي الروسي زاخراً بالأرواحية ؛ وفي عهدٍ سابقٍ جداً كان لدى سقراط شيطانه الذي يغريه ويدعوه إلى الأمور التي لا ينبغي عليه عملها (ولا ينصحه أبداً بما يجب فعله) .

الأرواح ليست خيِّرة بالضرورة . في القرية الصينية التي نشأتُ فيها كانت الأرواح الشرِّيرة هي السائدة ؛ في الواقع كان تفاديها وإبعاد شرّها يبدو كأنه دين البلدة الفعّال . كانت توضع الزجاجات على مداخل البيوت مع توجيه فوهاتها إلى الخارج لخداع الأرواح بجعلها تحسبُ الزجاجات مدافع . كل هذه المظاهر اختفت مع سيطرة الشيوعية المدمنة للعلم ، ولكن الغريب أنّ نُصْب البلدة الرئيسي للأرواح الشريرة مازال باقياً ، وفيما يلي قصته : في القرن التاسع عشر ، اجتاح الطاعون البلدة ، وقرّر العرّافون أن سبب ذلك هو الأرواح

الشريرة التي اجتاحت القرية من خلال بوابة المدينة الغربية. واستجاب كبار أهل القرية ببناء مَجْثَم (مربض)، وهيكل (معبد صيني متعدد الأدوار) محكم السد (لا يمكن النفاذ من خلال جدرانه) قرب تلك البوابة. قبل الانتهاء من بناء حائطه الأخير، كلَّفَ رجالُ القرية الكهنةَ الطاويين بإغراء الأرواح بدخول هذا المبنى، حيث افتُرِض أنه عندما اكتمل بناء الجدار النهائي ستبقى الأرواح الشريرة حبيسة ضمن ذلك المعبد. لقد وجدتُ الأمرَ مُثيراً للاهتمام أنه على الرغم من كل كلام الشيوعيين حول استئصال الخُرافة، تركوا ذلك البناء واقفاً. لقد أثار شكّي بأنه في مكان ما في التراجعات النفسية الصينية بقيت آثار وبصمات من الاعتقاد بالآلهة لم تستأصلها الشيوعية. وكأن لسان حال أهل القرية يقول: من يدري؟ دعنا نكون في أمان أفضل من أن نندم بعد ذلك!، لذا من الحكمة أن نترك هذا البناء وشأنه.

الأرواح عادةً غير مرئية. أما الملائكة فإنها في التقليد الإبراهيمي (أي الأديان السماوية الثلاثة) تظهر نفسها أحياناً - يستخدم جبرائيل تلك الموهبة بنحوٍ متكرِّر -، ولكن الموهبة بحد ذاتها غير عادية. يدلُّ الخفاء عادةً على اللامادية، ولكن ليس كلياً هنا، لأن الإحالة إلى أرواح ذات أجساد أمرٌ واسع الانتشار أيضاً. ونذكر مثالين فقط: في بوذية الماهايانا عندنا الأجسام الثلاثة كاياس kayas لبوذا، و واحد منها فقط كان بروتوبلازمياً (وهو جسم سيدهارتا غوتاما في تجسداته الأرضية)؛ وفي المسيحية عندنا جسم المسيح المُمَجَّد، الذي - عقب قيامته - كان يَعْبُرُ الأبواب المغلقة قبل أن يرتفع إلى السماء.

وخلاصة الكلام أن الكائنات اللاجسمية مستثناة من المادة بشكلها الفاقع الجسيم ومن البنية التي تحكم المادَّة، أعني الحيِّز والزمان والمادة. الأشباح تخترق الجدران على النحو الذي تتحرك فيه أشعة الليزر خلال صفائح الرصاص، ويُقال إن الملائكة يغيرون مكانهم بمجرد رغبتهم بذلك بكل بساطة. يُفْتَرَضُ أن الكهنةَ الطاويين الذي سجنوا الأرواح الشريرة في ذلك المعبد في مسقط رأسي، قد تمكنوا من سلبها من تلك الموهبة، وإلا لما استفادوا من سجنها لأنها ستخترق جدران المعبد وتفرّ منه، ولعل قائلاً يقول يكفي هذا الهراء!!؛ والواقع إن المنطق لا فائدة منه في عالم الروح. ورغم ذلك فإن هناك حقيقةً واحدةً مسلَّمةً

بشكلٍ صريح: لا نستطيع أن نفترض أن الكائنات اللاجسمية، كطبقة وصنف من الكائنات، ترى الأشياء بنحو أوضح مما نراه، أو أنها مُحْسِنَةٌ أو سعيدةٌ أكثر منا. وهنا نتذكر الأرواح الجائعة وكائنات الجحيم في حقول الوجود الستة في البوذية.

إذا أخذنا عالم المشرك كما وضعنا خطوطه العريضة، وتساءلنا ماذا يحدث عندما يصطدم بالعلم؟، لا يحدث في الحقيقة إلا شيء ضئيل. هناك مقولةٌ بأنه عندما يفتح الشيطان الحصن لا يهتم إلا نادراً بتغيير العَلَم، وهذه المقولة تنطبق هنا بنحوٍ كامل، لم يعد العصريُون يتّجهون نحو الأرواح لأجل الشفاء ولأجل استمطار المطر، بعد أن أثبتت التكنولوجيا أنها أكثر ثقةً وأهليّةً للاعتماد عليها في تلك الأصعدة. ولكن هذا لا يعني موت الاعتقاد بتعدد الآلهة، وذلك لأنه لا يزال هناك أشياء أكثر بالنسبة للقائلين بتعدد الآلهة من الاهتمام بالتكنولوجيا الساحرة.

إنَّ الأمر الذي يجعل الناس مشركين، جذرياً، هو رفضهم القبول بالشيء البديهي الظاهر. إذا أردنا التعبير عن المسألة بشكلٍ ايجابيٍّ، قلنا إنه يوجد لدى المعتقدين بآلهة متعددة تطلُّعٌ يتعذَّرُ كبتُهُ إلى شيء أكثر من الوجود الدنيوي. عندما لا يحتاجون إلى "الأكثر" لمساعدتهم في حاجتهم المادية الطبيعية ينحرفون نحو الإيمان بالأرواح. يلاحظ الساحر البارع «ماغنوس ايسنغريم» Magnus Eisengrim في آخر روايات «روبنسون ديفيز» Robinson Davies: «أن الناس يبحثون عن شيء يتعجّبون منه. وأن الروح الكاملة في زمننا لن تدعهم يفعلون ذلك. لقد علَّمْنا أنفسنا عالماً تمّ فيه طرد وإبعاد كلّ تساؤل و تعجّب كما طُرِدَ فيه كلّ فزع وعظمة وحرية في التساؤل والتعجُّب».

المؤمنون بآلهة متعددة يعترضون على هذا الطرد والإبعاد. ولاحظ ما يلي:

- إن الافتتان بالأمور الخارقة للطبيعة مستمرٌ حتى يومنا هذا بدون أي تخفيف، مما يجعل حتى الذين يرفضون الأرواح جملةً وتفصيلاً يعترفون أن الاهتمام بها ربما يكون أمراً فطرياً راسخاً في أعماق بنية الإنسان. كل إنسان يحبّ قصّة الشبح - أي قصة الشبّح الخيِّر أو الحكاية القوطية التي تقشعر لها الأبدان وترتعد لها فرائص

الإنسان. قصص الخيال العلمي ليست سوى آخر فصل من هذا النمط من الحكايات.

- حتى في الغرب الحديث، هناك نسبة كبيرة من الناس، يدخل هذا الافتتان بشكل خفي إلى عقيدتها. كم من زملائنا الذين يقدمون أنفسهم في عالم العمل اليومي كأشخاص جادّين لا يؤمنون إلا بالأمور الأساسية، لديهم قصصٌ مباشرة (أي شهدوها مباشرة ولم يسمعوها من أحد) يخفونها جيّداً عن الأنظار، لأنها قريبة من الأمور الخارقة للطبيعة؟ حاول أن تمسك بهم بعيداً عن أنظار المراقبين وستجد أن عندهم قصصهم أيضاً.

- أحد الأمور الجذابة في علم النفس اليونغي أنه يسمح للناس بتدليل ميولهم الشركية مع بقائهم محترمين ثقافياً. إنها تفعل ذلك عبر ازدراع الآلهة والآلهات من العالم الخارجي إلى اللاوعي الجماعي. وقد وضع زميلي اليونغي في جامعة سيراكيوز، «ديفيد ميللر» David Miller، وجهة النظر هذه في كتاب أسماه «الشرك الجديد» The New Polytheism.

- يوجد المشركون ضمن الكنائس المؤسسة (التي تدين بوحدانية الله على نحوٍ ثابتٍ ودائمٍ تقريباً) كما يوجدون خارجها. تزوِّدنا دراسات علم الاجتماع للدِّين في القرى الصغيرة في جنوب إيطاليا بمثال نموذجي. الناس في تلك القرى يرون أنفسهم بكل ثقة كاثوليكيين جيِّدين، ولكن عملياً، بالنسبة إلى الأمور التي يهتمون بها أكثر، نجد أن كاثوليكيّتهم تدور أكثر حول الأيقونات والقدِّيسين الشفعاء المحليين أكثر مما تدور حول «الله الثالوثي»، الذي يبدو بعيداً بالمقارنة مع الأيقونات والشفعاء. إن الذي يفرِّق - في النهاية - المشركين عن الموحِّدين، ليس موقفهما من المؤسسات الدينية، بل هو (كما قلت سابقاً) فرق في الطبع و المزاج، الذي أعالجه الآن من زاوية مختلفة. إنّ المشرك يهتمّ بما وراء الطبيعي لا لأجل ذاته، بل لارتباطاته بهذا العالم. ويعمل عقل المشرك على نحو أقل تجرُّداً و أكثر ميلاً إلى

المحسوس العيني. إذا كان للكائن الغيبي من تأثير على حياته، فيجب أن يكون تأثيره هذا واضحاً ملموساً ومحسوساً.

- سأذكر مثالاً واحداً فقط وأكتفي به لأنه طويل من جهة ولأنه حيوي واضح بما يكفي وحده لإثبات هذه النقطة. إنه من «مايكل أونداج» Michael Ondaatje المريض الإنجليزي. الزمن هو الحرب العالمية الثانية، الحلفاء يحرّرون إيطاليا شبراً شبراً. بالنسبة إلى الذين لا يعرفون معنى فرقة المهندس العسكري الخبير بالألغام الأرضية، فإنها تشير إلى تلك الكشافة المتقدّمة التي كان يقع على عاتقها المهمة الخطيرة جداً لاكتشاف الألغام الأرضية وتفكيكها.

عندما وصل الجيش الثامن (الإنجليزي) إلى مدينة «غابيس» Gabicce على الساحل الشرقي لإيطاليا، كان الضابط الخبير بالألغام على رأس دورية ليليّة. في الليلة الثانية استلم إشارةً على الموجة القصيرة تفيد بأن هناك تحركاً للعدو في الماء. وجّهت الدورية قذيفة متفجِّرة إلى الماء الذي انفجر بشدَّة، كطلقة تحذير. لم يضربوا أيّ شيء، لكن في الرذاذ الأبيض للانفجار التقط الضابط الخطوط العريضة الباهتة للحركة. رفع البندقية وأبقى الظلال المتحركة تحت نظره، وقرر أن لا يطلق الرصاص، حتى يرى إذا كانت هناك حركة أخرى في مكان قريب، حيث كان العدو لا يزال مخيّماً فوق في الشمال، في "ريميني" Rimini، على مشارف المدينة. وقع الظل تحت بصره عندما أنارت هالة حول **رأس تمثال مريم العذراء** الذي كان يخرج من البحر. كان تمثال مريم العذراء واقفاً في زورقٍ يقوده رجلان يجدِّفان، بينما كان رجلان آخران يمسكان بالتمثال. وعندما وصل الزورق إلى الشاطئ بدأ أهل البلدة بالتصفيق من نوافذهم المظلمة والمفتوحة.

كان الضابط الأخصائي بنزع الألغام يشاهد وجهاً ذا لونٍ أبيض مائلٍ للصفرة وهالة أنوار بطارية صغيرة. كان مستلقياً على قلعة خراسانية صغيرة منخفضة، بين البلدة والبحر، يراقب تمثال العذراء، عندما ترجل الرجال الأربعة من الزورق حاملين على أكتافهم التمثال المصنوع من الجصّ، الذي يبلغ طوله خمسة أقدام. سار الرجال الأربعة على الشاطئ دون

توقف أو استراحة، ودون أي تردد وخوف من وجود ألغام. ربما كانوا قد رأوا تلك الألغام تُزرَع وعرفوا أماكنها عندما كان الألمان هنالك. كانت أقدامهم تغرز في الرمل. كان ذلك في بحر «غابيس» Gabicce في ٢٩ من أيار/ مايو ١٩٤٤ يوم المهرجان البحري لمريم العذراء!.

كان الكبار والصغار في الشوارع. وظهر الرجال أيضاً في أزياء الفرقة الرسمية. لم تكن الفرقة تعزف احتراماً لقانون حظر التجوّل، ولكن الآلات كانت لا تزال جزءاً من مراسم الاحتفال، ملمَّعةً ومصقولةً بأفضل ما يمكن.

لم يكن أولئك الأشخاص أُناساً رومانسيين. لقد كانوا من الذين نجوا من الفاشيين، والإنجليز والغوليين، والقوطيين والجرمان. وبعد أن أُخرِج من البحر، وُضِعَ ذلك التمثال الجصي الأزرق والأبيض المائل للصفرة في شاحنة عنَبٍ مليئة بالزهور، **في حين مشى أهالي القرية أمام التمثال بصمت وإجلال.**

ولقد واجهتُ مرةً عرضاً يشابه في تركيزه على أهميَّة تمثال هذا العرض الذي وصفته للتوّ. كنتُ قد وصلتُ إلى فندق في بومباي (المدينة الكبيرة في غرب الهند) للتوّ، وكان من الواضح أن ثمة شيئاً استثنائياً يحدث، وعندما سألت عما يجري أخبروني أنه عند منتصف الليل ستجري المراسم الاحتفالية السنوية لإزاحة الستار عن الإلهة الرئيسة لمعبدٍ على مقربة من الفندق، وهو طقس سيدوم تلك الليلة بأكملها حتى الصباح. وفي المعبد نفسه علمتُ بالتفاصيل. رغم أنه سيكون بركةً على الإنسان الذي يكون موجوداً في أي مكان في المعبد ليلَتَها، إلا أن أولئك الذين سيكونون على خط مباشر لرؤية الإلهة التي سيُكْشَفُ الستار عنها، سينالون بركتها الخاصة (دارشان) *darshan* - أي النفحة الروحية التي تأتي من الوجود في حضور المقدَّس - و هو أمرٌ سيضمن للإنسان سنةً تاليةً مباركةً على نحو خاص.

ورجعت إلى فندقي وأنا سعيد لحظي في الوصول في الوقت المناسب، ثمَّ حوالي الساعة العاشرة مساء غادرتُ غرفتي متجهاً نحو المعبد. وقلت لنفسي إنني أفعل ذلك

بوصفي عالم إنسانيات دينيّ، ولكن كان يمكنني أن ألمس شيئاً من حسّ المُشرك يتحرك في مكان ما بداخلي. كنت أريد البركة أنا أيضاً.

اعتقدتُ أن ساعتين قبل الحدث يكفيان لضمان وجودي في مكان مناسب في المعبد، ولكنني سرعان ما أدركتُ أن غيابي لسنوات طويلة عن الهند أنساني ما هي الهند! . بمجرد أن خرجت خارج الفندق وجدت نفسي وسط تيار من الناس كبحر متلاطم الأمواج يتحرك نحو المعبد، وكانت كثافة الناس تزداد كلما اقتربنا من المعبد فما أن أصبحنا على مرأى منه حتى وجدت نفسي معصوراً بإحكام بين الناس إلى درجة أنني رُفعت فوق الشارع. وتذكرتُ لحظتها التقارير الصحفية عن المهرجانات الرئيسية الدينية في الهند التي تَذكُر دائماً عدداً من الأشخاص يُسحقون دهساً حتى الموت. وخشيتُ أن ألقى نفس المصير، لكن خوفي تبدَّد عندما مدَّ شخصٌ يده إليّ واستطاع سحبي بطريقة ما خارج الاندفاع الهستيري للغوغاء. وقادني خلال عدة ممرات إلى الجانب الأبعد للمعبد حيث وجدت نفسي أجلس على سطح منزل يُشرف مباشرةً على الإلهة المغطاة والمحجوبة. هناك جلسنا في صمت (لم يكن صاحبي يتكلم الإنجليزية) منتظرين عيد الظهور عندما دقَّت الساعة الثانية عشر، بدأت عمليَّة إزالة الحجاب، ولا أذكر أن السنة التي تلت لم تكن مباركة لي! .

مبدأ المرايا أحادية الاتجاه

في نصف طريق وصف الأنماط الروحية الأربعة، يبدو الوقت مناسباً لالتقاط الأنفاس وإعادة توضيح مبدأ المرايا أحادية الاتجاه، الذي استبقتُ الكلام عنه في الصفحات الأولى لهذا الفصل. والشرك يوصلنا بشكلٍ ممتاز إلى هذا الموضوع لأن (الله) التوحيد (كما ذكرت سابقا) غالباً ما يحضر في خلفية عالم المشرك.

يؤمن المشرك بوجود كلّ الأشياء التي يؤمن الملحد بوجودها، ويضيف عليها وجود الأرواح. كما لو أنّ المشرك يقول للملحد: «أرى كلّ شيء تخبرني أنك تراه. والذي يفرق بيننا هو فقط ما أراه أنا ولا تراه أنت». وهو ما يردُّ عليه الملحد فيقول: «تعني ما تعتقد أنّك

تراه»، وذلك لأنه إضافات المشرك، بالنسبة إلى الملحد، لا تعدو خرافات من نسج خياله. كلّ النزاعات بين الأنماط الأربعة تأخذ هذا الشكل، وقد طرحتُ استعارة المرآة أحاديَّة الاتجاه للمساعدة على فهم النزاعات بينها.

عندما ينظر الملحد إلى الأعلى باتجاه السماء، لا يرى سوى صور معكوسة في المرآة للأشياء الموجودة في عالمه. أما الأرواح التي يضعها المشرك في جانبه الأبعد، فإن الملحد يرفضها بوصفها تصورات ولَّدتها الصراعات غير المحلولة لدى الأفراد والمجتمع أو بعبارة أخرى أوهام بصرية_اجتماعية.

ومن جهة أخرى فعندما ينظر المشرك والموحِّد والصوفيّ إلى الأسفل، فإنهم لا يشاهدون مرايا بل ألواحاً زجاجيّةً. بل الأحرى أنّهم يشاهدون فقط الأشياء التي في الجانب الأبعد من الزجاج لأن الزجاج نفسه غير مرئي. وأكرِّر: إن الذين ينظرون إلى الأسفل يشاهدون ما يوجد على الطرفين في حين أن الذين ينظرون إلى الأعلى لا يشاهدون إلا ما يوجد في طرفهم أي في الأسفل.

هذا الاختلاف يتكرَّر عند كلِّ حدود ميتافيزيقية. الموحدون لا ينكرون بالطبع وجود الأرواح التي يؤمن بوجودها المشركون، كل ما يفعله الموحِّدون هو أنهم يعمِّدونها (أي يطابقونها مع العقيدة المسيحية)، فيحوِّلونها إلى ملائكة وشياطين.

يتضمّن كلّ مستوى متعاقب كل ما يوجد في المستويات التي تسبقه ويضعها في مشهد بانوراميّ أوسع وأكبر. والخلاصة أن أنماط الشخصية الروحية تتناسب مع الكميَّة التي يدركها ويراها كل نمط.

الموحِّد: ثمَّةَ إلهٌ واحدٌ

كثيراً ما يتحدّث علماء الإنسان (الآنثروبولوجيون) عن التباين بين التقاليد الكُبرى العظيمة والتقاليد الصغيرة. التقاليد الكبرى العظيمة هي الأديان التاريخيّة المؤسساتية التي تُشكِّل الأعمدة الفقرية للحضارات ـ كالإسلام في الشرق الأوسط، والهندوسية في

الهند، . . الخ - وهي أديان توحيدية بشكل رئيسي. ولكنها مُحاطة دائماً بتقاليد صغيرة مُعاكسة لها من عدة نواحٍ. التقاليد الصغيرة ليس لها تاريخ. ليس لها معابد أو أبنية مؤسَّسة. وتتمركز نمطياً في زعيم مؤثِّر (كاريزمي) يظهر كما لو أن عنده قوى رائعة، وبشكلٍ عام لديه صعوبة بمواصلتها لمدة أطول (النساء واضحات في التقاليد الصغيرة، وهذا شيء آخر تختلف فيه عن التقاليد العظيمة الأخرى). إننا مدعوُّون للتفكير بأشجار بلوط أحاطت بقاعدتها نباتات فطرية، وفي الواقع مؤقتيَّة (أي عدم دوام) وسرعة زوال التقاليد الصغيرة جعلتها تسمى «الطوائف الفطرية» Mushroom Sects.

بما أننا تحدَّثنا بالتفصيل عن الشرك فيما سبق، فقد حان الآن دور الحديث عن التوحيد. ويمكن للمعالجة أن تكون مختصرة لأن إله الموحدين الشخصي والقابل للمعرفة (الكافي لأهدافنا) تم وصفه في الفصل السابق. هذا يفسح لنا المجال هنا للحديث عن علاقة الموحِّد بذلك «الله». من الواضح تماماً الذي لا يختلف فيه اثنان أنها علاقة شخصية حميمة وعميقة؛ ليس لدى الموحّدين أية مشكلة في التفكير بالله على أنه يتَّصف بأرفع وأسمى الصفات التي تتمثَّل وتنعكس في الإنسان: الحكمة، الحنان، الشفقة، الرحمة، الإبداع، الحيويَّة، الحبّ، وما شابهها، والتي تُرفع إلى أعلى درجة لتبلغ في الله ذروة المجد. وتأخذ صفة **المحبَّة** Love مكاناً خاصاً ومتميِّزاً بين كل تلك الصفات. في اصطلاحات الأنواع الأربعة لليوغا في الهندوسية، تعتبر البهاكتي يوغا bhakti yoga (أي يوغا الحب والتبتل والانقطاع إلى الله) والكارما يوغا karma yoga (أي يوغا تكريس أعمال الحياة كلها لله) الطريقين الطبيعيين للوصول إلى «إيشوارا» Ishwara أو «بهاغافان» Bhagavan الاسمين البارزين للّه الشخصيّ في ذلك التقليد. حبّ كريشنا للـ«غوبيس» gopis (قطعان الأبقار)، الذي تم التعبير عنه بشكل مفعم بالعاطفة والحماس يحدّد اتجاه ولحن ذلك التقليد. سمعتُ مرّةً، في مدينة "فريندابان" Vrindaban مسقط رأس كريشنا ومركز طائفة «السريكيتانيا هان كريشنا» Sri Caitanya Han Krishna sect، محاضرةً قدّمت «**الحبّ المحظور**» بوصفه النموذج الأعلى لحبّنا اللهَ. في البداية صُعِقْتُ من هذا التعبير إلى أن أعادتني براهين المحاضر

إلى صوابي. نبّهنا أولاً أن التصنيفات الأخلاقية لا تُطَبّق في موضوع محبّة الله، ثمّ أوضح أنّ السمة في «الحبّ المحظور» التي يجب أن تكون مركزيّةً في حبّنا للّه هي صفته **العنيدة المستبدّة التي لا مساومة فيها**: إن الحب المحظور – لا يذهب الذهن إلى المغامرة الجنسية فالمقصود الحبّ الفعليّ – **حبٌّ عفويٌ غير معقّد، لذا فهو حبٌّ عارمٌ ينبع من أعماق القلب**. وهو مغايرٌ دائماً للحبّ الناشئ من الزواج والذي يكون مترافقاً بالتزامات إقامة أود الأسرة والبقاء وفيّاً للزوجة بعد أن أضعف مرور الزمن بريق الجدّة في ذلك الحب، وهكذا.. وسواء كان ذلك الحب بلا مقابل (من طرف واحد) أم لا، فإن الحب المحظور – وأذكّر ثانية أنه ليس تلك الرغبة الجنسية الفظّة – ليس بشيء إن لم يكن رومانسياً. إننا نتكلم عن الولَه والعشق والكَلَف بالله وأن نكون غارقين متيّمين بحبّه. يجب أن يتمتّع حبُّنا للّه بالقوّة العاطفيّة نفسها التي تميّز قصص العشق الشهيرة. يفكّر أحدنا بقصة دانتي وبيتريس Dante and Beatrice، وقصة جلال الدين الرومي وشمس التبريزي[١].

الأخلاق تأتي لازمةً ونتيجةً طبيعيّة للحبّ العاطفيّ العارم عندما يتجه هذا الحبّ إلى الله الخالق الذي «يملك العالم كله بيديه». الله يحب مخلوقاته التي خلقها كما لو كانت أولاده، لذا إذا أحببنا الله فإننا سنحب محبوبيه أيضاً[٢]. الأخلاق غائبة في الأديان الوثنيّة. ولكنها لازمة أصيلة لا يمكن فصلها عن الأديان التوحيدية. سبق في إحدى المناسبات أن ذكرت أن فكرة الله الشخصيّ أصبحت تخلقُ اليومَ مشكلةً لدى عقول العديدِ من الناس

---

(١) كان شمس الدين التبريزي الشيخ الذي اهتدى جلال الدين الرومي على يديه إلى طريق التصوف في قونية فأحبه جلال الدين حبّاً جمّاً ملك عليه كل جوانحه، فلما ذهب الشيخ التبريزي إلى دمشق ولم يعد، برح فؤاد الرومي شوقاً ولهفاً وحسرة وحنيناً إلى شيخه ونظم في ذلك ديواناً شعرياً ضخماً عرف باسم غزليات شمس التبريزي، يعتبر من أغنى وأروع دواوين العشق والوله والهيام والغزل الإنساني.

(٢) يذكّرني هذا بالحديث النبوي الشريف ((الخلق عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله)) وروي أن رجلاً سأل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: ((يا رسول الله! أي الناس أحب إلى الله؟ فقال: أحبّ الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله عز وجلّ سرورٌ تدخله على قلب مسلم، تكشف عنه كربة أو تقضي عنه ديناً أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخٍ في حاجةٍ أحبُّ إليَّ من أن أعتكف في هذا المسجد شهراً..)).

أكثر مما كانت تفعل من قبل، لذا سأخصِّص باقي هذا المقطع إلى عدّة لمحات حول ذلك المفهوم عندما يتجلّى على مستوى التطبيق العملي:

- الروائية «آن لاموت» Anne Lamott تقول إنّ دعاءها المفضّل هو: «ساعدني ساعدني ساعدني» و«شكراً، شكراً، شكراً لك».
- كتب الكاهن الأسقفي «مالكولم بويد» Malcolm Boyd كتاباً عنوانه: «هل أنت تعمل معي يا يسوع؟» لقد تفاجأت بأن أجد هذا التضرع نفسه يقذف إلى ذهني كلما وجدت نفسي في همٍّ ونصَب.
- قبل بضع سنوات عندما كانت الأكاديمية الأمريكية للدِّين تعقد اجتماعها في «نيو أورلينز» New Orleans أخذتُ إجازةً في إحدى الليالي لأقوم بزيارة قاعة تاريخيّة محميَّة، تمثِّل أحد المعالم ذات الجذب السياحي في المنطقة، وقد كانت منزل فرقة من سكان المناطق الجنوبية من الولايات المتحدة الأمريكية تجمَّعت حول عازفة بيانو تعرف باسم (سويت إمّا) Sweet Emma. تعرَّضت «سويت إمّا» لجلطة دماغية وهي تعزف على البيانو فاستمرَّت بالعزف بيدها اليسرى في حين شُلَّت ذراعها اليمنى وتدلَّت وسقطت من على كتفها. كان هناك غرفةُ وقوف فقط، فوقفنا. والجزء الذي انحفر في ذاكرتي من البرنامج بشكل عميقٍ جداً كان هذا الشعر الروحيّ:

أوه! [1] لأجل سيرٍ أقرب معك،	O for a closer walk with Thee
يسوع امنحني ذلك من فضلك؛	Jesus, grant it If you please;
السير يومياً قريباً منك:	Daily walking close to Thee:
دع ذلك يكُنْ، ربّ، دعه يكُنْ..	Let it be, Lord, let it be..
أنا ضعيف لكنك قوي،	I am weak but Thou art strong,
يسوع! احفظني من كل خطأ،	Jesus, keep me from all wrong,
سأكون راضياً طالما	I'll be satisfied as long

(١) أوه! صوت يعبَّر به عن الدهَشة أو الألم أو الرغبة الشديدة بالشيء.

عندما أمشي يا يسوع أمشي معك. As I walk Jesus, walk with Thee.

يجب أن تعرفَ تلك الأغنية الروحيّة لتدرك ما الذي أتحدّث عنه هنا؛ يجب أن تسمع آلة الترومبون (الموسيقية) وهي تعزف تلك النغمة على خلفية ثلاثة قرون من معاناة العبودية وراء ذلك الصوت، لتفهم مدى الحرقة في ذلك التضرّع. «عندما تلاشى صوت آخر وتر، وهدر صوت التصفيق الحار، التفت إليَّ صديقي (الذي لا أعتقد أنه كان متديّناً) وقال: إنهم لم يكونوا يعزفون تلك الأغنية، إنهم كانوا يصلّون بها».

وأخيراً، يتضمّن الشاهد الأخير الذي سأذكره حكايةً شخصيةً أيضاً، لكنها حكايةٌ ذات تأثيرٍ أعمق من تأثير كلّ تلك القصص الأخرى المتعلّقة بي.

بالكاد أتذكّر جدّي لأمّي الذي ذهب مع جدّتي إلى الصين في منتصف القرن التاسع عشر، حيث كانا يعملان مبشّرَيْن. ولمّا تقاعدا عادا إلى أمريكا في الوقت الذي ولدت فيه، لكن أمي تحمل ذكريات كثيرة عنه، وأهم قصّة انحفرت في ذاكرتي تتعلّق بما حدث لأمي عندما كانت طفلةً صغيرةً مع والديها في الصين، وكانت عصابات قادة الحروب تجتاح المناطق الريفيّة، وبدؤوا يضغطون على أبواب المدينة التي كانت أسرة والدتي تعيش فيها. فوصلت رسالة من القنصليّة الأمريكيّة في شنغهاي تدعو جميع الأمريكيين إلى ضرورة إخلاء المدينة فوراً. ولكن حتى طرق الهروب كانت خطرةً أيضاً، قبل أن تغادر عائلة والدتي بيتها تماماً (دون أن تعلم هل ستتمكّن من العودة إليه أم لا) دخلت أمّي غرفة أبيها فوجدته في حالة صلاة وتضرع إلى الله. كان جدّي جاثياً على ركبتيه، وذراعاه مُسْندتان إلى مقعد كرسيٍّ أمامه. كانت مغمض العينين رافعاً رأسه إلى الأعلى، إنه تعبيرٌ دامَ ولَمْ يبلَ - كما قالت - وحملته معها إلى القبر، إنه التعبير عن «**الثقة المطلقة**».

الصوفي: ثمّةَ 'الله' وحده

تزداد القيمة كلّما تدرّجنا في المستويات الأربعة للوجود. يحتوي عالم الملحدين على القليل جداً من القيم، لأن القيمة مظهر من مظاهر التجربة، والتجربة شحيحة في كوننا

المؤلَّف من ١٥ بليون سنة ضوئية إذا كانت الكائنات الحية هي مركز التجربة الوحيد. وفي تناقض صارخ، يعجّ عالم المشرك بالقيم، ولكن كثرة قيمه سلاح ذو حدَّين فهو يشتمل على القيم ومناقضات_القيم على نحو متساوٍ: الألم بمقدار اللذة، الشرّ في موازاة الخير، وهكذا يستضيف عالم المشرك سائر الثنائيات الأخرى. أما عالم الموحِّد فيحوي أيضاً هذه الثنائيات، إلا أنَّ الخير هو صاحب اليد العليا، أما في عالم الصوفي فيسقط الشرّ من الصورة نهائياً ولا يبقى إلا الخير فقط؛ إذ لا يوجد إلا الله وحده، وهو مفهوم يصعب قبوله، ولا ينسجم عادةً مع الاهتمام بأخبار الصباح!. «عندما كان «آلدوس هوكسلي» Aldous Huxley بروفسوراً زائراً في معهد ماساتشوسيت للتكنولوجيا، أخذتُه مرَّةً إلى محاضرة مسائيّة في معهد "سبرينغفيلد" Springfield College مما استدعى بقاءنا ليلة قبل أن نتمكن من العودة إلى كامبريدج في اليوم التالي، وعندما وجدني في صباح اليوم التالي أقرأ صحيفة الصباح وأنا أنتظر قدومه لتناول طعام الفطور سألني: «هل حدث أيُّ شيء خلال الليلة الماضية أكثر كارثية مما يحدث عادةً؟؟»». لكن على أيّ حال ثمَّة مفاتيح تساعد على فهم هذا المفهوم.

إحدى المقاربات التي تساعد على فهمه هي أن نفكِّر بأمثلة في عالم الدنيا لأشياء جميلة لكن إذا أخذنا جزءاً منها نجد أنه لا قيمة له بحدِّ ذاته، لكنه يكتسب القيمة عندما يكون جزءاً من ذلك الكل الأوسع. خُذْ مثلاً لوحةً فنيّةً رائعةً، واحجب كلَّ شيءٍ فيها سوى بوصة مربَّعة، وانظر إلى تلك البوصة المربّعة تجد أنها بحدّ ذاتها لا معنى لها، ولكن لما كانت اللوحة لن تكون ما هي عليه دون هذه البوصة المربَّعة فإن عظمة ومجد اللوحة ينصب في هذه البوصة المربَّعة ويشرِّفها. والأمر نفسه نجده في الموسيقا، فإذا أخذنا نغمةً واحدةً معزولةً عن مثيلاتها، لا نجد فيها أي اختلاف أو تميُّز عن النغمات الأخرى، ولكن من جهة أخرى، فهي تكتسب، ضمن سياق سمفونيَّة عظيمة، أهميَّةً وعظمةً كونَها النغمة الصادرة في مكانها المناسب بالضبط، ولأنَّ كمال وروعة السمفونية تعتمد عليها. وبسبب تلك الحقيقة، فإن السمفونيَّة في الواقع تمنح تلك النغمة قيمةً وأهميَّةً.

ثمَّة خطوة ثانية في هذا النمط من التفكير، خطوةٌ طوّرها أفلاطون في «فيكيلرس» Phaeclrus الخاصَّة به حين يصف الصعود من الأجسام الجميلة المحببة، عبر الأرواح الجميلة المحببة إلى **الجمال المحبَّب** نفسه. وإذا أردت الاستمرار في استعارة الموسيقا، فيمكنني أن أتذكر أجمل حفلةٍ موسيقيَّةٍ حضرتُها وبقيَتْ ذكراها في ذهني. كانت رائعةً جداً خاليةً من أي مأخذ أو عيب، فبلغت الذروة فيما يطلق عليه النقَّاد لقب: «الاستيلاء الجمالي» Aesthetic seizure. لقد استغرق الوصول إلى تلك الحالة وقتاً طويلاً نسبياً ولكن في تلك السهرة اتحدت كل الأجزاء التي صنعت ذلك الحدَث - الأدوات الموسيقية، العازفين، الفقرات التي أعدَّت في البرنامج، والمدير الذي قام بجمع كل تلك العناصر - لتعمل سوية في انسجام كامل تماماً إلى درجة أنه في نقطة ما تلاشت التعدُّديَّة بشكل كامل. قبل تلك النقطة كنتَ تتابع السمفونيَّة من خلال مواضيعها المألوفة وانتقالاتها، ولكن لما حلَّ سحر الافتتان التامّ، فإنك تفقد كسامعٍ حقيقة أنك أنت الذي كنت تسمع تلك العظمة. فموجة بعد موجة أصبحت الموسيقا كل ما يوجد في القاعة. وبالنسبة إلى غرضنا من هذا التشبيه: **كان ثمَّة الله فقط.**

ائت الآن باللهَ إلى الصورة في هذا «الاستيلاء الجماليّ». الصوفية مشهورون بالحديث عن السكر بالله؛ ففي الحالات القصوى لذلك السكر، يمكن أن يفقد الدرويش إحساسه بنفسه إلى الحد الذي يصبح فيه منفصلاً عن ذاته على حد تعبير علم النفس، وبعبارة أخرى لم يَعُدْ يعرف من هو؟ وأين هو؟ وماذا يفعل؟.

وقد شهدتُ ذلك مرةً في حَلَقَة ذِكْرٍ صرفيّةٍ في طهران في ساعةٍ متأخِّرةٍ من الليل، ولأجل بلوغ الذروة في الإحساس، انطفأت الشموع القليلة التي كانت تنير القاعة بشكل خافت، وبدأ يسود غناءٌ قاصفٌ له تأثير كتأثير التنويم المغناطيسيّ. وانتبهتُ تدريجياً إلى رجلٍ كان يجلس قبالي في دائرة الترنح والتمايل، وكان شكله يرسم صورةً ظلِّيَّةً على الضوء الضعيف في عارضة خلفه، وبدأتُ ألاحظُ أن حركاته تزداد بشكلٍ عصبي ثم هاجت وهي تنفجر مع إيقاع تمايل الحلقة، ثم بعد دقيقة أو دقيقتين بدأت التشنجات التي تقطعها

بشكل منتظم هتافات عالية تقول: "الله، الله، الله". وبسرعة ظهر خلفه رجلا حفظ النظام[1] (كما وجدت نفسي أفكر بهما لاحقاً نظراً لحجمهما الكبير)، وأحاطا به واعتنقاه وبقيا ممسكان به حتى هدأ جذبه. في مثل حالات الوجد والنشوة تلك، يمكن أن يكون الدرويش قد وصل فعلاً إلى حالة اختبر فيها الشعور بأنه لا يوجد إلا الله وحده. وربما يكون الله قد ملأ كامل أفقه العقلي.

يحترم الصوفية مجاذيبهم وأصحاب المواجد فيهم، ويشيرون إليهم بتعاطف كسكارى روحيين حضروا في حانة الله؛ لكنهم يحترمون أكثر أولئك الذين يمكنهم أن يروا الله في كل مكان مع بقائهم في حالة الصحو، أي يرونه حاضراً ناظراً في حياتهم اليومية الواعية. وهذا يتطلّب موهبة فكرية كبيرة رغم أننا يجب ألا ننسى أبداً أنه في الحالات الروحية يصبح التفكير أقرب إلى البصيرة والرؤيا منه إلى التفكير العقلي المنطقي. التفكير المنطقي يأتي بمعرفة غير مباشرة (معرفة عن الشيء أو حوله) في حين أنّ الحَدْس يجلب معرفةً مباشرةً (معرفة الشيء) وهذه المعرفة الأخيرة تجعل الأفكار تحيط بموضوعاتها، ملتفةً حولها بشكلٍ مخروطي إلى أن تخترق، في ومضة بصيرةٍ، موضوعها مثل المِثْقَب.

هنا تأخذ الدورانات شكل التفكير الذي تحدّثتُ عنه عندما بيّنتُ مفهوم الألوهية في الفصل السابق، فحتى يكون الله مطلقاً لا نهائياً يجب أن يشتمل على كل الإمكانيات، بما في ذلك التناهي والمحدودية لأنهما إمكانيّة – ونحن أنفسنا شواهد على هذه الإمكانية – لذا لا بدّ أن تكون المحدودية متضمَّنةً أيضاً في الله مع كلّ درجاتها. هذا يبدو مثل قياسٍ منطقيٍ، ولكنه إذا بقي في مستوى المنطق فقط فلن يقنع أحداً. لكن فقط إذا تمّ إدراك النقطة حَدْسياً ستصبح فعالة ومؤثرةً دينياً، وعندئذٍ سيتمّ إدراك كلُّ لحظةٍ على أنها الله في هذا النمط أو ذاك النمط المعيَّن من حجابه. العلمانيون يرون الحجاب فقط، أما أولئك الذين يمتلكون الإحساس والشعور الدينيّ فإنهم يلمحون الله من خلال الحجاب؛ أما الصوفيون فيرون الله

---

(١) رجال يستخدمون في مسرح أو فندق لإخراج الأشخاص غير المرغوب فيهم.

فقط، لأنهم يدركون أن الحجاب ضروريٌ ليكون اللهُ اللهَ، وبالتالي هو جزءٌ من الله، وهذا لا يجعل الصوفيين يتجاهلون الحجاب. في الواقع، إنهم يشعرون به في بعض الأوقات حجاباً سميكاً جداً إلى درجة تجعلهم يصيحون: «إلهي إلهي، لِمَ تركتني؟»، ولكنهم يدركون في أعماق قلوبهم أن الله حاضرٌ بشكلٍ كاملٍ في كلِّ مكان، وفي كلِّ شيء، وأن غيابه الظاهر مطلوبٌ إذا أراد أن يشارك في محدوديّته، مع بقائه بذاته الكمال المُطلق الذي هو. وذلك الكمال ينتصر ويسود. ويكون الله الكلَّ في الكلّ.

يُخبرنا «رام داس» Ram Dass أنه كان يسير مع معلمه الروحي الهندوسيّ «نيم هارولي بابا» Neem Haroli Baba في بنغلادش. كان بؤس الناس في الشوارع والمُعاناة حولهما تعصر القلب إلى درجة يصعب تحملها، ومع ذلك كان معلمه الروحي يُواصل قوله: «هل ترى كم هو كامل؟».

كما ذكرتُ للتّوّ، المشكلة الكبرى في نظر الصوفية هي اللازمة الطبيعية لكون الله الكلّ في الكلّ، وهي أنه لا يوجدُ شرٌّ في الوجود. الدلائل على طيبة الله وخيره رغم وجود الشر، هي القلعة الحصينة الشامخة وصعبة المنال التي سقط - في النهاية - عند أسوارها كل نظام عقلاني، لذا لا بدَّ لي من أن أُعالج هذا الموضوع هنا، ولو باختصار. وسأقتصر على فكرتين موجزتين:

١ـ إذا سقط مخروط البوظة (الآيس كريم) على الأرض من يد طفل السنتين، فسيرى الطفل في هذه الحادثة مأساة تشابه نهاية العالم. في حين أن أمه تعلم أن الأمر ليس كذلك. فهل يمكن أن يوجَد فهم للحياة واسع جداً في عمقه وأفقه، بحيث تبدو، بالمقارنة معه، حتى معسكرات العمل الشيوعية «الغولاق»، والمحرقة النازية - ضمن ذلك الفهم - كوقوع مخروط الآيس كريم؟

٢ـ كان الرياضيُّ المُحترف الوحيد الذي عرفتُهُ لاعبَ كرة قدم متقاعد لعب "ظهيراً" في عدّة فرق كرة قدم محترفة، بما في ذلك فريق "لوس آنجلس دونس" Los Angeles Dons، خلال الأربعينات، وفي يوم أحد - وكان قد تقاعد منذ عدّة سنوات - دعاني إلى فطور متأخرٍ

في نادي لوس آنجلس الرياضي (حيث كان مديراً رياضياً وكان لا يزال نائب رئيس النادي). وصرت أستفسر عن الإصابات والعمليّات الجراحيّة التي تعرّض لها خلال مسيرته المهنيّة الرياضيّة، فكانت القائمةُ طويلةً، وقد تركَتْهُ بنودُها مع آلامٍ سيعاني منها بقية حياته. ولكن عندما سألته فيما إذا كان الأمر يستحقُّ ذلك، بدا متفاجئاً وقال: «طبعاً، بل كنت محظوظاً جداً لأنني تعلمت واستمتعت بالحياة التي حصلت عليها من مهنتي الرياضية»[1].

---

(١) يرمي المؤلف من هذه القصة إلى بيان كيف تكون الأشياء السيئة في ظاهرها (كالصدمات والجروح و الآفات البدنية التي سيعاني زميله الرياضي من آثارها طيلة حياته)، حسنة ومقبولة ضمن الإطار الكلي للحياة. ولدينا في القرآن الكريم، في سورة الكهف، قصة موسى و رجل الله الذي علمه الله من علمه اللدنّي، وفيها ثلاث أمثلة لأعمال بدت في ظاهرها شراً محضاً، ولكن تبين فيما بعد - في إطار علم الله الشامل - أن باطنها خيرٌ محض.

الفصل ١٦

الرّوح *SPIRIT*

في نقطة ما من الحديث الصحفي الذي أجرته «بربارة والترز» Barbara Walters مع «مونيكا لوينسكي» Monica Lewinsky ، قالت «بربارة» لـ «مونيكا» أن الرّئيس كلنتون اعترف أنه أذنب في علاقته معها ، وسألتها فيما إذا كانت هي أيضاً تعترف بأنها أذنبت في تلك العلاقة؟ فبدت «مونيكا» متفاجأةً بهذا السؤال ، وتردّدت قليلاً ، وغيَّرت جلستها على كرسيها ، ثم أجابت : «أنا لستُ متديِّنةً جداً . أنا بالأحرى روحيةٌ» I'm not very religious. I'm more spiritual.

تشير تلك الإجابة إلى مشكلة في تفكيرنا الجماعي حول الدِّين : لقد أحيطت كلمة «الدِّين» بظلال ضبابيَّة معيَّنة . (هذه الحالة تشابه حالة كلمة **الترتيب الهرمي** hierarchy التي ناقشناها فيما سبق) . كلمة **الدِّين** Religion ، بحدِّ ذاتها وعندما لا تكون ملوَّثة بشوائب من خارجها ، كلمةٌ نبيلةٌ ؛ وهي مشتقَّةٌ من كلمة religio اللاتينية ، التي تعني «إعادة الربط» ، وهو الهدف الأساسي للدِّين فعلاً . لكن لما كانت تلك الكلمة تتحدّى «التصوُّر السائد للعالَم» ، فقد فقدت بعضاً من احترامها . جرِّب أن تَذْكُر الكلمة في ملأٍ عام ، ولاحظ أن آثامها أي جانبها السلبي هو الذي سيقفز أولاً إلى الأذهان .

رغم ذلك ، من الصعب إثبات أنَّ الدِّين ليس عنده ما يُقال عنه . أَدْخِل كلمة

"الروحانية" أو **التعلّق بالقيَم الروحيَّة Spirituality** لتسمية ما هو جيد في الديـن (دون تعين وتخصيص). لَّما كانت "**الروحانية**" **Spirituality** مجرَّد صفة للإنسـان أو خاصيَّة إنسانية فإنـها لـم تُؤَسَّس، وبالتالي أُعفيَت من المشاكل التي تحيط دائماً وبنحو لا يمكن اجتنابه، بالمؤسَّسَات، لا سيّما المؤسَّسَات الدينيّة، والتوتُّرات داخل المجموعيَّة/ وخارج المجموعيَّة، التي تميل لإيجادها وتوليدها[1].

هذه النقطة تعرَّضنا لها في فصل التعليم العالي، لذا لن أحتاج هنا سوى لإضافة نقطة أخرى لما قيل هناك، وهي أنها إشارةٌ سيئةٌ أن تتحوّل كلمة روحيّ *spiritual* الاسم، إلى كلمة روحانيَّة *spirituality* الصفة، لأن هذا يشبه الكلب الذي يطارد ذيله الخاص به! نَحْويّاً، كلمة "**الروح**" ***Spirit*** هي الاسم موضع البحث، وكلمة "روحي" *spiritual* صفةٌ، أما الروحانيَّة *spirituality* فهي تعبيرٌ جديدٌ وُجِدَ لكون الرُّوح ليس لها مرجعيَّة علميَّة referent في عالَم العلم (أي ليس لها مرجع علمي يمكن الإحالة إليه ليساعدنا في الحصول على معلومات عنه)، ومن دون أساس وأرضية عن «**الروح**» هناك، نصبح غير متأكدين ممّا تعنيه هذه الكلمة بالضبط.

سأحاول في هذا الفصل أن أبدِّد تلك الحيرة، وسأقوم بهذه المهمَّة متّبعاً أسلوباً اقتحامياً هجومياً، آخذ فيه زمام المبادرة، بدلاً من الأسلوب الدفاعيّ!.

التقسيم إلى: النفس / العالَم

كما أشرت في الفصل (١١)، منذ أن قسَّم «ديكارت» العالَم إلى "**العقل**" و"**المادة**" (أو الشخص المفكر الفاعل / والشيء المفعول به Subject & Object)، حاول الفلاسفة والعُلماء تجسير أو ردم الهوة بين الاثنين دونما نجاح. وسأقتصر هنا على مثال واحد هو «علم_نفس الإدراك» Psychology of Perception.

---

(١) أي النزاعات الطائفية ضمن الدين الواحد، والصراعات والحروب بين الأديان المختلفة.

إذا حاولنا أن نفسِّر الارتباط بين حيوان في البرية ومحيطه من خلال ما تقوله الكتب الدراسية حول **فيزيولوجيا الإدراك** (أي علم وظائف أعضاء الإدراك)، ـ محللين الفعل إلى المكوِّنات العصبيّة التي يجب عندئذ أن تتعلق ببعضها وتعمل سويَّةً ـ فإننا نُصادف عدداً كبيراً جداً من الفجوات غير القابلة للتوضيح، مما يجعلنا نستنتج عقلياً أن الحيوان لا يفهم ولا يُدرك عالمه مطلقاً. ولكن خلافاً لهذا الاستنتاج نجد أن الحيوان يسلك ويتصرَّف كما لو أنه يفهم ويُدرك العالَم، ويمضي نحو الطعام والمأوى بنحو صائب وصحيح تماماً تقريباً. يشرح «ج. ج. جيبسون» J. J. Gibson، في كتابه «المقاربة البيئية للإدراك البصري» *The Ecological Approach to Visual Perception* كيف أصبح عُلماء نفس الحيوان يرون أنهم فقدوا القدرة على فهم هذه الحقيقة الواضحة التي لا جدال فيها، وأنَّ محاولاتهم تفسير هذه المعرفة بوصفها استنتاجاً واستدلالاً من النبضات العقلية لم تنجح. علينا أن نبدأ فهم الموضوع بطريقة أخرى، باعترافنا أنه يوجد هنالك عالمٌ وأن تلك الحيوانات تتكيَّف معه. بهذه البداية السريعة نحو الروح، أتقدم من الحيوان نحو الإنسان.

المعرفة الضمنية TACIT KNOWLEDGE

أبدأ بمَلَكَة إنسانية تُحيِّرُ تماماً علماء نظريَّة المعرفة Epistemologists، وهي مَلَكَةٌ تختلف إلى درجة كبيرة عن العقل. يُنجز العقلُ عمليّات منطقيّةً على المعلومات التي تقع بشكلٍ كاملٍ ضمن فهمه ورؤيته ويُمكنه أن يصفها ويُعرِّفها. بيد أننا، مراراً وتكراراً نجد أن فهمنا يتحرك ويعوم في عمليات مُلغزَة معقَّدة mysterious لأنّ كلّ ما يبدو أننا نعرفه عنها هو أننا لا نملك أي فكرة عن كيفيّة عملها!. عندنا مثلاً **الحِسّ الباطنيّ** (الشعور الحدسيّ القويّ بأن شيئاً سوف يَحْدُث) **الذي يصدق تماماً**. أو نجد أننا نعرف ماذا نفعل في مواقف معقّدة، دون أن نملك القدرة على أن نشرح ونوضّح بالضبط كيف عرفنا ذلك. إن هذه المعرفة التي نتحدث عنها غير واعية (لا شعوريَّة) unconscious، ومع ذلك فهي تمكّننا من إنجاز مهامّ معقّدة جداً، بدءاً من الكتابة والقراءة وحتى الفلاحة وتأليف الموسيقى. لقد أصبح المتخصِّصون في علم النفس الإدراكي يُلاحظون أن المهارة (الخبرة المعرفية) أكثر

حدسيَّةً مما توقعوه من قبل. طلاب التعلّم هؤلاء يجدون أنهم عندما يواجهون مهاماً صعبةً ودقيقة جداً، فإن الناس الذين ينجزون تلك المهام بواسطة إحساسهم (شعورهم) أكثر إبداعاً من أولئك الذين يحاولون إنجازها بواسطة التفكير بها بوعيٍ.

هذا يوضّح لماذا يجد مبرمجو الكومبيوتر صعوبةً - لا تقلّ عن الصعوبة التي يجدها علماء النفس - في جعل الخبراء الماهرين في حقلهم يشرحون بألفاظ وعبارات محدّدة واضحة، القواعد التي يتّبعُونها. في الواقع الخبراء الماهرون لا يتّبعُونَ قواعد. وهذا يخلق صعوبةً حاسمةً لـ «الذكاء الاصطناعي»، الذي بدأ علماؤه النظريّون يقرُّون بتردُّد أن الآلات لا يمكنها أبداً أن تقلّد وتحاكي الذكاء الإنساني لسببٍ بسيطٍ هو أننا أنفسنا لسنا آلات مفكّرة. لدى كلٍّ منّا قوة ذكاء حدْسيٍّ، ونستخدم في كلّ لحظة من حياتنا اليوميّة قوّة الذكاء الحدسيّ هذه التي تمكّننا من الفهم، والكلام، والتأقلم بنحوٍ ماهرٍ جداً مع بيئتنا اليوميّة. بطريقة ما يلخّص ذلك الحَدْس كلّ شيء سبق أن اختبرناه أو عَملناه في كلّ حياتنا، وتمكّننا تلك الخلاصة من تشكيل قراراتنا الحالية. هذا يبين القضية بشكلٍ تجريديٍّ، ولكننا نحتاج إلى مثال كي نعطي الفكرة قوتها.

يستطيع محدّدو جنس الدجاج اليابانيّون أن يعرفوا جنس الدجاج المولود حديثاً بدقّة تصل نسبتها إلى ٩٩٪، هذا على الرغم من أنّ الأعضاء التناسلية لا يمكن تمييزها بصريّاً. ولم تستطع أيّة مقاربة تحليليّة لتعلّم هذا الفنّ أن تقترب من مثل هذه الدقّة أبداً. الطامحون الجدد الراغبون بإتقان فنّ تحديد جنس الدجاج، يتعلّمون هذه البراعة بواسطة فحص ومراقبة أكتاف العمّال المجرّبين فقط، الذين لا يستطيعون هم أنفسهم توضيح كيفية عملهم هذا. عندما يتم عرض هذا الفن أمامهم «يقتنصون المهارة» - كما يُقال - ويفهمون طريقة العمل عبر الخبرة والتجربة.

تزوّدنا الببغاوات الناطقة بحالة مذهلة لدرجة أكبر عن هذه الموهبة الغامضة والقدرة الملغزة (غير القابلة للتفسير) التي أتعقّبها. ماذا يجري عندما يقلّد الببغاء صوت مالكه، أو نباح كلب، أو ضحك إنسانٍ؟ من المفترض أن للببغاء نوعاً من الحياة الواعية. إنه يسمع

الصوت، أو يسمع النباح أو الضحك، ومن المفترض أنه يتمنّى (بطريقة ما تشابه رغبتنا الابتدائيَّة في عمل شيء) تقليد الصوت الذي سمعه.

لكن ماذا يحدث بعد ذلك؟ عندما تفكّر بذلك، تجد أنه أحد أكثر الأمور استثنائيَّةً وَروعةً ممَّا يمكنك تخيّله. ثمَّة شيء أكثر ذكاءً، بشكلٍ لا يُقارن، من البغاء نفسه، يبدأ بالعمل ويمضي في تنشيط سلسلة الأعضاء الصحيحة التي تختلف كليّاً عن تلك الأعضاء التي للبشر. الإنسان لديه أسنان، وحَنَك (أعلى باطن الفم) ناعم ولسان مسطَّح (مستو)، أما البغاء فليس له أسنان وله لسان خشن (قاس) وله منقار. ورغم ذلك فإن البغاء يمضي - انطلاقاً من هذه الأعضاء المختلفة - في تنظيم أجهزته المختلفة جداً لإعادة إنتاج الكلمات والضحك، بالضبط تماماً، إلى درجة تجعلنا في كثيرٍ من الأحيان نميل للاعتقاد بأن ما يتكلّمه البغاء هو كلامُ الشَّخص نفسه الذي ينطق بهذه الكلمات. كلّما فكّرنا أكثر بهذا الموضوع، ازدادت غرابته، لأنه خلال التاريخ التطوُّريّ لم تقم البغاوات بتقليد البشر منذ الأزل؛ بل جاء الناس إلى مسرح الحياة بعد أن كانت الآليات التكيُّفيَّة للبغاوات قد وجدت من قبل. عندنا هنا جزءٌ من الذكاء تم إيجاده لأجل هدف وغرض محدَّد ضمن البغاء، لا يمكن أن نوضّحه عبر التكيُّف التطوّري.

نجد هذه الأمثلة غريبة مدهشة، ولكن الموهبة التي تدفعنا تلك الأمثلة إلى اكتشافها وملاحظتها، هي من النوع الذي يوجِّهُ كلَّ خطوةٍ في حياتنا. إن ما نسمّيه حذراً واحتراساً (أي النظر في عواقب الأمور Prudence) يُزوّدنا بمثالٍ يتكرَّر كلَّ يوم. إنه يعمل على نحو مشابه لطريقة جيروسكوب[1] مخفيّ، يُراقب ميولنا ويُعطينا إشارات نعم أو لا، أي الكلمتين السحريتين للإرادة. وحتى يعمل ذلك فإنه لا يدور حول نظريات. بل يُركِّب كلَّ ما تعلّمناه ويأتي بهذا التركيب لكلِّ قرارٍ نتّخذه. وهو بذلك، يُزوِّدنا بعشرات الأجوبة لعشرات الأسئلة، و- لأنه لا يعطينا دليلاً حول الاهتمام بتوافقها المُتبادل - يُعطي الانطباع

---

(١) الجيروسكوب: أداة تستخدم لحفظ توازن الطائرة أو الباخرة ولتحديد الاتجاه الخ.

بأن كل إجابة معينة هي إجابةٌ خاصّة ومحدَّدة تماماً لغرضٍ معيَّنٍ. هذا يعطي هذه الموهبة والاستعداد الفطري حالة القريحة الشعريّة العمليّة وذلك لأن كل إجابة خاصة تظهر آنياً وتكون في جزئها الأكبر ملائمةً، كما تكون بالنسبة إلى اللحظة ذات العلاقة، حاسمةً. ومع ذلك فإن تلقائيّة وعفويّة الحذر والاحتراس Prudence خادعةٌ، لأننا إذا فكّرنا في القضيّة فسنجد بأن كلّ الأجوبة الهادفة تَبْرز من «شيء كامل أو وحدة كاملة» a Whole يوجّه تلك الأسئلة ويجعلها ملائمةً ومناسبةً؛ ونشاطات (تلك الوحدة الكاملة) متزاوجة بنحوٍ مذهلٍ جداً. إن الحقيقة التكامليّة لوجودنا وكينونتنا، التي تنبع منها تلك الإجابات، تغطّي وتُلهم كلّ شيءٍ نفعله سواءٌ كنا نفعله بوعيٍ أم بنحوٍ تلقائيٍّ غيرِ واعٍ، مُعطيةً حياتنا شكلها ونمطها، ومبيِّنةً أنَّ كلَّ فعلٍ وقرارٍ يعكس ذلك الشكل والنمط.

كل ما ذكرته إلى الآن ليس بجديد. حتى وقت قريب كان الكيميائي الذي تحوّل إلى فيلسوف «ميخائيل بولانيه» Michael Polanyi والعلماء في علم الأحياء التطوري evolutionary biologists والعلماء بعلم النفس التطوري developmental psychologists، يتكلمون على ما يسمُّونه: «المعرفة الضمنية» **Tacit Knowledge**: أي أسس الإدراك التي لا غنى عنها لمعرفتنا غير أنّها تعمل على نحوٍ غير واعٍ. بيد أن جميع أولئك المحققين، يفترضون أن العمليات العقلية المعقَّدة التي لا يمكننا أن نشرحها ونفسّرها، تقودها وتسيِّرها موجاتُ عملياتٍ أبسط لا يمكن وصفها عقلياً. وباختصار، يفترض أولئك المحققون أن *الأكثر* ينشأ من *الأقل*. أما التقليديون فإنهم يفترضون العكس، ومن هذا الاختلاف الواحد ينفصل تصورا العالم اللذان يعالجهما هذا الكتاب منذ بدايته، كما ينفصل النهار عن الليل.

ولقد أخذت موقفي، بكلِّ تحدٍّ، إلى جانب التقليديين، وفي هذا الفصل الختامي، كما قلت، أخذت زمام المبادرة. أحاول أن أسحب المحققين العصريين (الحداثيين) عن طريق ركلهم والصياح بهم نحو إمكانية أنه إذا أخذنا الطريقة التي وضعوا فيها الأشياء بعين الاعتبار، فلن يتمكّنوا من أن يصلوا إلى المكان الذي يريدون الذهاب إليه – كما يقول

مبرمجو الكومبيوتر – قمامة تدخل وقمامة تخرج ، إن المكوَّرات (رمز الأشياء الصغيرة والسمينة) لَمّا تحطَّمت وتناثرت إلى أشتات ؛ لن يمكن وضعها إلى جانب بعضها البعض ثانيةً – محاولات فعل ذلك هي قفص «كافكا»[١] Kafka الذي يبحث عن طير . وهذا يقترح أنه ربما يكون من المفيد العودة إلى الوراء إلى حيث كان يجلس «المكوَّر» سعيداً وكاملاً مستنداً إلى الجدار! . **الكليّة تأتي أولاً ، والتعدُّديَّة تأتي لاحقاً؛ الكثرة تنشأ عن الواحد .**

إن مقاربة القضية من هذه الجهة لن تقلل من لُغْزيّة التعاقب الذي تشتمل عليه وربما لا تحمل العديد من الاقتراحات للبحث العلمي على الرغم من أن «روبرت شلدراك» Rupert Sheldrake – عالم الأحياء الذي شذَّ وخرج عن أقرانه– يلعب ببعض الإمكانيات هنا ، وهي على كل حال قد تحمل اقتراحات عن الكيفية التي يجب أن نعيش بها . وعلى كلٍّ ستكون فائدة جيدة وذات أهمية غير قليلة إذا عرفنا ملاحظة «ريتشارد رورتي» Richard Rorty أن الإرث الذي خلَّفته ثنائية[٢] «ديكارت» Descartes جعل الفلاسفة يتجهون للبحث عن اليقين بدلاً من البحث عن الحكمة ، ويتّجهون في هذا الصدد إلى العلم بدلاً من مساعدة الناس على التوصُّل إلى السلام العقلي .

الروح وأعمالها الفائقة SPIRIT AND ITS OUTWORKINGS

(التماميَّة والكليَّة والكمال) The Wholeness التي يبدأ بها التقليديُّون هي «الله» : «إِسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ: الرَّبُّ إِلٰهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ»[٣] . الروح عندما تُضَخَّم (أي يراد بها المعنى الكبير الكلي) تكون لفظة مرادفة لـ «الله» . وسأستخدمها بهذا المعنى هنا مع توجيه التأكيد نحو علم الله الكليّ وحضوره الكليّ وعَمَله في العالَم كما جاء في سفر التكوين : «وَرُوحُ

---

(١) كافكا Kafka روائي وكاتب قصص قصيرة تشيكي يهودي (١٨٨٣-١٩٢٤) مرّ ذكره فيما سبق .

(٢) يقصد تقسيمه العالم إلى عقل ومادة (كما جاء ذكره قبل خمس صفحات) .

(٣) النص هو من الكتاب المقدس (التوراة) : سفر التثنية ، الإصحاح ٦/ آية ٤ .

الله يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاه»[1]، وفي الإنسان تتمثَّل «الروح» في روح القدس أي «الله» الذي يعمل ضمن الإنسان. إذن «الروح» في هذا الفصل هي «**صورة الله**» في اليهوديَّة والمسيحيّة، و«**الآتمان**» عند الهندوس، و«**طبيعة البوذا**» عند البوذيين، و«**الكتلة التي لم تُقسَّم**» في شرق آسيا، و«**أَحْسَنِ تَقْوِيم**» الذي يخبرنا القرآن أن خلق الإنسان فيه[2]، ويصوِّر الشكل٢ هذا الأمر بنحوٍ تخطيطيٍّ. كون الروح التي نفهمها على هذا النحو هي الله نفسه تماماً أو صورة مرآتية مطابقة لله، أمر قابل للنقاش والتفاوض. الصوفيون يدافعون عن فكرة التماثل والمطابقة، أما الموحدون فيصرون على أن هناك تمايزاً يبقى بين الاثنين «الروح» و«الله».

ولَمَّا كنتُ قد دخلتُ إلى معالجة موضوع «الروح» في هذا الفصل من الباب الخلفي، أي عن طريق إبراز الصعوبات التي نواجهها عندما نحاول أن نفهم كيفية عمل المعرفة الإنسانية في كثير من الحالات، في حال رفضنا وجود الروح، وأننا عندئذ لن نتمكن من أن نجد لها أي تفسير؛ دعني الآن أتحول إلى بيان كيف يمكن أن تبدو الأشياء عندما تؤخذ الروح على أنها شيء أساسي في العالم. (هل هناك أي سبب يدعو للتفكير بأن الوعي، أو الشعور والإحساس، أو الانتباه واليقظة - كلها أسماء تشير إلى النقطة التي أتت فيها الروح أول مرة إلى انتباه الإنسان - أقل أساسيَّةً من المادَّة؟ إن القول بأننا يمكننا أن نتَّكئ على المادة ولا يمكننا أن نتَّكئ على الوعي ليس قولاً منطقياً ولا معقولاً).

أبدأ بما كان سيسمِّيه أفلاطون حكاية محتملة: ماذا لو كان الشيء الذي انفجر في الواقع في «البيغ بانغ»[3] الكبير، هو «الله» كلّي العلم والقدرة؟ طِبْقاً لقانون العكس

---

(١) الكتاب المقدس (العهد القديم): سفر التكوين: الإصحاح ١/ آية ٢.

(٢) في إشارة لقوله تعالى في الكتاب الحكيم: ((لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)) سورة التين/ (٤)، ولعله أيضاً ما تشير إليه جمله ((أنشأناهُ خَلْقًا آخَرَ)) في قوله تعالى: ((ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)) سورة المؤمنون/ (١٤).

(٣) البيغ بانغ Big Bang نظرية الانفجار الهائل لهيولى الكون المؤلفة من مادة في غاية الكثافة قبل ١٥ بليون سنة

التقليدي، الشيء الذي يكون سابقاً منطقياً، يأتي أخيراً من ناحية الزمن، وهنا يُترجَم هذا القانون إلى كون «الله» يمثّل كلاً من البداية السببيّة للأشياء، ونهايتها الزائلة والمؤقّتة. من «الله» نشأنا وأتينا وإلى «الله» نعود في النهاية[١].

من ناحية الترتيب الزمني، يبدأ التسلسل من الوجودات الأكثر ضآلةً التي أصبحت بشكلٍ متزايد معقّدةً كلّما تقدّمنا في الزمن. ولكن لاحظ في هذا السيناريو، أنّ العقل حاضرٌ في أدقّ الكيانات وأضألها، منذ البداية ذاتها - هنا لدينا عبارة: «بوذا في كلّ حبّة رملٍ». في الرؤيا العلميَّة الباكرة كانت الذرّات محكومة بقوانين ليس للذرّات أي مشاركة أو دور في تدبيرها وابتكارها. ولكن مع دخول الغموض وعدم التحديد إلى الصورة - مبدأ الشك واللايقينيّة[٢] Uncertainty Principle الذي طرحه «هيسنبرغ»[٣] Heisenberg - لم تعد القوانين الآن سوى معدّلات إحصائيَّة للطرق التي «تقرِّر» فيها الذرّات أن تسلك! العلماء الفيزيائيون يقرؤون لفظة «تقرِّر» هنا مجازيّاً؛ هذا على الرغم أنهم لا يفعلون ذلك جميعاً بل هناك من يقرؤها بمعناها الحقيقي مثل «فريمان دايسون» Freeman Dyson الذي

---

(١) يذكرنا هذا بقوله تعالى في القرآن الكريم: ((إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)) (١٥٦) سورة البقرة، وقوله سبحانه: ((وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى)) (٤٢) سورة النجم

(٢) مبدأ اللايقينية Uncertainty Principle، نظريَّةٌ في ميكانيك الكم quantum mechanics، تنصُّ على أنه من المستحيل أن نحدد بشكل متزامن موقع ومقدار حركة جزيئة، مثل الإلكترون، بنحو صحيح ودقيق. ودعيت هذه النظرية أيضاً بـ ((مبدأ اللتحديد أو اللاتعين)) indeterminacy principle، وتنصّ النظرية أيضاً على أن تحديدا وتعيينا أكثر دقَّة لكمٍّ واحدٍ سيؤدّي إلى قياسٍ أقلّ دقَّةً لكمٍّ آخر، وأن حاصل ضرب اللاتحديدَيْن لا يقل أبداً عن ثابت بلانك Planck، وترى أن هذا المقدار الضئيل جداً من عدم التحديد ناتج عن الطبيعة الأساسية للجزيئات التي تتم ملاحظتها. ومن هنا حلَّت، في ميكانيك الكمّ، الحسابات الاحتمالية probability calculations محلّ الحسابات المضبوطة للميكانيكا الكلاسيكية. صاغ هذا المبدأ العالمُ الفيزيائي الألماني ((ويرنر هيسنبرغ)) عام١٩٢٧، وكان لهذا المبدأ وقع كبير ومغزى عظيم في تطور ميكانيكا الكم. كما أن التبعات الفلسفية لمبدأ اللاتحديدية أو اللايقينية أوجدت تياراً صوفياً مستطيقياً قوياً بين العلماء الذين فسروا المبدأ على أنه يعكس نوعاً من الإرادة الحرة للجزيئات أو الكمّ، تتجاوز قانون العلية الأساسي ويمكنها أن تنتهكه.

(٣) هيسنبرغ ويرنر Heisenberg, Werner (١٩٠١-١٩٧٦)، عالم فيزياء ألماني، فاز بجائزة نوبل، ولعب دوراً كبيراً في تطوير ميكانيك الكمّ، وصاغ مبدأ اللايقينية أو اللاتحديدية Uncertainty Principle فيه.

كتب يقول: «**يبدو أن العقل، الذي يظهر عبر قدرته على الاختيار (القيام باختيارات)، متأصِّلٌ ومتضمَّنٌ، في مقدارٍ ما، في كلِّ ذرَّة.**». رغم أن رأيه هذا لم يدخل الكتب الدراسية، إلا أنه يوافق التقليد هنا، لأن التقليد يؤكِّد أنَّ الإحساس والشعور يسود بنحوٍ ما في كلِّ شيء[1].

وعلى الرغم من أنه في أصغر الأشياء، علم الله وحضوره وقدرته المطلقة تكون محجوبةٌ بأثخن ما يمكن تصوُّره من حجب، فإنَّ أضأل مقدار من الإحساس والشعور الذي يطفو على السطح في تلك الأشياء، هو نوع من العلم الإلهي الكلّيّ ومدعوم منْ قِبَل «الله». لماذا لم تَقْنَع الجزيئات بالبقاء على ما هي عليه: مجرَّد جزيئات؟؟ من أين أتى هذا الدافع نحو التعقيد الذي أدَّى (في الكوكب الأرضي الذي نعرفه بالدرجة الأولى) إلى تكوُّن النباتات والحيوانات والعقل الإنساني؟؟. السبب هو أن العقل يعمل بنحوٍ نشطٍ ليحرِّر نفسه من حجبه الشديدة، ويعطي نفسه مجالاً أرحب للحركة في العالم المحدود المتناهي. **وهذا** هو السبب في أن «**المعرفة الضمنيَّة**» **Tacit Knowledge** تجتمع وتلتئم وتخدمنا تلك الخدمة الجيدة لأبعد حدٍّ. إن مكوناتها (الخاضعة للتوجيهات النهائية للعلم الإلهيّ الكليّ الذي ينظِّم كلَّ شيء) تأخذ على عاتقها «مهمَّة ما»، تلك «المهمَّة» هي عملها للتوسُّع نحو العطاء الأرحب الذي ذكرناه للتوّ. والأمر نفسه ينطبق على القطع البيولوجية الصغيرة التي تمكِّن الببغاوات من الكلام، ويرتفع الأمر حتى يصل إلينا أنفسنا نحن البشر. كتب «لويس توماس»[2] Lewis Thomas، متفكِّراً في حقيقة أن جسمنا يمكنه تحت التنويم المغناطيسي أن يخلِّص نفسه من الثآليل، يقول: «**يجب تقريباً أن يكون**

---

(١) هذا أمر ينص عليه القرآن الكريم فعلاً كما في قوله تعالى مثلاً: ((تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً)) (٤٤) سورة الإسراء.

(٢) لويس توماس Lewis Thomas (١٩١٣-١٩٩٣)، طبيب أمريكي ومؤلف ومربي وإداري. لعل أكثر إنجازاته أهميَّةً مقالاته الشعبية حول علم الأحياء والطبّ، التي كانت تنشر في مجلّة نيو إنجلند الطبيّة، ثم جمعت في كتاب أصبح من الكتب الأكثر رواجاً ومبيعاً عنوانه: ((حياة خلية)) The Lives of a Cell (١٩٧٤) وقنديل البحرّ والحلزون The Medusa and the Snail (١٩٧٩)، كلاهما نال الجائزة الوطنية للكتاب في أمريكا.

هناك شخصٌ مسؤولٌ يسيّر الأمور ذات التفاصيل الدقيقة خلف فهم أي شخص، مهندسٌ ومديرٌ ماهرٌ، رئيسٌ تنفيذيٌّ، رئيسُ كلّ المكان بتمامه. لم يحدث مطلقاً أن اعتقدت أنني امتلك مثل هذا "المستأجِر" في داخلي. أو ربما بدقة أكثر، أنني أمتلك في داخلي مثل "صاحب الملك" هذا، وذلك لأنني سأكون، إذا كانت هذه هي الحالة حقيقةً، لا شيء أكثر من نزيل». إن «**الرئيس التنفيذي**» الذي يتحدث عنه «لويس توماس» ليس سوى «**روحي**» My Spirit، التي تجعل العناصر المكونة في كلّ مكان تدعم أحدها الآخر بطرق توجد «**معنى مفهوماً**» "**make sense**" بالمعنى الحرفي للكلمة، أي تصنع فهماً ومعنىً وإحساساً حيثما لم يكن سابقاً.

أما بالنسبة إلى التقسيم إلى: النفس/ العالم، فإنه وَهْمٌ ديكارتيٌ. إن فكرة الذرّات المكتفية ذاتياً في الفراغ، والتي يجب أن تصطدم لتتصل ببعضها، أصبحت فكرة قديمة باطلة زالت مع زوال العلم البدائي اليوناني؛ والنظرية السائدة والحاكمة الآن هي نظرية الحقل "**براتيتياساموتباد**" Pratityasamutpad (الانبثاق الذي يعتمد بعضه على بعض). إنها شبكة إيندرا Indra التي تعكس فيها كلُّ جوهرةٍ كلَّ الجواهر الأخرى مع عكسها أيضاً لانعكاسات كل جوهرةٍ أخرى. إنه نظام «ديفيد بوم» الضمني David Bohm's implicate order.

إن هذه الطريقة لرؤية الأشياء لا تخبرنا بشيء أكثر حول تفاصيل العملية الجارية ممّا تفعله المقاربة التحليلية، ولكنها تقدم لنا *نوعاً* من التفسير الأكثر وضوحاً وفهماً من بديله. عندما يحل شاب بالغ لغزاً ويضحك لطُرْفَة، فليس في الأمر شيء مفاجئٌ، لأن *المقدرة* على فعل ذلك موجودةٌ. أما بالنسبة للطفل الذي لم يكتسب حتى الآن هذه المقدرة المطلوبة، فإنه لا يوجد أي مقدار من التوضيح – تجميع القطع اللغوية إلى جانب بعضها البعض – يمكن أن يفي بالغرض.

القضية موضع البحث – الأكثر من الأقلّ أو الأقلّ من الأكثر – تواجهنا بكل تحدٍّ عندما نرى كيف جئنا نحن البشر بدايةً إلى هذا العالم. تعتبر الداروينيةُ، كحقيقة مثبتة، أن

× الصفات والمزايا الجديدة – الحياة، الإحساس والشعور، الوعي بالذات – يمكنها أن تنشأ من مجرَّد إعادة تنظيم العناصر التي هي بحد ذاتها فاقدة لتلك الصفات والكيفيّات والمزايا. في الواقع إن هذا التفسير الذي يتم تقديمه عن كيفية خروج هذه الأرانب من تلك القبعات، يقول فقط إنها خرجت. إن ما يتجاوزه هذا التفسير ويغفل عنه هو أن «البروز والظهور» مفهومٌ وصفيٌّ وليس تفسيرياً. إنه لا يفسِّر شيئاً أبداً.

الوعي والنور CONSCIOUSNESS AND LIGHT

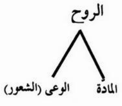
من شانكارا Shankara، و رامانوجا Ramanuja، والآبيدهارما Abhidharma، والمادهياميكا Madhyamika في آسيا، إلى الكتابات العظيمة والرفيعة لأوغسطين Augustine وأفلوطين وتوما الأكويني وابن سينا وابن رشد وابن عربي في الغرب، تم بناء وتأسيس تصوّر العالم المستند إلى مبدأ "نشأة الأقل من الأكثر" وتوضيحه بكل دقة وتفصيل، ينافسان دقة وتفصيل نظيرهما العلميّ، لكن بالطبع ليس هذا الكتاب موضع شرح ذلك.

هنا، قبل إنهاء هذا الكتاب، أريد فقط أن أناقش، في عدة فقرات، خطوة واحدة في التسلسل من الروح إلى المادّة، حتى أبين كيف ينجو هذا التسلسل من المشاكل التي تواجه التقسيم الديكارتي إلى: العقل/ العالم، وذلك عن طريق وضع مصدر واحد لكليهما. (كان ديكارت نفسه تقليدياً بما فيه الكفاية لافتراض الله مصدراً للمادة وامتداداتها، لكن كما ذكرت سابقاً، رفض الفلاسفة اللاحقون ذلك المصدر).

لم أزعج القارئ بالبرهان – مع ذكر تأكيدي على أن الفلاسفة التقليديين لم ينطلقوا من مسلَّمة انقسام العالم إلى: الفكر الفاعل/ الشيء المفعول به subject-object، ولكن نظراً لأهمية هذه النقطة فإنه من المناسب أن نعطي على الأقل مثالاً واحداً عليها.

تخبرنا «هيلاري آرمسترونغ» Hilary Armstrong أنه بالنسبة إلى أفلوطين Plotinus، العقل (مصطلح فنّيّ): «هو مستوى من الفكر الحَدْسِيّ الذي يتطابق مع

موضوعه ولا يراه خارجاً عنه بشكلٍ ما». يجب أن لا نستنتج من هذا التطابق بين العقل والمادة لدى أولئك الفلاسفة التقليديين أنهم كانوا عمياناً تجاه التمايز الواضح بينهما. من الواضح بداهةً أن حياتنا الداخلية (الباطنية) والعالم الذي نعيش فيه مختلفان عن بعضهما بنحو وآخر، ولكنهما ينشآن كلاهما من مصدر واحد مشترك. فكّر بحرف V المعكوس. قمة الحرف هي «الروح»، والذراعان اللذان ينزلان من القمة هما: الوعي (أو بنحو أكثر شمولاً: الإحساس والشعور)، والمادّة. وهذا المقطع من الكتاب يَتَتَبَّع العلاقة المتبادلة بينهما.



إذا لم يكن الوعي خاصيَّة منبثقة، ببساطة، من الحياة، كما يفترض العلم، بل هو بدلاً من ذلك اللمحة الأولية التي نمتلكها عن «الروح»، فعلينا أن نكفّ عن تضييع الوقت في محاولة شرح كيفية انبثاقها عن المادّة ونحوِّل انتباهنا بدلاً من ذلك نحو الوعي نفسه. إن الصورة التي تظهر على شاشة التلفزيون تعطينا مثالاً مشابهاً لما نجده عندما نتأمل في الوعي نفسه. يضيء التلفزيون شاشته، ويغيِّر الفيلم - الذي يتمّ عرضه من الفيديو الذي نشاهده - ذلك الضوء لكي ينتج أي واحدة من عددٍ لانهاية له من الصور. هذه الصور تماثل التصوّرات، والأحاسيس، والأحلام، والذكريات، والأفكار، والمشاعر التي نختبرها شعورياً وبوعيٍ والتي يمكن أن نعتبرها كلها «محتويات الوعي». أما الضوء نفسه، الذي بدونه لن تظهر أيّة صورة أبداً، فإنه يماثل الوعي الخالص ذاته. نعلم أنّ الصور التي تظهر على الشاشة تتكوّن من هذا الضوء، لكنّنا لا ننتبه عادةً إلى الضوء نفسه. إن انتباهنا كله ينشغل بالصور التي تظهر والقصص التي يتم إخبارنا بها. بنفس الطريقة تقريباً، نعرف أنّنا واعون، لكن عادة ما نكون منتبهين للتجارب المختلفة والأفكار والمشاعر التي يقدّمها ذلك الوعيُ لنا. إن الوعيَ ذاتَهُ، الوعي الخالص الصافي، من دون الصور التي تُفرَضُ عليه، هو

شيءٌ يشكّل ملكيّةً عامّةً نشترك فيها جميعاً. عندما نكتشف (من خلال تأمل النفس أو الاستبطان) هذا الوعيَ الصافي، يكون لدينا سبب قوي للاعتقاد بأن الذي أختبرُهُ وأحسُّ به مماثلٌ تماماً لما تختبره وتحسُّ به أنتَ في تلك الحالة. ومماثلٌ لما يختبره اللهُ أيضاً، ليس في الدرجة ولكن في النوع. ذلك أنه في ذلك المستوى، نحن نواجه ونختبر ماهيَّة الوعي في حدّ ذاته، أي إمكانية الاستقبال اللانهائية لأيّ محتوى يمكن أن يُفرَض عليه. إن لا نهائية ***وعينا*** هي إمكانية كمونيّة potential بينما وعيُ الله لا نهائيٌّ فعلاً actual - الله يعي كل إمكانية بنحو لا زمني - ولكن النقطة هنا هي أن "**وعينا**" في حد ذاته متطابق في الواقع لدينا جميعاً.

هذه هي الذراع اليُسرى، المفكِّرة الفاعلة Subject، لحرف V المعكوس. أما الذراع الهابطة اليُمنى فإنها تُمثِّل الروح التي تتفرع لتخلق "**الكون المادي**". وأداتها وواسطتها لعمل ذلك هي النور، أو كما يقول عُلماء الفيزياء، الفوتونات. (إذا حاولت أن أتحرك إلى ما يُمكن أن يوجد وراء الفوتونات أو خلفها أو تحتها - وهي استحالة محضة في حالتنا هذه - فإن هناك أرضاً محايدةً لا تخصُّ إنساناً تنفتح أمامنا حيث لا يعرف أحد حقاً ماذا يجري). الفوتونات مرحلةٌ انتقاليةٌ من الروح إلى المادة. لأن الفوتونات في حدّ ذاتها (كما رأينا في فصل النور) **شبه_ماديّة** فقط، في حين أنها تنتج أشياءَ مادية بالكامل. إن العُلماء يبذلون مُهَج أعينهم لمعرفة هوية **العنصر اللامادي للفوتون**. بالنسبة للمؤمنين بالدين، إنه «**الروح**».

لاحظ التشابه مع «**الوعي**» هنا. كلّ ما نراه نمطياً، بصرياً، هو النور المُغطّى بصورٍ ذات شكلٍ أو آخرَ. الفوتونات التي تضرب العصب البصري للعين تُعرف فقط من خلال الطاقة التي تحرّرُها، وهي الطاقة التي تولِّد لدينا الإحساس بالنور. بيد أنَّ ذلك النور، هو كيفية للعقل أو صفةٌ وخاصيَّةٌ له، لأننا، أُكرّر، لا نرى مُطلقاً الفوتونات، أي النور بالشكل الذي يسود به العالم الموضوعيّ (المادي). ولكن النور الذي نراه، والفوتونات في العالَم الماديّ ينشأان من نفس المصدر، ويحملان أثر ذلك المصدر - أي الروح - ضمنهما. وبشكلٍ يُشابه هذا إلى حدٍ ما، يرى التقليديون أن علم الفيزياء يُؤكّد مع سفر التكوين أنه في البدء

كان هناك نور[١]. و(كما رأينا أيضاً في فصل النور)، استمرّ وجود النور، لأن النور يشكّل أساس كل عملية في الطبيعة، حيثما كانت، وفي أي وقت كانت. كل تبادل للطاقة بين الذرات يشتمل على تبادل للفوتونات. كل تفاعل في العالم المادي يتم بواسطة النور؛ إن النور يتخلل كامل الكون ويربطه. كالعادة تَردُ إلى ذهني هنا عبارة مقتبسة، إذ يلاحظ عالم الفيزياء الذي تحوّل إلى فيلسوف ميتافيزيقي أي بيتر راسل Peter Russell أنّ: [[«الله نور». **الله قيل بأنه مطلق. وفي الفيزياء النور هو كذلك. الله كائنٌ وراء العالم الظاهر للمادة والشكل والحجم، ووراء المكان والزمان كليهما. وكذلك هو النور. لا يمكن أن يُعرف الله مباشرة، وكذلك النور بوصفه فوتونات لا يمكن أن يُعرف مباشرة أيضاً.**]].

عندما نُفكّر، ونحن في الجانب الدِّيني، بالقدّيس يوحنا الذي يحيل إلى: «النُّورُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي يُنِيرُ كُلَّ إِنْسَانٍ آتِياً إِلَى الْعَالَمِ. كَانَ فِي الْعَالَمِ وَكُوِّنَ الْعَالَمُ بِهِ وَلَمْ يَعْرِفْهُ الْعَالَمُ»[٢]. والكتاب التيبتي حول التحرير العظيم The Great Liberation الذي يحيل إلى: «النور النقي المتولّد ذاتياً للفراغ، الذي لم يولد أزلاً وأبداً، الذي يشعُّ مشرقاً ضمن العقل الخاص للشخص»، فإننا نجد الارتباط رائعاً. عززه بهذه الكلمة من التقليد الإسلامي: لقد اختبر أبو الحسين النوري النورَ «يلمع في الغيب، حَدَّقتُ فيه بشكل متواصل، حتى جاء الوقت الذي أصبحتُ فيه بكلّيّتي ذلك النور ذاته».

النهاية السعيدة HAPPY ENDING

في التباين بين الفضاءات الرحبة العظيمة والنفق، الذي تعرضنا له في النصف الأول من هذا الكتاب، أشرت إلى أن التصور الديني للعالَم يتطابق مع أكثر الحبكات القصصية والروائية نجاحاً، أي النهاية السعيدة التي تخرج من الصعوبات التي لا بد من مواجهتها والتغلُّب عليها. حتى الآن لم أعط محتوى تلك النهاية، لذلك آن الأوان أن أفعل ذلك.

(١) العبارة التي جاءت في بداية سفر التكوين تقول: ((وَقَالَ اللهُ: «لِيَكُنْ نُورٌ» فَكَانَ نُورٌ.)). ١/ ٣.

(٢) النص آية من إنجيل يوحنا: الإصحاح الأول/ ٩- ١٠.

في التصوّر العلميّ للعالَم، المادَّة - أساسُ العالم - لا يمكن تحطيمها؛ إنها تُغَيِّرُ شكلَها ولكنها لا تنعدم أبداً. وينطبق الأمر نفسه على الوعي حين يحل محل المادة بوصفه أساساً. أما كيف يتغيَّرُ الوعيُ عندما «يخلع لباس الجسم»، كما يقول الهندوس، فهذا هو المجهول الأكبر، ولكن شخصية "روث آن" Ruth Ann في كتاب «باربرا كينغسُولفر»[١] Barbara Kingsolver «الكتاب المقدس لغابة السم» Poisonwood Bible يشير نحو الإجابة الدينية. بعد أن ماتت طفلة في الكونغو اتخذت شكل ثعبان بتوافق مع الاعتقادات الكنغولية، وكانت، كثعبانٍ أخضر يتمدد على جذع شجرة، تراقب أمها وأختها اللتين عادتا بعد سنوات عديدة إلى أفريقيا بحثاً عن قبرها. الشيء الذي كانت تتمنى قوله لهما: «أصغيا! أن يكون الشخص ميتاً ليس أسوأ من أن يكون حياً، رغم أن الحالة الأولى مختلفة عن الثانية. يمكنكم أن تقولوا إن الرؤية كانت أكبر».

يتفق تشارلز تارت Charles Tart بروفيسور علم النفس في جامعة كاليفورنيا مع «روث آن». إن البروفيسور «تارت» أحد عالمين أكاديميين عرفتُهُما كرَّسا حياتهما المهنية كلها لدراسة الظواهر الخارقة (التي يتعذَّر تعليلُها علميّاً) paranormal manifestations مثل: **تجارب الوعي بقرب الموت، والتخاطر** (التيليباثي)[٢] Telepathy، **والاستبصار** clairvoyance (أي القدرة على رؤية كل ما هو واقع وراء نطاق البصر بالبصيرة الثاقبة)، **والاستشراف** precognition[٣] (أي توقع الأحداث واستشرافها قبل وقوعها، وتحقق الأمر)، **والسايكوكينيسيز** psychokenesis (أي تحريك الأشياء أو التأثير عليها بقوة العقل)، وجلسات **استحضار الأرواح**، ونحوها من الظواهر النفسية الملغزة، وسمعت

---

(١) باربرا كينغسُولفر Barbara Kingsolver كاتبة روائية وشاعرة أمريكية معاصرة ولدت عام ١٩٥٥. درست الموسيقا في البداية ثم تحولت إلى علم الأحياء فنالت الماجستير في علم الأحياء التطوري، لكنها اهتمت بعد ذلك بكتابة الروايات التي عالجت من خلالها قضايا سياسية متعاطفة فيها مع المظلومين والمحرومين ومع شعوب أمريكا اللاتينية المقهورين، ونالت رواياتها شهرة كبيرة، كما صدر لها ديوان شعري.

(٢) التخاطر Telepathy: اتصال عقل بآخر بطريقة ما خارجة عن النطاق العاديّ أو السّويّ.

(٣) الاستشراف precognition ويسمَّى أيضا بـ (بُعْد النظر) أي تمكّن المرء من معرفة الأحداث قبل وقوعها.

شخصاً يسأله إذا كان يعتقد أن وعيه سوف يبقى حيّاً رغم موت جسمه، فقال: **إنه على يقين تام بذلك**، ولكنه لا يملك فكرة عما إذا كان سيتعرف على ذلك الوعي بوصفه وعيه الخاص. والدين كذلك يعلّم أن الإنسان بعد موته يكون واعياً بذاته عارفاً بمن كان ومن هو الآن، ويضيف أن عمل الإنسان لا يكون مكتملاً بعد عند تلك النقطة (بل هناك حسابٌ وجزاءٌ وحياةٌ أخرويةٌ سيتحمّل فيها آثار ونتائج أعماله في هذه الدنيا). أما الأديان التي تعلّم عقيدة التناسخ[1] فإنها تعتقد أن الروح تعود إلى الأرض، لتكمّل هنا في هذه الأرض، عملها الذي لم ينته بعد. (يستثنى من ذلك أرواح الجيفاموكتاس jivamuktas التي أنجزت التحرُّر والانعتاق وهي لا تزال متجسدة في هذا العالم لكن أولئك نادرون جداً). كم عدد الدورات المطلوبة لإكمال جدول أعمال الحياة؟ هذا يعتمد على مقدار براعة النفس في التعلُّم من دروس الحياة.

أما بديل «التناسخ» فإنه عقيدةٌ تحدّد مكان إكمال ما تبقى على المرء أن يمر به، في عالم مختلف من الوجود. تتفق الأديان الإبراهيمية في بيانها لهذا الأمر، هذا على الرغم من أن اليهودية، والمسيحية، والإسلام تتضمن بعض الأقليات أو الشيع قليلة الأتباع التي تقول أيضا بعقيدة التناسخ، وكمثال واحد على ذلك، نجد جلال الدين الرومي يقول: «متّ كمعدن وأصبحت خضرةً. ومتّ كخضرة وأصبحت حيواناً. ومتّ حيواناً وأصبحت إنساناً. متى كنت أقلُّ (أصبح أقلّ) بالموت؟». والتبتيون يدعون المكان الذي (في النسخة الغربية الرسمية) يتم فيه تصفية الحسابات المتبقية بـ «باردو» a bardo. و«**المطهر**»[2]

---

(١) التناسخ أو تقمّص الأرواح reincarnation: هو الاعتقاد بأن الروح تتقمص جسداً جديداً بعد موت جسدها السابق، وهذا الاعتقاد جزء أساسي من عقيدة كل ديانات الهند كالهندوسية والبوذية والجينية وغيرها.

(٢) المَطْهَر: Purgatory مرحلة ومكان بين الجنة والنار يُعَذَّب فيه لفترة محدودة بعض المستحقين للعذاب من الذين لم تصل نفوسهم إلى درجة النقاء الكامل، لأجل أن تتطهَّر نفوسهم، ثم يسمح لهم بعد ذلك بدخول الجنة، وهي عقيدة اختصت بها الكنيسة الكاثوليكية انطلاقاً من إيمانها العميق برحمة الله البالغة وشفقته الشاملة بالخلق فكان المطهر حتى لا يبقى الكثيرون ممن استحقوا العذاب في العذاب الأبدي إلى ما لا نهاية.

Purgatory هو أحد الأسماء لمثل هذا المكان بين الغربيين، كما يسمى ذلك المكان بالجحيم أو جهنَّم أيضاً (وهو مفهوم سأعود إليه عن قريب).

أما بالنسبة إلى العمل الباقي، فهو "التطهير" الذي يجب أن يتمّ قبل أن تتمكن الروح من الدخول إلى دار النقاء الكامل الذي أطلقت عليه أسماء مختلفة مثل: الأرض الطاهرة النقيَّة، أراضي الصيد السعيدة، الفردوس، جنة النعيم، الجنة الغربية، وأسماء أخرى. النار تُذكَر نموذجياً بوصفها وسيلة التطهير. بعض الروايات تأخذ الكلمة حرفياً بينما يستخدمها آخرون مجازياً. يتضمّن القرآن كلتا القراءتين. لكن القراءة الحرفية هي التي تسيطر أكثر؛ بيد أنَّ الصوفيين يلجؤون إلى الآية التي تقول: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُوراً. اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ سورة الإسراء / ١٣-١٤، ويقولون إن الشيء الذي يزيله الموت هو التبريرات والتسويغات التي تخدم النفس والدفاعات الأنانية عن الذات. عندما تذهب تلك التبريرات الكاذبة، تُجْبَر الرُّوح على أن ترى بكل موضوعية كيف عاشت حياتها. وفي الضوء الشديد الواضح الذي لا مساومة فيه لهذه الرؤية، حيث لا يسمح بأي تعتيم أو زوايا مخفية، تنهض أعمال الإنسان ذاته لتتهمه أو تصدِّقه. عندما يتم إخراج النفس من عالم أكاذيب خداع النفس، تصبح التزيفات التي كانت النفس تتسلّح بها مثل لهب النيران، والحياة التي عاشتها هناك مثل قميص "نيسُّوس"[1] Nessus.

عندما تُفْهَم «النار» على أنها محطَّة للتطهير يخرج منها الإنسان عندما يتمّ تطهيره، فإنها تتفق مع المفاهيم التي ذُكِرَت أعلاه حول الـ «باردو» و«المطهر» وأضيف الآن «جهنَّم» أو «الجحيم» بوصفها مسكناً مؤقّتاً. أما الإدانة الأبديّة فهي مسألةٌ أخرى، وسأقاربها بواسطة حكاية.

---

(١) كائن أسْطوري يوناني نصفه الأعلى رأس وذراعا وصدر إنسان، ونصف الأسفل جسم حصان بدءاً من الرقبة وحتى الذيل. ولم يتضح لي ما هي قصة قميص ((نيسّوس)) ولكن المعنى المقصود مفهوم من السياق حيث يقصد المؤلف أن أعمال الإنسان ذاتها هي التي ستتجسم أمامه وتتحول نيراناً تحرقه وتعذبه.

كان ذلك عام ١٩٦٤، وكنت أستفيد من إجازة فصلٍ دراسيٍّ لمتابعة أبحاثي ودراساتي في الهند. وكنت حينها أتحاور مع عددٍ من المعلّمين الهندوس الذين دعتني شهرتهم إلى أن أصعد مرتفعات جبال الهيمالايا حيث كانوا يعيشون، عندما ظهر أمام البيت الشعبي الذي كنت أقطنه هناك شخصٌ مميَّزٌ جداً جعلني أعتقد للحظة ما أنني أمام شبح! كان طويل القامة لابساً قميصاً أبيضَ طويلاً، وذا لحية وافرة كاملة، إنه كان الآب «لازاروس» المبشِّر من الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، الذي أمضى العشرين سنة الأخيرة من حياته في الهند. بعد عشر دقائق من التعارف نسيتُ معلِّميَّ الهندوس كاملاً - فقد كان الأب لازاروس أكثر أهميَّةً وإثارةً لي منهم - ورافقته لمدّة أسبوع كامل كنا نطوف خلاله على أقدامنا تلال الهيمالايا، متحدّثين باستمرار ودون توقُّف.

بيت القصيد في روايتي لهذه القصة هو إحدى الحوارات التي جرت بيننا خلال ذلك الأسبوع. أخبرته أنني وجدتُ نفسي منجذباً بقوّة نحو الهندوسية بسبب عقيدتها بالخلاص الشامل لكل النّاس. كل إنسان سيخلص في نهاية المطاف. أما بديل تلك العقيدة، أي عقيدة الدينونة والعذاب الأبدي فإنها كانت تصدمني بوصفها عقيدة مخيفة بشعة لم أستطع تقبُّلها.

أجابني الأخ «لازاروس» بإطلاعي على وجهة نظره حول هذه المسألة. لقد استند في وجهة نظره الخاصة هذه إلى رسالة بولس الثانية إلى أهالي كورنثوس التي يخبر فيها القدِّيس بولس بأنه: «يَعْرِفُ إِنْسَاناً فِي الْمَسِيحِ، خُطِفَ إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ قَبْلَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً: أَكَانَ ذَلِكَ بِجَسَدِهِ؟ لاَ أَعْلَمُ؛ أَمْ كَانَ بِغَيْرِ جَسَدِهِ؟ لاَ أَعْلَمُ. اللهُ يَعْلَمُ! وَأَنَا أَعْرِفُ أَنَّ هَذَا الإِنْسَانَ، أَبِجَسَدِهِ أَمْ بِغَيْرِ جَسَدِهِ؟ لاَ أَعْلَمُ؛ اللهُ يَعْلَمُ؛ قَدْ خُطِفَ إِلَى الْفِرْدَوْسِ، حَيْثُ سَمِعَ أُمُوراً مُدْهِشَةً تَفُوقُ الْوَصْفَ وَلاَ يَحِقُّ لإِنْسَانٍ أَنْ يَنْطِقَ بِهَا.»[1]. وكان الآب

---

(١) انظر كتاب العهد الجديد: رسالة بولس الثانية إلى أهالي كورنثوس: الإصحاح ١٢/ ٢-٤.

لازاروس مقتنعاً أن بولس إنما يتكلّم في هذه الرؤية عن نفسه[١]، وأن السرَّ الذي أُخْبِرَ به في السماء الثالثة كان أنه في النهاية كل شخصٍ سيخلُصُ. وقال: أعتقد أن هذه هي حقيقة القضيَّة، ولكن يجب عدم إذاعتها لأن الجهلة ربما يعتبرونها رخصةً لإسقاطهم المسؤولية واستباحتهم عمل كل شيء و لسان حالهم يقول: إذا كان الكل سيخلص في النهاية فلماذا يزعجون أنفسهم بعمل الصالحات وكف النفس عن الآثام والخطايا؟؟ ذلك التفسير حلَّ مشكلتي وثبتُّ عليه منذ ذلك الوقت. وبعد عدَّة سنوات سررت لما وجدتُ أن الصوفيين أيضاً يؤكِّدون تلك العقيدة عندما يقبلون - بصمت و هدوء مماثل - بالمعنى الظاهري الحرفي للآية التي تقول أن كل شيء سيعود في النهاية إلى الله: «. . **كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ**»[٢].

ويتلو هذا النقاش الباطني/ الظاهري حول ما إذا كنا جميعاً سنخلص في النهاية أم لا، نقاش آخر هو أننا، في نهاية رحلتنا الوجودية، هل سنذوب ونفنى في الألوهية، أم سنتمتع بالتجلي السعيد للذات الإلـهية ونعيمها؟ الموحِّدون يتبنَّون الموقف الثاني، في حين يتبنَّى الصوفيّون الموقف الأول. أما «راماكريشنا» الذي كان يمتلك عبقرية اعتناق كلا طرفي المعضلات، ويشعر شعور كلا الجانبين نفسه، فقد أعلن في إحدى تصريحاته التوحيدية المنحى: «أريد أن أتذوق السكّر؛ لا أريد أن أكون السكَّر نفسه». أما الاستعارة التي يستخدمها البديل الصوفي فهي قولهم: «تنزلق قطرة الندى إلى البحر المشرق».

لما أعطى الأب «لازاروس» نفسَه الحق بأن يكون له رأيه الخاص حول عقيدة دينية لاهوتية هامَّة جداً، فإنه بالتأكيد لن يحرمني من حقِّي أيضاً أن أمارس ضميري الخاص حول عقيدة أخرى، هي التالية:

---

(١) يمكن فهم ذلك من بداية النص المذكور فقد جاء في بداية كلام بولس: ((**وَلَكِنْ سَأَنْتَقِلُ إِلَى مَا كَشَفَهُ لِيَ الرَّبُّ مِنْ رُؤًى وَإِعْلاَنَاتٍ: أَعْرِفُ إِنْسَاناً فِي الْمَسِيحِ، خُطِفَ إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ**. . الخ القصة.)).

(٢) سورة الأنبياء/ آية ٩٣. ويشابهها في هذا المعنى عدة آيات أخرى كقوله تعالى: ((. . وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ)) سورة هود/ (١٢٣)، وقوله كذلك: ((إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى)) سورة العلق / (٨)، وقوله سبحانه: ((. . إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ)) سورة البقرة / ١٥٦.

أعتقد أننا سيُسْمَح لنا بالاختيار بين البديلين اللذين أشرت إليهما للتوّ. وألجأ هنا ثانيةً إلى ما يشبه القصّة إذ أبيِّن من خلالها تصوُّري لما ستكون عليه الأمور، وسأبينها باستخدامي ضمير المتكلِّم. إن السيناريو الواضح تماماً الذي أتصوّره هو التالي:

بعد أن أسقط لباس الجسم (أي بالموت)، سأستمر بوعيي بالحياة التي عشتها والناس الذين بقوا على الأرض. بيد أنه عاجلاً أم آجلاً سيحين وقتٌ لا يبقى فيه إنسانٌ حيٌّ سمع بـ «هوستن سميث» ناهيك عن أن يكون قد عرفه، عندئذ لن يبقى أيُّ داعٍ لاستمراري في التجوال والتسكُّع في هذا العالم، عند ذاك سأردِّدُ وداعَ «كريسوستوم» Chrysostom الذي قال فيه: «شكراً لكلّ شيء؛ والحمد، الحمد لها كلّها»، وعندئذ سأولّي ظهري كوكب الأرض، وأتجه إلى ما هو أكثر أهمّيّةً، التمتع بنعمة التجلي الإلهي المبهج السعيد. طالما استمررتُ في انشغالي بفرديّتي سأحتفظ بوعيي بأنني «هوستن سميث» الذي يتمتّع بتلك الرؤية شديدة السعادة والبهجة. وطالما رغبت بمواصلة ذلك الوعي، فسيتاح لي ذلك. ومع ذلك، بالنسبة لي - ولكوني صوفياً بطبيعتي ومزاجي وليس بسعيي أو ببلوغي لهذا المقام - وبعد التذبذب ذهاباً وإيّاباً بين التمتّع بالغروب والتمتّع بهيوستن سميث الذي يتمتّع بالغروب، أتوقّع أن أجد الغروب نفسه أكثر جذباً وشداً، وعندئذ سيكون الخيط قد انقطع والطير قد أصبح حرّاً طليقاً.

الخاتمة

ربما.. ما زلنا إخوةً أشقّاء

في منتصف كتابه «حقيقة غاندي» *Gandhi's Truth*، يقطع إريك إيريكسون Erik Erikson دراسته التحليلية النفسية للـ «مهاتما غاندي» بفصلٍ مختلفٍ في نوعه عن بقيّة فصول الكتاب، فصلٌ قصيرٌ عنوانُهُ «كلمةٌ شخصيّةٌ». أخذ الفصل شكل رسالة موجَّهة لغاندي كما لو أنه ما يزال حياً. التحية التي بدأ فيها رسالته: مهاتماجي (أي: يا أيتها الروح الكبيرة المبجّلة) وهي تحيَّةٌ تعكس مدى التقدير العميق الذي يكنُّه إريكسون لغاندي، ولكن إريكسون يبين عند ذلك أنه يريد أن يُخبر غاندي، شخصياً على انفراد، إذا جاز التعبير، أنه في النصف الثاني من كتابه سيلفت الانتباه إلى بعض العيوب في شخصية غاندي التي يعتقد إيريكسون أن منهجه التحليلي النفسي مكّنه من اكتشافها. وقال إنه واثقٌ تماماً أن غاندي لو كان حيّاً لطلب منه أن يعلمه بتلك العيوب التي وجدها فيه، فلا يوجد شخص وهب حياته كلَّها للحقيقة، بنحوٍ أكثر ثباتاً، مما فعله غاندي.

إن الحساسية التي اتبعها إيريكسون لدى مقاربته الناقدة، تجعل رسالته نموذجاً لهذه الخاتمة، التي سيلاحظ من يقرأ عنوانها أنها اقتباس من خطاب رئيس ولاية سياتل الأكثر شهرةً. بعد أن نقلتُ عبارة إيريكسون أمضي في كلامي كما يلي:

أيها العلماء المحترمون، وأيها المحافظون على الثقافة العالية. لكن دعني أتوقف هنا لأن التحية جاءت فقيرة في عباراتها. يجب أن أقول في تحيتي: «أيها المحافظون المحترمون على ثقافتنا العالية الذين قُذف في وسطهم بحفنة من الماديين العلميين الانفعاليين»، وذلك لأن أغلبية العلماء مواطنون حسّاسون ومتسامحون يعاملون الدِّين باحترام، تماماً كما تعامل الغالبية العظمى من المتديِّنين العلمَ باحترام أيضاً. الماديون العلميُّون المتعصِّبون يشكِّلون استثناءً بين العلماء، تماماً كما يشكِّل المتعصِّبون المتزمِّتون استثناءً بين عامّة المتديِّنين، ولكن بما أن ذلك الصنف من العلماء يحرِّك الأشياء ويثير اللغط، وبما أن أجهزة الإعلام تحب الإثارة والمعارك الحامية، فإن عددهم وأهميتهم يبدوان مبالغاً بهما دائماً. لذا سأعيد صياغة تحيتي وأوجِّه «رسالتي» عموماً لكهنة ثقافتنا العالية بينما أستهدف بوضوح شرذمة العلماء المقاتلين الذين يريدون أن يعوِّضوا بحماسهم الانفعالي ما ينقصهم من حيث العَدَد. بهذا التصحيح سأبدأ كلامي مباشرةً:

أيها الخصوم المحترمون، أودّ أن أقترح ما هو مطلوب من العلماء المقاتلين إذا أرادت تلك القوّتان الكبيرتان المشكلتان للتاريخ أن تضما أيديهما إلى بعضهما في القرن القادم.

بالطبع، كما يحدث في العائلة المتفككة التي تسعى لإعادة لمّ الشمل وإعادة المياه إلى مجاريها، سيستغرق الأمر وقتاً، ولكن كخطوة في هذا الاتجاه، أقترح أن تحاولوا أن تفهموا من أين جئنا نحن المؤمنين؟.

إن المجادلين العنيفين الانفعاليين من بينكم لا يحسنون صنعاً بجدلهم الانفعالي ذاك. إنَّ رف الكتب الخاصة بالعلم من وجهة نظر العلمانيين - في مكتبتي - لا يقل طولاً عن رف الكتب الخاصَّة بكلِّ دينٍ من أديان العالم الكبرى، ولكن سيفاجئني جداً أن تقولوا أنتم الشيء نفسه عن مكتباتكم[1].

---

(١) أي أنه يتحداهم أن تضم مكتباتهم كتباً عن الدين، بمقدار امتلاكهم للكتب العلمية، مع أن المفروض أن يكونوا قد اطلعوا على حقائق الدين جيداً وبكل أمانة، قبل أن يتنكروا له ويهاجموه.

إن انتقاداتكم القياسية للدين كثيرا ما تبدو أشبه بقصائد هجو تعاليم مدرسة الأحد للصف الثالث، التي تجعلني أرغب بسؤالكم متى قرأتم آخر مرَّة بحثاً دينياً لاهوتياً وماذا كان عنوانه؟

العظماء بينكم فعلوا أفضل منكم بهذا الخصوص. ثلاثية «شرودينغر» Schrodinger للكتب الصغيرة لعامّة الناس انتهت باللازمة (العبارة المتكرِّرة) المدويَّة التي لا لبس فيها المستقاة من كتاب الأوبانيشادات Upanishads والتي تقول: «الآتمان هو البراهمان». أثنى «نايل بور» Niels Bohr على كتابات «سورين كيير كيغارد» Soren Kierkegaard مغازلاً عقيدته حوله التمامية complementarity. وقرأ «روبرت أوبنهايمر» Robert Oppenheimer «البهاغافاد غيتا» Bhagavad Gita باللغة السنسكريتية (الأمر الذي ليس بمقدوري فعله) واقتبس منها أبياتاً عندما انفجرت القنبلة الذرّية الأولى في نيو مكسيكو. وكان كلٌّ من «ويرنر هيسنبرغ» Werner Heisenberg و«آرثر كومبتون» Arthur Compto مشعلين رائدين في المؤتمر حول العلم والمسؤولية الإنسانية الذي عقدته جامعة واشنطن في الخمسينات، وخصَّص برنامج صباح الأحد للعبادة والصلاة إلى الله.

الأمر الذي أشعر أنكم لا تفهمونه، هو: لماذا نحن - شركاءكم المحتملين - مصرُّون جداً على قضيتنا وثابتون فيها إلى هذه الدرجة؟. أنتم تحفظون عن ظهر قلب الأسباب المَرَضيَّة لفعلنا ذلك، ولكن الشرط الأول الذي لا بد منه لحلّ النزاعات هو أن يحاول كل طرف أن يفهم الشخص الآخر الذي هو على الطرف المقابل لطاولة المفاوضات، كما هو في أحسن أحواله. نحن في أفضل أحوالنا نبدو ممتلكين إحساساً تفتقدونه وتفتقرون إليه وسأطلق عليه اسم «الإحساس والشعور الديني» وسأحاول وصفه فيما يلي:

إذا أردنا الإفصاح عن ذلك بأبسط عبارة ممكنة، قلنا إنه حتى يكون الإنسان دينياً «ذا أذن موسيقية» (كما عبَّر "ماكس ويبر" أنه ليس كذلك) ينبغي أن يمتلك حساسيَّةً وشعوراً

سأسميه «الإحساس أو الشعور الديني». هذا الإحساس يتكون من اجتماع أربعة أجزاء تتحد مع بعضها لتولد تلك الأذن الموسيقية الدينية إذا صح التعبير.

١- يدرك الشعور الدينيّ غريزياً أن الأسئلة النهائية التي يريد البشر معرفتها - مثل: ما معنى الوجود؟ لماذا يوجد الألم والموت؟ في النهاية ما الذي يجعل الحياة تستأهل أن نعيشها؟ ما هي الحقيقة، ما موضوعها وهدفها؟ - تشكّل في الواقع الجوهر الحاسم والحقيقي لإنسانيّتنا. إنها ليست مجرّد تأمّلات وتخمينات غير موزونة (غير قابل للوزن بدقّة) يتقدّم بعض ذوي النزعة الفضولية من الناس للبحث عنها بعد أن اهتمُّوا بالعمل الجدّي لاستخراج استراتيجيات للبقاء، بل هي الأمور الحاسمة لما يجعل الإنسان إنساناً. إن هذا التعريف الديني لماهية الإنسان أعمق بكثير من تعريف أرسطو له بأنه «حيوان ناطق أو حيوان عاقل». في التعريف الديني للإنسان: الإنسان هو الحيوان الذي يقوده عقله للسؤال والبحث عن تلك الموضوعات النهائية التي ذكرناها آنفاً. إن دخول هذه الأسئلة إلى وعينا هو الذي يخبرنا بغاية الدقَّة وبنحوٍ حاسمٍ أي نوع من المخلوقات نحن. إن إنسانيتنا تزدهر كلما غصنا وانغمسنا في هذه الأسئلة - نتأمّلها، نفكّر بها، تصبح هاجسنا، وفي النهاية نسمح لهذا الهاجس والهوس أن يستهلكنا.

٢- تبعاً لما ذُكِرَ أعلاه يتولّد في الإحساس الدِّيني إدراكٌ مستميتٌ وأحياناً مخيفٌ للمسافة الكبيرة بين تلك الأسئلة وأجوبتها. ومع زيادة ضرورة واستعجال تلك الأسئلة، نرى بنحوٍ حاسمٍ ومنذرٍ بالخطر محدوديّتنا التي تُقْصِي كلَّ إمكانيَّة للإجابة على تلك الأسئلة.

٣- ولكن رغم ذلك، فإن اليقين بأن تلك الأسئلة لها أجوبة، لا يهتزُّ أبداً، الأمر الذي يمنعنا من التخلي عن تلك الأسئلة. رغم أن الأجوبة النهائية يستحيل إدراكها، إلا أنه يمكننا أن نتقدَّم نحوها كلَّما تقدَّمنا نحو آفاقٍ تنحسر مع كلّ خطوة من خطواتنا. في خطواتنا المتعثِّرة نحو الأفق، نحتاج إلى كلّ مساعدةٍ يمكننا الحصول عليها، لذلك نتتلمذ في مدرسة ملايين الباحثين الآخرين الذين تأملوا سابقاً تلك الأسئلة. أنتم العلماء تتعلمون أيضاً ممن

سبقكم ؛ وقد عبَّر «إسحق نيوتن» عن ذلك بكل صدقٍ ونزاهةٍ عندما قال : إن السبب في كونه يرى إلى مسافة أبعد مما كان يراه أسلافه هو أنه يقف على أكتافهم . ولكنه من الأسهل في العلم أن نرى ما يجب الاحتفاظ به ، وما يجب التخلُّص منه ، لأنّ الحقائق العلميَّة تراكميَّةٌ في حين أن الحقيقة الدينية ليست كذلك . وهذا يتطلَّب منَّا أن نواصل استشارتنا ومحاورتنا لماضينا بكل جدِّيَة (كما حاول هذا الكتاب أن يفعل) ، بينما نتحاور بكل توقع مع حاضرنا (كما حاول هذا الكتاب أيضاً أن يفعل) . اعتاد «كارل بارث» Karl Barth القول : «إنه يستقبل كل يوم من أيام حياته بالكتاب المقدس بيد وصحيفة الصباح في اليد الأخرى» .

٤ - أخيراً نحن نقوم ببحثنا مع بعضنا على نحوٍ جماعيٍّ ، في مؤتمرات وفي تجمُّعات كما تفعلون أنتم في مختبراتكم وفي أوساطكم الاحترافية . اعتقدَ إميل دوركهايم Emile Durckheim ، عالم الاجتماع في القرن التاسع عشر ، أن الدين شأن اجتماعيٌّ كليّاً ، أي هو نوع من عملية تحويل القيم المجرَّدة المشتركة للقبيلة إلى دين ملموس . اليوم يقترب مجتمعنا الذي سيطرت عليه الفردانيّة من افتراض العكس تماماً ، إذ يرى أن الدِّين بتمامه شأن فرديٌّ محضٌ . ينتقد «تشارلز تيلور» كتاب «وليم جيمز» William James «تنوعات التجربة الدينية» The Varieties of Religious Experience بسبب هذه النقطة بالذات . وكالعادة سار «بوذا» في طريق متوسط بينهما : «كونوا مصابيح لأنفسكم» ، بالتأكيد ، ولكن لا ننسى الوصية بالسانغها (مجتمع الأخويات الرهبانية البوذية ، وامتدادها أي شركة المقَدَّس) الذي يشكل إحدى جواهر البوذية الثلاثة .

٥ - في محاولتي لوصف الشعور الديني يمضي ذهني إلى الوراء ، إلى ليلة ليلاء شعرت فيها بشيء يعتمل في داخلي بقوة استثنائيَّة . كنَّا أنا وزوجتي نمضي أسبوعاً في وسط الشتاء في وادي الموت ، في كاليفورنيا ، وفي ليلة مقمرة ببدر تام ، استيقظت حوالي الثانية صباحا على وقع نداء بدا وكأنه يأتي من الليل نفسه ، نداء آسر قويّ إلى درجة كان فيها مسموعاً تقريباً ، فأسرعت إلى بعض ملابسي وأجبت النداء ، وعندما خرجت خارج المنزل ، رأيت كل شيء

ساكناً تماماً ولا توجد حتى نسمة ريحٍ ، ولم تكن في السماء أية غيوم تخفي أبّهة النجوم الصاعدة من الأفق الدائريّ. كانت إحدى الليالي الساحرة واللحظات الفاتنة تماماً. ومشيت في الطريق لمدة نصف ساعة أو نحو ذلك ، دون أن يكون في ذهني أو في رأسي أيّة فكرة (كما أتذكّر لحظات التجلي تلك). ربّما كنت في أقرب حالة إلى العقل الفارغ تماماً الذي سعى بوذا سنوات عديدة للوصول إليه. قوى الوصف والتصوير لديّ انعدمت وانطفأت. لذا كنت سعيداً بعد سنة أو سنتين لاحقتين عندما وقعت على القصيدة التالية لـ «جياكومو ليوباردي» Giacomo Leopardi التي قرأتها فشعرت وكأنها تصف بكلمات معبّرة تلك الليلة التي تحدثتُ عنها. في تلك القصيدة يطرح راعٍ بدويٌّ في آسيا أسئلةً على القمر الذي كان يبدو أنه يسيطر على لا نهائية الأرض والسماء، أسئلة أفقها بحد ذاته لا نهائي :

And when I gaze upon you,	وعندما حدَّقْتُ صوبكَ،
Who mutely stand above the desert plains	الذي يقف صامتاً فوق سهول البادية
Which heaven with its far circle but confines,	والذي السماء بدائرتها البعيدة ولكن المحدودة،
Or often, when I see you	أو غالباً، عندما أراك
Following step by step my flock and me,	تتابعني أنا وقطيعي خطوةً خطوةً،
Or watch the stars that shine there in the sky,	أو أراقب النجوم التي تشعّ هناك في السماء،
Musing, I say within me:	متأمّلاً ومستغرقاً في التفكير، وأقول في نفسي:
"Wherefore those many lights,	لماذا كل تلك المصابيح،
That boundless atmosphere,	وذلك الفضاء الذي لا حدود له،
And infinite calm sky? And what the meaning	وتلك السماء التي لا نهاية لها؟ وما معنى
Of this vast solitude? And what am I?	تلك البادية الواسعة المترامية الأطراف؟ وما أنا؟؟

أ

المؤلف 'هوستن سميث' في سطور:

ولد هوستن سميث HUSTON SMITH عـام ١٩١٩ في مدينـة "سوشـوو" Soochow في الصين لعائلة بروتستانتية ميثودية Methodist أمريكية حيث كان أبواه قسيسين يعملان في التبشير في الصين. شكلّت طفولته في الصين الخلفية المناسبة لاهتمامه اللاحق بالفلسفات والأديان العالمية. عاد مع أسرته لوطنه الولايات المتحدة في سن الخامسة عشرة ليكمّل دراسته هناك وينال في نهايتها درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة شيكاغو عام ١٩٤٥، ويصبح أستاذاً محاضراً في الفلسفة وعلم الأديان في عددٍ من الجامعات الأمريكية هي على الترتيب: جامعة واشنطن، ثـم معهد ماساتشوسيت للتكنولوجيا Massachusetts Institute of Technology، ثم جامعة سيراكيوز Syracuse في مدينة سيراكيوز (ولاية نيويورك)، وأخيراً جامعة بيركلي Berkeley في سان فرانسيسكو (ولاية كاليفورنيا).

اشتهر في الخمسينات والستينات من القرن الماضي في أمريكا بإنتاجه لعددٍ من الحلقات التلفزيونية العلمية الوثائقية، أهمها: سلسلة: **"أديان الإنسان"**، و**"العلم والمسؤولية الإنسانية"** و**"البحث عن أمريكا"**، علاوة على إنتاجه عدداً من **الأفلام الوثائقية** عن **"الهندوسية"** و**"بوذية التِّبت"** و**"الصوفية"** نالت جوائز عالمية.

رغم بقائه مسيحياً بروتستانتياً على المذهب الميثودي (المنهجي)، إلا أنه كان يبدي في أكثر من مناسبة تحفّظه على عدد من الأفكار اللاهوتية المسيحية الكنسية الرسمية، وإعجابه الشديد بحكمة الشرق، وقد رحل إلى الشرق، لا سيما إلى الهند واليابان أكثر من مرَّة وتتلمذ فترةً على أحد كبار أحبار الهندوسية، كما سلك مدَّةً على يد أحد معلمي بوذية الزن.

كان المؤلف يعرب عن رفضه الشديد لفكرة انحصارية النجاة في المسيحية التي تتردَّد كثيراً في أوساط البروتستانتية، معتبراً إياها جهلاً ذريعاً بحقيقة أديان العالم الكبرى وما تتضمنه من عمقٍ روحيٍّ أصيلٍ، إذ كان يرى أنها جميعاً طرقٌ مختلفةٌ توصل لنفس الحقيقة

المطلقة وتحقّق خلاص الإنسان ونجاته إن سار على نهجها بإخلاص، لأن جوهرَها النهائيَّ واحدٌ يتلخّص في **أن يعامل الإنسان الآخرين بالمحبة والعدل والإحسان، تماماً كما يجب أن يعاملوه كذلك**. وقد ذكرت حوارات أجريت معه أنه **منذ ٢٦ سنة يصلي باللغة العربية خمس مرات في اليوم**، كما أنه **يمارس اليوغا كل يوم صباحاً** هذا مع استمراره بروتستانتياً ميثودياً!. وعندما سئل عن ذلك أجاب مستعيراً التشبيه التالي: ((**وجباتي الأساسية هي المسيحية ولكنني أؤمن جداً بضرورة إضافة الفيتامينات المقوية وهي التي آخذها من أديان العالم المختلفة كالبوذية والكونفوشية والهندوسية والإسلام واليهودية، والطاوية والديانة الأمريكية البدائية (للهنود الحمر)**)).

ألَّف عدداً من الكتب تتمحور كلها حول توضيح أهمية الدين وأن الله حقيقة حتمية علمية وأن عالم الروح حقٌّ، وتؤكِّد على أهمية الجانب الروحي وأصالته في الإنسان، وأنَّ الدينَ ضرورةٌ حاسمةٌ في حياة البشر، وتركِّز على بيان روح حكمة أديان العالم وفلسفتها وجوهرها المشترك، ومخاطر عصر العلم والحداثة في ابتعاده عن الإيمان وخوائه الروحي الذي أغرق الغرب في نفق المادية المظلم وسجن الفردانية والأنانية التعيس.

تزوَّج من إي. كندرا سميث (دكتورة في علم النفس) وأنجب منها ثلاث بنات.

أهم كتبه عدا كتابه الحالي الذي هو آخر تأليفاته:

- ***The Religions of Man*** **"أديان الإنسان"** الذي نشره لأول مرة عام ١٩٥٨م. ثم أعاد نشره عدة مرات وغير اسمه إلى ***The World's Religions*** أي **"أديان العالم"**، وطبعه مرات عديدة حيث زاد عدد النسخ المبيعة منه عن مليوني نسخة في أنحاء العالم، كما ترجم إلى اثنتي عشرة لغة من لغات العالم الحية. وقد ترجمته إلى العربية وطبعته ونشرته قبل هذا الكتاب الحالي.
- ***The Forgotten Truth****: The Commomn Vision of the World's Religions* **"الحقيقة المنسية: الرؤية المشتركة لأديان العالم"**.
- ***Beyond The Post-Modern Mind*** **"وراء عقل ما بعد الحداثة"**.

المُتَرْجِم: سعد رستم في سطور

أستاذ باحث ومترجم، من حلب/ سوريا، متخصِّص بالدراسات الإسلامية ومقارنة الأديان.

بدأ دراسته الجامعية بدراسة الطب البشري عام ١٩٧٦ في جامعة حلب، لكنه تحول عن دراسة الطب إلى دراسة العلوم الإسلامية، فذهب إلى إيران ودرس العلوم الدينية الأساسية (١٩٨١-١٩٨٥) ثم انتقل إلى الدراسة الجامعية الأكاديمية في باكستان من عام ١٩٨٥ وحتى ١٩٩٢ حيث نال البكالوريوس ثم الماجستير في الدراسات الإسلامية من جامعة البنجاب/ لاهور (١٩٨٧ و١٩٨٩)، ثم الماجستير في التفسير والحديث من الجامعة الإسلامية العالمية / إسلام آباد (١٩٩٠)، **وأخيرا ماجستير فلسفة (.M. Phil) بالدراسات الإسلامية وطرق البحث** بدرجة ممتاز مع الشرف، من جامعة العلامة إقبال المفتوحة في إسلام آباد (١٩٩٢).

يتقن أربع لغات هي: الفرنسية والإنجليزية والفارسية والأُردية مع إلمام بسيط بالتركية. عمل بالصحافة فترة ثم درَّس العلوم الدينية لعقد ونصف، ويدَرِّس حاليا اللغةَ الفارسيةَ في معهد اللغات في جامعة حلب، وقد اتجه للتأليف والترجمة منذ عدة سنوات، فصدر له عدة مؤلفات بقلمه بالإضافة لعدد من الكتب ترجمها عن الإنجليزية أوالفارسية.

يركز في مؤلفاته على العرض الموضوعي والمنصف للدين، والتجرُّد للحق والحقيقة، وبيان الوجه المشرق الحقيقي للإسلام والصورة الصحيحة للدين بعيداً عن الجمود والتقليد والمغالاة والتعصب، مع الانفتاح على جميع المذاهب الإسلامية والمدارس الفقهية والكلامية وأخذ ما صفى منها وترك ما كدر.

يمكن لمن أراد مراسلته على بريده الإلكتروني: saadrstm@scs-net.org

مؤلفات أخرى صَدَرَت للمترجم سعد رستم:

١. **الذات الإلــهية والمجازات القرآنية والنبوية** - إزالة شبهة التشبيه والتجسيم من أساسها-، دار الأوائل: دمشق ٢٠٠٢.

٢. **التوحيد في الأناجيل الأربعة ورسائل القديسين بولس ويوحنّا**، دار الأوائل: دمشق ٢٠٠٢.

٣. **المسيحية وأساطير التجسُّد في الشرق الأدنى القديم (اليونان - سورية - مصر)** تأليف: دانييل باسوك. (ترجمة عن الإنجليزية)، دار الأوائل: دمشق ٢٠٠٢.

٤. **حل الاختلاف بين الشيعة والسنة في مسألة الإمامة**، تأليف: مصطفى الحسيني الطباطبائي. (ترجمة عن الفارسية)، دار الأوائل: دمشق ٢٠٠٢.

٥. **أمريكا - إسرائيل و١١ أيلول ٢٠٠١** ، تأليف: ديفيد ديوك، (ترجمة عن الإنجليزية)، دار الأوائل: دمشق ٢٠٠٢.

٦. **مناقب آل سيدنا محمد ﷺ علي وفاطمة والحسن والحسين**، دار القلم العربي: حلب، ٢٠٠٣

٧. **علي والخلفاء دروس وعبر**، دار الكوثر: دمشق ٢٠٠٣.

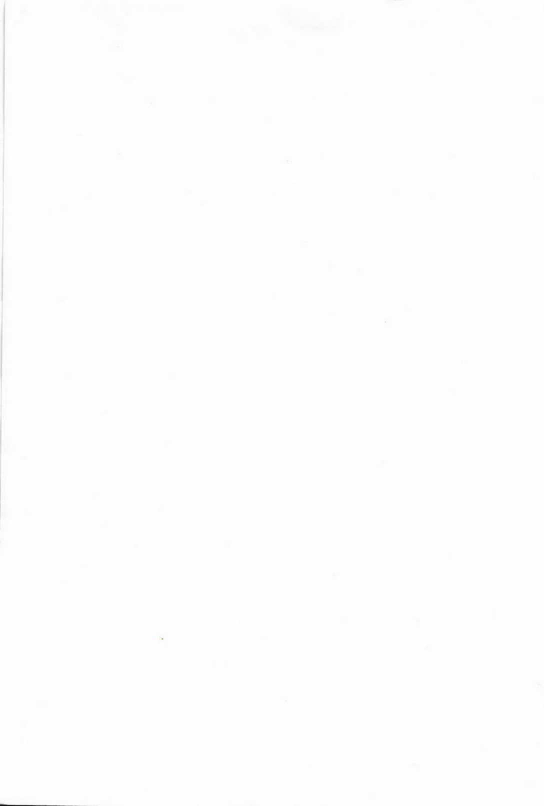
٨. **الفرق والمذاهب الإسلامية منذ البدايات** النشأة - التاريخ - العقيدة - التوزع الجغرافي، دار الأوائل: دمشق ٢٠٠٣

٩. **الفرق والمذاهب المسيحية منذ ظهور الإسلام حتى اليوم**، دار الأوائل: دمشق ٢٠٠٤

١٠. **أديان العالم** الهندوسية - البوذية - الكونفوشية - الطاوية - اليهودية - المسيحية - الإسلام - الأديان البدائية (دراسة روحية معمقة لأديان العالم الكبرى توضح فلسفة تعاليمها وجواهر حكمتها) تأليف د. هوستن سميث، (ترجمة عن الإنجليزية)، دار الجسور الثقافية: حلب ٢٠٠٥

١١. **التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها** رؤية جديدة لإسرائيل القديمة وأصول نصوصها المقدسة على ضوء اكتشافات علم الآثار، تأليف: د. إسرائيل فنكلشتاين ونيل إشر سيلبرمان. (ترجمة عن الإنجليزية)، دار الأوائل: دمشق ٢٠٠٥.

الفهرس



WHY RELIGION MATTERS

THE FATE OF THE HUMAN SPIRIT IN AN AGE OF DISBELIEF

Huston Smith

HarperSan Francisco

البروفيسور والناسك الروحي الأمريكي د هوستن سميث

المرجع العلمي البارز على مستوى العالم في موضوع «أديان العالم»

ومؤلف كتاب «*أديان العالم*» الأكثر رواجاً ومبيعاً

يناقش الأزمة الروحية الحاضرة لإنسان عصر الحداثة

في هذه الدراسة النقدية يناقش البروفيسور الأمريكي الصوفي المشرب والدكتور في الفلسفة ((هوستن سميث)) - أستاذ الفلسفة وعلم الأديان في عدة جامعات أمريكية وصاحب كتاب ((أديان العالم)) The World's Religions الرائع والأكثر رواجاً - الأزمة الروحية الحاضرة لإنسان عصر الحداثة وما بعدها، ويقدّم لنا دراسة نقديّة فلسفيّة واجتماعيّة وعلم - نفسيّة وتاريخيّة تشرح ملامح تلك الأزمة وما أنتجته من تصور ماديّ للعالم يقلّص وجود الإنسان ويحرمه من كل أبعاده الروحية وما يتبع ذلك من اختناق روحي وفقدان للأمل وسيطرة للمادية والفردية والاستهلاكيّة والعَلْمويّة والأنظمة القانونية المتنكّرة للقيَم الدينيّة والسياسات الحكومية المجرّدة من المبادئ الأخلاقيّة (خاصّة في وطنه الولايات المتحدة الأمريكية زعيمة الحضارة الغربيّة) مشبهاً ذلك ''**بنفق مظلم**'' حُبِسَ فيه إنسان الحداثة الفاقد للإيمان.

ويتتبع المؤلف - في الجزء الأول من الكتاب - الأسس الفكرية والفلسفية التي يستند إليها هذا المفهوم العلمي المادي للعالَم فيفنّدها تفنيداً علمياً غايةً في الموضوعية، ليقدّم في الجزء الثاني من الكتاب مؤيّدات التصوُّر الديني للعالَم من خلال عدة فصول يطرح فيها معلومات علميّة وفلسفيّة غاية في الروعة تدعم الإيمان بالله وبالروح وببقاء الوعي والحياة الشعورية بعد الموت، موضحاً القاسم المشترك بين أديان العالم الكبرى في هذا الصدد، داعياً في مطلع الألفية الثالثة إلى مجتمع تُحْتَرم فيه الروح الإنسانية وتُشجَّع لاستثمار إمكانياتها الرائعة كاملةً، وتلتقي فيه القوّتان الأقوى في التاريخ (الدّين والعلم) ليحلّا خلافاتهما ويرسيا أصول التعاون والعلاقة المتبادلة بينهما، ويستمرُّ فيه الدّين بلعب دوره الذي لا غنى للبشرية عنه، بوصفه المصدر الحيوي الزاخر للحكمة الإنسانية، والبوصلة الأخلاقية التي يجب أن تقود مسيرة حياتنا.

دار الجسور الثقافية